الضوء المنير على التفسير

المجلد الأول

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده
علي الحمد المحمد الصالحي

من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
المعروف بابن قيم الجوزية
رحمه الله تعالى

الناشر
مؤسسة النور للطباعة والتجليد
بالتعاون مع
مكتبة دار السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الضَّوْءُ المُنِيرُ
عَلَى
التَّفْسِيرِ

الناشر

مؤسسة النور للطباعة والتجليد

هاتف:٤١١٨٨٧٤ ، فاكس:٤١١٤١٩١

دخنة ـ شارع الشيخ محمد بن إبراهيم

عنيزة-هاتف و فاكس: ٣٦٦٤١٠٤٠ (٠٦)

بالتعاون مع

مكتبة دارالسلام

الرياض-شارع الضباب-هاتف:٤٠٣٣٩٦٢ ،فاكس:٤٠٢١٦٦٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لجامعه: علي بن حمد بن محمد الصالحي

الحمد لله حمدًا كثيرًا كما يحبه ويرضاه، على فضله وكرمه وجزيل عطاياه، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي اختاره واصطفاه. والذي أرسله بكتابه المبين رحمة للعالمين. وعلى آله وأصحابه وأتباعه السائرين على هديه إلى يوم الدين.

وبعد: فقد رأيت أن أذكر لك أخي سبب اعتناقي لهذا العمل وما لي فيه من الصنع؛ راجيًا من الله أن ينفعني وإياك بها علمنا إنه جواد كريم.

ذلك بعد أن هداني الله لقراءة كتاب (مفتاح دار السعادة) لشمس الدين ابن القيم، رحمه الله، فراقني ما احتوى عليه من الفوائد المنوعة. وما أشبهه بجنة حَوَتْ جميع أنواع الفواكه والثمرات، ثم أعدت قراءته مرة ثانية فزادت رغبتي فيه: فرأيتني مشدودًا بالرغبة لقراءة بقية كتبه الموجودة. فكان ذلك والحمدلله.

ثم رأيت أن أكشف عن ناحية من هذا الكنز المدفون والفلك المشحون بأنواع العلوم والفنون، فأرشدني الله بهدايته إلى قسم التفسير فسرت في جمعه وقت فراغي عدة سنين، حرصًا على الإفادة والاستفادة. ولم أتمكن من استيعاب ما طرقه الشيخ من فن التفسير ولكني قاربت.

وقد صرفت النظر عن التكرار وعن مقارعة الشيخ للمبتدعة، إلا ما رأيت فيه كبير فائدة: كذلك صرفت النظر عن ترجمة الشيخ اختصارًا للوقت حيث قد تناولتها الأقلام قديمًا وحديثًا.

ثم: اعلم أخي أنه بمراجعتي لكتب الشيخ، رحمه الله، وجزاه عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء، تبين لي أنه يحيل على مؤلفات لم تكن موجودة في محيطنا، وقد حاولت البحث عنها فلم أعثر على شيء منها سوى (كتاب السماع) وقد طبع والحمد لله.

وقد بحثت مع طائفة من علمائنا المعاصرين وعلى رأسهم شيخنا (عبدالعزيز ابن عبدالله بن باز) فاتفق رأيهم على أن هذه الكتب لو كانت موجودة لوصلت إلينا عينًا أو خبرًا.

ويقوي هذا أن فهارس مكتبات العالم وصلت إلينا ولم تذكر شيئًا عنها.

ويقوي هذا أيضًا أنه في وقت متقدم وجدت طائفة تبحث عن مؤلفات الشيخ فتشتريها؛ وتحرقها؛ خشية انتشارها، في وقت كان الاعتماد على المخطوطات في تدوين العلوم.

ومهما يكن فأنا أذكر لك حسب ما ظهر لي من قرائتي لكتب الشيخ، رحمه الله، أنه يحيل على الكتاب بعدة أسماء بها يقارب اسمه أو موطن كتابته نسيانًا منه لما سماه به؛ لتزاحم الواردات عليه مما يحيط به هو وشيخه في عصرهما من خصومهما بدليل ما يلي:

ذكر في (مفتاح دار السعادة) في صحيفة ٤٧ من المطبوعة ما نصه: «وسميته (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة) إذ كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح الله بها عليّ حين انقطاعي عند بيته» إلى آخر ما ذكره مما يشير إلى مضمون (مفتاح دار السعادة) ومما يشير أيضًا إلى (روضة المحبين) في سطور. والشيخ، رحمه الله، أحال على أسماء كتب توحي بهذه الألفاظ لأنه ألفه بمكة.

وتوضيحاً لما ذكرته: فقد أحال في كتابه (بدائع الفوائد) ص٦٢ ج ٢ في بحثه على قول الله تعالى: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾. [البقرة:١٤٦]. ثم قال: وقد بسطنا هذا في كتابنا (التحفة المكية) وذكرنا فيها من الأسرار والفوائد ما لا يكاد يشتمل عليه مصنف.

وبالرجوع إلى كتاب المفتاح ص١٠٢ و١٠٣ و١٠٤ ج١؛ نجد البحث موسعًا فيه الفائدة التامة حول هذه الآية وغيرها مما يدور حول مخاطبة الله لأهل الكتاب.

ومن ذلك: أحال في كتاب (بدائع الفوائد) أيضًا ص١١٩ ج١ بقوله: وقد قررت هذا المعنى وبينت شواهده من القرآن... وكونه على الصراط المستقيم الخ.. في كتاب (التحفة المكية) اهـ. وقد بحثه في المفتاح ص٧٩ ج٢.

ومن ذلك أحال في البدائع أيضًا صحيفة ١٣٧ ج٤ في بحثه على الحكمة في خلق الله آدم على كتابه (التحفة المكية)، وذكر أنه ذكر من الحكم قريبًا من أربعين حكمة وهي موجودة في أول المفتاح متوالية.

وبحثها أيضًا بإيجاز في (شفاء العليل) ص٢٤١ في الوجه السابع والعشرين. وأحال في البدائع ص٢١٥ ج٢ على (الفوائد المكية)، وينطبق على ما

في المفتاح ص١٠٢ وص١٠٣ وص١٠٤ ج١ وهنا سماه (الفوائد المكية) وسبق قريبًا أنه سماه (التحفة المكية). **ومن** ذلك أحال في كتابه (مدارج السالكين) ص٤٩٠ ج٣ ولفظه: وقد ذكرنا هذه المسألة في كتاب (مفتاح دار السعادة) وذكرنا هناك نحوًا من ستين وجهًا تبطل قول من نفى التقبيح العقلي إلى آخر ما ذكر. وقد ذكر هذا في المفتاح ص٦٢ ج٢ حتى ص١١٠ وقبلها ذكر مقدمة مطولة ثم ذكرها واحدًا وستين وجهًا قال في آخرها: فهذه مجامع طرق العالم إلى آخر كلامه.

ثم إننا نجده أحال في المدارج ص٢٣ ج١ ولفظه: (وقد بيّنا بطلان هذا المذهب من ستين وجهًا في كتابنا المسمى (تحفة النازلين)، وأشبعنا الكلام في هذه المسألة هناك. وذكرنا جميع ما احتج به أرباب هذا المذهب وبيّنا بطلانه. والبحث في مسألة التحسين والتقبيح التي مرّت بك قريبًا.

وهناك إحالات كثيرة لم يتسن لي تطبيقها بوضوح لكنها في رأيي - والحقيقة يعلمها الله - أنها ترجع إلى كتاب المفتاح وهي إحالات. باسم (الفتح المكي)، و(التحفة المكية)، و(تحفة النازلين)، و(الأمالي المكية)، و(الفوائد المكية).

وأيضا فهناك إحالات باسم (الفتوحات القدسية) في مشاهد الخلق في مواقعة الذنب، وأخرى بنفس البحث باسم (سفر الهجرتين)، يترجح عندي أنها تنطبق على (سفر الهجرتين)، وعلى (مفتاح دار السعادة).

ومن ذلك أحال في (الجواب الكافي) رقم ٤٥ على كتاب (أيمان القرآن) عند قول الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾. [الحاقة: ٣٨، ٣٩].

وأحال فيه أيضًا رقم ٢٧٣ ولفظه: وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به في كتاب (أقسام القرآن). **علما** بأن هذا الكتاب يسمى (التبيان في أقسام القرآن) وهذا الكتاب لم يُبدأ بمقدمة ولم يرتب على نسق سور القرآن، فلعله جزء من كتاب. فهذه ثلاثة أسماء الظاهر أنها على مسمى واحد.

وأيضا ذكر في كتاب المفتاح حكم داود وسليمان عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. وذكر أنه رجح الحكم السليماني من وجوه في كتابه (الاجتهاد والتقليد). وبمراجعتي لـ (أعلام الموقعين) وجدت البحث في فصل مستقل طبقًا للعناصر التي ذكرها في المفتاح ص٣٢٦ج١. ثم إني رجعت إلى مقدمة الأعلام فلم

أجد المؤلف سماه بأي اسم. فلا أدري كيف التوفيق؟ بينما ذكره في المفتاح وبين ما اشتهر بين الناس من تسميته بـ (أعلام الموقعين). وتمر على إحالات باسم (المعالم) يظهر لي أنها تنطبق على (أعلام الموقعين). من ذلك ما ذكره في (إغاثة اللهفان) ص٢٢ ج١ إحالة على كتاب (المعالم) وذلك في أسرار المثلين المائي والناري، والشيخ قد بحث المثلين وغيرهما من أمثال القرآن في (أعلام الموقعين) بتوسع، وبعضها في (اجتماع الجيوش الإسلامية).

ومن الغريب أن البعض نقل هذه الأمثال حرفيًّا وجعلها كتابًا مستقلاً، وتناقلها الناس ظنًّا منهم أنها تأليف مستقل. ونقل البعض أيضًا من (بدائع الفوائد) تفسير المعوذتين وطبعت مستقلة.

ونقل البعض أيضًا من (إغاثة اللهفان) رسالة سماها: «الزيارة الشرعية والزيارة الشركية» وبما ذكرت كان لي شبه اقتناع أن الشيخ يحيل بما في ذاكرته أو قريبًا منها دون الرجوع إلى ما كتبه. ويمكن أن يكون بعض هذه الكتب مأخوذة من كتبه التي لم تصل إلينا، أو أن أحدًا تصرف في تسميتها غيره بعد وفاته أو قبلها، لأنه كان مسجونًا مع شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية حتى توفي الشيخ، رحمه الله.

وبما ذكرته ألقيت عصا الترحال، وأقمت للشيخ العذر لما عرفته من واقع حياته التي تغلي بالمشاكل مع خصومه وخصوم شيخه، أضف إلى ذلك ما هو مهتم به من الكتابة وإيجاد البحوث ومقارعة الخصوم دون مراجعة ما يكتبه أملاً أن يمدّ الله في عمره ويراجع ما كتب. **يؤيد** ذلك أن له تمنيات في كتابة بحوث لم يتمكن منها أو لم تصل إلينا. وله بحوث في (زاد المعاد) وإحالات على مواضع لم توجد، والظاهر أن هذا الكتاب من آخر ما كتب.

وأعتقد اعتقادًا قويًّا أن المشاكل ومقارعة الخصوم الحاقدين والحاسدين، حالت دون مراجعة ما كتب. وأنسته الأسماء المطابقة لواقع ما سماها به.

زد على ذلك أنه سُجن تبعًا لشيخه ولا تخفى حالة السجين. وزد على ذلك أنه كان يكتب في السفر والحضر، وغير خافٍ ظروف الأسفار في وقته.

ففي هذه الأحوال يُعذر ويشكر على ما بذله من جهد في البحث والتأليف المثمر، فجزاه الله خير الجزاء وضاعف له المثوبة والعطاء.

والذي يهمني من هذا التقديم أن محبِّي ما أُثر عن الشيخ يصرفون النظر عن المفقود، ويمعنون في الموجود. ويأخذ كل واحد منهم بنصيب، لأن كتابات الشيخ كنوز تنتظر من يكشف عنها.

ففيها بحوث التوحيد والتفسير، والحديث، والفقه، وبحوث القواعد المنوعة، والطب والسلوك، وغير ذلك من الفنون.

فنرجو الله أن يهيء لها من شباب الإسلام من يعتني بها لتمام الانتفاع بها، إنه كريم جواد. **ثم** اعلم - أيها القارىء الكريم - أن ما جمعته ينقصه الربط في بعض المواضع. وذلك بسبب أني التزمت أن لا أدخل فيما جمعته غير كلام المؤلف، رحمه الله، إلا ما نقله هو عن غيره وهو نادر جدًّا. وقد أبحت لنفسي الحذف والاختصار حسبما رأيته.

وقد تُلْجِؤني الضرورة نادرًا إلى إيضاح ضروري أضعه بين قوسين مثل إيضاح إشارة، أو ضمير يعودان إلى ما تقدم. ثم اعلم أن من سبقني من جمع تفسير الشيخ لم يفِ بالغرض. فحاولت رأب الصدع بجهدي ولا أدعي الإحاطة وقد تم بحمد الله ما قصدت.

ثم اعلم أيضًا أنه كان بودي أن أعود إلى مراجعة كتب الشيخ، ولكن شمس الحياة قد شارفت على الغروب، راجيًا من الله أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم، مقربًا لرضوانه وإلى جنات النعيم. ثم إني أرجو منك دعوة صالحة بظهر الغيب تعود عليك. كما أرجو منك الإرشاد لما تراه من خلل.

كما أني أرجو منك أخي القارىء أن تنظر إليه بعين الرضا والتغاضي، لأن التسامح من شيم الكرام. وأعوذ بالله من شر كل حاسد أو مغالط أو غامط. وقد سميت هذا المجموع: «الضوء المنير على التفسير».

أخي القارىء ستجد أول البحث إن كان له سابق (. . .) وستجد في آخره (. . .) إن كان له بقية في الأصل الذي نقل منه. وستجد في الحاشية رقم الصحيفة، ورقم الجزء إن كان الكتاب ذا أجزاء.

وستجد بعض الإرشادات والإحالات على البحث، إن كان له بقية، لأنه ليس من هدفي نقل جميع ما كتبه الشيخ خشية التطويل وإملال القراء. والإحالة كفيلة برغبة القارىء.

وستجد بعض التعليقات، فإن كانت من الأصول المأخوذ عنها فسأبقيها على ما هي عليه، وإن كان لي شيء منها ذكرت في آخره (ج) رمزًا لي. ولا يفوتني أن أذكر لك ـ أخي الكريم ـ أن الأرقام للصفحات والأجزاء تنطبق على الطبعات التي نقلتُ منها، وها أنا أذكر لك أسماء الطبعات وأسماء الكتب التي نقلتُ منها، وما نقلته من غير ما ذكرته هنا أحيل عليه في موضعه.

	اسم الكتاب	عدد مجلداته	إيضاحات
١	إغاثة اللهفان	٢	دار المعرفة ـ بيروت.
٢	أحكام أهل الذمة	٢	دار العلم للملايين.
٣	أعلام الموقعين	٤	مطبعة السعادة.
٤	التبيان في أقسام القرآن	١	طباعة دار الإفتاء.
٥	الجواب الكافي	١	طبعه الشيخ عبدالظاهر أبوالسمح
٦	جلاء الإفهام	١	دار الطباعة المحمدية.
٧	تحفة المودود	١	المطبعة الهندية على نفقة علي بن ثاني.
٨	حادي الأرواح	١	طبع على نفقة الشيخ قاسم بن ثاني.
٩	شفاء العليل	١	المطبعة الحسينية.
١٠	الفوائد	١	طبع على نفقة عمر بن عبدالجبار.
١١	بدائع الفوائد	٢	المطبعة المنيرية.
١٢	الفروسية	١	مطبعة الأنوار.
١٣	زاد المعاد	٤	مطبعة السنة المحمدية.
١٤	روضة المحبين	١	طبع على نفقة الملك عبدالعزيز.
١٥	الروح	١	الطبعة الثالثة، مطبعة الإدارة.
١٦	طريق الهجرتين	١	طبع على نفقة محمد الصالح.
١٧	كتاب الصلاة	١	الطبعة الخامسة لدار الإفتاء.
١٨	المنار المنيف	١	تحقيق الشيخ عبدالفتاح أبي غدة.
١٩	مختصر الصواعق	١	طباعة دار الإفتاء.

٢٠ مفتاح دار السعادة	١	دار الكتب العلمية
٢١ مدارج السالكين	٣	مطبعة السنة المحمدية .
٢٢ عدة الصابريـــن	١	المطبعة السلفية بمصر .
٢٣ الطرق الحُكْمِيّـة	١	مطبعة السنة المحمدية .
٢٤ اجتماع الجيوش الإسلامية	١	مطبعة الإمام .
٢٥ تهذيب مختصر أبي داود	٨	مطبعة السُنة المحمدية .
٢٦ هدايـة الحيــارى	١	مؤسسة مكة للطباعة .

وهناك كتب أخرى ذكرها بعض المترجمين للشيخ ابن القيم .

منها: كتاب (أخبار النساء) منسوبًا إلى الشيخ ابن القيّم ، فالله يكافىء من نسبه إليه ، ولم يَذكر أحد من المحققين أنه له .

ومنها:(أمثال القرآن) ، وقد نوهنا عنه أنه منقول من أعلام الموقعين حرفيًّا .

ومنها: (إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان) ، ولم آخذ منه .

وذكر بعض المترجمين أن له كتبًا أخرى لم نعرف وجودها . وقد نوهنا عن رأينا عنها فيما سبق .

وختاما نرجو الله أن ينفعنا بما علمنا وأن لا يجعله وبالاً علينا ، كما نرجو الله أن يرد المسلمين إليه ردًّا جميلاً ، وأن يهدي ولاتهم لتحكيم كتابـه وسنة نبيه . والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وعلى من سار على هديه إلى يوم الدين .

الجامـــــع :

علي الحمد المحمد الصالحي

مقدمة في آداب قراءة القرآن

فصــل(١)

في هديه ﷺ في قراءة القرآن واستماعه وخشوعه، وبكائه عند قراءته واستماعه، وتحسين صوته به، وتوابع ذلك.

كان له ﷺ حزب يقرؤه ولا يُخلّ به. وكانت قراءته ترتيلاً، لا هذًّا ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفًا حرفًا. وكان يُقطع قراءته آية آية. وكان يمد عند حروف المد، فيمد «الرحمنٰ» ويمد «الرحيم».

وكان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في أول قراءته، فيقول: «أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرَّجيم» وربما كان يقول: «اللهُمَّ إني أعوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجيم: من هَمْزِه، ونفْخِه، ونَفْثه» وكان تعوُّذه قبل القراءة. وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره. وأَمَر عبدالله بن مسعود فقرأ عليه وهو يسمع.

وخشع ﷺ لسماع القرآن منه حتى ذرفت عيناه.

وكان يقرأ القرآن قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا، ومتوضئًا ومُحْدثًا، ولم يكن يمنعه من قراءته إلا الجنابة. **وكان** ﷺ يتغنَّى به، ويرجِّع صوته به أحيانًا، كما رجَّع يوم الفتح في قراءته ﴿**إنَّافتحنا لَكَ فتحًا مُبينًا**﴾. [الفتح: ١].

وحكى عبدالله بن مغفل ترجيعه «آاآ» ثلاث مرات، ذكره البخاري.

وإذا جَمْعتَ هذه الأحاديث إلى قوله: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم» وقوله: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن».

وقوله: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن».

علمت أن هذا الترجيع منه ﷺ كان اختيارًا، لا اضطرارًا لهز الناقة له، فإن هذا لو كان لأجل هز الناقة لما كان داخلاً تحت الاختيار، فلم يكن عبدالله بن مغفل يحكيه، ويفعله اختيارًا ليؤتسى به، وهو يرى هز الراحلة له، حتى ينقطع صوته ثم يقول: «كان يرجع في قراءته» فنسب الترجيع إلى فعله. ولو كان من هز الراحلة لم يكن منه فعل يسمى ترجيعًا.

---

(١) ٢٧٧ زاد المعاد جـ١.

وقد استمع ليلة لقراءة أبي موسى الأشعري، فلما أخبره بذلك قال: «لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبَّرته لك تحبيرًا» أي: حسنته وزينته بصوتي تزيينًا.

وروى أبوداود في سننه عن عبدالجبار بن الورد قال: سمعت ابن أبي مُلَيكة يقول: قال عبدالله بن أبي يزيد: «مر بنا أبولبابة فاتبعناه حتى دخل بيته، فإذا رجل رث الهيئة، فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يُحسِّنه ما استطاع». [1]

[2] **وكان** ﷺ يقطع قراءته، ويقف عند كل آية، فيقول: «الحمدُ لله ربِّ العَالمينَ» ويقف «الرَّحمنِ الرَّحيم» ويقف «مَالِكِ يوم الدينَ».

وذكر الزهري: أن قراءة رسول الله ﷺ كانت آية آية، وهذا هو الأفضل، الوقوف على رءوس الآيات، وإن تعلقت بما بعدها.

وذهب بعض القراء إلى تتبع الأغراض والمقاصد، والوقوف عند انتهائها. واتّباعُ هدي النبي ﷺ وسنتِه أَوْلى. وممن ذكر ذلك البيهقي في شعب الإيمان وغيره، فإنه يرجح الوقوف على رءوس الآي، وإن تعلقت بما بعدها. وكان ﷺ يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها، وقام بآية يرددها حتى الصباح[3].

وقد اختلف الناس في الأفضل من الترتيل وقلة القراءة، أو السرعة، مع كثرة القراءة: أيهما أفضل؟ على قولين.. فذهب ابن مسعود وابن عباس وغيرهما: إلى أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها.

واحتج أرباب هذا القول بأن المقصود من القرآن فهمه وتدبره، والفقه فيه والعمل به، وتلاوته وحفظة وسيلة إلى معانيه.

كما قال بعض السلف «نزل القرآن ليُعمل به» فاتَّخذوا تلاوته عملاً.

ولهذا كان أهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بمافيه، وإن لم يحفظوه عن

---

(١) بحث المؤلف رحمه الله قراءة الألحان هنا في زاد المعاد وفصل فيها تفصيلاً كاملاً بدءًا من ص ٢٧٨ - إلى ص٢٨٥ جـ١ فمن أراده فليرجع إليه. ج.

(٢) ١٨٢ زاد المعاد جـ١.

(٣) روى النسائي عن جسرة بنت دجاجة عن أبي ذر قال: قام النبي، ﷺ، بآية حتى أصبح، والآية: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [المائدة:١١٨].

ظهر قلب. وأما من حفظه ولم يفهمه، ولم يعمل بما فيه: فليس من أهله، وإن أقام حروفه إقامة السهم.

قالوا: ولأن الإيمان أفضل الأعمال، وفهم القرآن وتدبره: هو الذي يثمر الإيمان.

وأما مجرد التلاوة من غير فهم ولا تدبر، فيفعلها البر والفاجر، والمؤمن والمنافق، كما قال النبي ﷺ: «ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن: كمثل الريحانة، ريحها طيّب، وطعمها مُر». والناس في هذا أربع طبقات: أهل القرآن والإيمان، وهم أفضل الناس.

الثانية: مَن عدم القرآن والإيمان. الثالثة: من أُوتي قرآنا ولم يؤتَ إيمانًا.

الرابعة: من أوتي إيمانًا ولم يؤت قرآنًا.

قالوا: فكما أن من أوتي إيمانًا بلا قرآن أفضل ممن أوتي قرآنًا بلا إيمان، فكذلك من أوتي تدبرًا وفهمًا في التلاوة أفضل ممن أوتي كثرة قراءة وسرعتها بلا تدبر.

قالوا: وهذا هدي النبي ﷺ فإنه كان يرتل السورة، حتى تكون أطول من أطول منها وقام بآية حتى الصباح.

وقال أصحاب الشافعي: كثرة القراءة أفضل، واحتجوا بحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول آلم، حرف. ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» رواه الترمذي وصححه.

قالوا: ولأن عثمان بن عفان رضي الله عنه قرأ القرآن في ركعة، وذكروا آثارًا عن كثير من السلف في كثرة القراءة.

والصواب في المسألة أن يقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجلّ وأرفع قدرًا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددًا.

فالأول: كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبداً قيمته نفيسة جدًا.

والثاني: كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عددًا من العبيد قيمتهم رخيصة. **وفي** صحيح البخاري عن قتادة قال: «سألت أَنَسًا عن قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كان يمد مدًا».

وقال شعبة: حدثنا أبو جمرة قال: قلت لابن عباس «إني رجل سريع القراءة،

وربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين؟ فقال ابن عباس: لأن أقرأ سورة واحدة أعجب إليَّ من أن أفعل ذلك الذي تفعل، فإن كنت فاعلاً ولابد، فاقرأ قراءة تُسْمِع أذنيك، ويَعيها قلبك».

وقال إبراهيم: قرأ علقمة على ابن مسعود، وكان حسن الصوت، فقال «رتِّل فداك أبي وأمي، فإنه زين القرآن».

وقال ابن مسعود: «لا تهذُّوا القرآن هذَّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدَّقل، وقِفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هَمّ أحدكم آخر السورة».

وقال عبدالله أيضًا: «إذا سمعت الله يقول ﴿ياأيها الَّذين آمنوا﴾ فأصغ لها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تصرف عنه»...

وكان رسول الله ﷺ يُسِرُّ بالقرآن في صلاة الليل تارة، ويجهر بها تارة، ويطيل القيام تارة، ويخففه تارة، ويوتر آخر الليل، وهو الأكثر وأوله تارة وأوسطه تارة.

فصـــل(١)

وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه. وجمع الفكر على تدبره وتعقله. وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر.

قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أنزَلناهُ إليكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِه. وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الألبَاب﴾. [ص: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَفلا يَتدبَّرُون القُرآنَ، أَم عَلَى قُلُوبٍ أقفَالُها﴾. [محمد: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَم يَدَّبَّرُوا القَول﴾. [المؤمنون: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿إنَّا جَعَلنَاهُ قُرآنًا عربيًّا لَعَلَّكُم تعقِلُون﴾. [الزخرف: ٣].

وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن، وإطالة التأمل. وجمع الفكر فيه على معاني آياته. فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما. وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلُّ في يده(٢) مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة.

وتثبت قواعد الإيمان في قلبه. وتشيد بنيانه. وتوطد أركانه. وتريه صورة الدنيا

---

(١) ٤٥١ مدارج جـ١.

(٢) تل الشيء في يده ـ بالمثناة المفتوحة ـ وضعه فيها.

والآخرة، والجنة والنار في قلبه **وتحضره** بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم. وتُبَصِّرُه مواقع العبر وتشهده عدل الله وفضله.

وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، ومايحبه ومايبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها.

وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها.

وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم. ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه. وافتراقهم فيما يفترقون فيه. . .

(١)وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب حبيبًا كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه.

فصل(٢) في هديه ﷺ في سجود القرآن

كان ﷺ إذا مر بسجدة كبَّر، وسجد، وربما قال في سجوده «سجد وجهي للذي خلَقَه وصوَّره، وشقَّ سمعه وبصره بحوله وقوته» وربما قال: «اللهم احطط عني بها وزرًا، واكتب لي بها أجرًا، واجعلها لي عندك ذُخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود» ذكرهما أهل السنن، ولم يذكر عنه: أنه كان يكبر للرفع من هذا السجود. ولذلك لم يذكره الخرقي ومتقدمو الأصحاب، ولا نقل فيه عنه تشهد ولا سلام ألبتة. وأنكر أحمد والشافعي السلام فيه، فالمنصوص عن الشافعي: أنه لا تشهد فيه ولا تسليم، وقال أحمد: أما التسليم فلا أدري ما هو؟ وهذا هو الصواب الذي لا ينبغي غيره.

وصح عنه ﷺ أنه سجد في ﴿**الم تنزيل**﴾ وفي ﴿**صَ**﴾ وفي ﴿**النجم**﴾ وفي ﴿**إذا السماء انشقت**﴾ وفي ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾ وذكر أبوداود عن عمرو بن العاص «أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة: منها ثلاث في المفصّل، وفي سورة الحج سجدتان» وأما حديث أبي الدرداء: «سجدت مع رسول الله ﷺ إحدى عشرة سجدة، ليس فيها من المفصل شيء: الأعراف، والرعد، والنحل،

---

(١) ٢٢٣ الجواب الكافي.	(٢) ٩٧ زاد المعاد جـ١.

وبني إسرائيل، ومـريم، والحج، وسجدة الفرقان، والنمل، والسجدة، وص، وسجدة الحواميم» فقال أبوداود: رُوِي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «إحدى عشرة سجدة» وإسناده واهٍ.

وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ لم يسجد في المفصل منذ تحول إلى المدينة» رواه أبو داود: فهو حديث ضعيف؛ في إسناده أبو قدامة الحارث بن عبيد، لا يحتج بحديثه، قال الإمام أحمد: أبو قدامة مضطرب الحديث. وقال يحيى بن معين: ضعيف. وقال النسائي: صدوق عنده مناكير. وقال أبوحاتم البُستي: كان شيخًا صالحًا ممن كثر وهْمه. وعلله ابن القطان بمطر الوراق. وقال :كان يشبهه في سوء الحفظ محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى، وعِيبَ على مسلم إخراج حديثه. انتهى كلامه. ولا عيب على مسلم في إخراج حديثه؛ لأنه ينتقي من أحاديث هذا الضرب ما يعلم أنه حفظه، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه. فغلط في هذا المقام من استدرك عليه إخراج جميع حديث الثقة. ومن ضعف جميع حديث سيء الحفظ. فالأولى: طريقة الحاكم وأمثاله، والثانية: طريقة أبي محمد بن حزم وأشكاله. وطريقة مسلم هي طريقة أئمة هذا الشأن. والله المستعان.

وقد صح عن أبي هريرة «أنه سجد مع النبي ﷺ في ﴿**إقرَأ بِاسم رَبِّك الذي خلَق**﴾. [العلق: ١]. وفي ﴿**إذا السماء انشقت**﴾». [الانشقاق: ١]. وهو إنما أسلم بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بست سنين أو سبع. فلو تعارض الحديثان من كل وجه، وتقاوما في الصحة، لتعينَّ تقديم حديث أبي هريرة، لأنه مثبت معه زيادة علم خفيت على ابن عباس، فكيف وحديث أبي هريرة في غاية الصحة، متفق على صحته، وحديث ابن عباس فيه من الضعف ما فيه؟ والله أعلم.

(١)**المثال** الثامن والستون: رد السنة الثابتة في إثبات سجدات المفصل، والسجدة الأخيرة من سورة الحج، كما روى أبوداود في السنن: حدثنا محمد بن عبدالرحيم البرقي: ثنا سعيد بن أبي مريم: أخبرنا نافع بن يزيد، عن الحارث بن سعيد العتقي، عن عبدالله بن منير، عن عمرو بن العاص: «أن النبي ﷺ أقرأه خمس عَشْرَةَ سجدةَ في القرآن، منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان» تابعه

---

(١) ٣٨٧ أعلام جـ٢.

محمد بن إسماعيل السلمي عن سعيد بن أبي مريم، وقال ابن وهب: أنا ابن لهيعة، عن مشرح بن عاهان،عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلَتْ سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجد فيهما فلا يقرأهما» وحديث ابن لهيعة يحتج منه بما رواه عنه العَبَادلة: كعبدالله بن وهب، وعبدالله بن المبارك،وعبدالله بن يزيد المقري، قال أبوزرعة: ابن لهيعة كان ابن المبارك وابن وهب يتبعان أصوله، وقال عمرو بن علي: مَنْ كتَبَ عنه قبل احتراق كتبه مثل ابن المبارك وابن المقري أصح ممن كتب عنه بعد احتراقها، وقال ابن وهب: كان ابن لهيعة صادقًا، وقد انتقى النسائي هذا الحديث من جملة حديثه، وأخرجه، واعتمده، وقال. ما أخرجت من حديث ابن لهيعة قط إلا حديثًا واحدًا أخبرَنَاه هلال بن العلاء: ثنا معافى بن سليمان، عن موسى بن أَعْيَنَ، عن عمرو بن الحارث، عن ابن لهيعة، فذكره.

وقال ابن وهب: حدثني الصادقُ البارُّ ـ والله ـ عبدالله بن لهيعة، وقال الإمام أحمد: من كان مثل ابن لهيعة بمصر في كثرة حديثه وضبطه وإتقانه؟! وقال ابن عُيينة: كان عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع، وقال أبوداود: سمعت أحمد يقول: ما كان مُحدّث مصر إلا ابن لهيعة، وقال أحمد بن صالح الحافظ: كان ابن لهيعة صحيح الكتاب طالبًا للعلم.

وقال ابن حِبان: كان صالحًا؛ لكنه يدلس عن الضعفاء، ثم احترقت كتبه، وكان أصحابنا يقولون: سماع مَنْ سمع منه قبل احتراق كتبه مثل العَبَادلة: ابن وهب، وابن المبارك والمقري والقعنبي فسماعهم صحيح، وقد صح عن أبي هريرة؛ أنه سجد مع النبي ﷺ في ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ**﴾. [الانشقاق: ١]. وصح عنه ﷺ أنه سجد في النجم، ذكره البخاري.

فردت هذه السنن برأي فاسد وحديث ضعيف:

أما الرأي فهو أن آخر الحج السجود فيها سجود الصلاة لاقترانه بالركوع، بخلاف الأولى؛ فإن السجود فيها مجرد عن ذكر الركوع، ولهذا لم يكن قوله تعالى: ﴿**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾. [آل عمران: ٤٣]. من مواضع السجدات بالاتفاق.

وأما الحديث الضعيف فما رواه أبو داود: ثنا محمد بن رافع: ثنا أزهر بن القاسم: ثنا أبو قدامة، عن مطر الوراق، عن عكرمة، عن ابن عباس أن النبي،

ﷺ، «لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة». **فأما** الرأي فيدل على فساده وجوه: منها أنه مردود بالنص.

ومنها أن اقتران الركوع بالسجود في هذا الموضع لا يخرجه عن كونه موضع سجدة، كما أن اقترانه بالعبادة التي هي أعم من الركوع لا يخرجه عن كونه سجدة، وقد صح سجوده، ﷺ، في النجم، وقد قرن السجود فيها بالعبادة كما قرنه بالعبادة في سورة الحج، والركوع لم يزده إلا تأكيدًا.

ومنها أن أكثر السجدات المذكورة في القرآن متناولة لسجود الصلاة؛ فإن قوله تعالى: **﴿ولله يَسْجُدُ مَنْ في السَّماوات والأرْض طَوْعًا وكَرْهًا﴾**. [الرعد: ١٥]. يدخل فيه سجود المصلين قطعًا، وكيف لا وهو أجل السجود وأفرضه؟ وكيف لا يدخل هو في قوله: **﴿فاسْجُدُوا لله واعْبُدُوا﴾**. [النجم: ٦٢]. وفي قوله: **﴿كَلَّا لا تُطِعْهُ واسْجُد واقْتَرِبْ﴾**. [العلق: ١٩]. وقد قال قبل: **﴿أرأيت الذي ينهى عَبْدًا إذا صَلَّى﴾**. [العلق: ٩، ١٠]. ثم قال: **﴿كَلَّا لا تُطِعْهُ واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾**. [العلق: ١٩]. فأمره بأن يفعل هذا الذي نهاه عنه عدو الله، فإرادة سجود الصلاة بآية السجدة لا تمنع كونها سجدة، بل تؤكدها وتقويها.

يوضحه أن مواضع السجدات في القرآن نوعان: إخبار، وأمر.

فالإخبار خبر من الله تعالى عن سجود مخلوقاته له عمومًا أو خصوصًا، فسُنَّ للتالي والسامع وجوبًا أو استحبابًا أن يتشبه بهم عند تلاوة آية السجدة أو سماعها، وآيات الأوامر بطريق الأولى. وهذا لا فرق فيه بين أمر وأمر، فكيف يكون الأمر بقوله: **﴿فاسْجُدُوا لله واعْبُدُوا﴾**. [النجم: ٦٢]. مقتضيًا للسجود دون الأمر بقوله: **﴿يَاأَيُّها الذين آمنوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾**. [الحج: ٧٧]. فالساجد إما متشبه بمن أخبر عنه، أو ممتثل لما أمر به، وعلى التقديرين يُسَنُّ له السجود في آخر الحج كما يسن له السجود في أولها؛ فلما سَوَّت السنة بينهما سَوى القياس الصحيح والاعتبار الحق بينهما، وهذا السجود شرَعه الله ورسوله عبودية عند تلاوة هذه الآيات واستماعها، وقربة إليه، وخضوعًا لعظمته، وتذللًا بين يديه، واقتران الركوع ببعض آياته مما يؤكد ذلك ويقويه، لا يضعفه ويوهيه، والله المستعان.

وأما قوله تعالى: **﴿يَا مَرْيَمُ اقنُتِي لِرَبِّكِ واسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكعين﴾**. [آل

عمران:٤٣]. فإنها لم يكن موضع سجدة؛ لأنه خبر خاص عن قول الملائكة لامرأة بعينها أن تُديم العبادة لربها بالقنوت وتصلي له بالركوع والسجود؛ فهو خبر عن قول الملائكة لها ذلك، وإعلام من الله تعالى لنا أن الملائكة قالت ذلك لمريم، فسياق ذلك غير سياق آيات السجدات.

وأما الحديث الضعيف فإنه من رواية أبي قدامة ـ واسمه الحارث بن عبيد ـ قال الإمام أحمد رضي الله عنه: هو مضطرب الحديث، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال الأزدي: ضعيف، وقال ابن حبان: لا يحتج به إذا انفرد. قلت: وقد أنكر عليه هذا الحديث وهو موضع الإنكار؛ فإن أبا هريرة رضي الله عنه شهد سجوده ﷺ في المفصل في ﴿إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١]. و ﴿اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ﴾. [العلق:١]. ذكره مسلم في صحيحه، وسجد معه، حتى لو صح خبر أبي قدامة هذا لوجب تقديمُ خبر أبي هريرة عليه؛ لأنه مثبت فمعه زيادة علم، والله أعلم.

المثال التاسع والستون: رد السنة الثابتة الصحيحة في سجود الشكر، كحديث عبدالرحمن بن عوف؛ أن رسول الله ﷺ خرَجَ نحو أُحد فخرَّ ساجدًا فأطال السجود، ثم قال: «إن جبريل أتاني وبشَّرني فقال: إن الله تعالى يقول لك: مَنْ صلى عليك صليتُ عليه، ومن سلّم عليك سلمت عليه، فسجدت لله تعالى شاكرًا» وكحديث سعد بن أبي وقاص في سجوده ﷺ شاكرًا لربه، لما أعطاه ثلث أمته، ثم سجد ثانية فأعطاه الثلث الآخر، ثم سجد ثالثة فأعطاه الثلث الباقي، وكحديث أبي بكر، أن رسول الله ﷺ «كان إذا جاءه أمر يُسَرُّ به خر ساجدًا شكرًا لله تعالى، وأتاه بشير يبشره بظفر جُنْدٍ له على عدوهم، فقام وخر ساجدًا».

وسجد كعب بن مالك لما بشر بتوبة الله عليه، وسجد أبو بكر حين جاءه قتل مُسَيْلمة الكذاب، وسجد علي كرَّم الله وَجْهَه حين وجد ذا الثُّدَية في الخوارج الذين قتلهم، ولا أعلم شيئًا يدفع هذه السنن والآثار مع صحتها وكثرتها غير رأي فاسد، وهو: أن نعم الله سبحانه وتعالى لاتزال واصلة إلى عبده، فلا معنى لتخصيص بعضها بالسجود، وهذا من أفسد رأي وأبطله؛ فإن النعم نوعان: مستمرة، ومتجددة، فالمستمرة شكرها بالعبادات والطاعات، والمتجددة شرع لها سجود

الشكـر؛ شكرًا لله عليها، وخضوعًا له، وذلاً في مقابلة فَرْحَة النعم وانبساط النفس لها، وذلـك من أكـبر أدوائهـا؛ فإن الله سبحـانـه لا يحب الفَرِحين ولا الأشِرين؛ فكان دواء هذا الداء الخضوع والذل والانكسار لرب العالمين، وكان في سجود الشكر من تحصيل هذا المقصود ما ليس في غيره، ونظير هذا السجود عند الآيات التي يُخوف الله بها عباده كما في الحديث: «**إذا رأيتم آية فاسجدوا**» وقد فزع النبي ﷺ عند رؤية انكساف الشمس إلى الصلاة، وأمر بالفزع إلى ذكره، ومعلوم أن آياته تعالى لم تزل مشاهدة معلومة بالحس والعقل، ولكن تجددها يُحدث للنفس من الـرهبـة والفـزع إلى الله مالا تحدثه الآيات المستمرة، فتجدُّد هذه النعم في اقتضـائهـا لسجود الشكر كتجدد تلك الأيات في اقتضائها للفزع إلى السـجود والصلوات، ولهذا لما بلغ فقيه الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس موتُ ميمونة زوج النبي ﷺ خر ساجدًا، فقيل له: أتسجد لذلك؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم آيـة فاسجـدوا**» وأي آية أعـظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ من بين أظهرنا؟ فلو لم تأت النصوصُ بالسجود عند تجدُّد النِّعَم لكان هو محض القياس، ومقتضى عبودية الرغبة، كما أن السجود عند الآيات مقتضى عبودية الرهبة، وقد أثنى الله سبحانه على الذين يُسارعون في الخيرات ويدعونه رَغَبًا ورهبًا، ولهذا فرق الفقهاء بين صلاة الكسوف وصلاة الاستسقاء بأن هذه صلاة رهبة وهذه صلاة رغبة، فصلوات الله وسلامه على مَنْ جاءت سننه وشريعته بأكمل ما جاءت به شرائع الرسل وسننهم وعلى آله.

تَفسِــــيرُ سُـورَةِ الفَاتِحَـة

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

ترتيبها ١ — آياتها ٧

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **فاتحة** الكتاب: وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم، والخوف والحزن لمن عرف مقدارها، وأعطاها حقها. وأحسن تنزيلها على دائه. وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها. والسر الذي لأجله كانت كذلك.

ولما وقع بعض الصحابة على ذلك رقى بها اللديغ. فبرأ لوقته. فقال له النبي ﷺ: **«وما أدراك أنها رقية؟»**.

ومن ساعده التوفيق، وأُعِينَ بنور البصيرة حتى وقف على أسرار هذه السورة، وما اشتملت عليه: من التوحيد، ومعرفة الذات والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدر والمعاد، وتجريد توحيد الربوبية والإلٰهية. والتوكل والتفويض إلى من له الأمر كله، وله الحمد كله وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصل سعادة الدارين، أغنته عن كثير من الأدوية والرقى.

(٢) فصل

ولما كانت «التوبة» هي رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم. ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام، وتضمنتها أبلغ تضمن. فمن أعطى الفاتحة حقها ـ علمًا وشهودًا وحالاً ومعرفة ـ علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النَّصوح. فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها. فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدى، والثاني غَيٌّ ينافي قصده وإرادته. فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخرًا.

(٣) **والعبد** إذا عزم على فعل أمر فعليه أن يعلم أولا: هل هو طاعة لله أم لا؟ فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مُباحاً يستعين به على الطاعة، وحينئذ يصير طاعة.

فإذا بان له أنه طاعة فلا يُقْدِم عليه حتى ينظر هل هو مُعَانٌ عليه أم لا؟ فإن لم يكن مُعاناً عليه فلا يقدم عليه فيذل نفسه.

---

(١) ٣٧٣ زاد المعاد جـ٣. (٢) ١٧٩ مدارج جـ١.

(٣) ١٦٠ أعلام جـ٢

وإن كان مُعاناً عليه بقي عليه نظر آخر، وهو أن يأتيه من بابه؛ فإن أتاه من غير بابه أضاعه أو فرط فيه أو أفسد منه شيئًا.

فهذه الأمور الثلاثة أصلُ سعادة العبد وفلاحه، وهي معنى قول العبد: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ﴾**. [الفاتحة: ٥،٦].

فأسعد الخلق أهل العبادة، والاستعانة، والهداية إلى المطلوب، وأشقاهم منْ عدم الأمور الثلاثة.

ومنهم من يكون له نصيب من **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** ونصيبه من **﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** معدوم أو ضعيف؛ فهذا مخذول مهينٌ محزون.

ومنهم من يكون نصيبه من **﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** قويًا ونصيبه من **﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ﴾** ضعيفاً أومفقوداً؛فهذا لهنفوذ وتسلط وقوة،ولكن لاعاقبة له،بل عاقبته أسوأ عاقبة.

ومنهم من يكون له نصيب من **﴿إِياكَ نَعبُدُ، وإِيَّاكَ نَستَعِين﴾** ولكن نصيبه من الهداية إلى المقصود ضعيف جدًّا، كحال كثير من العُبَّاد. والزهاد الذين قَلَّ علمهم بحقائق مابعث الله به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق.

(١) **صلاح** العبد وسعادته في تحقيق معنى قوله: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعين﴾**. [الفاتحة: ٥،٦]. فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب.

فالأول: من معنى ألوهيته، والثاني: من معنى ربوبيته، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب: محبة، وإنابة، وإجلالاً، وإكراما، وتعظيماً، وذُلًّا، وخضوعاً، وخوفاً، ورجاءً، وتوكلاً، والرب هو الذي يُربي عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى مصالحه. فلا إله إلا هو، ولا رب إلا هو، فكما أن ربوبية ماسواه أبطل الباطل، فكذلك إلهية ماسواه...

(٢) **ثم** قوله **﴿اهدِنا الصراط المستقيم﴾** يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها وهي بيده، إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها.

والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله تعالى عالماً بالحق عاملاً به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يتخلف عنها، وهي جعل العبد مريدًا للهدى محبًّا له مؤثراً له عاملاً به، فهذه

---

(١) ٢٧ إغاثة جـ ١.

(٢) ٥٣ شفاء العليل.

الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿إنَّك لا تَهْدِي من أحبَبْت ولكنَّ الله يَهْدِيْ من يشاء﴾. [القصص: ٥٦]. مع قوله تعالى: ﴿وإنَّك لتهدي إلى صراطٍ مُستقيم﴾. [الشورى: ٥٢]. فهذه هداية الدعوة والتعليم والإرشاد، وهي التي هدى بها ثمود فاستحبوا العمى عليها، وهي التي قال تعالى فيها: ﴿وما كان الله ليُضلَّ قوماً بَعْدَ إذْ هداهُمْ حَتَّى يُبين لهُمْ ما يَتَّقُونَ﴾. [التوبة: ١١٥]. فهداهم هدى البيان الذي تقوم به حجته عليهم، ومنعهم الهداية الموجبة للاهتداء. التي لا يضل من هداه بها. فذاك عدله فيهم وهذا حكمته فأعطاهم ماتقوم به الحجة عليهم ومنعهم ماليسوا له بأهل ولا يليق بهم...

والمقصود ذكر بعض مايدل على إثبات هذه المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر، وهي خلق الله تعالى لأفعال المكلفين ودخولها تحت قدرته ومشيئته كما دخلت تحت علمه وكتابه.

قال تعالى ﴿الله خَالِقُ كُلِّ شيء وهو على كُلِّ شيء وكيل﴾. [الزمر: ٦٢]. وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته، وليس مخصوصًا بذاته وصفاته فإنه الخالق بذاته وصفاته وماسواه مخلوق له، واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخلة في مسمى اسمه.

فإن الله سبحانه اسم للإله الموصوف بكل صفة كمال، المنزه عن كل صفة نقص ومثال، والعالم قسمان: أعيان وأفعال، وهو الخالق لأعيانه ومايصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالم بتفاصيل ذلك فلا يخرج شيء منه عن علمه ولا عن قدرته ولا عن خلقه ومشيئته.

(١)**والهداية** هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره، فالمهتدي هو العامل بالحق المريد له، وهي أعظم نعمة لله على العبد.

ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم، كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق فيجعل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله، ومعلوم أن مايجهله العبد أضعاف أضعاف مايعلمه، وأن كل مايعلم أنه حق لا تطاوعه نفسه على إرادته، ولو أراده لعجز عن كثير منه فهو

(١) ٨٣ مفتاح جـ ١.

مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل.

أما الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه. وهل وقع على السداد؛ فيشكر الله عليه ويستديمه، أم خرج فيه عن الحق؛ فيتوب إلى الله تعالى منه، ويستغفره ويعزم على أن لا يعود.

وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه فإنه ابن وقته فيحتاج أن يعلم حكم ماهو متلبس به من الأفعال هل هو صواب أم خطأ؟

وأما المستقبل فحاجته فيه إلى الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق.

وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطراراً إليها.

وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد، وهو: إنا إذا كنا مهتدين فأي حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا؟! . وهل هذا إلا تحصيل الحاصل؟ أفسد سؤال وأبعده عن الصواب وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علماً بحقيقتها ومسماها، فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى ثبتنا على الهداية وأدمها لنا.

ومن أحاط علماً بحقيقة الهداية وحاجة العبد إليها علم أن الذي لم يحصل له منها أضعاف ماحصل له وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة.

لا سيما والله تعالى خالق أفعال القلوب والجوارح، فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة. ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها. فإن الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه بل لابد من عدم مانعه ومنافيه.

(١)**للانسان** قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والإرادية.

واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها.

فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية. وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها.

واستكمال القوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه ـ سبحانه ـ على

(١) ١٨ فوائد.

العبد، والقيام بها إخلاصاً وصدقاً، ونصحاً وإحساناً، ومتابعة وشهوداً لِمِنَّتِهِ عليه وتقصيره هو في أداء حقه، فهو مستحيي من مواجهته بتلك الخدمة، لعلمه أنها دون مايستحقه عليه ودون دون ذلك، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته، فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم؛ الذي هدى إليه أولياءه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط، إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب.

فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور، وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام.

فإن قوله: **﴿الحمدُ لله ربِّ العالمِين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدِّين﴾**. [الفاتحة: ١-٣]. يتضمن الأصل الأول؛ وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى؛ وهي اسم الله، والرب، والرحمن. فاسم الله متضمن لصفات الألوهية، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجود والبر. ومعاني أسمائه تدور على هذا.

وقوله: ﴿إيَّاك نَعْبُدُ وإياك نَسْتَعِينُ﴾. يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته على عبادته.

وقوله: ﴿اهْدِنَا الصراط المُسْتَقِيم﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

وقوله ﴿غَيرِ المغضُوب عَلَيهِمْ ولا الضَّالِّين﴾ يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله

إلى نعمته ورحمته، والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته، فلا يكون إلا رحيماً منعماً، وذلك من موجبات إلهيته، فهو الإله الحق وإن جحده الجاحدون وعدل به المشركون **فمن** تحقق بمعاني الفاتحة علماً ومعرفة وعملاً وحالاً، فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عواء المتعبدين، والله المستعان.

فصل(١)

ولما كان تمامُ النعمة على العبد إنما هو بالهدى والرحمة، كان لهما ضدان: الضلال والغضب.

فأمرنا الله سبحانه أن نسأله كل يوم وليلة مرات عديدة أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة، ويجنبنا طريق المغضوب عليهم، وهم ضد المرحومين وطريق الضآلين وهم ضد المهتدين، ولهذا كان هذا الدعاء من أجمع الدعاء، وأفضله وأوجبه، وبالله التوفيق.

فصل(٢)

إذا عرفت هذه المقدمات: فالجمع الصحيح ـ الذي عليه أهل (الاستقامة) ـ هو جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الإلهية. فيشهد صاحبه قَيُّومِيَّة الرب تعالى فوق عرشه، يدبر أمر عباده وحده. فلا خالق ولا رازق، ولا معطي ولا مانع، ولا مميت ولا محيي، ولا مدبر لأمر المملكة ـ ظاهراً وباطناً ـ غيره. فما شاء كان. وما لم يشأ لم يكن. لا تتحرك ذرة إلا بإذنه. ولا يجري حادث إلا بمشيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه. وأحاطت بها قدرته. ونفذت بها مشيئته. واقتضتها حكمته. فهذا جمع توحيد الربوبية.

وأما جمع توحيد الإلهية، فهو: أن يجمع قلبه وهمه وعزمه على الله. وإرادته، وحركاته على أداء حقه تعالى، والقيام بعبوديته سبحانه، فتجتمع شؤون إرادته على مراده الديني الشرعي.

وهذان الجمعان: هما حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن العبد يشهد من قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ الذات الجامعة لجميع صفات الكمال التي لها كل الأسماء الحسنى.

---

(١) ١٧٥ إغاثة. (٢) ٥١٠ مدارج جـ ٣.

ثم يشهد من قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ جميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً. قصدًا وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً.

ثم يشهد من قوله: ﴿وإيَّاكَ نستعين﴾ جميع أنواع الاستعانة والتوكل. والتفويض. فيشهد منه جمع الربوبية. ويشهد من: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ جمع الإلهية. ويشهد من: ﴿إيَّاك﴾ الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ثم يشهد من ﴿اهْدِنا﴾ عشر مراتب. إذا اجتمعت حصلت له الهداية:

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان. فيجعله عالماً بالحق مدركاً له.

الثانية: أن يُقدره عليه. وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مريداً له. **الرابعة:** أن يجعله فاعلاً له.

الخامسة: أن يثبته على ذلك. ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة. أخص من الأولى.

فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالاً. وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلاً.

الثامنة: أن يُشهده المقصود في الطريق، ويُنبهه عليه. فيكون مطالعاً له في سيره، ملتفتاً إليه، غير محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يُشهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يُشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها. وهما طريق أهل الغضب، الذين عدلوا عن اتباع الحق قصداً وعناداً. وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً. ثم يشهد جمع ﴿الصراط المستقيم﴾ في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

فهذا هو الجمع الذي عليه رسل الله وأتباعهم. فمن حصل له هذا الجمع. فقد هدي إلى الصراط المستقيم. والله أعلم.

فصل (١)

إذا كان كل عمل فأصله المحبة والإرادة، والمقصود به التنعم بالمراد المحبوب، فكل حي إنما يعمل لما فيه تنعمه ولذته. فالتنعم هو المقصود الأول من كل قصد وكل حركة، كما أن العذاب والتألم هو المكروه المقصود أولاً بكل بغض وكل امتناع وكف، ولكن وقع الجهل والظلم من بني آدم بمعنيين: بالدِّين الفاسد، والدُّنيا الفاجرة، طلبوا بهما النعيم، وفي الحقيقة فإنما فيهما ضده. ففاتهم النعيم من حيث طلبوه، وآثروه، ووقعوا في الألم والعذاب من حيث هربوا منه.

وبيان ذلك: أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذوها ديناً: أو لا يتخذوها دينًا. **والذين** يتخذونها ديناً إما أن يكون الدِّين بها دين حق، وإما أن يكون دينا باطلا.

فنقول: النعيم التام: هو في الدين الحق علمًا وعملاً، فأهله هم أصحاب النعيم الكامل.

كما أخبر الله تعالى بذلك في كتابه في غير موضع، كقوله: ﴿**اهْدنا الصراط المسْتقيم. صراط الذين أنْعَمْتَ عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾. [الفاتحة: ٦، ٧]. وقوله عن المتقين المهتدين بالكتاب: ﴿**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾. [البقرة: ٥]. وقوله: ﴿**فإمَّا يأتينكم مني هُدى فمن اتَّبع هُداي فلا يَضِلُّ ولا يشقى**﴾. [طه: ١٢٣]. وفي الآية الأخرى: ﴿**فَمَنْ تَبِع هُداي فلا خوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون**﴾. [البقرة: ٣٨]. وقوله: ﴿**إن الأبرار لفي نعيم وإن الفُجّار لفي جحيم**﴾. [الانفطار: ١٣ - ١٤]. **والقرآن مملوء من هذا.**

فوَعدُ أهل الهدى والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة، ووعيد أهل الضلال والفجور بالشقاء في الدار الآخرة مما اتفقت عليه الرسل، من أولهم إلى آخرهم، وتضمنته الكتب. **ولكن** نذكر ههنا نكتة نافعة.

وهي: أن الإنسان قد يسمع ويرى مايصيب كثيرًا من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب، وماينال كثيرًا من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال، وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل.

---

(١) ١٧٦ إغاثة جـ ٢.

وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين. **فإذا** سمع في القرآن قوله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾. [المنافقون:٨]. وقوله: ﴿وَإِنَّ جُنْدنا لهم الغالبون﴾. [الصافات:١٧٣]. وقوله: ﴿كَتَبَ الله لَأَغْلِبَنَّ أنا ورسُلي﴾. [المجادلة:٢١]. وقوله: ﴿والعاقِبَةُ للمتقين﴾. [الأعراف:١٢٨]. ونحو هذه الآيات، وهو ممن يصدق بالقرآن، حمل ذلك على أن حصوله في الدار الآخرة فقط. وقال: أما الدنيا فإنَّا نرى الكفار والمنافقين يغلبون فيها، ويظهرون، ويكون لهم النصر والظفر. والقرآن لا يرد بخلاف الحس.

ويعتمد على هذا الظن إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين، أو الفجرة الظالمين: وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى. فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق، فيقول: أنا على الحق، وأنا مغلوب، فصاحب الحق في هذه الدنيا مغلوب مقهور، والدولة فيها للباطل.

فإذا ذُكِّر بما وعده الله تعالى من حسن العاقبة للمتقين والمؤمنين، قال: هذا فى الآخرة فقط. **وإذا** قيل له: كيف يفعل الله تعالى هذا بأوليائه وأحبائه، وأهل الحق؟.

فإن كان ممن لا يعلل أفعال الله تعالى بالحكم والمصالح، قال: يفعل الله في ملكه مايشاء، ويحكم مايريد ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون﴾. [الأنبياء:٢٣].

وإن كان ممن يعلل الأفعال، قال فعل بهم هذا ليعوضهم بالصبر عليه بثواب الآخرة وعلو الدرجات، وتوفية الأجر بغير حساب.

ولكل أحد مع نفسه في هذا المقام مباحثات وإيرادات وإشكالات وأجوبة، بحسب حاصله وبضاعته، من المعرفة بالله تعالى وأسمائه وصفاته وحكمته، والجهل بذلك، فالقلوب تغلي بما فيها، كالقدر إذا استجمعت غليانا . . .

(١) **وقد** جاء في السنة ماهو أخص من الحمد وهو الثناء الذي هو تكرار المحامد كما في قول النبي ﷺ لأهل قبا: «ماهذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به؟»، فإذا كان قد أثنى عليهم والثناء حمد متكرر، فما يمنع حمده لمن شاء من عباده. ثم الصحيح في تسمية النبي ﷺ محمداً أنه الذي يحمده الله وملائكته وعباده المؤمنون، وأما من قال: الذي يحمده أهل السموات وأهل الأرض فلا ينافي حمد الله تعالى،

(١) ٩٣ بدائع جـ٢.

بل حمد أهل السموات والأرض له بعد حمد الله له، فلما حمده الله حمده أهل السموات والأرض.

وبالجملة فإذا كان الحمد ثناء خاصًا على المحمود لم يمتنع أن يحمد الله من يشاء من خلقه كما يثني عليه، فالصواب في الفرق بين الحمد والمدح أن يقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخبارًا مجردًا من حب وإرادة أو مقروناً بحبه وإرادته فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد، فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، ولهذا كان خبرًا يتضمن الإنشاء بخلاف المدح فإنه خبر مجرد، فالقائل إذا قال: الحمد لله، أو قال: ربنا لك الحمد، تضمن كلامه الخبر عن كل مايحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الحمد المحققة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه وهو الحميد المجيد، ولما كان هذا المعنى مقارنًا للحمد لا تقوم حقيقته إلا به؛ فسره من فسره بالرضى والمحبة وهو تفسير له بجزء مدلوله، بل هو رضاء ومحبة مقارنة للثناء؛ ولهذا السر ـ والله أعلم ـ جاء فعله على بناء الطبائع والغرائز، فقيل: حمد لتضمنه الحب الذي هو بالطبائع والسجايا أولى وأحق من فهم وحذر وسقم ونحوه بخلاف الإخبار المجرد عن ذلك وهو المدح؛ فإنه جاء على وزن فعل فقالوا: مدحه لتجرد معناه من معاني الغرائز والطبائع. فتأمل هذه النكتة البديعة وتأمل الإنشاء الثابت في قولك: ربنا لك الحمد، وقولك: الحمد لله كيف تجده تحت هذه الألفاظ؟ ولذلك لا يقال: موضعها المدح لله، ولا ربنا لك المدح، وسره ماذكرت لك من الأخبار بمحاسن المحمود إخبارًا مقترنًا بحبه وإرادته وإجلاله وتعظيمه فإن قلت: فهذا ينقض قولكم: إنه لا يمتنع أن يحمد الله تعالى من شاء من خلقه؛ فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء ولا يستحق التعظيم غيره فكيف يعظم أحدًا من عباده؟ قلتُ: المحبة لا تنفك عن تعظيم وإجلال للمحبوب ولكن يضاف إلى كل ذات بحسب ماتقتضيه خصائص تلك الذات فمحبة العبد لربه تستلزم إجلاله وتعظيمه، وكذلك محبة الرسول تستلزم توقيره وتعزيزه وإجلاله وكذلك محبة الوالدين والعلماء وملوك العدل.

وأما محبة الرب عبده فإنها تستلزم إعزازه لعبده وإكرامه إياه والتنويه بذكره وإلقاء التعظيم والمهابة له في قلوب أوليائه، فهذا المعنى ثابت في محبته وحمده لعبده سمي تعظيمًا وإجلالاً أو لم يسم.

ألا ترى أن محبته سبحانه لرسله كيف اقتضت أن نوه بذكرهم في أهل السماء والأرض، ورفع ذكرهم على ذكر غيرهم، وغضب على من لم يحبهم ويوقرهم ويجلهم، وأحل به أنواع العقوبات في الدنيا والآخرة، وجعل كرامته في الدنيا والآخرة لمحبيهم وأنصارهم وأتباعهم؟.

أوَ لا ترى كيف أمر عباده وأولياءه بالصلاة، التي هي تعظيم وثناء على خاتمهم وأفضلهم صلوات الله عليه وسلامه؟ أفليس هذا تعظيماً لهم وإعزازاً وتكريمًا وإكراماً؟. **فإن** قيل: فقد ظهر الفرق بين الحمد والمدح واستبان صبح المعنى وأسفر وجهه، فما الفرق بينهما وبين الثناء والمجد؟.

قيل: قد تعدينا طورنا فيما نحن بصدده، ولكن نذكر الفرق تكميلاً للفائدة فنذكر تقسيمًا جامعاً لهذه المعاني الأربعة أعني: الحمد، والمدح، والثناء، والمجد.

فنقول: الإخبار عن محاسن الغير له ثلاثة اعتبارات:

اعتبار من حيث المخبر به. واعتبار من حيث الإخبار عنه بالخبر. واعتبار من حيث حال المخبر.

فمن حيث الاعتبار الأول ينشأ التقسيم: إلى الحمد، والمجد فإن المخبر به: إما أن يكون من أوصاف العظمة والجلال والسعة وتوابعها، أو من أوصاف الجمال والإحسان وتوابعها، فإن كان الأول فهو المجد، وإن كان الثاني فهو الحمد، وهذا لأن لفظ (م ج د) في لغتهم يدور على معنى الاتساع والكثرة، فمنه قولهم: (أمجد الدابة علفًا) أي: أوسعها علفًا، ومنه مجد الرجل فهو ماجد إذا كثر خيره وإحسانه إلى الناس قال الشاعر:

أنت تكون ماجد نبيل　　*　　إذا تهب شمأل بليل

ومنه قولهم في كل شجر نار واستمجد المرخ[1] والعفار[2] أي كثرت النار فيهما.

ومن حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد، فإن الخبر عن المحاسن؛ إما متكرر أوْ لا. فإن تكرر فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد، فإن

(١) المرخ: شجر سريع الوري أي الوقود.　　(٢) والعفار كسحاب: شجر يتخذ منه الزناد.

الثناء مأخوذ من الثنى وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض. ومنه ثنيت الثوب، ومنه التثنية في الاسم، فالمثنى مكرر لمحاسن من يثني عليه مرة بعد مرة.

ومن جهة اعتبار حال المخبر ينشأ التقسيم إلى المدح والحمد، فإن المخبر عن محاسن الغير؛ إما أن يقترن بإخباره حب له وإجلال أوْ لا، فإن اقترن به الحب فهو الحمد وإلا فهو المدح، فحصل هذه الأقسام وميزها.

ثم تأمل تنزيل قوله تعالى، فيما رواه عنه رسول الله ﷺ حين يقول العبد: ﴿الحمد لله رَبِّ العَالِمِينَ﴾ فيقول الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمن الرَّحيم﴾ قال: أثنى علي عبدي لأنه كرر حمده فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوم الدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي فإنه وصفه بالملك والعظمة والجلال.

فاحمد الله على ما ساقه إليك من هذه الأسرار والفوائد عفوًا، لم تسهر فيها عينك، ولم يسافر فيها فكرك عن وطنه، ولم تتجرد في تحصيلها عن مألوفاتك. بل هي عرائس معان تجلى عليك وتزف إليك، فلك لذة التمتع بها ومهرها على غيرك، لك غنمها وعليه غرمها .

قاعدة شريفة عظيمة القدر(١)

حاجة العبد إليها أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنفس؛ بل وإلى الروح التي بين جنبيه.

اعلم أن كل حي سوى الله فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي من جنس النعيم، واللذة والمضرة من جنس الألم والعذاب. فلا بد من أمرين: **أحدهما:** هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع به ويتلذذ به.

والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود، والمانع لحصول المكروه والدافع له بعد وقوعه. فهاهنا أربعة أشياء: أمر محبوب مطلوب الوجود. والثاني: أمر مكروه مطلوب العدم، والثالث: الوسيلة إلى حصول المحبوب. والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه. فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حي سوى الله، لا يقوم صلاحه إلا بها.

إذا عرف هذا فالله سبحانه هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له،

(١) ٥٥ طريق الهجرتين.

وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه، فلا معبود سواه ولا معين على المطلوب غيره، وما سواه هو المكروه المطلوب بعده، وهو المعين على دفعه، فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه، وهذا معنى قول العبد ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين**﴾ فإن هذه العبادة تتضمن المقصود المطلوب على أكمل الوجوه.

والمستعان هو الذي يستعان به على حصول المطلوب ودفع المكروه، فالأول من مقتضي ألوهيته، والثاني من مقتضى ربوبيته، لأن الإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكرامًا، والرب هو الذي يرب عبده فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى جميع أحواله ومصالحه التي بها كماله، ويهديه إلى اجتناب المفاسد التي بها فساده وهلاكه. وفي القرآن سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين:

أحدها قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتعين**﴾.

الثاني قوله تعالى: ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلتُ وإليهِ أُنيب**﴾. [الشورى: ١٠].

الثالث قوله تعالى: ﴿**فَاعْبُدْهُ وتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾. [هود: ١٢٣].

الرابع قوله تعالى: ﴿**عَلَيك تَوَكَّلنا وَإليكَ أَنَبْنا**﴾. [الممتحنة: ٤].

الخامس قوله تعالى: ﴿**وَتَوكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذي لَا يَموتُ وَسَبِّحْ بحمدِه**﴾، [الفرقان: ٥٨]. **السادس** قوله: ﴿**عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وَإليهِ مَتاب**﴾، [الرعد: ٣٠].

السابع قوله: ﴿**وَاذْكُر اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إليه تبتيلاً. رَبُّ المشرِقِ والمغربِ لَا إله إلَّا هُوَ فاتَّخِذْه وَكيلًا**﴾. [المزمل: ٨، ٩].(١)

ومما يقرر هذا أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أحب إليهم من الإيمان به ومحبتهم له ومعرفتهم به، وحاجتهم إليه في عبادتهم له وتألههم له كحاجتهم إليه بل أعظم في خلقه وربوبيته لهم ورزقه لهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة التي بها سعادتهم وفوزهم، وبها ولأجلها يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة ولا سرور بدون ذلك بحال، فمن أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكًا، ويحشره يوم القيامة أعمى.

ولهذا لا يغفر الله لمن يشرك به شيئا ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

---

(١) ذكر المؤلف هذا البحث في طريق الهجرتين ص ٢٥٥ في بحثه عن التوكل بأوسع من هذا(ج)

ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أفضل الحسنات. وكان توحيد الإلهية الذي كلمته (لا إله إلا الله) رأس الأمر.

فأما توحيد الربوبية الذي أقر به كل المخلوقات فلا يكفي وحده، وإن كان لابد منه، وهو حجة على من أنكر توحيد الألوهية، فحق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقهم عليه إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وأن يكرمهم إذا قدموا عليه.

وهذا كما أنه غاية محبوب العبد ومطلوبه، وبه سروره ولذته ونعيمه، فهو أيضًا محبوب الرب من عبده ومطلوبه الذي يرضى به، ويفرح بتوبة عبده إذا رجع إليه وإلى عبوديته وطاعته أعظم من فرح من وجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في أرض مهلكة، بعد أن فقدها وأيس منها، وهذا أعظم فرح يكون، وكذلك العبد لا فرح له أعظم من فرحه بوجود ربه وأنسه به وطاعته له وإقباله عليه وطمأنينته بذكره وعمارة قلبه بمعرفته و الشوق إلى لقائه، فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه، ومن عبد غيره وأحبه - وإن حصل له نوع من اللذة والمودّة والسكون إليه والفرح والسرور بوجوده - ففساده به ومضرته وعطبه أعظم من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهي الذي هو عَذْبٌ في مبدئه عذاب في نهايته كما قال القائل:

مآرب كانت في الشباب لأهلها عِذابًا، فصارت في المشيب عَذابا

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. [الأنبياء: ٢٢]، فإن قوام السموات والأرض والخليقة بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلهًا حقًّا، إذ الإله الحق لا شريك له ولا سميَّ له ولا مثل له، فلو تألهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأليه الإله الحق، كما أنها لا توجد إلا باستنادها إلى الرب الواحد القهار، ويستحيل أن تستند في وجودها إلى ربين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلى إلهين متساويين.

إذا عرف هذا: فاعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا: في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له

ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به.

فإن حقيقة العبد روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها. ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ماحصل لم يدم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت ثم يعذب ولابد في وقت آخر.

وكثيرًا ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك، وإنما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التي تحكه، فهي تدمي الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره، وهو يؤثر ذلك لما له في حكها من اللذة.

وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله، هو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجرب، والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما، والله الموفق المعين، وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة.

والمقصود أن إله العبد الذي لابد له منه في كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين، هو الإله الحق الذي كل ما سواه باطل، والذي أينما كان فهو معه، وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة، بل هي فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجة، ولهذا قال إمام الحنفاء: ﴿**لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ**﴾. [الأنعام: ٧٦]. والله أعلم.

(١) **الوجه** السادس: أول سورة في القرآن وهي الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿**الحمدُ لله رَبِّ العَالمين**﴾ والأرواح من جملة العالم فهو ربها.

الثاني: قوله تعالى: ﴿**إيَّاكَ نَعبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعينُ**﴾ فالأرواح عابدة له مستعينة ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعانًا بها.

الثالث: أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم.

---

(١) ١٨١ كتاب الروح.

الرابع : أنها منعم عليها مرحومة، ومغضوب عليها، وضالة شقية، وهذا شأن المربوب المملوك لا شأن القديم غير المخلوق ، ونحن بعون الله ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن، وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة في هذه المطالب. وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال، وما تضمنته من منازل السائرين ومقامات العارفين، بالفرق بين وسائلها وغاياتها ومواهبها وكسبياتها. وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها ولا يسد مسدها. ولذلك لم ينزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها.

والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١)**اعلم** أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال وتضمنتها أكمل تضمن.

فاشتملت على التعريف بالمعبود ـ تبارك وتعالى ـ بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها. وهي «الله، والرب، الرحمن».

وبنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة فـ : ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ مبني على الإلهية. و ﴿**إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الأمور الثلاثة. فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته. والثناء والمجد كمالان لجده.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله: ﴿**مَالِكِ يومِ الدين**﴾.

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة.

أحدها: كونه رب العالمين. فلا يليق به أن يترك عباده سُدىً هملاً، لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به. وماقَدَرَهُ حق قَدْرِهِ من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم «الله» وهو المألوه المعبود. ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرَّحمن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم

---

(١) ٧ مدارج جـ١.

تعـريفهم ما ينـالون به غاية كمالهم. فمن أعطى اسم «الرَّحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكـلأ، وإخراج الخبء، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح، أعـظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب ،وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر «يوم الدين» فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحدًا قبل إقامة الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه. وبهم اسْتُحِق الثواب والعقاب. وبهم قام سوق يوم الدين. وسيق الأبرار إلى النعيم. والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبـه ويرضاه. وعبادته ـ وهي شكره وحبه وخشيته ـ فطري ومعقول للعقول السليمة. لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم **وفي** هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول .يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسِل. ولم يؤمن به. ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفرًا به.

الموضع السـادس: من قوله: ﴿اهْدِنَا الصِرَّاطَ الْمُستقيمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التـوفيق، وجعـلُ الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب، وجعله مؤثرًا له، راضيًا به راغبًا فيه.

وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً. وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان

قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم. وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه ـ مما نريده ـ كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.(١)

وللهداية مرتبة أخرى ـ وهي آخر مراتبها ـ وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهو الصراط الموصل إليها. فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه؛ هُدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه.

وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار؛ يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم.

وعلى قدر سيره على هذا الصراط؛ يكون سيره على ذاك الصراط.

فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح.

ومنهم من يمر كشَدِّ الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا.

ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار.

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حَذْو القُذَّة بالقذة، جزاء وفاقًا ﴿هَلْ تُجزَونَ إلاَّ مَا كُنْتم تَعْمَلُونَ؟﴾. [النمل: ٩٠].

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم. فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه. فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيْد﴾. [فصلت: ٤٦].

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

الموضع السابع: من معرفة نفس المسؤول، وهو الصراط المستقيم.

ولا تكون الطريق صراطًا حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعيُّنه طريقًا للمقصود. ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل

(١) تقدم هذا البحث نقلاً عن المفتاح ص (٢٦) بأوسع من هذا.

بين نقطتين. وكلما تعوج طال وبعد. واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود. ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته. وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تعينه طريقًا.

و«الصراط» تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى: ﴿وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾. [الأنعام: ١٥٣]. وقوله: ﴿وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ: صِرَاطِ اللهِ﴾. [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وتارة يضاف إلى العباد، كما في الفاتحة. لكونهم أهل سلوكه. وهو المنسوب(١) لهم. وهم المارون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المنعم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال.

فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة. لأن العبد؛ إما أن يكون عالمًا بالحق، أو جاهلاً به. والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفًا له. فهذه أقسام المكلفين. لا يخرجون عنها ألبتة.

فالعالم بالحق العامل به: هو المنعم عليه. وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح. وهو المفلح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾. [الشمس: ٩].

والعالم به المتبع هواه: هو المغضوب عليه.

والجاهل بالحق: هو الضال. والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل. والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل. فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به.

ومن ههنا كان اليهود أحق به. وهو متغلظ في حقهم. كقوله تعالى في حقهم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا به أَنْفُسَهُمْ: أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾. [البقرة: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ؟ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ. أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾. [المائدة: ٦٠].

والجاهل بالحق: أحق باسم الضلال. ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى؛ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُم غَيْرَ الْحَقِّ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ

---

(١) كذا ولعله «المنصوب» (ج).

قَدْ ضلُّوْا مِنْ قبلُ وأضَلُّوا كثيراً، وضلُّوا عَنْ سَوَاء السَّبِيل﴾. [المائدة: ٧٧].

فالأولى: في سياق الخطاب مع اليهود. والثانية: في سياقه مع النصارى.

وفي الترمذي وصحيح ابن حبَّان. من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «**اليهود مغضوب عليهم. والنصارى ضالون**».

ففي ذكر المنعَم عليهم ـ وهم من عرف الحق واتبعه ـ والمغضوب عليهم ـ وهم من عرفه واتبع هواه ـ والضالين ـ وهم من جهله ـ: ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة. لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود. وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة. **وأضاف** النعمة إليه، وحذف فاعل الغضب لوجوه.

منها: أن النعمة هي الخير والفضل. والغضب من باب الانتقام والعدل. والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين، وأسبقهما وأقواهما. وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه. وحذف الفاعل في مقابلتهما، كقول مؤمني الجن: ﴿**وَأَنَّا لَا نَدرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ، أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُم رَشَدًا؟**﴾. [الجن: ١٠].

ومنه: قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين: ﴿**فَأَرَادَ رَبُّك أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا**﴾. [الكهف: ٨٢].

وقال في خرق السفينة: ﴿**فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيْبَهَا**﴾. [الكهف: ٧٩]. ثم قال بعد ذلك: ﴿**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِيْ**﴾. [الكهف: ٨٢].

وتأمل قوله تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ**﴾. [البقرة: ٨٧].

وقوله: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيكُم الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحم الخنزير**﴾. وقوله: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُم أُمَّهَاتُكُم**﴾. [النساء: ٢٣]. ثم قال: ﴿**وَأُحِلَّ لَكُم مَا وَرَاءَ ذَلِكُم**﴾. [النساء: ٢٤].

وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة؛ ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم. وأما مطلق النعمة: فعلى المؤمن والكافر. فكل الخلق في نعمه. **وهذا** فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافر من نعمة أم لا؟

فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان. ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر.

كما قال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعمَةَ الله لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُوم**

كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤]. **والنعمة** من جنس الإحسان، بل هي الإحسان. والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر. والمؤمن والكافر.

وأما الإحسان المطلق: فللذين اتقوا والذين هم محسنون.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم﴿ وَمَا بِكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾. [النحل:٥٣]. فأضيف إليه ما هو منفرد به. وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقًا ومجرى للنعمة.

وأما الغضب على أعدائه: فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه. فكان في لفظة «المغضوب عليهم» بموافقة أوليائه له: من الدلالة على تفرده بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها؛ ما ليس في لفظة «المنعم عليهم».

الوجه الثالث: أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه، وتحقيره وتصغير شأنه؛ ما ليس في ذكر فاعل النعمة، من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره، ورفع قدره، ما ليس في حذفه.

فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه، ورفع قدره، فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان، وخلع عليه وأعطاه ما تمناه. كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أكرم وخلع عليه وشرف وأُعطي.

وتأمل سرًا بديعًا في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره. فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية، التي هي العلم النافع والعمل الصالح. وهي الهدى ودين الحق. ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء. فهذا تمام النعمة. ولفظ «أنعمتَ عَلَيهم» يتضمن الأمرين:

وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضًا أمرين:

الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان.

والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه. فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال. فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم. وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم. فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله، وغضب الله عليه.

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب. وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال.

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال. فذكر «المغضوب عليهم» و «الضالين» في مقابلة المهتدين المنعم عليهم. وهذا كثير في القرآن، يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح.

فالثاني كقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. [البقرة: ٥]. وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. [الأنعام: ٨٢].

والأول كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾. [القمر: ٤٧]. وقوله: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. [البقرة: ٧].

وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى، فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾. [طه: ١٢٣]. فهذا الهدى والسعادة.

ثم قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا. وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا؟ قَالَ: كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾. [طه: ١٢٤ - ١٢٦]. فذكر الضلال والشقاء.

فالهدى والسعادة متلازمان. والضلال والشقاء متلازمان.

فصل

وذكر «الصِراط المُستقيم» مفردًا معرفًا تعريفين: تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة. وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد.

وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. [الأنعام: ١٥٣]. فوحد لفظ «الصراط» و «سبيله». وجمع «السبل» المخالفة له.

وقال ابن مسعود: «خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ

فَتَفَرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيله. ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعلَّكُم تَتَّقُون﴾. [الأنعام:١٥٣]. وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد. وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه. لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق. ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد. فإنه متصل بالله، موصل إلى الله. قال الله تعالى: **﴿هذَا صِرَاط عَليَّ مُسْتَقِيمٌ﴾**. [الحجر:٤١].

قال الحسن: معناه صراط إليّ مستقيم.

وهذا يحتمل أمرين: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة «على» مقام «إلى».

والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى. وهو الأشبه بطريق السلف. أي: صراط موصل إليّ.

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه، لا يعرج على شيء. وهذا مثل قول الحسن، وأبين منه. وهو من أصح ما قيل في الآية.

وقيل: «عليّ» فيه للوجوب، أي: عليّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه.

والقولان نظير القولين في آية النحل. وهي: **﴿وَعَلَى الله قَصْدُ السَّبِيل﴾**. [النحل:٩]. والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر: أن السبيل القاصد ـ وهو المستقيم المعتدل ـ يرجع إلى الله، ويوصل إليه. قال طُفَيل الغَنَوي:

مَضَوا سَلفًا، قَصد السبيل عليهم وصرفُ المنايا بالرجال تَشَقْلب

أي: ممرنا عليهم، وإليهم وصولنا. وقال الآخر:

فهن المنايا: أي واد سلكته عليها طريقي، أو علي طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء، لا أداة «على» التي هي للوجوب. ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال **﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ علينا حِسَابَهُمْ﴾**. [الغاشية:٢٥،٢٦]. وقال: **﴿إلينا مَرجعهُم﴾**. [يونس:٧٠]. وقال **﴿ثُمَّ إِلى رَبِّهِم مَّرجِعُهُم﴾**. [الأنعام:١٠٨]. وقال، لما أراد الوجوب: **﴿ثُمَّ إِنَّ علينا حسابهم﴾**. [الغاشية:٢٦]. وقال: **﴿إِنَّ عَلَينا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾**. [القيامة:١٧]. وقال: **﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرضِ إِلَّا عَلَى الله رِزقُها﴾**. [هود:٦]. ونظائر ذلك؟.

قيل: في أداة «على» سر لطيف. وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى. وهو حق. كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُولئك عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ﴾. [البقرة:٥]. وقال لرسوله ﷺ ﴿فَتَوكَّلْ عَلَى الله إنَّك عَلَى الحقِ المُبين﴾. [النمل:٧٩]. والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق. فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى. فكان في أداة «على» على هذا المعنى ما ليس في أداة «إلى» فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضًا. وكيف يكون المؤمن مستعليًا على الحق، وعلى الهدى؟.

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه. فكان في الإتيان بأداة «على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته.

وهذا بخلاف الضلال والريب. فإنه يؤتي فيه بأداة «في» الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ في رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدونَ﴾. [التوبة:٤٥]. وقوله: ﴿والَّذين كذَّبُوا بآياتنا صُمٌّ وَبُكْمٌ في الظُّلُماتِ﴾. [الأنعام:٣٩]. وقوله: ﴿فَذَرْهُم في غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حين﴾. [المؤمنون:٥٤]. وقوله: ﴿وَإنَّهُمْ لَفي شَكٍّ منه مُرِيْبٌ﴾. [هود:١١٠].

وتأمل قوله تعالى: ﴿وإنَّا أو إيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أوْ في ضَلَالٍ مُبين﴾. [سبأ:٢٤]. فإن طريق الحق تأخذ علوًا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سُفلاً، هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

وفي قوله تعالى: ﴿قال: هَذَا صِراطٌ عَلَيَّ مُستقيمٌ﴾. [الحجر:٤١]. قول ثالث: وهو قول الكسائي: إنه على التهديد والوعيد، نظير قوله: ﴿إنَّ رَبَّكَ لَبالْمرصَاد﴾. كما يقال: طريقك علي، وممرك علي. لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك، ولا معجز، والسياق يأبى هذا، ولا يناسبه لمن تأمله. فإنه قاله مجيباً لإبليس الذي قال: ﴿لأغْويَنَّهمْ أجمعينَ، إلاَّ عبادكَ مِنْهم المُخلَصينَ﴾. [الحجر:٣٩، ٤٠]. فإنه لا سبيلَ لي إلى إغوائهم، ولا طريق لي عليهم.

فقرر الله عز وجل ذلك أتم التقرير. وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم. فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط، لأنه صراط

عليّ. ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط، ولا الحوم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله. فلا يصل عدو الله إلى أهله.

فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل، ولينظر إلى هذا المعنى، ويوازن بينه وبين القولين الآخرين، أيهما أليق بالآيتين، وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف؟

وأما تشبيه الكسائي له بقوله: ﴿**إنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد**﴾. [الفجر: ١٤]. فلا يخفى الفرق بينهما سياقًا ودلالة. فتأمله.

ولا يقال في التهديد: هذا طريق مستقيم عليّ، لمن لا يسكله. وليست سبيل المهدِّد مستقيمة. فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم. وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله. فلا يستقيم هذا القول ألبتة.

وأما من فسره بالوجوب، أي عليّ بيان استقامته والدلالة عليه. فالمعنى صحيح. لكن في كونه هو المراد بالآية نظر. لأنه حذف في غير موضع الدلالة. ولم يؤلف الحذف المذكور، ليكون مدلولاً عليه إذا حذف. بخلاف عامل الظرف إذا وقع صفة. فإنه حذف مألوف معروف. حتى إنه لا يذكر ألبتة.

فإذا قلت: له درهم علي. كان الحذف معروفًا مألوفًا. فلو أردت: عليَّ نقده، أو عليّ وزنه وحفظه، ونحو ذلك، وحذفت: لم يسغ. وهو نظير: عليّ بيانه، المقدر في الآية، مع أن الذي قال السلف أليق بالسياق، وأجلُّ المعنيين وأكبرهما.

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رضي الله عنه يقول: وهما نظير قوله تعالى: ﴿**إنَّ عَلَينا للهدى. وإنَّ لَنا للآخرةَ والأولى**﴾. [الليل: ١٢، ١٣].
قال: فهذه ثلاثة مواضع في القرآن في هذا المعنى.

قلت: وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة ﴿**وَالَّليلِ إذا يَغشى**﴾. إلا معنى الوجوب.

أي: علينا بيان الهدى من الضلال.

ومنهم من لم يذكر في سورة «النحل» إلا هذا المعنى كالبغوي. وذكر في «الحِجْر» الأقوال الثلاثة. وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة «النحل» واختار شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث.

فصــــل

والصراط المستقيم : هو صراط الله . وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه، كما ذكرنا.

ويخبر سبحانه أنه على الصراط المستقيم. وهذا في موضعين من القرآن. في هود، والنحل.

قال في هود: **﴿مَا مِنْ دَابةٍ إلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصيتهَا، إنَّ رَبِّي عَلى صِرَاطٍ مُّسْتَقيم﴾**. [هود: ٥٦].

وقال في النحل: **﴿وَضَرَبَ الله مَثَلاً: رَجُلَين، أَحَدهُما أبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلى شَيء، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَه، أيْنَما يُوجِّههُّ لَا يَأْت بخير، هَلْ يَستوي هُوَ وَمَنْ يَأمُرُ بالعدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقيم ؟﴾**. [النحل: ٧٦].

فهذا مثل ضربه الله للأصنام التي لا تسمع. ولا تنطق ولا تعقل، وهي كَلٌّ على عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، ويضعه ويقيمه ويخدمه. فكيف يسوونه في العبادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد؟ وهو قادر متكلم، غني. وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله. فقوله صدق ورشد ونصح وهدى، وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة.

هذا أصح الأقوال في الآية. وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره. ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال، ثم حكاها بعده، كما فعل البغوي، فإنه جزم به، وجعله تفسير الآية. **ثم** قال: وقال الكلبي : يدلكم على صراط مستقيم.

قلت: ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم. فإن دلالته بفعله وقوله، وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله. فلا يناقض قول من قال: إنه سبحانه على الصراط المستقيم.

قال: وقيل : هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل. وهو على صراط مستقيم.

قلت: وهذا حق لا يناقض القول الأول فالله على الصراط المستقيم، ورسوله عليه. فإنه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضاه وموجبه. وعلى هذا يكون المثل مضروبًا لإمام الكفار وهاديهم، وهو الصنم الذي هو أبكم، لا يقدر على هدى ولا خير. ولإمام الأبرار، وهورسول الله ﷺ الذي يأمر بالعدل. وهو على صراط مستقيم.

وعلى القول الأول: يكون مضروبًا لمعبود الكفار ومعبود الأبرار. والقولان متلازمان. فبعضهم ذكر هذا. وبعضهم ذكر هذا. وكلاهما مراد من الآية.

قال: وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر. يرويه عطية، عن ابن عباس.

وقال عطاء: الأبكم أبي بن خلف، ومن يأمر بالعدل: حمزة وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون.

قلت: والآية تحتمله. ولا يناقض القولين قبله، فإن الله على صراط مستقيم، ورسوله وأتباع رسوله. وضد ذلك: معبود الكفار وهاديهم، والكافر التابع والمتبوع والمعبود. فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع. وبعضهم ذكر الهادي، وبعضهم ذكر المستجيب القابل. وتكون الآية متناولة لذلك كله. ولذلك نظائر كثيرة في القرآن.

وأما آية هود: فصريحة لا تحتمل إلا معنى واحدًا. وهو أن الله سبحانه على صراط مستقيم. وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم. فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة **﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾**. [الأنعام: ١١٥] وأفعاله كلها مصالح وحكم، ورحمة وعدل وخير. فالشر لا يدخل في أفعاله ولا أقواله ألبتة، لخروج الشر عن الصراط المستقيم. فكيف يدخل في أفعال من هو على الصراط المستقيم، أو أقواله؟ وإنما يدخل في أفعال من خرج عنه[1] وفي أقواله.

وفي دعائه عليه الصلاة والسلام: «**لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك**» ولا يلتفت إلى تفسير من فسره بقوله: والشر لا يُتقرب به إليك، أو لا يصعد إليك. فإن المعنى أجل من ذلك، وأكبر وأعظم قدرًا. فإن مَنْ أسماؤه كلها حسنى، وأوصافه كلها كمال، وأفعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل: يستحيل دخول الشر في أسمائه أو أوصافه، أو أفعاله أو أقواله. فطابقْ بين هذا المعنى وبين قوله: **﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**. [هود: ٥٦]

وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله: **﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾**. [هود: ٥٦] أي هو ربي، فلا يُسلمني ولا يضيعني. وهو ربكم فلا يسلطكم عليّ ولا يمكنكم مني. فإن نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئًا بدون

(١) لعله من خرج عنه في أفعاله وفي أقواله (ج).

مشيئته، فإن ناصية كل دابة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه. فهو المتصرف فيها. ومع هذا، فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها: على صراط مستقيم. لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة. ولو سلطكم عليّ فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه. لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم. لا يظلم ولا يفعل شيئًا عبثًا بغير حكمة.

فهكذا تكون المعرفة بالله، لا معرفة القدرية المجوسية، والقدرية الجبرية، نفاة الحكم والمصالح والتعليل. والله الموفق سبحانه.(١)

فصل

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثرُ الناس ناكبون عنه، مريدًا لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزة. والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين **﴿أنْعم الله عَلَيهم من النَّبيينَ والصِّديقينَ والشُّهَداء والصَّالحِين. وَحسُن أولئك رفيقًا﴾**. [النساء: ٦٩]

فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له وهم الذين أنعم الله عليهم ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه.

وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم. فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له. فإنهم هم الأقلُّون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا.

كما قال بعض السلف: «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين».

وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم. وغض الطرف عمن سواهم. فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا. وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم. فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك.

وقد ضربت لذلك مثلين. فليكونا منك على بال.

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غيرها. فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلامًا يؤذيه. فوقف ورد عليه،

(١) سيأتي إن شاء الله البحث فيما ذكره في سورة هود والنحل والحجر اهـ ج.

وتماسكا. فربما كان شيطان الإنس أقوى منه، فقهره، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة. وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة. فإن التفت إليه أطمعه في نفسه. وربما فترت عزيمته. فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجَمْز[1] بقدر التفاته أو أكثر. فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت: لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه. فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق: ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم. وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت «**اللهم اهدني فيمن هديت**» أي أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك. فاجعل لي نصيبًا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم. فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق عليّ في جملة من تصدقت عليهم. وعلمني في جملة من علمته. وأحسن إليّ في جملة من شملته بإحسانك.

فصل

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونَيْلُه أشرفَ المواهب: علَّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده. ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم. . فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم. توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته. وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء.

ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه. والإمام أحمد والترمذي.

---

(٢) الجمز: سرعة السير والعدو.

أحدهما: حديث عبدالله بن بُريدة، عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو، ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. فقال: «**والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى**». قال الترمذي: حديث صحيح. .

فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالواحدانية. وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد».

وهو كما قال ابن عباس: «العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته».

وفي راوية عنه: «هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد».

وقال أبو وائل: «هو السيد الذي انتهى سؤدده».

وقال سعيد بن جبير: «هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله».

وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: «وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد» وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة. والتوسل بالإيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: اللهم إني أسالك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنّان، بديع السموات والأرض. ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال: «**لقد سأل الله باسمه الأعظم**» فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين، وهما التوسل بالحمد، والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب ـ وهو الهداية ـ بعد الوسيلتين، فالداعي به حقيق بالإجابة.

ونظير هذا: دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل. رواه البخاري في صحيحه، من حديث ابن عباس: «**اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت. وبك خاصمت، وإليك حاكمت. فاغفر**

لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت» فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له. ثم سأله المغفرة.

فصـــل

في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد. ونوع في الإرادة والقصد. ويسمى الأول: التوحيد العلمي. والثاني: التوحيد القصدي الإرادي. لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة. والثاني بالقصد والإرادة. وهذا الثاني أيضًا نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية. فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال. والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا شيئان: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه وأما المفصل: فذكر صفة الإلهية والربوبية، والرحمة والملك. وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له. فلا يكون حامدًا من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها. **ولهذا** كان الحمد كله لله حمدًا لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لا يحصى أحد من خلقه ثناءً عليه، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه.

ولهذا ذمّ الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها. فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدي، ولا تنفع ولا تضر. وهذه صفة إله الجهمية، التي عاب بها الأصنام، نسبوها إليه، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في محاجّته لأبيه: ﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا؟**﴾. [مريم:٤٢].

فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة وَالمثابة لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة، فكيف تنكر عليّ؟ لكن كان ـ مع شركه ـ أعرف بالله من الجهمية.

وكذلك كفار قريش كانوا ـ مع شركهم ـ مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه.

وقال تعالى: ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعدِه مِنْ حُلِيِّهْم عِجْلاً جَسَدًا لَه خُوَار. ألم يَروا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمِهُمُ وَلَا يَهْدِيْهِم سَبِيلاً؟ اتَّخَذُوهُ وكانُوا ظَالِمِينَ**﴾. [الأعراف: ١٤٨].

فلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن في هذا إنكار عليهم، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك. **فإن** قيل: فالله تعالى لا يكلم عباده.

قيل: بلى قد كلمهم. فمنهم من كلمـه الله من وراء حجاب، منه إليه بلا واسطة، كموسى. **ومنهم** من كلمه الله على لسان رسوله الملكي. وهم الأنبياء.

وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله. فأنزل عليهم كلامه الذي بلغته رسله عنه. وقالوا لهم: هذا كلام الله الذي تكلم به، وأمرنا بتبليغه إليكم.

ومن ههنـا قال السلف: من أنكـر كون الله متكلمًا فقد أنكر رسالة الرسل كلهم. لأن حقيقتهـا تبليغ كلامـه الذي تكلم به إلى عباده. فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة.

وقال تعالى: في سورة طه عن السامري: ﴿**فَأَخْرَجَ لَهُمُ عجلاً جَسَدًا لَه خُوَارٌ، فَقَالُوا: هَذَا إلَهُكُم وَإلهُ موُسَى، فَنَسِيَ. أَفَلَا يَروْنَ أَنْ لَّا يَرجع إليهم قولاً، وَلَا يَمِلكُ لَهُمُ ضرًا وَلَا نَفْعًا؟**﴾. [طه: ٨٨، ٨٩]. ورجع القول: هو التكلم والتكليم.

وقال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ الله مَثَلاً: رَجُلَين أَحدُهُما أَبْكم لَا يَقدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُـوَ كَلٌّ عَلَى مَولَاهُ، أينـما يُوَجّهـهُ لَا يأتِ بخـير، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَّأْمُرُ بالعدلِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُستَقيم؟**﴾. [النحل: ٧٥].

فجعـل نفي صفـة الكـلام موجبًـا لبطلان الإلهية. وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية: أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا، ولا مدبرًا، ولا ربًّا، بل هو مذموم، معيب ناقص، ليس له الحمد، لا في الأولى، ولا في الآخرة، وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال، التي لأجلها استحق الحمد.

ولهذا سمى السلف كتبهم التي صنفوها في السنة، وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه، وكلامه وتكليمه: توحيدًا. لأن نفي ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع، وجحد له. وإنما توحيده: إثبات صفة كماله، وتنزيهه عن التشبيه والنقائص. فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيدًا. وجعلوا إثباتها لله تشبيهًا وتجسيمًا وتركيبًا. فسموا الباطل باسم الحق، ترغيبًا فيه، وزخرفًا يُنفِّقونه به. وسموا الحق باسم الباطل تنفيرًا عنه.

والناس أكثرهم مع ظاهر السِّكَّة. ليس لهم نقد النقاد ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ. وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾. [الكهف: ١٧].

والمحمود لا يحمد على العدم والسكوت ألبتة، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص، تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه، ولا مدح ولا كمال.

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه، وتعبيد كل شيء له. فاتخاذ الولد ينافي ذلك، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، سُبْحَانَهُ، هُوَ الْغَنِيُّ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. [يونس: ٦٨].

وحمد نفسه على عدم الشريك، المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره، فيكون شريكًا له. فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه. لأن الموجود أكمل من المعدوم.

ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمنًا لثبوت كمال.

كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمنه كمال حياته.

وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم، لتضمن ذلك كمال قيوميته.

وحمد نفسه بأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لكمال علمه وإحاطته.

وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحدًا، لكمال عدله وإحسانه.

وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار، لكمال عظمته، يُرى ولا يدرك، كما أنه يعلم ولا يحاط به علمًا.

فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال. لأن العدم لا يرى. فليس في كون الشيء لا

يرى كمال ألبتة. وإنما الكمال في كونه لا يحاط به رؤية ولا إدراكًا، لعظمته في نفسه، وتعاليه عن إدراك المخلوق له.

وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان، لكمال علمه.

فكل سلب في القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده، ولتضمنه كمال ثبوت ضده **فعلمت** أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال، وأن نفيها نفي لحمده، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده.

فصــــل

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات.

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبني على أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله. فهي مشتقة من الصفات. فهي أسماء، وهي أوصاف. وبذلك كانت حُسْنَى، إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال. ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس. فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقم.

واللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها.

قال تعالى: ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾. [الأعراف: ١٨٠].

ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها. لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾. [الذاريات: ٥٨]. فعلم أن «القويَّ» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة.

وكذلك قوله: ﴿**فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾. [فاطر: ١٠]. فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويًا ولا عزيزًا.

وكذلك قولـه: ﴿أَنْزلـه بعِلْمِه﴾. [النساء: ١٦٦]. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِل بِعِلْم الله﴾. [هود: ١٤]. ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِه﴾. [البقرة: ٢٥٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» فأثبت المصدر الذي اشتقَّ منه اسمه «البصير».

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «**الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات**» **وفي** الصحيح حديث الاستخارة: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك**» فهو قادر بقدرة.

وقال تعالى لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي﴾. [لأعراف: ١٤٤]. فهو متكلم بكلام.

وهو العظيم الذي له العظمة، كما في الصحيح عنه ﷺ: «**يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي**».

وهو الحكيم الذي له الحكم ﴿فَالْحُكْمُ لله العَلِيِّ الكبير﴾. [غافر: ١٢].

وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أو سمعه، أو بصره، أو قوته، أو عزته، أو عظمته انعقدت يمينه، وكانت مكفرة. لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه.

وأيضًا: لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يَسُغْ أن يخبر عنه بأفعالها. فلا يقال: يسمع ويرى، ويعلم ويقدر ويريد. فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها. فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها.

وأيضًا فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان، وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة، التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به. فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها. وهذا مكابرة صريحة، وبَهْت بَيِّن.

فإن من جعل معنى اسم «القدير» هو معنى اسم «السميع، البصير» ومعنى اسم «التواب» هو معنى اسم «المنتقم» ومعنى اسم «المعطى» هو معنى اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها: والإلحاد فيها أنواع، هذا أحدها.

الثاني: تسمية الأوثان بها، كما يسمونها آلهة. وقال ابن عباس ومجاهد: «عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا. فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان».

وروى عن ابن عباس: ﴿**يلحدون في أسمائه**﴾. [الأعراف: ١٨٠]. «يكذبون عليه» وهذا تفسير بالمعنى.

وحقيقة الإلحاد فيها: العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها عنها. هذا حقيقة الإلحاد. ومن فعل ذلك فقد كذب على الله. ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب، أو هو غاية الملحد في أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها، وخرج بها عن حقائقها، أو بعضها، فقد عدل بها عن الصواب والحق، وهو حقيقة الإلحاد.

فالإلحاد: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد. فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها، حتى قال زعيمهم(١): «وهو المسمى بكل اسم ممدوح عقلًا، وشرعًا وعرفًا، وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفًا» تعالى الله عما يقول الملحدون علوًّا كبيرًا.

فصل

الأصل الثاني: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة. فإنه يدل عليه دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم.

فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة.

ويدل على الصفة الأخرى باللزوم. فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة. وعلى الذات وحدها. وعلى السمع وحده بالتضمن. ويدل على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته.

ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه.

ومن ههنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام. فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال

(١) هو أبو سعيد الخراز الذي قال عن ربه: وهو المسمى بأبي سعيد الخراز.

من لوازم الحياة الكاملة؛ أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها.

وكذلك اسم «العلي» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم «العلي» العلو المطلق، بكل اعتبار. فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات. فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلي».

وكذلك اسمه «الظاهر» من لوازمه: أن لا يكون فوقه شيء، كما في الصحيح، عن النبي ﷺ: «**وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء**» بل هو سبحانه فوق كل شيء. فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولا يصح أن يكون «الظاهر» هو من له فوقيه القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج. لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوَّق أظهر من الفائق فيها. ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهرًا بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ «الباطن» وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل «الأول» الذي ليس قبله شيء، بـ «الآخر» الذي ليس بعده شيء.

وكذلك اسم «الحكيم» من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه. فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه. وكذلك سائر أسمائه الحسنى.

فصل

إذا تقرر هذان الأصلان. فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث. فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص. ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾. [الأعراف: ١٨٠]. ويقال: «الرحمن والرحيم، والقدوس والسلام، والعزيز، والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز» ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التي اشتق منها اسم «الله»، واسم «الله» دال على كونه مألوهًا معبودًا، تألهه الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا، وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد. وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله. إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله. وصفات الجلال والجمال: أخص باسم «الله».

وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع. والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة. وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان، والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف: أخص باسم «الرحمن» وكرر إيذانًا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن: الذي الرحمة وصفه. والرحيم: الراحم لعباده. ولهذا يقول تعالى: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾. [الأحزاب: ٤٣]. ﴿**إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾. [التوبة: ١١٧]. ولم يجىء رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلىء غضبًا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملىء بذلك، فبناء فَعْلان للسعة والشمول.

ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾. [طه: ٥]. ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ**﴾. [الفرقان: ٥٩]. فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات، قد وسعها. والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ**﴾. [الأعراف: ٥٦]. فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك وسعت رحمته كل شيء.

وفي الصحيح، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش. إن رحمتى تغلب غضبي»** وفي لفظ **«فهو عنده على العرش»**.

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. [طه: ٥]. وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَن فَاسْأَل بِهِ خَبِيْرًا﴾. [الفرقان: ٥٩]. ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى، إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم.

وصفات العدل، والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر، والحكم، ونحوها: أخص باسم «الملك» وخصه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، لتفرده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة. ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

فصل

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة. وهي «الله، والرب، والرحمن» كيف نشأ عنها الخلق، والأمر والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع. ولها الفرق.

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات. فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته. وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره. فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألّهه وحده السعداء، وأقروا له طوعًا بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين: فريقًا مشركين في السعير، وفريقًا موحدين في الجنة. والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية.

فالالهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية.

فالدين والشرع، والأمر والنهي - مظهره، وقيامه :- من صفة الإلهية.

والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار: من صفة الملك.

وهو ملك يوم الدين. فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته. وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله. وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة: فهي التعلق، والسبب الذي بين الله وبين عباده. فالتأليه منهم له والربوبية منه لهم، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه. وبها هداهم. وبها أسكنهم دار ثوابه. وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم. فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته. فـ ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[طه:٥]. مطابق لقوله: ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمنِ الرَّحِيْمِ**﴾. [الفاتحة:٢،٣]. فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها. فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه ربًّا للعالمين مايدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شيء، كما يأتي بيانه إن شاء الله.

فصل

في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود. فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿**وَالله غَنِيٌّ حَمِيْدٌ**﴾. [التغابن:٦]. ﴿**وَالله عَلِيْم حَكِيْم**﴾. [التوبة:١١٠]. ﴿**وَالله قَدِيرٌ والله غفور رَّحِيمٌ**﴾. [الممتحنة:٧]. فالغنى صفة كمال. والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضًا. وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضًا. وقدرته كمال، ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفو بعد القدرة ﴿**إِنَّ الله كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا**﴾. [النساء:١٤٩]. واقتران العلم بالحلم ﴿**وَالله عَلِيمٌ حليم**﴾. [النساء:١٢].

وحملة العرش أربعة: اثنان يقولان: «**سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك**» واثنان يقولان: «**سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك**» فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليمًا، ولا كل حليم عالم. فما قُرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم. ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العِزَيزُ الرَّحِيمُ**﴾. [الشعراء:٩].

ومن ههنا كان قول المسيح عليه السلام: ﴿«إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ. وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. [المائدة: ١١٨]. أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة. وهي كمال القدرة. وعن حكمة، وهي كمال العلم. فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني [لا يكون قادرًا حكيمًا عليمًا. بل لا يكون ذلك إلا عجزًا[1]] فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها.

فهذا أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فاتت. فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. كان في هذا ـ من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها ـ ما ينزه عنه منصب المسيح عليه السلام، لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل لله ولدًا، واتخذه إلهًا من دونه. فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة.

وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ. فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]. ولم يقل: فإنك عزيز حكيم. لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي إن تغفر لهم وترحمهم، بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**».

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كلَّ اسم يناسب ما ذكر معه، واقترن به، من فعله وأمره. والله الموفق للصواب.

فصل

في مراتب الهداية الخاصة والعامة. وهي عشر مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه. وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه. قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾. [النساء: ١٦٤].

---

(١) ما بين المربعين زدناه ليتصل الكلام. هذا كلام الطابع الأول (ج).

فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه. وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية.

ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر «كلم» وهو «التكليم» رفعًا لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام، أو إشارة، أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم. فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز.

قال الفراء: العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلامًا بأي طريق وصل. ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالإرادة. يقال: فلان أراد إرادة، يريدون حقيقة الإرادة. ويقال: أراد الجدار، ولا يقال: إرادة. لأنه مجاز غير حقيقة. هذا كلامه.

وقال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ: رَبِّ أَرِنِي أَنظر إليكَ**﴾. [الأعراف:١٤٣]. وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون. وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر، لا في الأول. وفيه أعطي الألواح. وكان عن مواعدة من الله له. والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة. وفيه قال الله له: ﴿**يَامُوسَى إني اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي**﴾. [الأعراف: ١٤٤]. أي بتكليمي لك بإجماع السلف.

وقد أخبر سبحانه في كتابه: أنه ناداه، وناجاه. فالنداء من بُعد، والنجاء من قرب. تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء. أو نجاء[1] وقال له أبوه آدم في محاجته: «**أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده؟**».

وكذلك يقول له أهل الموقف، إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه.

وكذلك في حديث الإسراء، في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة، على اختلاف الرواية. قال: «**وذلك بتفضيله بكلام الله**» ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى. ولا كان يسمى «كليم الرحمن».

وقال تعالى: ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء**﴾. [الشورى: ٥١].

---

(١) في لسان العرب: وفي حديث الشعبي «إذا عظمت الحلقة فهي نداء ونجاء».

ففرق بين تكليم الوحي، والتكليم بإرسال الرسول، والتكليم من وراء حجاب.

المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء. قال الله تعالى: ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده**﴾. [النساء: ١٦٣].

وقال: ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب**﴾. الآية [الشورى: ٥١].

فجعل الوحي في هذه الآية قسمًا من أقسام التكليم. وجعله في آية النساء قسيمًا للتكليم. وذلك باعتبارين. فإنه قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة.(١)

والوحي في اللغة: هو الإعلام السريع الخفي، ويقال في فعله: وَحَى، وأوحى. قال رؤبة: (وحى لها القرار فاستقرت) **وهو أقسام، كما سنذكره.**

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري. فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه. فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلًا، يراه عيانًا ويخاطبه. وقد يراه على صورته التي خلق عليها. وقد يدخل فيه الملك، ويوحي إليه ما يوحيه، ثم يَفْصِم عنه، أي يقلع. والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ.

المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث. وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما قال النبي ﷺ: **«إنه كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب»**.

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله يقول: جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا. وعلق وجودهم في هذه الأمة: بـ«إن» الشرطية، مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى مُحدَّث ولا مُلْهَم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها.

والمحدث: هو الذي يحدَّث في سره وقلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث. لأنه استغنى بكمال صديقيته

---

(١) سيأتي له بحث بأطول من هذا في سورة النساء إن شاء الله تعالى (ج)

ومتـابعته عن التحديث والإلهام والكشف. فإنه قد سَلَّم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول. فاستغنى به عما منه(١).

قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول. فإن وافقه قبله، وإلا رده. فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات «حدثني قلبي عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عَمَّن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: «حدثني قلبي عن ربي» كان مسندًا الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب.

قال: ومحدَّث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوَّه به يومًا من الدهر. وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك. بل كتب كاتبه يومًا «**هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب**» فقال: «**لا. امحُهْ، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب. فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه بريء**» وقال: في الكلالة: «**أقول فيها برأيي. فإن يكن صوابًا فمن الله. وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان**».

فهذا قول المحدث بشهادة الرسول ﷺ. وأنت ترى الاتحادي والحلولي والإباحي الشطاح، والسماعي: مجاهر بالقِحَة والفرية. يقول «حدثني قلبي عن ربي».

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين. وأعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئًا واحدًا.

المرتبة: الخامسة: مرتبة الإفهام.

قال: الله تعالى: ﴿**وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث، إذ نَفَشَت فيه غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين. ففهّمناها سليمان، وكُلًّا آتينا حكمًا وعلمًا**﴾. [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

فذكر هذين النبيين الكـريمـين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم. وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة.

وقـال علي بن أبي طالب ـ وقد سئل: «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون

---

(١) كذا في الأصل. ولعل الصواب «لرسالة الرسول، فاستغنى بها عن التحديث» لأن الصديقية تكون أيضًا بعد موت الرسول، كما نرجو أن يكون شيخ الإسلام وتلميذه من الصديقين، وإنما كان تسليمهم لرسالة الرسول ﷺ، علمًا وعقيدة وعملاً وحالاً وأدبًا وخلقًا، ودعوة وحبًّا وكرهًا وموالاة.

الناس؟» ـ فقال: «لا، والذي فَلَق الحبة وبرأ النَّسَمة، إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه، وما في هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يُقْتَلَ مسلم بكافر».

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «والفهم الفهمَ فيما أدلى إليك» فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه. يعرف به، ويدرك مالا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص مالا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عُدَّ ألفٌ بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ وما خص به ابن عباس من فهمه منها «أنها نَعْيُ الله سبحانه نبيه إلى نفسه» وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنًا. وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره. ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه. وأما في حق صاحب الفهم: فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام. وهو تبيين الحق وتميزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه. بحيث يصير مشهودًا للقلب، كشهود العين للمرئيات.

وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لا يعذب أحدًا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها. قال الله تعالى: ﴿**وما كان الله لِيُضِلَّ قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون**﴾. [التوبة: ١١٥].

فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به. فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدًا قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب. وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده. والقرآن يصرح بهذا

في غير موضع، كقوله: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**﴾. [الصف: ٥]. ﴿**وقولهم قلوبنا غُلْفٌ. بل طبع الله عليها بكفرهم**﴾. [النساء: ١٥٥]. فالأول: كفر عناد. والثاني: كفر طبع، وقوله: ﴿**ونُقلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾. [الأنعام: ١١٠]. فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلَّب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل. فإنه موضع عظيم.

وقال تعالى: ﴿**وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى**﴾. [فصلت: ١٧]. فهذا هدى بعد البيان والدلالة. وهو شرط لا موجب. فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء. وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوَّة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية، وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه. ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر في آياته المشهودة ويحضهم على التفكر في هذه وهذه. وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل. وجُعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، وبعد ذلك يضل الله من يشاء.

قال الله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم. فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء. وهو العزيز الحكيم**﴾. [إبراهيم: ٤].

فالرسل تبين. والله هو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته.

المرتبة السابعة: البيان الخاص. وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية ألبتة.

قال تعالى في هذه المرتبة: ﴿**إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل**﴾. [النحل: ٣٧].

وقال: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء**﴾. [القصص: ٥٦]. فالبيان الأول شرط. وهذا موجب.

المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع. قال الله تعالى: ﴿ **ولو علم الله فيهم خيراً**

لأسمعهم ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون﴾. [الأنفال:٢٣]. وقد قال تعالى: **﴿وما يستوى الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما يستوى الأحياء ولا الأموات. إن الله يُسمع من يشاء. وما أنت بمسمع من في القبور. إنْ أنت إلا نذير﴾**. [فاطر: ١٩ - ٢٣].

وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ. فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم. لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب. فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما. فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب. فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله: **﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحْدَث إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم﴾**. [الأنبياء: ٢].

وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها. وأما مقصود السماع وثمرته، والمطلوب منه: فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلاً للحاضر معه: **﴿ ماذا قال آنفًا؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾**. [محمد: ١٦].

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم. فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه.

ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر. وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته.

ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب ويترتب على هذا السماع سماع القبول.

فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن، وسماع القلب، وسماع القبول والإجابة.

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام. قال تعالى: **﴿ونفسٍ وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها﴾**. [الشمس: ٧، ٨]. وقال النبي ﷺ لحصين بن منذر الخزاعي لما أسلم: «**قل: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي**».

وقد جعل صاحب المنازل «الإلهام» هو مقام المحدثين.

قال: وهو فوق مقام الفراسة. لأن الفراسة ربما وقعت نادرة، واستصعبت على صاحبها وقتًا، أو استعصت عليه، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد.

قلت: التحديث أخص من الإلهام. فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان.

فأما التحديث: فالنبي ﷺ قال فيه: «**إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر**» يعني من المحدثين. فالتحديث إلهام خاص. وهو الوحي إلى غير الأنبياء.

إما من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿**وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه**﴾. [القصص:٧].

وقوله: ﴿**وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي**﴾. [المائدة:١١١].

وإما من غير المكلفين، كقوله تعالى: ﴿**وأوحى ربك إلى النَّحل أن اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون**﴾. [النحل:٦٨]. فهذا كله وحي إلهام.

وأما جعله فوق مقام الفراسة: فقد احتج عليه بأن الفراسة ربما وقعت نادرة كما تقدم. والنادر لا حكم له. وربما استعصت على صاحبها واستصعبت عليه فلم تطاوعه. والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد، يعني في مقام القرب والحضور.

والتحقيق في هذا: أن كل واحد من «الفراسة» و «الإلهام» ينقسم إلى عام وخاص. وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر، وعام كل واحد قد يقع كثيرًا، وخاصه قد يقع نادرًا. ولكن الفرق الصحيح: أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل **وأما** الإلهام فموهبة مجردة، لا تنال بكسب ألبتة.

فصـــل

قال: وهو على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى: نبأ يقع وحيًا قاطعًا مقرونًا بسماع. إذ مطلق النبأ الخبر الذي له شأن. فليس كل خبر نبأ، وهو نبأ خبر عن غيب معظم.

ويريد بالـوحي والإلهـام: الإعلام الذي يقطع من وصل إليه بموجبه، إما بواسطة سمع، أو هو الإعلام بلا واسطة.

قلت: أمـا حصـولـه بواسـطة سمـع: فليس ذلك إلهامًا. بل هو من قبيل الخطاب. وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء. وهو الذي خُصَّ به موسى، إذ كان المخاطبُ هو الحق عز وجل.

وأما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع: فهو من أحد وجوه ثلاثة. لا رابع لها.

أعلاها: أن يخاطبه الملك خطابًا جزئيًا. فإن هذا يقع لغير الأنبياء. فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام. فلما اكْتَوى تركت خطابه. فلما ترك الكي عاد إليه خطاب ملكي. وهو نوعان:

أحدهما: خطاب يسمعه بأذنه. وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين.

والثاني: خطاب يلقى في قلبه يخاطب به الملك روحه، كما في الحديث المشهور «إن للملك لَمَّة بقلب ابن آدم. وللشيطان لمة. فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد» ثم قرأ ﴿**الشيطان يَعِدُكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً**﴾. [البقرة: ٢٦٨].

وقال تعالى: ﴿**إذ يوحي ربك إلى الملائكة: أني معكم. فثبتوا الذين آمنوا**﴾. [الأنفال: ١٢]. قيل: في تفسيرها: قَوُّوا قلوبهم، وبشروهم بالنصر.

وقيل: احضُروا معهم القتال. والقولان حق. فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم. ومن هذا الخطاب: واعظ الله عز وجل في قلوب عباده المؤمنين.

كما في جامع الترمذي ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعـالى ضرب مثـلاً: صِراطـا مستقيمًا. وعلى كَنَفَتي الصراطِ سوران، لهما أبـواب مفتحة، وعلى الأبوابَ ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس

الصراط. وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام. والسوران: حدود الله. والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد في حَدٍ من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعي على رأس الصراط: كتاب الله. والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن» فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة.

وأما وقوعه بغير واسطة: فمما لم يتبين بعد. والجزم فيه بنفي أو إثبات موقوف على الدليل. والله أعلم.

النوع الثاني من الخطاب المسموع: خطاب الهواتف من الجان. وقد يكون المخاطب جنيًّا مؤمنًا صالحًا. وقد يكون شيطانًا. وهذا أيضًا نوعان.

أحدهما: أن يخاطبه خطابًا يسمعه بأذنه.

والثاني: أن يلقى في قلبه عندما يُلِمُّ به. ومنه وعده وتَمْنيته حين يَعِدُ الإنسى ويُمنِّيه، ويأمره وينهاه. كما قال تعالى: ﴿**يعدهم ويمنيهم. وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا**﴾. [النساء: ١٢٠]. وقال: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**﴾. [البقرة: ٢٦٨]. وللقلب من هذا الخطاب نصيب. وللأذن أيضًا منه نصيب. والعصمة منتفية إلا عن الرسل. ومجموع الأمة.

فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحماني، أو ملكي؟ بأي برهان؟ أو بأي دليل؟ والشيطان يقذف في النفس وحيه. ويلقى في السمع خطابه. فيقول المغرور المخدوع «قيل لي، وخوطبت» صدقت، لكن الشأن في القائل لك والمخاطب. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغيلان بن سلمة ـ وهو من الصحابة لما طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه ـ: «**إني لأظن الشيطان ـ فيما يسترق من السمع ـ سمع بموتك. فقذفه في نفسك**» فمن يأمن القراء بعدك يا شهر؟...

(١) **المرتبة** العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة. وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**».

وقد قيل: في سبب هذا التخصيص المذكور: إن أول مبتدأ الوحي كان هو الرؤيا الصادقة، وذلك نصف سنة. ثم انتقل إلى وحي اليقظة مدة ثلاث وعشرين سنة، من حين بعث إلى أن توفي، صلوات الله وسلامه عليه. فنسبة مدة الوحي

---

(١) ٥٠ مدارج جـ١.

في المنـام من ذلك: جزء من ستة وأربعين جزءًا. وهذا حسن. لولا ما جاء في الرواية الأخرى الصحيحة: «**إنها جزء من سبعين جزءًا**».

وقد قيل: في الجمع بينهما: إن ذلك بحسب حال الرائي، فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين. ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين. والله أعلم.

والرؤيا: مبدأ الوحي. وصدقها بحسب صدق الرائي. وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثًا. وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطىء، كما قال النبي ﷺ؛ وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها. فيتعوض المؤمنون بالرؤيا. وأما في زمن قوة نور النبوة: ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

ونظير هذا الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة. ولم تظهر عليهم، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم. وقد نص أحمد على هذا المعنى.

وقال عبادة بن الصامت: «**رؤيا المؤمن كلام، يكلم به الرب عبده في المنام**».

وقد قال النبي ﷺ: «**لم يبق من النبوة إلا المبشرات**». قيل: وما المبشرات، يا رسول الله؟ قال: «**الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو تُرَى له**» وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب.

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال: «**أرى رؤيـاكم قد تواطأت في العشر الأواخر. فمن كان منكم مُتَحَرِّيها فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان**».

والرؤيا كالكشف، منها رحماني. ومنها نفساني. ومنها شيطاني.

وقال النبي ﷺ: «**الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة. فيراه في المنام**».

والذي هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التي من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحي. فإنها معصومة من الشيطان. وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحي الصريح. فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي، بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منهبة على اندراج قضية خاصة في حكمه، لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك.

ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة على الأمر والنهي. ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة. ويذكر الله حتى تغلبه عيناه. فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار. فإنه وقت النزول الإلهي، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين. وعكسه رؤيا العَتَمة، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية.

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: **«رؤيا المؤمن كلام، يكلم به الرب عبده في المنام»**. (١)

وللرؤيا ملك موكل بها، يُريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله. فيضربها لكل أحد بحسبه.

وقال مالك: **«الرؤيا من الوحي وحي»** وزَجَر عن تفسيرها بلا علم. وقال **«أتتلاعب بوحي الله؟»**.

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفاصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها، يخرجنا ذكرها عن المقصود. والله أعلم.

فصل

في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين: شفاء القلوب، وشفاء الأبدان.

فأما اشتمالها على شفاء القلوب: فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال. فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم. وفساد القصد.

ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب.

فالضلال نتيجة فساد العلم. والغضب نتيجة فساد القصد.

وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها. فهداية الصراط المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال. ولذلك كان سؤال هذه الهداية: أفرض دعاء على كل عبد. وأوجبه عليه كل يوم وليلة. في كل صلاة، لشدة ضرورته وفاقته إلى

(١) مكرر تقدم قريبًا.

الهداية المطلوبة. ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقق بـ ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥]. علمًا ومعرفة، وعملاً وحالاً: يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد. فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل. فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدًا.

وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبة غير الله وعبوديته: من المشركين، ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل. فإذا جاء الحق معارضًا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم. فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل. فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى. وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان. فإذا لم يجدوا منه بدًّا أعطوه السكة والخطبة(١) وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين. لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به ﴿**وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم مرض، أم ارتابوا؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟ بل أولئك هم الظالمون**﴾. [النور: ٤٨ - ٥٠].

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم. وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات. وهم أعظم الناس ندامة وتحسرًا، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن رَكْب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا. ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله. ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ. وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حقت الحقائق. وفاز المحقون وخسر المبطلون. وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين. فياله هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه.

(١) السكة: المراد منها الاسم والشعار يضرب على النقود، ويقصد بذلك ما كان عليه الخلفاء في وقته، إذ لم يكن لهم من الخلافة إلا الصور. أما الحكم النافذ في الأمور فلغيرهم.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه. فحاله أيضًا كحال هذا. وكلاهما فاسد القصد. ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾[الفاتحة: ٥].

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء: (١) عبودية الله لا غيره (٢) بأمره وشرعه (٣) لا بالهوى (٤) ولا بآرء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم (٥) بالاستعانة على عبوديته به (٦) لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام. وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولابد. وهما الرياء، والكبر فدواء الريا بـ ﴿**إياك نعبد**﴾ ودواء الكبر بـ ﴿**إياك نستعين**﴾.

وكثيرا ماكنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول ﴿**إياك نعبد**﴾ تدفع الرياء ﴿**وإياك نستعين**﴾ تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ ﴿**إياك نعبد**﴾ ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿**إياك نستعين**﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾. [الفاتحة: ٦]. عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفّل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة. وكان من المنعم عليهم ﴿**غير المغضوب عليهم**﴾. وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه ﴿**والضالين**﴾. وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحُق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين: أن يُسْتَشْفَى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه. فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله (١)وكلامه وفهمت عنه فهمًا خاصًا، اختصها به، من معاني هذه السورة.

وسنبين إن شاء الله تعالى تضمنها للرد على جميع أهل البدع بأوضح البيان وأحسن الطرق.

(١) كذا في الأصل، والظاهر أن الواو زائدة (ج).

فصـــــل

وأما تضمنها لشفاء الأبدان، فنذكر منه ماجاءت به السنة، وما شهدت به قواعد الطب، ودلت عليه التجربة.

فأما مادلت عليه السنة: ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري «أن ناسًا من أصحاب النبي، ﷺ، مروا بحي من العرب. فلم يَقْرُوهم، ولم يُضَيِّفُوهم. فلُدغ سيد الحي. فأتوهم. فقالوا: هل عندكم من رُقية، أو هل فيكم من راق؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا. فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم على ذلك قطيعًا من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب. فقام كأن لم يكن به قَلَبَة. فقلنا: لا تعجلوا حتى نأتي النبي، ﷺ، فأتيناه فذكرنا له ذلك. فقال: «مايدريك أنها رقية؟ كلوا، واضربوا لي معكم بسهم». فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه. فأغنته عن الدواء. وربما بلغت من شفائه مالم يبلغه الدواء.

هذا مع كون المحل غير قابل، إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم فكيف إذا كان المحل قابلاً.

فصـــــل

وأما شهادة قواعد الطب بذلك: فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحُمْات والسموم. وهي ذوات الأنفس الخبيثة التي تتكيف بكيفية غضبية، تثير فيها سُمية نارية، يحصل بها اللدغ. وهي متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها. فإذا تكيَّفت أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سمية، تجد راحة ولذة في إلقائها إلى المحل القابل، كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة في إيصال شره إلى من يوصله إليه.

وكثير من الناس لا يهنأ له عيش في يوم لا يؤذى فيه أحدًا من بني جنسه. ويجد في نفسه تأذيًا بحمل تلك السمية والشر الذي فيه، حتى يفرغه في غيره. فيبرد عند ذلك أنينه. وتسكن نفسه. ويصيبه في ذلك نظير مايصيب من اشتدت شهوته إلى

الجماع. فيسوء خلقه. وتثقل نفسه حتى يقضي وطره. هذا في قوة الشهوة. وذاك في قوة الغضب.

وقد أقام الله تعالى بحكمته السلطان وازعًا لهذه النفوس الغضبية. فلولا هو لفسدت الأرض وخربت ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾. [البقرة: ٢٥١]. وأباح الله ـ بلطفه ورحمته ـ لهذه النفوس من الأزواج وملك اليمين مايكسر حدتها.

والمقصود أن هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه، ومنها ما يؤثر في المحل بمجرد مقابلته له، وإن لم يمسه، فمنها مايطمس البصر، ويسقط الحبل.

ومن هذا نظر العائن. فإنه إذا وقع بصره على المعين حدثت في نفسه كيفية سمية أثرت في المعين بحسب عدم استعداده. وكونه أعزل من السلاح، وبحسب قوة تلك النفس.

وكثير من هذه النفوس يؤثر في المعين إذا وصف له. فتتكيف نفسه وتقابله على البعد فيتأثر به. ومنكر هذا ليس معدودًا من بني آدم إلا بالصورة والشكل.

فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التي فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية. وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها، وماتضمنته من التوحيد والتوكل، والثناء على الله، وذكر أصول أسمائه الحسنى، وذكر اسمه الذي ماذكر على شر إلا أزاله ومحقه، ولا على خير إلا نماه وزاده. دفعت هذه النفس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية، فحصل البرء.

فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده. وحفظ الشيء بمثله فالصحة تحفظ بالمثل. والمرض يدفع بالضد. أسبابٌ ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقاً وأمراً. ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة. وقبول من الطبيعة المنفعلة. فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية، ولم تقو نفس الراقي على التأثير، لم يحصل البرء.

فهنا أمور ثلاثة: موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل. فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء. وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولابد بإذن الله سبحانه وتعالى.

ومن عرف هذا كما ينبغي تبين له أسرار الرقى. وميز بين النافع منها وغيره. ورقى الداء بما يناسبه من الرقى. وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل، كما أن

السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع. وهذه إشارة مطلعة على ماوراءها لمن دق نظره، وحسن تأمله. والله أعلم.

وأما شهادة التجارب بذلك: فهي أكثر من أن تذكر. وذلك في كل زمان. وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أمورًا عجيبة. ولا سيما مدة المقام بمكة. فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة، بحيث تكاد تقطع الحركة مني. وذلك في أثناء الطواف وغيره. فأبادر إلى قراءة الفاتحة، وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط. جربت ذلك مرارًا عديدة. وكنت آخذ قدحًا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مرارًا. فأشربُهُ فأجدُ بِهِ من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمر أعظم من ذلك. ولكن بحسب قوة الإيمان، وصحة اليقين والله المستعان.

فصـــل

في اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة.

وهذا يعلم بطريقين: مجمل، ومفصل:

أما المجمل: فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق، وإيثاره، وتقديمه على غيره، ومحبته والانقياد له، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق: هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما جاء به علمًا وعملاً في باب صفات الرب سبحانه، وأسمائه وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وفي حقائق الإيمان، التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى. وكل ذلك مسلَّم إلى رسول الله ﷺ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم.

فكل علم أو عمل أو حقيقة، أو حال أو مقام خرج من مشكاة نبوته، وعليه السكة المحمدية، بحيث يكون من ضرب المدينة. فهو من الصراط المستقيم، وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال. فما ثَمَّ خروج عن هذه الطرق الثلاث:

طريق الرسول ﷺ وما جاء به.

وطريق أهل الغضب، وهي طريق من عرف الحق وعانده.

وطريق أهل الضلال: وهي طريق من أضله الله عنه.

ولهذا قال عبدالله ابن عباس، وجابر بن عبدالله رضي الله عنهم: «**الصراط المستقيم: هو الإسلام**».

وقال عبدالله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: «**هو القرآن**».

وفيه حديث مرفوع في الترمذي وغيره، وقال سهل بن عبدالله: «**طريق السنة والجماعة**». وقال بكر بن عبدالله المزني: «**طريق رسول الله ﷺ**».

ولا ريب أن ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه علمًا وعملاً وهو معرفة الحق وتقديمه، وإيثاره على غيره. فهو الصراط المستقيم.

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له.

فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ما خالفه فباطل. وهو من صراط الأمتين:

الأمة الغضبية، وأمة أهل الضلال.(١).

فصل (٢)

في بيان تضمنها للرد على الرافضة وذلك من قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾. [الفاتحة: ٦]. إلى آخرها.

ووجه تضمنه إبطال قولهم: أنه سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

«**منعم** عليهم» وهم أهل الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق واتبعوه.

و «**مغضوب** عليهم» وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه.

و «**ضالون**» وهم الذين جهلوه فأخطؤوه.

فكل من كان أعرف للحق، وأتبع له: كان أولى بالصراط المستقيم.

ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم: هم أولى بهذه الصفة من الروافض. فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ - ورضي الله عنهم - جهلوا الحق وعرفه الروافض، أو رفضوه وتمسك به الروافض.

ثم إنا رأينا آثار الفريقين تدل على أهل الحق منهما. فرأينا أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا بلاد الكفر، وقلبوها بلاد إسلام. وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم والهدى. فآثارهم تدل على أنهم هم أهل الصراط المستقيم.

ورأينا الرافضة بالعكس في كل زمان ومكان. فإنه قَطُّ ما قام للمسلمين عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الإسلام. وكم جَرُّوا على الإسلام وأهله من بليَّة!! وهل عاثت سيوف المشركين عُبّاد الأصنام - من عسكر هولاكو وذويه من التتار - إلا من تحت رءوسهم؟ وهل عطلت المساجد، وحرقت المصاحف، وقتل سروات المسلمين وعلماؤهم وعبادهم وخليفتهم، إلا بسببهم ومن جَرّائهم؟ ومظاهرتهم للمشركين والنصارى معلومة عند الخاصة والعامة، وآثارهم في الدين معلومة. فأي الفريقين أحق بالصراط المستقيم؟ وأيهم أحق بالغضب والضلال، إن كنتم تعلمون؟.

---

(١) تفصيل الرد على المبطلين، وهم أنواع كثيرة من ملاحدة وجبرية وجهمية وغيرهم تركناه اختصارًا ما عدا الرافضة، وهو موجود في الأصل من المدارج الجزء الأول لمن أراده (ج).

(٢) ٧٢ مدارج جـ١.

ولهذا فسر السلف الصراط المستقيم وأهله: بأبي بكر وعمر، وأصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم، وهو كما فسروه. فإنه صراطهم الذي كانوا عليه. وهو عين صراط نبيهم. وهم الذين أنعم الله عليهم، وغضب على أعدائهم، وحكم لأعدائهم بالضلال.

وقال أبو العالية ـ رُفيع الرياحي ـ والحسن البصري، وهما من أجل التابعين: «**الصراط المستقيم: رسول الله ﷺ وصاحباه**».

وقال أبو العالية أيضًا في قوله: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾. [الفاتحة: ٧]. «**هم آل رسول الله ﷺ، وأبوبكر وعمر**». وهذا حق. فإن آله وأبا بكر وعمر على طريق واحدة. ولا خلاف بينهم، وموالاة بعضهم بعضًا، وثناؤهم عليهما، ومحاربة من حاربا، ومسالمة من سالما: معلومة عند الأمة. خاصها وعامها.

وقال زيد بن أسلم: «**الذين أنعم الله عليهم: هم رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر**». ولا ريب أن المنعم عليهم: هم أتباعه، والمغضوب عليهم: هم الخارجون عن اتباعه، وأتبع الأمة له وأطوعهم: أصحابه وأهل بيته. وأتبع الصحابة له: السمع والبصر، أبو بكر وعمر. وأشد الأمة مخالفة له: هم الرافضة، فخلافهم له معلوم عند جميع فرق الأمة. ولهذا يبغضون السنة وأهلها، ويعادونها ويعادون أهلها. فهم أعداء سنته ﷺ. وأهل بيته وأتباعه من بنيهم أكمل ميراثًا؛ بل هم ورثته حقًّا.

فقد تبين أن الصراط المستقيم: طريق أصحابه وأتباعه. وطريق أهل الغضب والضلال: طريق الرافضة.

وبهذه الطريق ـ بعينها ـ يرد على الخوارج. فإن معاداتهم الصحابة معروفة.

فصل

وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب: انتهى إلى هاتين الكلمتين. وعليهما مدار العبودية والتوحيد. حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب. جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن. وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن. وجمع معاني القرآن في المفصل. وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين. فنصفهما له تعالى وهو

﴿إياك نعبد﴾ ونصفها لعبده. وهو ﴿إياك نستعين﴾.

وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

و«العبادة» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع.

والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل. والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له. ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له، حتى تكون محبًا خاضعًا.

ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبًا لهم. بل هو غاية مطلوبهم ـ ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم ـ: منكرين لكونه إلهًا، وإن أقروا بكونه ربًا للعالمين وخالقًا لهم. فهذا غاية توحيدهم. وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك.

كما قال تعالى: ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم؟ ليقولن الله**﴾. [الزخرف: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ ليقولن الله**﴾. [الزمر: ٣٨]. ﴿**قل لمن الأرض ومن فيها؟ ـ إلى قوله ـ سيقولون لله. قل فأنى تُسْحَرون؟**﴾. [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩]. ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

و«الاستعانة» تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه. فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره ـ مع ثقته به ـ لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه ـ مع عدم ثقته به ـ لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه. فيحتاج إلى اعتماده عليه. مع أنه غير واثق به.

و«التوكل» معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد. وهو حقيقة ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥].

وهذان الأصلان ـ وهما التوكل، والعبادة ـ قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها. هذا أحدها. الثاني: قول شعيب: ﴿**وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب**﴾. [هود: ٨٨]. الثالث: قوله تعالى: ﴿**ولله غيب السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه**﴾. [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى: حكاية عن المؤمنين: ﴿**ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا**

وإليك المصير﴾. [الممتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿**واذكر اسم ربك وتَبَتَّلْ إليه تبتِيلاً. رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو، فاتخذه وكيلاً**﴾. [المزمل: ٨، ٩].

السادس: قوله تعالى: ﴿**قل: هو ربي. لا إله إلا هو، عليه توكلت وإليه متاب**﴾. [الرعد: ٣٠].

فهذه[1] ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين. وهما: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥].

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل. إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها.

ولأن ﴿**إياك نعبد**﴾ متعلق بألوهيته واسمه «الله».

و﴿**إياك نستعين**﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب» فقدم ﴿**إياك نعبد**﴾ على ﴿**إياك نستعين**﴾ كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة.

ولأن ﴿**إياك نعبد**﴾ قسم الرب. فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به.

و ﴿**إياك نستعين**﴾ قسم العبد. فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ إلى آخر السورة.

ولأن «العبادة» المطلقة: تتضمن «الاستعانة» من غير عكس. فكل عابد لله عبودية تامة: مستعين به ولا ينعكس. لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته. فكانت العبادة أكمل وأتم. ولهذا كانت قسم الرب.

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس. ولأن «الاستعانة» طلب منه، و «العبادة» طلب له. ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، و «الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص. ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك، و «الاستعانة» طلب العون على العبادة.

وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك. وأداء حقه: أهم من التعرض لصدقته.

ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، و «الإعانة» فعله بك

---

(١) تقدم أنه ذكر أنها سبعة مواضع.

وتـوفيقـه لك. فإذا التـزمت عبوديته، ودخلت تحت رقِّهَا أعانك عليها. فكان التزامها والدخول تحت رقها سببًا لنيل الإعانة. وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

و «**العبودية**» محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى. وهكذا أبدًا، حتى يقضي العبد نَحبْه.

ولأن «إياك نعبد» له. و «إياك نستعين» به. وماله مقدم على ما به.

ولأن ماله متعلق بمحبته ورضاه. وما به متعلق بمشيئته. وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئتـه، فإن الكـون كله متعلق بمشيئتـه، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي. والمتعلق بمحبته: طاعاتهم وإيمانهم. فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته. ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدًا. وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فبهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم «إياك نعبد» على «إياك نستعين».

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم. وفيه الاهتمام وشدة العناية به. وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصْر فهـو في قوة: لا نعبـد إلا إياك، ولا نستعـين إلا بك. والحـاكم في ذلـك ذوق العـربية والفقـه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدمًا. وسيبويه نص على الأهم، ولم ينف غيره.

ولأنه يقبح من القائل: أن يعتق عشرة أعبد مثلاً، ثم يقول لأحدهم: إياك أعتقت. ومن سمعـه أنكـر ذلك عليه، وقال: وغيره أيضًا أعتقت. ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام، ولا حسن إنكاره.

وتـأمـل قولـه تعـالى: ﴿**وإيــاي فارهبــون**﴾. [البقـرة: ٤٠]. ﴿**وإيــاي فاتقـون**﴾. [البقرة: ٤١]. كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي؟ وكـذلـك «إياك نعبـد وإياك نستعين». هو في قوة: لا نعبد غيرك. ولا نستعين بسواك. وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق.

ولا عبرة بجـدل من قلَّ فهمه، وفتح عليه باب الشك والتشكيك. فهؤلاء هم آفة العلوم، وبلية الأذهان والفهوم، مع أن في ضمير «إياك» من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل. ففي: إياك قصدت، وأحببت: من

الدلالة على معنى: حقيقتك وذاتك قصدي، ما ليس في قولك: قصدتك وأحببتك. وإياك أعني، فيه معنى: نفسك وذاتك وحقيقتك أعني.

ومن ههنا قال من قال من النحاة: إن «إيّا» اسم ظاهر مضاف إلى الضمير المتصل. ولم يردَّ عليه بردٍّ شاف.

ولولا أنّا في شأن وراء هذا لأشبعنا الكلام في هذه المسألة، وذكرنا مذاهب النحاة فيها، ونصرنا الراجح. ولعلنا أن نعطف على ذلك بعون الله.

وفي إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين. ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت لملك مثلاً: إياك أحب، وإياك أخاف. كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره، ما ليس في قولك: إياك أحب وأخاف.

إذا عرفت هذا؛ فالناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام:

أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها. فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها. ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى: الإعانة على مرضاته، وهو الذي عَلَّمه النبي ﷺ، لِحِبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال: «**يا معاذ، والله إني لأحبك. فلا تنس أن تقول دُبُرَ كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته. وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب. وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته. ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥].

ومقابل هؤلاء: القسم الثاني. وهم المُعْرِضون عن عبادته والاستعانة به. فلا عبادة ولا استعانة. بل إن سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه. **فإنه** سبحانه يسأله من في السموات والأرض: يسأله

أولياؤه وأعداؤه ويمدُّ هؤلاء وهؤلاء.

وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها. ولكن لما لم تكن عونًا له على مرضاته. كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه.

وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عونًا على طاعته: كان مبعدًا له عن مرضاته، قاطعًا له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره. وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته. ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له. فيمنعه حماية وصيانة وحفظًا، لا بخلاً.

وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه.

فيظن ـ بجهله ـ أن الله لا يحبه ولا يكرمه. ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه. وهذا حشو قلبه ولا يشعر به. والمعصوم من عصمه الله. والإنسان على نفسه بصيره. وعلامة هذا: حمله على الأقدار. وعتابه الباطن لها. كما قيل:

وعـاجـز الـرأي مِضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إليّ؟ والعاقل خصم نفسه. والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا معينًا خِيرته وعاقبته مغيبة عنك. وإذا لم نجد من سؤاله بُدًّا، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة. وقدم بين يدي سؤالك الاستخـارة. ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها. ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، بل إن وُكِل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته.

ولا تظن أن عطاءه كلَّ ما أعطى لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل ما يمنْعه لهوان

عبده عليه، ولكنْ عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده.

قال الله تعالى: ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونَعَّمه، فيقول: ربي أكرَمَن. وأما إذا ما ابتلاه فَقَدر عليه رزقه فيقول: ربي أهانَنْ* كلا**﴾. [الفجر: ١٥ - ١٧].

أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليّ. ولكنه ابتلاء مني، وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخَوِّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقَدَر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه عليّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سَعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

فرد الله سبحانه على مَنْ ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليَّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره. فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويُقَتِّر على المؤمن لا لإهانته. إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. فله الحمد على هذا وعلى هذا. وهو الغني الحميد.

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥].

فصــل

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة. وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدرية، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل. فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل. فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها. بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة. فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء. ولكنَّ أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان. وخذل هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفر. فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة، لا استعانة معه. فهم موكولون إلى أنفسهم. مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده**».

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد: ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب. ومن الآلة إلى الفاعل. فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من «إياك نستعين» ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم .ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم. ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته، لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق، والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس. وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس. فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَليٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أَبَوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما. فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس هَمِّه على إنزال ما ينويه بهما. فهذه حال المتوكل. ومن كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولابد.

قال الله تعالى: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾. [الطلاق:٣]. أي كافيه. و«الحسب» الكافي. فإن كان ـ مع هذا ـ من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو.

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يَدُرْ مع ما يحبه ويرضاه. فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه

وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به. فقضيت له، وأسعف بها. سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهًا عند الخلق، أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له. فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال، لا تستلزم الإسلام، فضلاً عن الولاية والقرب من الله. فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر. فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين. فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه. فالحال من الدنيا. فهو كالملك والمال، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره: ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه، ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة.

فصل

إذا عرف هذا: فلا يكون العبد متحققًا بـ ﴿**إياك نعبد**﴾ إلا بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرسول ﷺ. والثاني: الإخلاص للمعبود. فهذا تحقيق ﴿**إياك نعبد**﴾.

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضًا إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة. وهم أهل «إياك نعبد» حقيقة. فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله. فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده. لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هربًا من ذمهم. بل قد عَدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم: لا يكون من عارف بهم ألبتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه.

فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم. ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه. ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه. وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه. وهو الذي بَلا عباده بالموت والحياة لأجله.

قال الله تعالى: ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليَبْلُوكم أيُّكم أحسنُ عملاً**﴾. [الملك: ٢]. وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملا.

قال الفضيل بن عياض: «العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا: لم يقبل. وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا: لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص: ما كان لله.

والصواب: ما كان على السنة. وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا**﴾. [الكهف: ١١٠].

وفي قوله: ﴿**ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾. [النساء: ١٢٥].

فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره. وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يُرَد عليه ـ أحوج ما هو إليه ـ هباء منثورًا.

وفي الصحيح: من حديث عائشة، عن النبي ﷺ: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**».

وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا. فإن الله تعالى إنما يُعبَد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

الضرب الثاني[1]: من لا إخلاص له ولا متابعة. فليس عمله موافقًا لشرع، وليس هو خالصًا للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله. وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله عز وجل. ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿**لا تَحْسَبَنَّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا. فلا تحسبنهم بمفَازة من العذاب. ولهم عذاب أليم**﴾. [آل عمران: ١٨٨].

يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص. وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف ـ من المتنسبين إلى العلم والفقر والعبادة ـ عن الصراط المستقيم. فإنهم يرتكبون البدع والضلالات، والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم. فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال

(١) هذا هو القسم الثاني من الأقسام الأربعة التي انقسم إليها الناس بحسب الإخلاص والمتابعة.

العبَّاد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله. كمن يظن أن سماع المُكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة. وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: مَنْ أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله. كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل رياء وَحميَّة وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال. فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة. فلا تقبل ﴿**وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾. [البينة: ٥].

فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر. والإخلاص له في العبادة. وهم أهل ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥].

ثم أهل مقام ﴿**إياك نعبد**﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق. فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر على قدر المشقة. ورووا حديثًا لا أصل له: «**أفضل الأعمال أحمزها**» أي أصعبها وأشقها وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك. إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها. ثم هؤلاء قسمان: فعوامهم: ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه. ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة. فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته. فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء: قسمان. فالعارفون المتبعون منهم: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرَّقهم وأذهب جمعيتهم. والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله. فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه. وربما يقول قائلهم:

يطالب بالأوراد من كان غافلاً فكيف بقلب كل أوقاته ورد؟

ثم هؤلاء أيضًا قسمان: منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعض هؤلاء شيخًا عارفًا، فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي، فما الأفضل في حقي؟ فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم، وأجب داعي الله، ثم عد إلى موضعك. وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي حق الرب. ومن آثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل «إياك نعبد».

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر. فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل. فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي ﷺ: «**الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله**».

رواه أبو يعلى. واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفّاع متعد إلى الغير. وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمْر النعم**» وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي. واحتجوا بقوله ﷺ: «**من دعا إلى هُدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء**».

واحتجوا بقوله ﷺ: «**إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير**».

وبقوله ﷺ: «**إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها**».

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، مادام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم. لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب. ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس. ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضي ذلك الوقت ووظيفته.

فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار. بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكـذلك في أداء حق الزوجة والأهل. والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

الأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع. وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به. فتجمع قلبك على فهمه وتدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير. فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قَلَّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال. والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق. والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تعبده عليها. فهو لايزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره.

فإن رأيت العلماء رأيته معهم. وإن رأيت العباد. رأيته معهم.

وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم. وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم.

وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم. وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم. فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه.

فهذا هو المتحقق بـ ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ حقًّا، القائم بهما صدقًا، مَلْبَسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه. ويدور معه حيث استقلت مضاربه. يأنس به كل مُحِقٍّ. ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع. وكالنخلة لا يسقط ورقها. وكلها منفعة حتى شوكها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله. فهو لله وبالله ومع الله. قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناسَ بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم. وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها. فواهًا له! ما أَغْرَبَه بين الناس! وما أشدَّ وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان. وعليه التكلان.

فصل

ثم للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة. وهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاة الحِكَم والتعليل، الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة، وصِرْف الإرادة. فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر، من غير أن تكون سببًا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببًا لنجاة. وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة.

كما قالوا في الخلق: إنه لم يخلق ما خلقه لعلة، ولا لغاية هي المقصودة به، ولا لحكمة تعود إليه منه. وليس في المخلوقات أسباب مقتضيات لمسبباتها، ولا فيها قُوى ولا طبائع. فليست النار سببًا للإحراق، ولا الماء سببًا للإرواء والتبريد، وإخراج النبات، ولا فيه قوة ولا طبيعة تقتضي ذلك. وحصول الإحراق والرِّي ليس بهما، لكن بإجراء العادة الاقترانية على حصول هذا عند هذا، لا بسبب ولا بقوة قامت به.

وهكذا الأمر عندهم في أمره الشرعي سواء. لا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور به صفة اقتضت حسنه، ولا المنهي عنه صفة اقتضت قبحه.

ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة فاسدة. وقد ذكرناها في كتابنا الكبير المسمى «مفتاح دار السعادة. ومطلب أهل العلم والإرادة» وبينا فساد هذا الأصل من نحو ستين وجهًا وهو كتاب بديع في معناه. وذكرناه أيضًا في كتابنا المسمى «سَفَر الهجرتين، وطريق السعادتين».

وهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها، ولا يتنعمون بها. وليست الصلاة قرة أعينهم. وليست الأوامر سرور قلوبهم، وغذاء أرواحهم وحياتهم. ولهذا يسمونها «تكاليف» أي قد كلفوا بها. ولو سمى مُدَّع لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفًا، وقال: إني إنما أفعله بكلفة: لم يعده أحد محبًا له.

ولهذا أنكر هؤلاء ـ أو كثير منهم ـ محبة العبد لربه. وقالوا: إنما يحب ثوابه وما يخلقه له من النعيم الذي يتمتع به. لا أنه يحب ذاته. فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه.

وحقيقة العبودية هي كمال المحبة. فأنكروا حقيقة العبودية ولُبَّها.

وحقيقة الإلهية: كونه مألوهًا محبوبًا بغاية الحب، المقرون بغاية الذل والخضوع، والإجلال والتعظيم. فأنكروا كونه محبوبًا. وذلك إنكار لإلهيته.

وشيخ هؤلاء: هو الجَعد بن درهم الذي ضَحَّى به خالد بن عبدالله القَسْري في يومِ أضحى. وقال: «**إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً**».

وإنما كان إنكاره: لكونه تعالى محبوبًا محبًا، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه، التي هي الخلة عند الجهمية، التي يشترك فيها جميع الخلائق. فكلهم أخلاء الله عندهم.

وقد بينا فساد قولهم هذا وإنكارهم محبة الله من أكثر من ثمانين وجهًا في كتابنا «قرة عيون المحبين، وروضة قلوب العارفين» وذكرنا فيه وجوب تعلق المحبة بالحبيب الأول من جميع طرق الأدلة النقلية والعقلية والذوقية والفطرية وأنه لا كمال للإنسان بدون ذلك ألبتة، كما أنه لا كمال لجسمه إلا بالروح والحياة، ولا لعينه إلا بالنور الباصر، ولا لأذنه إلا بالسمع، وأن الأمر فوق ذلك وأعظم.

الصنف الثاني: القدرية النفاة، الذين يثبتون نوعًا من الحكمة، والتعليل. ولكن لا يقوم بالرب، ولا يرجع إليه. بل يرجع إلى مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته.

فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير.

قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضًا كقوله: ﴿ **ونُودوا أن تِلْكُم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾. [الإعراف: ٤٩].

وقوله: ﴿**ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾. [النحل: ٣٢]. وقوله: ﴿**هل تجزون إلا ما كنتم تعملون**﴾. [النمل: ٩٠].

وقوله ﷺ - فيما يحكي عن ربه عز وجل -: «**يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها**» وقوله تعالى: ﴿**إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾. [الزمر: ١٠].

قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاء وأجرًا وثوابًا. لأنه يثوب إلى العامل من عمله، أي يرجع إليه منه.

قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاءً ولا أجرًا ولا ثوابًا معنى.

قالوا: ويدل عليه الوزن. فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها، وكونها كالأثمان لها، لم يكن للوزن معنى.

وقد قال تعالى: ﴿**والوزن يومئذ الحق. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون**﴾. [الأعراف: ٨، ٩].

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل. وبينهما أعظم التباين.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء ألبتة. وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته، وينعم من أفنى عمره في معصيته. وكلاهما بالنسبة إليه سواء. وجوزت أن يرفع صاحبَ العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً، وأكثر وأفضل درجات. والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة، من غير تعليل ولا سبب، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب، وهذا بالعقاب.

والقدرية أوجبت على الله سبحانه رعاية الأصلح. وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنًا لها. وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله: ما أجهلهم بالله وأغرَّهم به! جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، حتى قالوا: إن إعطاءه ما يعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة. ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء ألبتة.

والطائفتان جائرتان، منحرفتان عن الصراط المستقيم، الذي فطر الله عليه عباده، وجاءت به الرسل، ونزلت به الكتب.

وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب. مقتضية لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها.

وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنّه، وصدقته على عبده. أن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحَبَّبها إليه، وزَينها في قلبه وكرَّه إليه أضدادها. ومع هذا فليست ثمنًا لجزائه وثوابه، ولا هي على قدره، بل غايتها ـ إذا بذل العبد فيها نُصْحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه ـ أن تقع شكرًا له على بعض نعمه عليه. فلو طالبه بحقه لبقي عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها. فلذلك لو عَذَّبَ أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم.. ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم. كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ.

ولهذا نفى ﷺ دخول الجنة بالعمل، كما قال: «**لن يدخل أحدًا منكم الجنة عمله**» وفي لفظ: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**».

وفي لفظ: «**لن ينجى أحدًا منكم عمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**».

وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل، كما في قوله: ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾. [النحل: ٣٢].

ولا تنافي بينهما. إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد. فالمنفيُّ استحقاقها بمجرد الأعمال، وكون الأعمال ثمنًا وعوضًا لها، ردًّا على القدرية المجوسية، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله، وأغلظهم عنه حجابًا. وحُقَّ لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة.

ويكفي في جهلهم بالله: أنهم لم يعلموا أن أهل سمواته وأرضه في مِنَّته، وأن من تمام الفرح والسرور، والغبطة واللذة: اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة. وأعظمهم منه منزلة، وأقربهم إليه: أعرفهم

بهذه المنة، وأعظمهم إقرارًا بها، وذكرًا لها، وشكرًا عليها، ومحبة له لأجلها. فهل يتقلّب أحد قط إلا في منته؟

﴿يَمُنُّون عليك أن أسلموا، قل لا تَمُنُّوا عليَّ إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾. [الحجرات: ١٧].

واحتمال مِنة المخلوق: إنما كانت نقصًا لأنه نظيره. فإذا مَنَّ عليه استعلى عليه، ورأى الممنونُ عليه نفسه دونه.

هذا مع أنه ليس في كل مخلوق، فلرسول الله، ﷺ، المنة على أمته، وكان أصحابه يقولون: «**الله ورسوله أَمَنُّ**» ولا نقص في منة الوالد على ولده، ولا عار عليه في احتمالها. وكذلك السيد على عبده.

فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم، ومحض صدقته عليهم، بلا عوض منهم ألبتة؟ وإن كانت أعمالهم أسبابًا لما ينالونه من كرمه وجوده. فهو المنان عليهم. بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها، وأعانهم عليها، وكملها لهم. وقبلها منهم على ما فيها؟ وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله: ﴿**بما كنتم تعملون**﴾. [النحل: ٣٢].

فهذه باء السببية، ردًّا على القدرية والجبرية، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال والجزاء، ولا هي أسباب له. وإنما غايتها أن تكون أمارات.

قالوا: وليست أيضًا مطردة، لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر. فلم يبق إلا محض الأمر الكوني والمشيئة.

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء، كما هي مبطلة لقول أولئك. وأدلة المعقول والفطرة أيضًا تبطل قول الفريقين. وتبين لمن له قلب ولب: مقدار قول أهل السنة. وهم الفرقة الوسط. المثبتون لعموم مشيئة الله، وقدرته، وخلقه العباد وأعمالهم، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعًا وقدرًا، وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً.

وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعًا من الحق، وارتكبت لأجله نوعًا من الباطل، بل أنواعًا.

وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه: ﴿**والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾. [البقرة: ٢١٣]. و ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو**

الفضل العظيم﴾. [الجمعة: ٤].

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة: رياضة النفوس، واستعدادها لفيض العلوم عليها، وخروج قواها عن قوى النفوس السَّبُعية والبهيمية. فلو عُطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم. والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها، وتنقلها إلى مشابهة العقول المجردة. فتصير عاملة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها. وهذا يقوله طائفتان.

إحداهما: من يقرب إلى النبوات والشرائع من الفلاسفة، القائلين بقدم العالم، وعدم انشقاق الأفلاك، وعدم الفاعل المختار.

الطائفة الثانية: من تفلسفت من صوفية الإسلام. وتقرب إلى الفلاسفة. فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس وتجردها، ومفارقتها العالم الحسي، ونزول الواردات والمعارف عليها.

ثم من هؤلاء من لا يوجب العبادات إلا لهذا المعنى. فإذا حصل لها بقي مخيرًا في حفظه أوره، أو الاشتغال بالوارد عنها.

ومنهم من يوجب القيام بالأوراد والوظائف. وعدم الإخلال بها. وهم صنفان أيضًا.

أحدهما: من يوجبونه حفظًا للقانون وضبطًا للنفوس.

والآخرون: الذين يوجبونه حفظًا للوارد، وخوفًا من تدرج النفس ـ بمفارقتها له ـ إلى حالتها الأولى من البهيمية.

فهذه نهاية أقدام المتكلمين على طريق السلوك. وغاية معرفتهم بحِكَم العبادة وما شُرعت لأجله. ولا تكاد تجد في كتب القوم غير هذه الطرق الثلاثة، على سبيل الجمع، أو على سبيل البدل.

فصــل

وأما الصنف الرابع: فهم الطائفة المحمدية الإبراهيمية، أتباع الخليلين، العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه، وأهل البصائر في عبادته، ومراده بها.

فالطوائف الثلاث محجوبون عنهم بما عندهم من الشُبه الباطلة، والقواعد الفاسدة. ما عندهم وراء ذلك شيء. قد فرحوا بما عندهم من المحال، وقنعوا بما ألفوه من الخيال. ولو علموا أن وراءه ما هو أجل منه وأعظم، لما ارتضوا بدونه، ولكن عقولهم قصرت عنه، ولم يهتدوا إليه بنور النبوة، ولم يشعروا به، ليجتهدوا في طلبه، ورأوا أن ما معهم خير من

الجهل، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده.

فتركّب من هذه الأمور إيثار ما عندهم على ما سواه. وهذه بلية الطوائف. والمعافى من عافاه الله.

فصــل

فاعلم أن سر العبودية، وغايتها وحكمتها: إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل، ولم يعطلها. وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلها، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل. وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود.

فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها، وما شرعت لأجله؟

وكيف يستقيم له العلم بأنها هى الغاية المقصودة بالخلق، والتي لها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة لله إلى مالا يليق به، ويتعالى عنه مَنْ خلق السموات والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلاً. ولم يخلق الإنسان عبثًا ولم يتركه سُدًى مهملاً.

قال تعالى: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون؟**﴾. [المؤمنون: ١١٥].

أي لغير شيء ولا حكمة، ولا لعبادتي ومجازاتي لكم.

وقد صرح تعالى بهذا في قوله: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾. [الذاريات: ٥٦]. فالعبادة: هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها.

قال الله تعالى: ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سُدًى؟**﴾. [القيامة: ٣٦]. أي مهملاً.

قال الشافعي: لا يؤمر ولا يُنْهَى، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب.

والصحيح: الأمران. فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهي. والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها. وحقيقة العبادة امتثالهما.

وقال تعالى: ﴿**ويتفكرون في خلق السموات والأرض: ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً، سبحانك! فقنا عذاب النار**﴾. [آل عمران: ١٩١].

وقال: ﴿**وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق**﴾. [الحجر: ٨٥].

وقال: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق، ولتُجْزَى كل نفس بما كسبت﴾. [الجاثية: ٢٢].

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق، المتضمن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه فإذا كانت السموات والأرض وما بينهما خلقت لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا علة له، ولا حكمة مقصودة هي غايته؟ أو إن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لا ينكّد عليهم الثواب بالمنة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية، وارتياضها بمخالفة العوائد؟

فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته.

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمال محبته. مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه. فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبِّهِ.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها. فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه. فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها.

فقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحْبِبْكم الله﴾. [آل عمران: ٣١].

فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم. ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم. فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ: هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره. ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما. فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله.

ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه ألبتة، ولا يهديه الله.

قال الله تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره. والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾. [التوبة: ٢٤].

فكل من قدّم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه. أو معاملة أحدهم على معاملة الله: فهو ممن ليس الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما. وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه.

وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله.. فذلك المقدَّم عنده أحبُّ إليه من الله ورسوله، لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه، أو طاعته أو مرضاته، ظنًّا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول. فيطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك. فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك.

وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول، وعرف أن غير من اتبعه هو أولى به مطلقًا، أو في بعض الأمور. ولم يلتفت إلى الرسول ولا إلى من هو أولى به. فهذا الذي يخاف عليه. وهو داخل تحت الوعيد. فإن استحل عقوبة من خالفه وأذله، ولم يوافقه على اتباع شيخه. فهو من الظلمة المعتدين. وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

فصــل

وبنى ﴿**إياك نعبد**﴾ على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع: فأصحاب ﴿**إياك نعبد**﴾ حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان

البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضُها أفرضُ من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها. وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فـ ﴿**إياك نعبد**﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، و﴿**إياك نستعين**﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

فصل

وجميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿**إياك نعبد، وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥]. فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم.

فقال نوح لقومه: ﴿**اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾. [المؤمنون: ٢٣].

وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم .

قال الله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾. [النحل: ٣٦].

وقال: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾. [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا. إني بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة. وأنا ربكم فاتقون**﴾. [المؤمنون: ٥١: ٥٢].

فصل

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه.

فقال: ﴿لن يَسْتَنْكِفَ المسيح أن يكون عبدًا لله، ولا الملائكة المقربون. ومن يستنكف

عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعًا﴾. [النساء: ١٧٢]. **وقال: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾**. [الأعراف: ٢٠٦].

وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء: **﴿وله من في السموات والأرض﴾**. [الأنبياء: ١٩]. ههنا.

ثم يبتدىء: **﴿ومَنْ عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾**. [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي إن له من في السموات ومن في الأرض عبيدًا وملكًا.

ثم استأنف جملة أخرى فقال: **﴿ومَنْ عنده لا يستكبرون عن عبادته﴾**. [الأنبياء: ١٩، ٢٠]

يعني أن الملائكة الذينَ عنده لا يستكبرون عن عبادته يعني لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون ـ يقال: حَسَرَ واستحسر، إذا تعب وأعيى ـ بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم.

فالأول: وصف لعبيد ربوبيته. والثاني: وصف لعبيد إلـٰهيته.

وقال تعالى: **﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَونًا﴾**. [الفرقان: ٦٣]. إلى آخر السورة. **وقال: ﴿عينًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾**. [الإنسان: ٦].

وقال: ﴿واذكر عبدنا داود﴾. [ص: ١٧].

وقال: ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾. [ص: ٤١].

وقال: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب﴾. [ص: ٤٥].

وقال عن سليمان: **﴿نعم العبد إنه أواب﴾**. [ص: ٣٠].

وقال عن المسيح: **﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه﴾**. [الزخرف: ٥٩]. فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى. ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته. فقال تعالى: **﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾**. [البقرة: ٢٣]. وقال تبارك وتعالى: **﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾**. [الفرقان: ١]. وقال: **﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾**. [الكهف: ١]. فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله.

وقال: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ . [الجن: ١٩] . فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه .

وقال: ﴿سُبْحَانَ الذي أسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ . [الإسراء: ١]. فذكره بالعبودية في مقام الإسراء .

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد. فقولوا عبد الله ورسوله» .

وفي الحديث: «أنا عبد. آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد» .

وفي صحيح البخاري: عن عبدالله بن عمرو قال: «قرأت في التوراة صفة محمد ﷺ: محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر» .

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده. فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ . [الزمر: ١٧، ١٨] .

وجعل الأمن المطلق لهم. فقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُم اليَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. الذين آمَنُوا بِآيَاتِنَا وكَانُوا مُسْلِمِينْ﴾ . [الزخرف: ٦٨، ٦٩] .

وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به. فقال: ﴿إنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهم سُلطَانٌ، إلاَّ مَن اتَّبَعَك مِنَ الغَاوِينَ﴾ . [الحجر: ٤٢] .

وقال: ﴿إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الذين آمَنُوا وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إنَّمَا سُلطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّونَهُ والذِيْنَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُوْنَ﴾ . [النحل: ٩٩، ١٠٠] .

وجعل النبي، ﷺ، إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان. فقال في حديث جبريل ـ وقد سأله عن الإحسان ـ: «أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

فصــل

في لزوم ﴿إياك نعبد﴾ لكل عبد إلى الموت

قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. [الحجر: ٩٩]. وقال أهل النار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حتى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾. [المدثر: ٤٦، ٤٧]. واليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير.

وفي الصحيح ـ في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ قال: «**أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه**». أي الموت وما فيه. فلا ينفك العبد من العبودية مادام في دار التكليف.

بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان: «**من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟**» ويلتمسان منه الجواب.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود. فيسجد المؤمنون. ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود.

فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله. وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه. بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه.

ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ ـ بل على جميع الرسل ـ أعظم من الواجب على أممهم. والواجب على أولي العزم: أعظم من الواجب على من دونهم. والواجب على أولي العلم: أعظم من الواجب على من دونهم. وكل أحد بحسب مرتبته.

فصــل

في انقسام العبودية إلى عامة وخاصة

العبودية نوعان: عامة، وخاصة. فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، بَرِّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فهذه عبودية القهر والملك.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ

يَتَفَطَّرْن مِنْهُ وتَنْشَقُّ الأَرْضُ وتَخِرُّ الجبال هَدًّا. أن دَعَوْا للرَّحْمن وَلَدًا. وما يَنْبَغِي للرَّحْمن أَنْ يَتَّخِذ وَلَدًا، إنْ كُلُّ مَنْ في السَّمواتِ والأَرْضِ إلَّا آتي الرَّحمنِ عَبْدًا﴾. [مريم: ٨٨-٩٣]. **فهذا** يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله. فَيَقُولُ: أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هؤلاء؟﴾. [الفرقان: ١٧]. فسماهم عباده مع ضلالهم. لكن تسمية مقيدة بالإشارة.

وأما المطلقة: فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللهُمَّ فَاطِرَ السَّمواتِ والأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادك فِيْمَا كَانُوا فِيْهِ يَخْتَلِفُونْ﴾. [الزمر: ٤٦].

وقال: ﴿وما الله يريد ظلمًا للعباد﴾. [غافر: ٣١]. وقال: ﴿إنَّ الله قد حَكَم بَيْنَ العِباد﴾. [غافر: ٤٨]. **فهذا** يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿يا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ولا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. [الزخرف: ٦٨]. وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الذينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْل فَيَتَّبِعُونَ أحسنه﴾. [الزمر: ١٧، ١٨]. وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا * وإذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سلامًا﴾. [الفرقان: ٦٣]. وقال تعالى عن إبليس: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين. إلا عِبَادَك مِنْهُمُ المُخْلَصِينْ﴾. [الحجر: ٣٩، ٤٠]. فقال تعالى عنهم: ﴿إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾. [الحجر: ٤٢].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته.

ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقًا إلا لهؤلاء.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية: فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

إما مُنكَّرًا. كقوله: ﴿إنْ كُلُّ مَنْ في السَّمَواتِ والأَرْضِ إلَّا آتِ الرَّحْمنِ عَبْدًا﴾. [طه: ٩٣].

والثاني: معرفًا باللام، كقوله: ﴿وما الله يُرِيدُ ظُلْمًا للعِبَادِ﴾. [غافر: ٣١]. ﴿إنَّ الله قَدْ حَكَم بَيْنَ العِبَادِ﴾. [غافر: ٤٨].

الثالث: مقيدًا بالإشارة أو نحوها، كقوله: ﴿أأنتُم أَضْلَلْتُم عِبَادِي هَؤلاء﴾. [الفرقان: ١٧].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده. فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر. كقوله: ﴿أَنْتَ تَحْكُم بَيْنَ عِبادِكَ فِيما كَانُوا فِيْهِ يَخْتَلِفُون﴾. [الزمر: ٤٦].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم. كقوله: ﴿قُلْ يا عِبَادِيَ الذين أسْرَفُوا عَلى أنْفُسِهِم لا تقنطوا من رحمة الله﴾. [الزمر: ٥٣].

وقد يقال: إنما سماهم «عباده» إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع. إنما يقال «طريق مُعَبَّد» إذا كان مُذَللاً بوطء الأقدام، و «فلان عَبَّده الحب» إذا ذلله، لكنْ أولياؤه خضعوا له وَذَلّوا طوعًا واختيارًا، وانقيادًا لأمره ونهيه. وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا.

ونظير إنقسام العبودية إلى خاصة وعامة: انقسام «القنوت» إلى خاص وعام، و «السجود» كذلك.

قال تعالى في القنوت الخاص: ﴿أَمَّنْ هُو قانتٌ آناء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا؟ يَحْذَرُ الآخِرَة وَيرْجُو رَحْمَةَ رَبِّه﴾. [الزمر: ٩]. وقال في حق مريم: ﴿وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينْ﴾. [التحريم: ١٢]. وهو كثير في القرآن.

وقال في القنوت العام: ﴿وَلَهُ مَنْ في السَّمَواتِ والأرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾. [الروم: ٢٦]. أي خاضعون أذلاء.

وقال في السجود الخاص: ﴿إنَّ الذينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ ويُسَبحُونَهُ ولَهُ يَسْجُدُونَ﴾. [الأعراف: ٢٠٦].

وقال: ﴿إذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكيًّا﴾. [مريم: ٥٨]. وهو كثير في القرآن.

وقال في السجود العام: ﴿ولله يَسْجُدُ مَنْ في السَّمَوَات والأرْضِ طَوْعًا وَكَرهًا وظِلالُهُمْ بِالغُدُوِّ والآصَالِ﴾. [الرعد: ١٥].

ولهذا كان هذا السجود الكُرْه غير السجود المذكور في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ في الأرْضِ والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ والجِبالُ والشَّجَرُ والدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِن النَّاس﴾. [الحج: ١٨]. فخص بالسجود هنا كثيراً من

الناس وعمهم بالسجود في سورة النحل: ﴿ولله يَسْجُدُ ما في السَّمواتِ و ما في الأرْضِ من دَآبَةٍ والملائِكَةُ﴾. [النحل: ٤٩]. وهو سجود الذل والقهر والخضوع. فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته. مقهور تحت سلطانه تعالى.

فصـــل

في مراتب ﴿إياك نعبد﴾ علمًا وعملاً

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل. فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله. والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحـانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان. إحداهما: دينه الأمري الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل في هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العملية، فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين؛ فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات. وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية. فليس في حقهم مباحٍ متساوى الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة. ومَنْ دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات. وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات. ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله.

فصـــل

ورحَى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة. مَنْ كَمَّلها كمل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهي لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح.(١)

قوله(٢) تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. فيها عشرون مسألة:

أحدها: ما فائدة البدل في الدعاء والداعي مخاطب لمن لا يحتاج إلى البيان، والبدل القصد به بيان الاسم الأول؟.

الثانية: ما فائدة تعريف (الصراط المستقيم) باللام وهلا أخبر عنه بمجرد اللفظ دونها كما قال: ﴿وإنَّكَ لتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ [الشورى: ٥٢].

الثالثة: ما معنى الصراط: ومن أي شيء اشتقاقه ولم جاء على وزن فعال، ولم ذكر في أكثر المواضع في القرآن بهذا اللفظ وفي سورة الأحقاف ذكر بلفظ الطريق فقال: ﴿يَهْدِي إلى الحَقِّ وإلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ [الأحقاف: ٣٠].

الرابعة: ما الحكمة في إضافته إلى قوله تعالى: ﴿الذيْنَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. بهذا اللفظ ولم يذكرهم بخصوصهم فيقول صراط النبيين والصديقين فلم عدل إلى لفظ المبهم دون المفسر؟

الخامسة: ما الحكمة في التعبير عنهم بلفظ الذين مع صلتها دون أن يقال: المنعم عليهم وهو أخصر كما قال: ﴿المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. وما الفرق؟

السادسة: لِمَ فرق بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم، فقال في أهل النعمة: الذين أنعمت وفي أهل الغضب: المغضوب بحذف الفاعل؟

السابعة لِمَ قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. فعدى الفعل بنفسه ولم يعده بإلى كما قال تعالى: ﴿وإنَّكَ لتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الشورى: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وهَدَيْنَاهُمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الأنعام: ٨٧]

الثامنة: أن قوله تعالى: ﴿الذِيْنَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. يقتضي أن نعمته مختصة بالأولين دون المغضوب عليهم ولا الضالين. وهذا حجة لمن ذهب إلى أنه لا نعمة له على كافر فهل هذا استدلال صحيح أم لا؟

(١) بقية البحث في الأصل بتفصيل في الجزء الأول من مدارج السالكين ص١٠٩ لمن أراده (ج).

(٢) ٩ بدائع الفوائد جـ٢.

التاسعة: أن يقال: لم وصفهم بلفظ (غير)؟ وهلا قال تعالى: لا المغضوب عليهم، كما قال: ولا الضالين. وهذا كما تقول مررت بزيد لا عمرو وبالعاقل لا الأحمق.

العاشرة: كيف جرت (غير) صفة على الموصول وهي لا تتعرف بالإضافة وليس المحل محل عطف بيان إذ بابه الإعلام ولا محل لذلك إذ المقصود في باب البدل هو الثاني والأول توطئة وفي باب الصفات المقصود الأول والثاني بيان، وهذا شأن هذا الموضع فإن المقصود ذكر المنعم عليهم ووصفهم بمغايرتهم نوعي الغضب والضلال.

الحادية عشرة: إذا ثبت ذلك في البدل فالصراط المستقيم مقصود الإخبار عنه بذلك، وليس في نية الطرح، فكيف جاء صراط الذين أنعمت عليهم بدلاً منه، وما فائدة البدل هنا؟

الثانية عشرة: إنه قد ثبت في الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد وأبو حاتم، تفسير المغضوب عليهم بأنهم اليهود، والنصارى بأنهم الضالون، فما وجه هذا التقسيم والاختصاص، وكل من الطائفتين ضال مغضوب عليه؟

الثالثة عشرة: لم قدم المغضوب عليهم في اللفظ على الضالين؟

الرابعة عشرة: لم أتى في أهل الغضب بصيغة مفعول المأخوذة من فعل، ولم يأت في أهل الضلال بذلك فيقال: المضلين بل أتى فيهم بصيغة فاعل المأخوذة من فعل؟

الخامسة عشرة: ما فائدة العطف بلا هنا. ولو قيل: المغضوب عليهم والضالين لم يختل الكلام وكان أوجز؟

السادسة عشرة: إذ قد عطف بها فيأتي العطف بها مع الواو للمنفي نحو ماقام زيد ولا عمرو، وكقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ولا عَلَى المَرْضَى ولا عَلَى الذيْنَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ**﴾. [التوبة: ٩١]. إلى قوله تعالى: ﴿**ولا عَلَى الذيْنَ إذَا مَا أتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ**﴾. [التوبة: ٩٢]. وأما بدون الواو فبابها الإيجاب نحو: مررت بزيد لا عمرو فهذه ستة عشرة مسألة في ذلك.

السابعة عشرة: هل الهداية هنا هداية التعريف والبيان أو هداية التوفيق والإلهام؟

الثامنة عشرة: كل مؤمن مأمور بهذا الدعاء أمرًا لازمًا، لا يقوم غيره مقامه ولابد منه، وهذا إنما نسأله في الصلاة بعد هدايته، فما وجه السؤال لأمر حاصل وكيف يطلب تحصيل الحاصل؟

التاسعة عشرة: ما فائدة الإتيان بضمير الجمع في اهدنا والداعي يسأل ربه لنفسه في الصلاة وخارجها ولا يليق به ضمير الجمع ولهذا يقول: «**رب اغفر لي وارحمني وتب علي**».

العشرون: ما حقيقة الصراط المستقيم الذي يتصوره العبد وقت سؤاله؟ فهذه أربع مسائل حقها أن تقدم أولا ولكن جر الكلام إليها بعد ترتيب المسائل الستة عشر. فالجواب بعون الله وتعليمه فإنه لا علم لأحد من عباده إلا ما علمه ولا قوة له إلا بإعانته أما المسألة الأولى :وهي ما فائدة البدل من الدعاء، أن الآية وردت في معرض التعليم للعباد والدعاء وحق الداعي أن يستشعر عند دعائه ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به، إذ الدعاء مخ العبادة والمخ لا يكون إلا في عظم، والعظم لا يكون إلا في لحم ودم، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجًا بالثناء، فمن ثم جاء لفظ الطلب للهداية والرغبة فيها مشوبًا بالخبر؛ تصريحًا من الداعي بمعتقده وتوسلاً منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه، فكأنه متوسل إليه بإيمانه واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم وأنه صراط الذين اختصهم بنعمته وحباهم بكرامته فإذا قال: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ والمخالفون للحق يزعمون أنهم على الصراط المستقيم أيضًا والداعي يجب عليه اعتقاد خلافهم وإظهار الحق الذي في نفسه، فلذلك أبدل وبين لهم ليمرن اللسان على ما اعتقده الجنان.

ففي ضمن هذا الدعاء المهم الإخبار بفائدتين جليلتين:

إحداهما: فائدة الخبر، والفائدة الثانية: فائدة لازم الخبر، فأما فائدة الخبر فهي الإخبار عنه بالاستقامة وأنه الصراط المستقيم الذي نصبه لأهل نعمته وكرامته.

وأما فائدة لازم الخبر فإقرار الداعي بذلك وتصديقه وتوسله بهذا الإقرار إلى ربه.

فهذه أربع فوائد. الدعاء بالهداية إليه. والخبر عنه بذلك، والإقرار والتصديق لشأنه. والتوسل إلى المدعو إليه بهذا التصديق، وفيه فائدة خامسة، وهي أن

الداعي إنما أمر بذلك لحاجته إليه وأن سعادته وفلاحه لا تتم إلا به فهو مأمور بتدبر ما يطلب وتصور معناه، فذكر له من أوصافه ما إذا تصور في خلده وقام بقلبه كان أشد طلبًا له وأعظم رغبة فيه وأحرص على دوام الطلب والسؤال له فتأمل هذه النكت البديعة. **وأما** المسألة الثانية وهي تعريف الصراط باللام هنا. فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره.

ألا ترى أن قولك: جالس فقيهًا أو عالمًا، ليس كقولك: جالس الفقيه أو العالم ولا قولك: أكلت طيبًا، كقولك: الطيب، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «**أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق**» ثم قال: «**ولقاؤك حقٌّ والجنة حق والنار حق**» فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعده وكلامه.

فإذا عرفت هذا فلو قال: اهدنا صراطًا مستقيمًا لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك بل المراد الهداية إلى الصراط المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته وجعله طريقًا إلى رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن لا شيء مطلق منكر، واللام هنا للعهد العلمي الذهني وهو أنه طلب الهداية إلى سر(١) معهود قد قام في القلوب معرفته والتصديق به وتميزه عن سائر طرق الضلال فلم يكن بد من التعريف.

فإن قيل: لم جاء منكرًا في قوله لنبيه ﷺ: ﴿**وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**﴾. [الفتح: ٢]. وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾. [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿**وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾. [الأنعام: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾. [الأنعام: ١٦١]

فالجواب: عن هذه المواضع بجواب واحد، وهو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم، وهداية رسوله إليه، ولم يكن للمخاطبين عهد به ولم يكن معروفًا لهم فلم يجئ معرفًا بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب قائم في خلده، ولا تقدمه في اللفظ، معهود تكون اللام مصروفة إليه وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين

(١) كذا في الأصل ولعله إلى (صراط معهود) وفي المخطوطة (إلى معهود) ا.هـ (ج).

الموضعين أعني أن يكون لها معهود ذهني أو ذكري لفظي وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع فالتنكير هو الأصل وهذا بخلاف قوله: ﴿اهْدِنَا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطًا مستقيمًا هدى إليه أنبياءه ورسله، وكان المخاطب سبحانه المسؤول عن هدايته عالمًا به دخلت اللام عليه فقال: ﴿اهْدِنَا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ﴾. [الفاتحة: ٦].

وقال السهيلي: إن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيْمًا﴾. [الفتح: ٢]. نزلت في صلح الحديبية، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح، ورأوا أن الرأي خلافه وكان الله تعالى عما يقولون ورسوله ﷺ أعلم، فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية فلم يرد صراطًا مستقيمًا في الدين، وإنما أراد صراطًا في الرأي والحرب والمكيدة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الشورى: ٥٢]. أي: تهدي من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم، ولو قال في هذا الموطن: إلى الصراط المستقيم لجعل للكفر وللضلال حظًّا من الاستقامة إذ الألف واللام تنبيء أن ما دخلت عليه من الأسماء الموصولة أحق بذلك المعنى مما تلاه في الذكر أو ما قرن به في الوهم، ولا يكون أحق به إلا والآخر فيه طرف منه.

وغير خاف ما في هذين الجوابين من الضعف والوهن.

أما قوله: إن المراد بقوله: ﴿ويهديك صراطًا مستقيمًا﴾ في الحرب والمكيدة فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله.

وأخبر النبي ﷺ، أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطًا مستقيمًا؟ وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك.

بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذي أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الأنعام: ١٦١]. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿دِيْنًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيْفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾. [الأنعام: ١٦١]. ونصب دينًا هنا على البدل من الجار والمجرور أي هداني دينًا قيمًا، أفتراه يمكنه ههنا أن يقول: إنه الحرب والمكيدة؟ فهذا جواب فاسد جدًّا.

وتأمل ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا وذلك خمسة أشياء:

أحدها: الفتح المبين، والثاني: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، والثالث: هدايته الصراط المستقيم، والرابع: إتمام نعمته عليه، والخامس: إعطاءه النصر العزيز وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر؛ لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته فهو العلم النافع والعمل الصالح، والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه، بالحجة والبيان والسيف والسنان، فهو النصر بالحجة واليد قهر قلوب المخالفين بالحجة وقهر أبدانهم باليد، وهو سبحانه كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله كقوله تعالى: ﴿**هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَه بِالْهُدَى ودِيْنِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ**﴾ [التوبة: ٣٣، الصف: ٩] في موضعين في سورة براءة وفي سورة الصف[(١)].

وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وأَنْزَلْنَا مَعَهُم الكِتَابَ والْمِيْزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ**﴾. [الحديد: ٢٥]. فهذا الهدى ثم قال: ﴿**وَأَنْزَلْنَا الحَدِيْدَ فِيْهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**﴾. [الحديد: ٢٥]. فهذا النصر فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر. وقال تعالى: ﴿**الٓمٓ اللهُ لا إِلَه إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وأَنْـزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيل مِنْ قَبْلُ هُدَىً لِلنَّاس وأَنْزَلَ الفُرْقَانَ**﴾. [آل عمران: ١ - ٤]. فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل.

وسر اقتران النصر بالهدى أن كلًّا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل، ولهذا سمي تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانًا كما قال تعالى: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وما أَنْزَلنا على عَبْدِنا يَوْمَ الفُرْقَانِ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ**﴾. [الأنفال: ٤١]. فذكر الأصلين ما أنزله على رسوله يوم الفرقان؛ وهو يوم بدر وهو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسى وهَارُون الفُرْقَان وَضِياء وذِكْرًا لِلْمُتَّقِـينَ**﴾. [الأنبياء: ٤٨]. فالفرقان نصره له على فرعون وقومه، والضياء والذكر التوراة، هذا هو معنى الآية.

ولم يصب من قال: إن الواو زائدة وأن ضياء منصوب على الحال كما بينا فساده في (الأمالي المكية) فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين الهدى والنصر وأنه لا يصح فيها غير ذلك ألبتة.

---

(١) والثالث في سورة الفتح (ج).

وأما جوابه الثاني عن قوله: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ بأنه لو عرف لجعل للكفر والضلال حظًّا من الاستقامة فما أدرى من أين جاء له هذا الفهم مع ذهنه الثاقب وفهمه البديع رحمه الله تعالى؟ وما هي إلا كبوة جواد ونبوة صارم، أفترى قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ* وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الصافات: ١١٧،١١٨]. يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة وما ثم غيره إلا طرق الضلال، وإنما الصراط المستقيم واحد وهو ما هدى الله إليه أنبياءه ورسله أجمعين، وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، وكذلك تعريفه في سورة الفاتحة هل يقال: إنه يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة بل يقال: تعريفه ينبىء أن لا يكون لغيره حظ من الاستقامة فإن التعريف في قوة الحصر، فكأنه قيل الذي لا صراط مستقيم سواه وفهم هذا الاختصاص من اللفظ أقوى من فهم المشاركة. فتأمله هنا وفي نظائره.

وأما المسألة الثالثة وهي اشتقاق الصراط، فالمشهور أنه من صرطت الشيء أصرطه إذا بلعته بلعًا سهلاً، فسمى الطريق صراطًا لأنه يسترط المارة فيه.

والصراط: ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقًا مستقيمًا، سهلاً، مسلوكًا واسعًا، موصلاً إلى المقصود، فلا تسمى العرب الطريق المعوج صراطًا، ولا الصعب المشق ولا المسدود غير الموصل.

ومن تأمل موارد الصراط في لسانهم واستعمالهم تبين له ذلك قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

وبنوا الصراط على زنة فِعَال لأنه مشتمل على سالكه اشتمال الحلق على الشيء المسروط.

وهذا الوزن كثير في المشتملات على الأشياء كاللِحاف والخِمار والرِداء والغطاء والفِراش والكتاب إلى سائر الباب يأتي لثلاثة معان:

أحدها: المصدر كالقتال والضراب.

والثاني: المفعول نحو الكتاب، والبناء، والغراس.

والثالث: أنه يقصد به قصد الآلة التي يحصل بها الفعل ويقع بها كالخِمار والغِطاء والسِّداد لما يخمر به ويغطى ويسد به، فهذا آلة محضة والمفعول هو الشيء المخمر والمغطى والمسدود ومن هذا القسم الثالث إله بمعنى مألوه.

وأما ذكره له بلفظ الطريق في سورة الأحقاف خاصة فهذا حكاية الله تعالى لكلام مؤمني الجن أنهم قالوا لقومهم: ﴿**إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى مصدقًا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم**﴾. [الأحقاف: ٣٠].

وتعبيرهم عنه ههنا بالطريق فيه نكتة بديعة، وهي أنهم قدموا قبله ذكر موسى، وأن الكتاب الذي سمعوه مصدقًا لما بين يديه من كتاب موسى وغيره فكان فيه كالنبأ عن رسول الله ﷺ في قوله لقومه: ﴿**ما كنت بدعًا من الرسل**﴾ أي: لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم، وإنما بعثت مصدقًا لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان فقال مؤمنو الجن: ﴿**إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى مصدقًا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم**﴾ أي: إلى سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله وأنه ليس ببدع كما قال في أول السورة نفسها، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ الطريق؛ لأنه فعيل بمعنى مفعول أي مطروق، مشت عليه الرسل والأنبياء قبل، فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم، أن يؤمن به ويصدقه. فذكر الطريق ههنا إذًا أولى لأنه أدخل في باب الدعوة والتنبيه على تعين اتباعه والله أعلم.

ثم رأيت هذا المعنى بعينه قد ذكره السهيلي فوافق فيه الخاطر الخاطر.

وأما المسألة الرابعة: وهي إضافته إلى الموصول المبهم، دون أن يقول صراط النبيين والمرسلين ففيه ثلاث فوائد:

إحداها: إحضار العلم وإشعار الذهن عند سماع هذا؛ فإن استحقاق كونهم من المنعم عليهم هو بهدايتهم إلى هذا الصراط؛ فبه صاروا من أهل النعمة، وهذا كما يعلق الحكم بالصلة دون الاسم الجامد لما فيه من الإنعام باستحقاق ما علق عليها من الحكم بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿**الذين يُنْفِقُون أَمْوَالَهُم بالليْلِ والنَّهَارِ سِرًّا وعَلانِيَةً فَلَهُمْ أجْرهم عِنْدَ رَبِهِمْ**﴾. [البقرة: ٢٧٤]. ﴿**والذي جَاء بالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ أولئِكَ هُم الْمُتَّقُون**﴾. [الزمر: ٣٣]. ﴿**إنَّ الذينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثمَّ اسْتَقَامُوا فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾. [الأحقاف: ١٣].

وهذا الباب مطرد فالإتيان بالاسم موصولاً على هذا المعنى من ذكر الاسم الخاص.

الفائدة الثانية: فيه إشارة إلى أن نفي التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن

من هدي إلى هذا الصراط فقد أنعم عليه. فالسائل مستشعر سؤاله الهداية وطلب الإنعام من الله عليه.

والفرق بين هذا الوجه والذي قبله، أن الأول: يتضمن الإخبار بأن أهل النعمة هم أهل الهداية إليه، والثاني: يتضمن الطلب والإرادة وأن تكون منه.

الفائدة الثالثة: أن الآية عامة في جميع طبقات المنعم عليهم، ولو أتى باسم خاص لكان لم يكن فيه سؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم؛ فكان في الإتيان بالاسم العام من الفائدة أن المسؤول الهدى إلى جميع تفاصيل الطريق التي سلكها كل من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا أجل مطلوب وأعظم مسؤول.

ولو عرف الداعي قدر هذا السؤال لجعله هجيراه وقرنه بأنفاسه، فإنه لم يدع شيئًا من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه. ولما كان بهذه المثابة فرضه الله على جميع عباده فرضًا متكررًا في اليوم والليلة لا يقوم غيره مقامه، ومن ثم يعلم تعين الفاتحة في الصلاة وأنها ليس منها عوض يقوم مقامها.

وأما المسألة الخامسة: وهي أنه قال: ﴿**الذين أنعمت عليهم**﴾ ولم يقل: المنعم عليهم كما قال: المغضوب عليهم.

فجوابها وجواب المسألة السادسة واحد وفيه فوائد عديدة:

أحدها: أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن، وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى، فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبني الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبني الفعل معها للمفعول أدبًا في الخطاب، وإضافته إلى الله أشرف قسمي أفعاله فمنه هذه الآية فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فقال: ﴿**المغضوب عليهم**﴾ وقال في الإحسان: ﴿**الذين أنعمت عليهم**﴾.

ونظيره قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه: ﴿**الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين**﴾. [الشعراء، ٧٨ - ٨٠] فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى ولما جاء إلى ذكر

المرض قال: ﴿وإذا مرضت﴾ ولم يقل: أمرضني، وقال: ﴿فهو يشفين﴾.

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيد بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾. [الجن: ١٠]. فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب، وحذفوا فاعل إرادة الشر وبنو الفعل للمفعول.

ومنه قول الخضر عليه الصلاة والسلام في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾. [الكهف: ٧٩]. فأضاف العيب إلى نفسه.

وقال في الغلامين: ﴿فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾. [الكهف: ٨٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُم﴾. [البقرة: ١٨٧]. فحذف الفاعل وبناه للمفعول.

وقال: ﴿وأَحَلَّ الله البَيْعَ وحَرَّمَ الربَا﴾. [البقرة: ٢٧٥]. لأن في ذكر الرفث ما يحسن منه أن لا يقترن بالتصريح بالفاعل ومنه ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ [المائدة: ٣] وقوله: ﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وبِالوَالِدَينِ إحْسَانًا﴾. [الأنعام: ١٥١]. إلى آخرها.

ومنه وهو ألطف من هذا وأدق معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُم أُمهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وأَخْوَاتُكُمْ﴾. [النساء: ٢٤]. إلى آخرها ثم قال: ﴿وأُحِلَّ لَكُمْ ما وَراء ذلكم﴾. [النساء: ٢٤].

وتأمل قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِن الذين هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيبَاتٍ أُحِلتْ لَهُمْ﴾. [النساء: ١٩٠]. كيف صرح بفاعل التحريم في هذا الموضع وقال في حق المؤمنين: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ المَيْتة والدَّم﴾. [المائدة: ٣].

الفائدة الثانية: أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها، وأصل الشكر ذكر المنعم والعمل بطاعته وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره تعالى الذي هو أساس الشكر وكان في قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. من ذكره وإضافة النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم عليهم لو قاله فضمن هذا اللفظ الأصلين وهما الشكر والذكر المذكوران في قوله: ﴿فاذْكُرُوني أَذْكُرْكُمْ وأشْكُرُوا لى ولا تَكْفُرُون﴾. [البقرة: ١٥٢].

الفائدة الثالثة: أن النعمة بالهداية إلى الصراط لله وحده، وهو المنعم بالهداية دون أن يشركه أحد في نعمته؛ فاقتضى اختصاصه بها أن يضاف إليه بوصف

الإفراد فيقال: أنعمت عليهم أي أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعمة.

وأما الغضب فإن الله سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم، فموافقته تعالى تقتضي أن يغضب على من غضب عليه؛ ويرضى عمن رضي عنه؛ فيغضب لغضبه ويرضى لرضاه، وهذا حقيقة العبودية.

واليهود قد غضب الله عليهم فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم، فحذف فاعل الغضب، وقال: المغضوب عليهم لما كان للمؤمنين نصيب من غضبهم على من غضبَ الله عليه بخلاف الإنعام؛ فإنه لله وحده. فتأمل هذه النكتة البديعة.

الفائدة الرابعة: أن المغضوب عليهم في مقام الإعراض عنهم وترك الالتفات إليهم، والإشارة إلى نفس الصفة التي لهم والاقتصار عليها وأما أهل النعمة فهم في مقام الإشارة إليهم وتعيينهم والإشادة بذكرهم.

وإذا ثبت هذا فالألف واللام في المغضوب، وإن كانتا بمعنى الذين فليست مثل الذين في التصريح والإشارة إلى تعيين ذات المسمى، فإن قولك: الذين فعلوا معناه: القوم الذين فعلوا، وقولك: الضاربون والمضروبون، ليس فيه ما في قولك: الذين ضربوا أو ضربوا فتأمل ذلك. فالذين أنعمت عليهم إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم بخلاف المغضوب عليهم؛ فالمقصود التحذير من صفتهم والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم والمعول عليه من الأجوبة ما تقدم.

وأما المسألة: السابعة: وهي تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف إلى.

فجوابها: أن فعل الهداية يتعدى بنفسه تارة، وبحرف إلى تارة، وباللام تارة، والثلاثة في القرآن.

فمن المعدي بنفسه هذه الآية وقوله: ﴿**وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**﴾. [الفتح: ٢].

ومن المعدى بإلى قوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾. [الشورى: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾. [الأنعام: ١٦١].

ومن المعدي باللام قوله قول أهل الجنة: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا**﴾.

[الأعراف: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾. [الإسراء: ٩].

والفروق لهذه المواضع تدق جدًا عن أفهام العلماء ولكن نذكر قاعدة تشير إلى

الفرق. وهي أن الفعل المعدى بالحروف المتعددة لابد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معني الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق، نحو: رغبت عنه ورغبت فيه، وعدلت إليه وعدلت عنه، وملت إليه وعنه، وسعيت إليه وبه، وإن تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق نحو: قصدت إليه وقصدت له، وهديته إلى كذا وهديته لكذا.

وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر.

وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال فيشربون الفعل المتعدي به معناه.

هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه رحمه الله تعالى، وطريقة حذاق أصحابه يضمنون الفعل معنى الفعل لا يقيمون الحرف مقام الحرف.

وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن وهذا نحو قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾. [الإنسان: ٦]. فإنهم يضمنون يشرب معنى يروي فيعدونه بالباء التي تطلبها، فيكون في ذلك دليل على الفعلين: أحدهما بالتصريح به، والثاني: بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار. وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها.

ومنه قوله في السحاب: شربن بماء البحر حتى روين ثم ترفعن وصعدن، وهذا أحسن من أن يقال: يشرب منها فإنه لا دلالة فيه على الري، وأن يقال: يروى بها لأنه لا يدل على الشرب بصريحه بل باللزوم، فإذا قال: يشرب بها دل على الشرب بصريحه وعلى الري بحرف الباء فتأمله.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يرد فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ﴾. [الحج: ٢٥]. وفعل الإرادة لا يتعدى بالباء، ولكن ضمن معنى: يهم فيه بكذا وهو أبلغ من الإرادة فكان في ذكر الباء إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة وإن لم تكن جازمة، وهذا باب واسع لو تتبعناه لطال الكلام فيه، ويكفي المثالان المذكوران.

فإذا عرفت هذا ففعل الهداية، متى عُدِّي بإلى تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأتى بحرف الغاية، ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب فأتى **باللام الدالة على الاختصاص والتعيين.**

فإذا قلت: هديته لكذا فهم معنى: ذكرته له وجعلته له وهيأته ونحو هذا.

وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله وهو التعريف والبيان والإلهام.

فالقائل إذا قال: ﴿**اهْدِنَا الصِرَاطَ المُسْتَقِيم**﴾. [الفاتحة: ٦]. هو طالب من الله أن يعرفه إياه ويبينه له ويلهمه إياه ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل من الحرف وأتى به مجردًا معدى بنفسه ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو عُدِّي بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف. فتأمله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها.

وأما المسألة الثامنة: وهي أنه خص أهل السعادة[1] بالهداية دون غيرهم، فهذه مسألة اختلف الناس فيها وطال الحجاج من الطرفين، وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا؟.

فمن ناف محتج بهذه وبقوله: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ الله والرَّسُول فَأولئك مَعَ الذين أنْعَمَ الله عليْهِمْ مِن النَبيين والصِديقين والشُهَداء والصَالحين وحَسُن أولئك رفيقاً**﴾. [النساء: ٦٩]. فخص هؤلاء بالإنعام فدل على أن غيرهم غير منعم عليه. وبقوله لعباده المؤمنين: ﴿**ولأُتمَّ نِعْمَتي عَلَيْكُم**﴾. [البقرة: ١٥٠].

وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة فأي نعمة على من خلق للعذاب الأبدي؟

ومن مثبت محتج بقوله: ﴿**وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها**﴾. [إبراهيم: ٣٤]. وقوله لليهود: ﴿**يا بَني إسْرَائِيل اذْكُرُوا نِعْمَتيَ التي أنْعَمْتُ عَلَيْكُم**﴾. [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢]. وهذا خطاب لهم في حال كفرهم.

وبقوله في سورة النحل التي عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله: ﴿**كَذَلك يُتِمُّ نِعْمته عَلَيكم لعَلكم تُسْلِمُون، فإنْ تولوا فإنَّما عَلَيْكَ البلاغُ المُبين يعْرِفُونَ نِعْمَةَ الله ثُمَّ يُنْكِرُونها وأكْثَرُهُم الكافرون**﴾. [النحل: ٨١-٨٣]. وهذا نص صريح لا يحتمل صرفًا.

واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمة الله، وكل أحد مقر لله تعالى بأنه إنما يعيش في نعمته، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم، إلا من كابر وجحد حق الله تعالى وكفر بنعمته.

وفصل الخطاب في المسألة: أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان لا يشركهم

---

(١) وفي نسخة خص أهل الهداية بالنعمة دون غيرهم.

فيها سواهم. ومطلق النعمة عام للخليقة كلهم؛ برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم.

فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم، فهذه غير مشتركة، ومطلق النعمة عام مشترك فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة أصاب، وإن أراد سلب مطلق النعمة أخطأ، وإن أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب، وبهذا تتفق الأدلة ويزول النزاع ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب والله الموفق للصواب.

(1)**وأما** قوله: تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾. [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢]. فإنما يذكرهم بنعمته على آبائهم ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة: بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ثم تاب عليهم وعفا عنهم، وبأن ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم فأمرهم أن يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ولم ينقد لدينه وطاعته.

وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكراً، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له ومعاداتكم إياه؟ وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم والله أعلم.

وأما المسألة التاسعة: وهي أنه قال: ﴿غير المغضوب﴾ ولم يقل: لا المغضوب عليهم.

فيقال: لا ريب أن «لا» يعطف بها بعد الإيجاب كما تقول: جاءني زيد لا عمرو، وجاءني العالم لا الجاهل.

وأما غير فهي تابع لما قبلها وهي صفة ليس إلا كما سيأتي، وإخراج الكلام هنا مخرج الصفة أحسن من إخراجه مخرج العطف، وهذا إنما يعلم إذا عرف فرق ما بين العطف في هذا الموضع والوصف.

فنقول: لو أخرج الكلام مخرج العطف، وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم لا المغضوب عليهم؛ لم يكن في العطف بها أكثر من نفي إضافة الصراط إلى المغضوب عليهم كما هو مقتضي العطف، فإنك إذا قلت: جاءني العالم لا الجاهل؛

(١) هذا يأتي في سورة البقرة مكرراً في موضعه (ج).

لم يكن في العطف أكثر من نفي المجيء عن الجاهل وإثباته للعالم.

وأما الإتيان بلفظ غير فهي صفة لما قبلها، فأفاد الكلام معها وصفهم بشيئين:

أحدهما: أنهم منعم عليهم، والثاني: أنهم غير مغضوب عليهم، فأفاد ما يفيد العطف مع زيادة الثناء عليهم ومدحهم، فإنه يتضمن صفتين: صفة ثبوتية وهي كونهم منعمًا عليهم، وصفة سلبية وهي كونهم غير مستحقين لوصف الغضب، وأنهم مغايرون لأهله، ولهذا لما أريد بها هذا المعنى جرت صفة على المنعم عليهم، ولم تكن صفة منصوبة على الاستثناء لأنها يزول منها معنى الوصفية المقصود.

وفيها فائدة أخرى، وهي: أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ادعوا أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام فكأنه قيل لهم: المنعم عليهم غيركم لا أنتم، وقيل للمسلمين: المغضوب عليهم غيركم لا أنتم، فالإتيان بلفظة غير في هذا السياق أحسن وأدل على إثبات المغايرة المطلوبة فتأمله.

وتأمل كيف قال: ﴿**المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ ولم يقل: اليهود والنصارى مع أنهم هم الموصوفون بذلك تجريدًا لوصفهم بالغضب والضلال الذي به غايروا المنعم عليهم، ولم يكونوا منهم بسبيل؛ لأن الإنعام المطلق ينافي الغضب والضلال فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال.

فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأما المسألة العاشرة: وهي جريان غير صفة على المعرفة وهي لا تتعرف بالإضافة ففيه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن غير هنا بدل لا صفة وبدل النكرة من المعرفة جائز، وهذا فاسد من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن باب البدل المقصود فيه الثاني، والأول توطئة له ومهاد أمامه، وهو المقصود بالذكر. فقوله: تعالى ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾. [آل عمران:٩٧]. المقصود هو أهل الاستطاعة خاصة وذكر الناس قبلهم توطئة. وقولك: أعجبني زيد علمه، إنما وقع الإعجاب على علمه وذكرت صاحبه توطئة لذكره. وكذا قوله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ**﴾. [البقرة:٢١٧]. المقصود إنما هو السؤال عن القتال في الشهر الحرام لا عن نفس الشهر. وهذا ظاهر

جدًّا في بدل البعض وبدل الاشتمال، ويراعى في بدل الكل من الكل ولهذا سمي بدلاً إيذانًا بأنه المقصود.

فقوله: ﴿لَنَسْفَعَن بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾. [العلق: ١٥، ١٦]. المقصود لنسفعن بالناصية الكاذبة الخاطئة، وذكر المبدل منه توطئة لها.

وإذا عرف هذا؛ فالمقصود هنا ذكر المنعم عليهم وإضافة الصراط إليهم. ومن تمام هذا المقصود وتكميله الإخبار بمغايرتهم للمغضوب عليهم، فجاء ذكر غير المغضوب مكملاً لهذا المعنى ومتممًا ومحققًا؛ لأن أصحاب الصراط المسؤول هدايته هم أهل النعمة، فكونهم غير مغضوب عليهم وصف محقق، وفائدته فائدة الوصف المبين للموصوف المكمل له وهذا واضح.

الوجه الثاني: أن البدل يجري مجرى توكيد المبدل وتكريره وتثنيته(١) ولهذا كان في تقدير تكرار العامل وهو المقصود بالذكر كما تقدم، فهو الأول بعينه ذاتًا ووصفًا، وإنما ذكر بوصف آخر مقصود بالذكر كقوله: ﴿**اهْدِنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم**﴾. [الفاتحة: ٦، ٧]. ولهذا يحسن الاقتصار عليه دون الأول ولا يكون مخلًّا بالكلام، ألا ترى أنك لو قلت في غير القرآن: لله حج البيت على من استطاع إليه السبيل لكان كاملاً مستقيمًا لا خلل فيه؟ ولو قلت في دعائك: رب اهدني صراط من أنعمت عليه من عبادك لكان مستقيمًا؟

وإذا كان كذلك فلو قدر الاقتصار على (غير) وما في حيزها لاختل الكلام وذهب معظم المقصود منه؛ إذ المقصود إضافة الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم لا إضافته إلى غير المغضوب عليهم، بل أتى بلفظ (غير) زيادة في وصفهم والثناء عليهم، فتأمله.

الوجه الثالث: أن (غير) لا يعقل ورودها بدلاً وإنما ترد استثناء أو صفة أو حالاً.

وسر ذلك أنها لم توضع مستقلة بنفسها بل لا تكون إلا تابعة لغيرها، ولهذا قلما يقال: جاءني غير زيد، ومررت بغير عمرو. والبدل لا بد أن يكون مستقلاً بنفسه كما تبين أنه المقصود.

ونكتته الفرق أنك في باب البدل قاصد إلى الثاني متوجه إليه قد جعلت الأول

---

(١) في نسخة وتبيينه بدل تثنيته.

سلمًا ومرقاة إليه، فهو موضع قصدك ومحط إرادتك. وفي باب الصفة بخلاف ذلك إنما أنت قاصد الموصوف موضح له بصفته. فاجعل هذه النكتة معيارًا على باب البدل والوصف، ثم زن بها غير المغضوب عليهم هل يصح أن يكون بدلاً أو وصفًا؟

الجواب الثاني: أن (غير) ههنا صح جريانه صفة على المعرفة؛ لأنها موصولة والموصول مبهم غير معين، ففيه رائحة من النكرة لإبهامه؛ فإنه غير دال على معين فصلح وصفه بغير لقربه من النكرة. وهذا جواب صاحب الكشاف قال: (فإن قلتَ): كيف صح أن يقع (غير) صفة للمعرفة وهو لا يتعرف وإن أضيف إلى المعارف؟ قلتُ: الذين أنعمت عليهم لا توقيت فيه فهو كقوله:

ولقد أمرُّ على اللئيمِ يَسُبُّني ... فمضيتُ ثمتَ قلتُ لا يعنيني

ومعنى قوله: لا توقيتَ فيه، أي: لا تعيين لواحد من واحد كما تعين المعرفة، بل هو مطلق في الجنس، فجرى مجرى النكرة، واستشهاده بالبيت معناه أن الفعل نكرة وهو يسبني، وقد أوقعه صفة للئيم المعرفة[1] باللام؛ لكونه غير معين فهو في قوة النكرة، فجاز أن ينعت بالنكرة، وكأنه قال: على لئيم يسبني. وهذا استدلال ضعيف؛ فإن قوله: يسبني، حال منه لا وصف والعامل فيه فعل المرور والمعنى: أمُرّ على اللئيم سابًا لي، أي أمر عليه في هذه الحال فأتجاوزه ولا أحتفل بسبه.

الجواب الثالث: وهو الصحيح أن (غير) ههنا قد تعرفت بالإضافة؛ فإن المانع لها من تعريفها شدة إبهامها أو عمومها في كل مغاير للمذكور، فلا يحصل بها تعيين وهذا تجري صفة على النكرة فتقول: رجل غيرك يقول كذا ويفعل كذا، فتجري صفة للنكرة مع إضافتها إلى المعرفة، ومعلوم أن هذا الإبهام يزول لوقوعها بين متضادين بذكر أحدهما، ثم تضيفها إلى الثاني فيتعين بالإضافة ويزول الإبهام الذي يمنع تعريفها بالإضافة كما قال:

نحن بنو عمرو الهجان الأزهر ... النسب المعروف غير المنكر

أفلا تراه أجرى (غير المنكر) صفة على النسب، كما أجرى عليه (المعروف) لأنهما صفتان معينتان فلا إبهام في (غير) لأن مقابلها (المعروف) وهو معرفة وضده المنكر متميز متعين كتعين المعروف، أعني تعين الجنس.

---

(١) في نسخة المعرف.

وهكذا قوله: ﴿صِرَاطَ الذين أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٦]. فالمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم، فإذا كان الأول معرفة كانت غير معرفة لإضافتها إلى محصل متميز غير مبهم فاكتسبت منه التعريف.

وينبغي أن تتفطن هنا لنكتة لطيفة في (غير) تكشف لك حقيقة أمرها: فأين تكون معرفة وأين تكون نكرة؟ وهي أن غيراً هي نفس ما تكون تابعة له وضد ما هي مضافة إليه، فهي واقعة على متبوعها وقوع الاسم المرادف على مرادفه فإن (المعروف) هو تفسير (غير المنكر) والمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم هذا حقيقة اللفظة.

فإذا كان متبوعها نكرة لم تكن إلا نكرة، وإن أضيفت كما إذا قلت: رجل غيرك فعل كذا وكذا.

وإذا كان متبوعها معرفة لم تكن إلا معرفة كما إذا قيل: المحسن غير المسيء محبوب معظّم عند الناس، والبر غير الفاجر مهيب، والعادل غير الظالم مجاب الدعوة، فهذا لا تكون فيه غير إلا معرفة. ومن ادّعى فيها التنكير هنا غلط وقال مالا دليل عليه؛ إذ لا إبهام فيها بحال فتأمله.

فإن قلت: عدم تعريفها بالإضافة له سبب آخر وهي: أنها بمعنى مغاير اسم فاعل من غاير، كمثل بمعنى مماثل، وشبه بمعنى مشابه. وأسماء الفاعلين لا تعرف بالإضافة وكذا ما ناب عنها.

قلت: اسم الفاعل إنما لا يتعرف بالإضافة؛ إذا أضيف إلى معموله لأن الإضافة في تقدير الانفصال، نحو: هذا ضارب زيد غدًا، وليست غير بعاملة فيما بعدها عمل اسم الفاعل في المفعول حتى يقال: الإضافة في تقدير الانفصال بل إضافتها إضافة محضة كإضافة غيرها من النكرات. ألا ترى أن قولك: غيرك بمنزلة قولك: سواك، ولا فرق بينهما. والله أعلم.

وأما المسألة الحادية عشرة: وهي: ما فائدة إخراج الكلام في قوله: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم**﴾. [الفاتحة: ٧]. مخرج البدل مع أن الأول في نية الطرح؟

فالجواب: أن قولهم: الأول في البدل في نية الطرح كلام لا يصح أن يؤخذ على إطلاقه. بل البدل نوعان:

نوع يكون الأول فيه في نية الطرح، وهو بدل البعض من الكل وبدل الاشتمال، لأن المقصود هو الثاني لا الأول وقد تقدم.

ونوع لا ينوى فيه طرح الأول وهو بدل الكل من الكل، بل يكون الثاني بمنزلة التذكير والتوكيد وتقوية النسبة، مع ما تعطيه النسبة الإسنادية إليه من الفائدة المتجددة الزائدة على الأول، فيكون فائدة البدل التوكيد والإشعار بحصول وصف المبدل للمبدل منه فإنه لما قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. فكأن الذهن طلب معرفة ما إذا كان هذا الصراط مختصًّا بنا أم سلكه غيرنا ممن هداه الله؟ فقال: ﴿صِرَاطَ الذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧].

وهذا كما إذا دللت رجلاً على طريق لا يعرفها، وأردت توكيد الدلالة وتحريضه على لزومها وأن لا يفارقها فأنت تقول: هذه الطريق الموصلة إلى مقصودك، ثم تزيد ذلك عنده توكيدًا وتقوية فتقول: وهي الطريق التي سلكها الناس والمسافرون وأهل النجاة.

أفلا ترى كيف أفاد وصفك لها بأنها طريق السالكين الناجين، قدرًا زائدًا على وصفك لها بأنها طريق موصلة وقريبة سهلة مستقيمة؟ فإن النفوس مجبولة على التأسي والمتابعة، فإذا ذكر لها من تتأسى به في سلوكها أنست واقتحمتها فتأمله.

وأما المسألة الثانية عشرة وهي: ما وجه تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى مع تلازم وصفي الغضب والضلال؟

فالجواب: أن يقال: هذا ليس بتخصيص يقتضي نفي كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى، فإن كل مغضوب عليه ضال، وكل ضال مغضوب عليه، لكن ذكر كل طائفة بأشهر وصفيها وأحقها به وألصقه بها، وأن ذلك هو الوصف الغالب عليها، وهذا مطابق لوصف الله اليهود بالغضب في القرآن والنصارى بالضلال، فهو تفسير للآية بالصفة التي وصفهم بها في ذلك الموضع.

أما اليهود فقال تعالى في حقهم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا به أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُروا بِمَا أَنْزَلَ الله بَغْيًا أَنْ يُنَزِل الله مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشاء من عِبَادِه فَبَاءوا بِغَضَب على غَضَبٍ وللكَافِرِيْن عَذَابٌ مُهِين﴾. [البقرة: ٩٠]. وفي تكرار هذا الغضب هنا أقوال:

أحدها: أنه غضب متكرر في مقابلة تكرر كفرهم برسول الله ﷺ والبغي عليه، ومحاربته فاستحقوا بكفرهم غضبًا، وبالبغي والحرب والصد عنه غضبًا آخر.

ونظيره قوله تعالى: ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب**﴾. [النحل: ٨٨]. فالعذاب الأول بكفرهم، والعذاب الذي زادهم إياه بصدهم الناس عن سبيله.

القول الثاني: أن الغضب الأول بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء، والغضب الثاني بكفرهم بالمسيح.

والقول الثالث: أن الغضب الأول بكفرهم بالمسيح، والغضب الثاني بكفرهم بمحمد ﷺ.

والصحيح في الآية: أن التكرار هنا ليس المراد به التثنية التي تشفع الواحد؛ بل المراد غضب بعد غضب، بحسب تكرر كفرهم وإفسادهم وقتلهم الأنبياء، وكفرهم بالمسيح وبمحمد ﷺ ومعاداتهم لرسل الله، إلى غير ذلك من الأعمال التي كل عمل منها يقتضي غضبًا على حدته.

وهذا كما في قوله: ﴿**فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين**﴾. [الملك: ٤٣]. أي كرة بعد كرة لا مرتين فقط. وقصد التعدد في قوله: ﴿**فباءوا بغضب على غضب**﴾. [البقرة: ٩٠]. أظهر.

ولا ريب أنَّ تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة وتحريفهم وتبديلهم يستدعي غضبًا، وتكذيبهم الأنبياء يستدعي غضبًا آخر، وقتلهم إياهم يستدعي غضبًا آخر، وتكذيبهم المسيح وطلبهم قتله، ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعي غضبًا، وتكذيبهم النبي ﷺ يستدعي غضبًا، ومحاربتهم له وأذاهم لأتباعه يقتضي غضبًا، وصدهم من أراد الدخول في دينه عنه يقتضي غضبًا، فهم الأمة الغضبية أعاذنا الله من غضبه، فهي الأمة التي باءت بالغضب(١) المضاعف المتكرر، وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى.

وقال تعالى: في شأنهم: ﴿**قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت**﴾. [المائدة: ٦٠].

فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسخ، وهو أشد ما يكون من الغضب.

وقال تعالى: ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئسما كانوا**

---

(١) في نسخة بغضب الله.

يَفْعَلُون ترى كَثِيراً مِنْهُمْ يتولَّوْن الذين كَفَروا لبِئْسَمَا قَدَّمت لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِط الله عَلَيْهِمْ وفي العَذَاب هُمْ خَالِدُون﴾. [المائدة: ٧٨: ٨٠].

وأما وصف النصارى بالضلال ففي قوله تعالى: **﴿قُلْ يا أَهْلَ الكِتَاب لا تَغْلُوا في دِيْنِكُم غَيْرَ الحق ولا تَتَّبِعُوا أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوْا كَثِيْراً وَضَلُّوا عن سَواءِ السَّبِيْلِ﴾**. [المائدة: ٧٧].

فهذا خطاب للنصارى لأنه في سياق خطابه معهم بقوله: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الذينِ قالوا إِنَّ الله هُوَ المَسِيْحُ ابن مَرْيَم وَقَالَ المَسِيْحُ يا بَنِي إِسْرَائِيل اعْبُدُوا الله رَبِي وَرَبَّكُمْ﴾**. [المائدة: ٧٢]. إلى قوله: **﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيْل﴾**. [المائدة: ٧٧].

فوصفهم بأنهم قد ضلوا أولاً ثم أضلوا كثيراً وهم أتباعهم، فهذا قبل مبعث النبي ﷺ حيث ضلوا في أمر المسيح وأضلوا أتباعهم، فلما بعث النبي ﷺ ازدادوا ضلالاً آخر بتكذيبهم له وكفرهم به، فتضاعف الضلال في حقهم، هذا قول طائفة منهم الزمخشري وغيره، وهو ضعيف فإن هذا كله وصف لأسلافهم الذين هم لهم تبع، فوصفهم بثلاث صفات:

أحدها: قد ضلوا من قبلهم. **والثاني:** أنهم أضلوا أتباعهم.

والثالث: أنهم ضلوا عن سواء السبيل، فهذه صفات لأسلافهم.. الذين نُهي هؤلاء عن اتباع أهوائهم فلا يصح أن يكون وصفًا للموجودين في زمن النبي ﷺ، لأنهم هم المنهيون أنفسهم لا المنهي عنهم. فتأمله.

وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال في النصارى ضلالاً بعد ضلال؛ لفرط جهلهم بالحق وهي نظير الآية التي تقدمت في تكرار الغضب في حق اليهود، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال من اليهود.

ووجه تكرار هذا الضلال: أن الضآل قد أخطأ نفس مقصوده فيكون ضآلاً فيه فيقصد ما لا ينبغي أن يقصده ويعبد من لا ينبغي أن يعبده. وقد يصيب مقصودًا حقًا لكن يضل في طريق طلبه والسبيل الموصلة إليه.

فالأول ضلال في الغاية. **والثاني** ضلال في الوسيلة، ثم إذا دعا غيره إلى ذلك فقد أضله.

وأسلاف النصارى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة فضلوا عن مقصودهم، حيث لم يصيبوه وزعموا أن إلههم بشر يأكل ويشرب ويبكي، وأنه قُتل وصلب وصفع،

فهذا ضلال في نفس المقصود حيث لم يظفروا به . وضلوا عن السبيل الموصلة إليه فلا اهتدوا إلى المطلوب ولا إلى الطريق الموصل إليه ، ودعوا أتباعهم إلى ذلك فضلوا عن الحق وعن طريقه وأضلوا كثيرًا فكانوا أدخل في الضلال من اليهود، فوصفوا بأخص الوصفين.

والذي يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد وإيثار ما كان لهم على قومهم ؛ من السُّحت والرياسة فخافوا أن يذهب بالإسلام ، فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق فإنهم كانوا يعرفون أن محمدًا رسول الله كما يعرفون أبناءهم.

ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم إلا بإرادتهم الفاسدة؛ من الكِبْر والحسد وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء.

ووبخ النصارى بالضلال والجهل الذي هو عدم العلم بالحق ؛ فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة، ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى يتركب منها(١).

فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به ، وإيثار غيره عليه بعد معرفته فلم يكن ضلالاً محضًا.

وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه، فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه ؛ أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوبًا عليهم ضالّين.

ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق، والبغي يمنعه من إرادته كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفًا وبيانًا، وإرشادًا وإلهامًا وتوفيقًا وإعانة فيعلِمه ويعرِّفه ثم يجعله مريدًا له قاصدًا لاتّباعه، فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال.

وكان السلف يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى، وهذا كما قالوا ؛ فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه، وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه، وحسد من آتاه الله من فضله وطلب قتله وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم إلى غير ذلك من

(١) في المخطوطة: (ويتركب منهما).

الأخلاق التي ذم بها اليهود: من الكبر واللّي والكتمان والتحريف والتحيّل على المحارم وتلبيس الحق بالباطل، فهذا شبهه باليهود ظاهر.

وأما من فسد من العبّاد فعبد الله بمقتضى هواه، لا بما بعث به رسوله ﷺ وغلا في الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية، وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد فشبهه بالنصارى ظاهر. فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد.

ومن تصور الشبهين والوصفين وعلم أحوال الخلق، علم ضرورته وفاقته إلى هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه؛ ولا أوجب منه عليه وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس؛ لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يهدينا الصراطَ المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين. آمين. إنه قريب مجيب.

وأما المسألة الثالثة عشرة: وهو تقديم المغضوب عليهم على الضالّين فلوجوه عديدة.

أحدها: انهم متقدمون عليهم بالزمان.

الثاني: أنهم كانوا هم الذين يَلُون النبي ﷺ من أهل الكتابين فإنهم كانوا جيرانه في المدينة، والنصارى كانت ديارهم نائية عنه؛ ولهذا تجد خطاب اليهود والكلام معهم في القرآن أكثر من خطاب النصارى، كما في سورة البقرة والمائدة وآل عمران وغيرها من السور.

الثالث: أن اليهود أغلظ كفرًا من النصارى، ولهذا كان الغضب أخص بهم واللعنة والعقوبة، فإن كفرهم عن عناد وبغي كما تقدم؛ فالتحذير من سبيلهم والبعد منها أحق وأهم بالتقديم، وليس عقوبة من جهل كعقوبة من عَلِمَ وعانَد.

الرابع: وهو أحسنها أنه تقدم ذكر المنعَم عليهم والغضب ضد الإنعام، والسورة هي السبع المثاني التي يذكر فيها الشيء ومقابله، فذكر المغضوب عليهم مع المنعم عليهم فيه من الازدواج والمقابلة ما ليس في تقديم الضالين، فقولك: الناس منعم عليه ومغضوب عليه فكن من المنعم عليهم أحسن من قولك: منعم عليه وضال.

وأما المسألة الرابعة عشرة: وهي أنه أتى في أهل الغضب باسم المفعول وفي الضالّين باسم الفاعل فجوابهما ظاهر.

فإن أهل الغضب من غضب الله عليهم وأصابهم غضبه فهم مغضوب عليهم.

وأما أهل الضلال فإنهم هم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه، ولهذا

استحقـوا العقوبة عليه، ولا يليق أن يقال: ولا المضلين مبنيًّا للمفعول؛ لما في رائحته من إقامة عذرهم وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم بل فُعل فيهم.

ولا حجة في هذا للقـدرية فإنا نقول: إنهم هم الذين ضلوا وإن كان الله أضلهم، بل فيه رد على الجبرية الذين لا ينسبون إلى العبد فعلاً إلا على جهة المجاز لا الحقيقة. **فتضمنت** الآية الـرد عليهـم كما تضـمن قولــه: ﴿اهْـدِنَـا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. الـرد على القدرية، ففي الآية إبطال قول الطائفتين، والشهـادة لأهـل الحق أنهم هم المصيبون، وهـم المثبتون للقدر توحيدًا وخلقًا، والقدرة[1] لإضافة أفعال العباد إليهم عملاً وكسبًا، وهو متعلق الأمر والعمل. كما أن الأول متعلق الخلق والقدرة.

فاقتضت الآية إثبات الشرع والقَدَر والمعاد والنبوة، فإن النعمة والغضب هو ثوابه وعقـابـه، فالمنعَم عليهم رسله وأتبـاعهم ليس إلا، وهـدى أتباعهم إنما يكون على أيديهم، فاقتضت إثبـات النبـوة بأقرب طريق وأبينها وأدلها على عموم الحاجة وشدة الضرورة إليها، وأنه لا سبيل للعبد أن يكون من المنعم عليهم إلا بهداية الله له، ولا تُنال هذه الهداية إلا على أيدي الرسل، وأن هذه الهداية لها ثمرة، وهي النعمة التامة المطلقة في دار النعيم، ولخلافها ثمرة وهي الغضب المقتضي للشقاء الأبدي.

فتأمل كيف اشتملت هذه الآية مع وجـازتها واختصارها على أهم مطالب الدين وأجلها. والله الهادي إلى سواء السبيل. وهو أعلم.

وأما المسألة الخامسة عشرة: وهي ما فائدة زيادة (لا) بين المعطوف والمعطوف عليه؟ ففي ذلك أربع فوائد:

أحدها: أن ذكرها تأكيد للنفي الذي تضمنه (غير)، فلولا ما فيها من معنى النفي لما عطف عليها بلا مع الواو فهو في قوة: لا المغضوب عليهم ولا الضالين، أو: غير المغضوب عليهم وغير الضآلين.

الفائدة الثانية: أن المراد المغايرة الواقعة بين النوعين وبين كل نوع بمفرده، فلو لم يذكر (لا) وقيل: غير المغضوب عليهم والضآلين أوهم أن المراد ما غاير المجموع المـركب من النوعين، لا ما غاير كل نوع بمفرده، فإذا قيل: ولا الضالين كان صريحًا في أن المراد صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء.

(١) نص المخطوطة: وهم المثبتون للقدر توحيدًا وخلقًا ولإضافة أفعال العباد إليهم.

وبيان ذلك أنك إذا قلت: ما قام زيد وعمرو، فإنما نفيت القيام عنهما ولا يلزم من ذلك نفيه عن كل واحد منهما بمفرده.

الفائدة الثالثة: رفع توهُّم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم وأنهما صنف واحد وصفوا بالغضب والضلال، ودخل العطف بينهما كما دخل في عطف الصفات بعضها على بعض نحو قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤمِنُوْن الذين هُمْ في صَلاتِهِمْ خَاشِعُونْ والذين هُمْ عَنِ اللغو مُعْرِضُون**﴾. [المؤمنون: ١: ٣]. إلى آخرها فإن هذه صفات المؤمنين ومثل قوله: ﴿**سبِّح اسْمَ رَبِّك الأعْلَى الذي خَلَقَ فَسَوّى والذي قَدَّرَ فَهَدى**﴾. [الأعلى: ١ - ٣]. ونظائره.

فلما دخلت لا عُلم أنهما صنفان متغايران مقصودان بالذكر، وكانت (لا) أَوْلى بهذا المعنى من (غير) لوجوه:

أحدها: أنها أقل حروفًا. الثاني: التفادي من تكرار اللفظ. **الثالث**: الثقل الحاصل بالنطق بـ (غير) مرتين من غير فصل إلا بكلمة مفردة، ولا ريب أنه ثقيل على اللسان.

الرابع: أن (لا) إنما يُعطف بها بعد النفي، فالإتيان بها مُؤذن بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم كما نفى عنهم الضلال، و (غير) - وإن أفهمت هذا - (فلا) أدخل في النفي منها.

وقد عرف بهذا جواب **المسألة السادسة عشرة**: وهي أن (لا) إنما يُعطف بها في النفي.

وأما المسألة السابعة عشر: وهي: أن الهداية هنا من أي أنواع الهدايات؟ فاعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿**الذِي أعْطَى كُلَّ شيء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾. [طـه: ٥٠]. أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيأته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال.

وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته؛ إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره.

وهداية الجماد المسخر لما خُلِق له فله هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها[1].

(١) في نسخة وضروبها.

وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرِّجْلين للمشي واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه.

ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين. وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومن الأبنية، ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصي عليها ثم تأوي إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء.

ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة، بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة.

فإن لم يهمل هذه الحيوانات سُدًى، ولم يتركها معطلة؛ بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها، كيف يليق به أن يترك النوعِ الإنساني، الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضّله على كثير من خلقه؛ مهملاً وسدى معطلاً لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته؛ بل يتركه معطلاً لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه؟ وهل هذا إلا مناف لحكمته ونسبته إلى ما لا يليق بجلاله؟ ولهذا أنكر ذلك على من زعمه، ونزّه نفسه عنه وبيّن أنه يستحيل نسبة ذلك إليه، وأنه يتعالى عنه فقال تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وأَنَّكُمْ إلَيْنَا لا تُرْجَعُون فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ**﴾. [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فنزه نفسه عن هذا الحسبان فدل على أنه مستقِرٌّ بطلانه في الفِطَر السليمة والعقول المستقيمة، وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر(١) عليه العقل والشرع كما هو أصح الطريقين في ذلك.

ومن فهم هذا فهم سر اقتران قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَآبَةٍ فِي الأَرْضِ ولا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾. [الأنعام: ٣٨]. بقوله: ﴿**وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّه قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّل آيَةً ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾. [الأنعام: ٣٧]. وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأن من لم يهمل أمر كل

(١) في المخطوطة: مما تظافر.

دآبة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه؛ بل جعلها أممًا وهداها إلى غاياتها ومصالحها، كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟! فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لِنَجْدَي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا انتفى الهدى معها كقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾. [فصلت:١٧]. أي بينّا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا.

ومنها قوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾. [الشورى:٥٢].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها وهي المذكورة في قوله: ﴿**يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾. [النحل:٩٣].

وفي قوله: ﴿**إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ**﴾. [النحل:٣٧].

وفي قول النبي ﷺ: «**من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له**».

وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾. [القصص:٥٦]. فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾. [الشورى:٥٢].

الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾. [يونس:٩]. وقال أهل الجنة فيها: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا**﴾. [الأعراف:٤٣].

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ**﴾. [الصافات:٢٢،٢٣].

إذا عُرف هذا فالهداية المسؤولة في قوله: ﴿**الصراط المستقيم**﴾ إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة، فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام.

فإن قيل: كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له، وكذلك الإلهام والتوفيق؟

قيل: هذه هي المسألة الثامنة عشرة، وقد أجاب عنها من أجاب بأن المراد التثبيت ودوام الهداية. **ولقد** أجاب وما أجاب، وذكر فرعًا لا قوام له بدون أصله، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها.

ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به، وأعظم من ذلك بحول الله.

فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور وهو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها:

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوبًا للرب تعالى مرضيًا له فيؤثره، وكونه مغضوبًا له مسخوطًا عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريدًا لجميع ما يحب الله منه أن يفعله، عازمًا عليه، ومريداً لترك جميع ما نهى الله عنه عازماً على تركه بعد خطوره بالبال مفصلاً، وعازمًا على تركه من حيث الجملة مجملاً، فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائمًا به فعلاً وتركًا، فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه.

فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية، ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها:

أحدها: أمور هُديَ إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها، فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمور هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هدي إليها تفصيلاً من جميع وجوهها، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها.

فهذه ستة أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه، ويتعلق بالماضي أمر سابع، وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها.

وإذا كان كذلك فإنما يقال: كيف يسأل الهداية وهي موجودة له؟ ثم يجاب عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها، إذا كانت هذه المراتب الست حاصلة له بالفعل فيحنئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام.

فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، ومالا يريده من رشده أكثر مما يريده، ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق الله فاعلية فيه، فالمسؤول هو أصل الهداية على الدوام تعليمًا وتوفيقًا وخلقًا للإرادة فيه وإقدارًا له، وخلقًا للفاعلية وتثبيتًا له على

ذلك، فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علمًا وعملاً والتثبيت عليها والدوام إلى المهات.

وسر ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره، أصلاً وتفصيلاً وتثبيتًا، ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام فليس له أنفع ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية. فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يثبت قلوبنا على دينه.

أما المسألة التاسعة عشرة: وهي الإتيان بالضمير في قوله: **﴿اهدنا الصراط﴾** ضمير جمع، فقد قال بعض الناس في جوابه: إن كل عضو من أعضاء العبد وكل حاسة ظاهرة وباطنة مفتقرة إلى هداية خاصة به، فأتى بصيغة الجمع تنزيلاً لكل عضو من أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه.

وعرضت هذا الجواب على شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه؛ فاستركه واستضعفه جدًّا.

وهو كما قال فإن الإنسان اسم للجملة، لا لكل جزء من أجزائه وعضو من أعضائه.

والقائل إذا قال: اغفر لي وأرحمني واجبرني وأصلحني واهدني، سائل من الله ما يحصل لجملته ظاهرِه وباطنِه فلا يحتاج أن يستشعر لكل عضو مسألة تخصه يفرد لها لفظة.

فالصواب: أن يقال: هذا مطابق لقوله: **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾**. [الفاتحة: ٥]. والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم، فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته فأتى به بصيغة ضمير الجمع أي نحن معاشر عبيدك مُقِرُّون لك بالعبودية.

وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك؛ فيكون هذا أحسن وأعظم موقعًا عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك ولهذا لو قال: أنا وحدي مملوكك، استدعى مقته، فإذا قال: أنا وكل من في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدًّا وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك. فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه الهداية ما لا يتضمنه لفظ الإفراد، فتأمله.

وإذا تأملت أدعية القرآن، رأيت عامتها على هذا النمط نحو: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ [البقرة: ٢٠١].

ونحو دعاء آخر البقرة، وآخر آل عمران وأولها وهو أكثر أدعية القرآن.

وأما المسألة العشرون وهي: ما هو الصراط المستقيم؟.

فنذكر فيه قولاً وجيزًا، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته.

وحقيقته شيء واحد وهو طريق الله الذي نصبه لعباده على ألسن رسله، وجعله موصلاً لعباده إليه ولا طريق لهم إليه سواه؛ بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا.

وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحدًا في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحدًا في طاعته، فيجرد التوحيد ويجرد متابعة الرسول.

وهذا معنى قول بعض العارفين: إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين: صدق محبته، وحسن معاملته، وهذا كله مضمون شهادة: أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فأي شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين.

ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله، وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته، والأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله، والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمدًا رسول الله.

وهذا هو الهدى ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل به. وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به، فقل ماشئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها، وهي معنى قول من قال: علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة.

ومعنى قول من قال: متابعة رسول الله ظاهرًا وباطنًا علمًا وعملاً، ومعنى قول من قال: الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة على أمره.

وأما ما عدا هذا من الأقوال كقول من قال: الصلوات الخمس.

وقول من قال: حب أبي بكر وعمر، وقول من قال: هو أركان الإسلام الخمس التي بني عليها.

فكل هذه الأقوال تمثيل وتنويع، لا تفسير مطابق له بل هي جزء من أجزائه، وحقيقته الجامعة ما تقدم. والله أعلم.

تَفسِيرُ سُورَةِ البَقَرَة

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**تكرر** في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره. وكذلك الضلال؛ فأعمال البر تثمر الهدى، وكلما ازداد منها ازداد هدى. وأعمال الفجور بالضد.

وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر، فيجازي عليها بالهدى والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء.

وأيضًا فإنه البَرُّ، ويحب أهل البر، فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر، ويبغض الفجور وأهله، فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور.

فمن الأصل الأول، قوله تعالى: ﴿الٓمٓ: ذلك الكِتَابُ لا رَيْبَ فيه، هُدًى للمُتَّقِين﴾. [البقرة: ١، ٢]. وهذا يتضمن أمرين:

أحدهما: أنه يهدي به من اتقى مساخطه قبل نزول الكتاب، فإن الناس على اختلاف مللهم ونِحَلهم قد استقر عندهم، أن الله - سبحانه - يكره الظلم والفواحش والفساد في الأرض، ويمقت فاعل ذلك، ويحب العدل والإحسان، والجود والصدق، والإصلاح في الأرض، ويحب فاعل ذلك، فلما نزل الكتاب أثابَ - سبحانه - أهل البر، بأن وفقهم للإيمان به جزاء لهم على برهم وطاعتهم، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم، بأن حال بينهم وبين الاهتداء به...

(٢)**وكما** يقرن - سبحانه - بين الهدى والتقى والضلال والغيّ، فكذلك يقرن بين الهدى والرحمة والضلال والشقاء. فمن الأول قوله: ﴿أوْلَئِكَ عَلى هُدى مِنْ رَبِّهم، وأوْلَئك هُمُ المُفْلِحُونَ﴾. [البقرة: ٥]. وقال: ﴿أُولَئِك عَلَيْهِم صَلوَاتٌ مِنْ رَبِّهِم وَرَحْمَةٌ، وَأوْلَئك هُمُ المُهْتَدُون﴾، [البقرة: ١٥٧]. وقال عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْد إذْ هَدَيْتَنا وهَبْ لنا مِنْ لَدُنك رَحْمَةً، إنَّك أَنْتَ الوَهَّابُ﴾، [آل عمران: ٨]. وقال أهل الكهف: ﴿رَبَّنَا آتِنَا من لدُنْك رَحمَةً وَهيِّءْ لَنَا مِنْ أمْرِنا رَشَدًا﴾، [الكهف: ١٠]. وقال: ﴿لقَدْ كَانَ في قصصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولي الألْبَاب، ما كَان

(١) ١٢٨ فوائد.
(٢) ١٣١ فوائد.

حَدِيثًا يُفْتَرَى، ولكِنْ تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفصيلَ كلِّ شيءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾. [يوسف: ١١١].

...[1] **والأمر** الثاني: أن العبد إذا آمن بالكتاب، واهتدى به مجملاً، وقبل أوامره، وصدّق بأخباره، كان ذلك سببًا لهداية أخرى تحصل له على التفصيل؛ فإن الهداية لا نهاية لها، ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى، إلى غير غاية.

فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهوفي مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى.

وكلما فوّت حظًا من التقوى، فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هداه، وكلما اهتدى زادت تقواه، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءكُمْ من الله نُورٌ وكِتَابٌ مُبِين، يَهْدي به الله من اتَّبع رِضْوَانه سُبُلَ السَّلام، وَيُخْرِجُهُمْ مِن الظُلُماتِ إلى النُورِ بإذنِهِ وَيَهْديهم إلى صِراطٍ مُسْتقيم﴾، [المائدة: ١٥،١٦]. وقال تعالى: ﴿الله يَجْتَبي إلَيْهِ مَن يَشَاء ويَهْدِي إلَيْه من يُنيبُ﴾، [الشورى: ١٣]. وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّر مَن يَخْشى﴾، [الأعلى: ١٠]. وقال: ﴿وما يَتَذكَّرُ إلاّ منْ يُنِيبُ﴾، [غافر: ١٣]. وقال: ﴿إنَّ الذين آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَات يَهْدِيهم رَبُّهم بإِيْمَانِهِم﴾. [يونس: ٩]. فهداهم أولاً للإيمان، فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية.

ونظير هذا قوله: ﴿وَيَزِيدُ الله الذيْن اهْتَدُوا هُدًى﴾. [مريم: ٧٦].

وقوله تعالى: ﴿يا أيُها الذين آمَنُوا إن تَتَّقوا الله يَجْعَلْ لكُمْ فُرْقَانًا﴾. [الأنفال: ٢٩]. .

ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز، الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل. فسر الفرقان بهذا وبهذا، وقال تعالى: ﴿إنَّ في ذَلِك لآيةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيب﴾. [سبأ: ٩]. وقال: ﴿إنَّ في ذلك لآيـاتٍ لكُـلِّ صَبَّـارٍ شَكُورٍ﴾؛ [الشورى: ٣٣]. في سورة لقمان، وسورة إبراهيم، وسبأ، والشورى.

فأخبر عن آياته المشهودة العيانية، أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية، أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة، ومن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه ـ سبحانه ـ كما قال:

---

(١) ١٢٩ فوائد.

﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرةً لمن يخشى﴾، [طه: ١-٣]. وقال في الساعة: ﴿إنَّما أنتَ منذرُ مَنْ يخشاها﴾. [النازعات: ٤٥]. وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها، فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية، ولهذا لما ذكر - سبحانه - في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل، وما حل بهم في الدنيا من الخزي. قال بعد ذلك: ﴿إنَّ في ذلك لآيةً لِمَنْ خافَ عذابَ الآخرةِ﴾. [هود: ١٠٣]. فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها. فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك، قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية.

وإنما كان الصبر والشكر سببًا لانتفاع صاحبهما بالآيات ينبني على الصبر والشكر؛ فنصفه صبر ونصفه شكر. فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى؛ فإذا كان مشركًا متّبعًا هواه لم يكن صابرًا ولا شكورًا، فلا تكون الآيات نافعة له، ولا مؤثرة فيه إيمانًا. (١).

فصل (٢)

ومن هذا إخباره سبحانه بأنه طَبَع على قلوب الكافرين وخَتم عليها وأنه أصمّها عن الحق وأعمى أبصارها عنه، كما قال تعالى: ﴿إنَّ الذين كَفروا سَواءٌ عَلَيْهِم أأنذرْتَهم أم لَمْ تُنذِرْهُم لا يُؤمِنُون، خَتَم الله عَلى قُلوبِهِمْ وعلى سَمعِهِمْ﴾. [البقرة: ٦، ٧]. والوقف التام هنا.

ثم قال: ﴿وعَلى أبْصارِهِم غشاوة﴾. [البقرة: ٧]. كقوله: ﴿أفرأيتَ مَن اتَّخَذ إلهه هَواهُ وأضَلَّهُ الله عَلى عِلْم وختَمَ على سَمْعِهِ وقَلْبه وجَعَلَ على بَصَرِهِ غشَاوة﴾. [الجاثية: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وقولهم قُلوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ الله عليها بِكُفْرِهِم﴾. [النساء: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿كَذلك يَطْبَعُ الله عَلى قُلُوب الكافِرين﴾. [الأعراف: ١٠١]. ﴿كَذلك نطْبَع على قُلوب المُعْتَدِين﴾. [يونس: ٧٤]. ﴿ونَطْبَع على قُلوبِهِم فَهُم

(١) الأصل الثاني يأتي على قوله: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾. [البقرة: ٢٦]. إن شاء الله. ج. (٢) ٨٢ شفاء العليل.

لا يَسْمَعُونَ﴾. [الأعراف: ١٠٠]. **وأخبر** سبحانه أن على بعض القلوب أقفالاً، تمنعها من أن تنفتح لدخول الهدى إليها.

وقال: **﴿قُلْ هُوَ للذين آمَنُوا هُدًى وشِفَاءٌ والذين لا يُؤمِنُون في آذانِهِم وَقْر وَهُو عَلَيْهِمْ عَمًى﴾**. [فصلت: ٤٤]. فهذا الوقر والعمى حال بينهم وبين أن يكون لهم هدى وشفاء.

وقال تعالى: **﴿إنَّا جَعَلْنَا على قُلوبِهِمْ أكِنَّةً أنْ يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهِم وَقْرًا﴾**. [الكهف: ٥٧].

وقال تعالى: **﴿وكَـذلـك زُيِّن لِفـرْعَونَ سُوء عَمَله وَصُدَّ عن السَّبيل﴾**. [غافر: ٣٧]. قرأها الكوفيون وصُدَّ بضم الصاد حملاً على زُيِّنَ، وقال تعالى: **﴿إنَّ الله لا يَهْدِي مَن هُو مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾**. [غافر: ٢٨]. وقال: **﴿والله لا يَهْدِي القومَ الظَّالِمِين﴾**. [الصف: ٧]. ومعلوم أنه لم ينفِ هدى البيان والدلالة الذي تقوم به الحجة فإنه حجته على عباده.

والقدرية ترد هذا كله إلى المتشابه وتجعله من متشابه القرآن وتتأوله على غير تأويله، بل تتأوله بما يقطع ببطلانه وعدم إرادة المتكلم له كقول بعضهم: المراد من ذلك تسمية الله العبد مهتديًا وضالاً، فجعلوا هداه وإضلاله مجرد تسمية العبد بذلك، وهذا مما يعلم قطعًا أنه لا يصح حمل هذه الآيات عليه.

وأنت إذا تأملتها وجدتها لا تحتمل ما ذكروه ألبتة، وليس في لغة أمة من الأمم فضلاً عن أفصح اللغات وأكملها: هداه بمعنى: سماه مهتديًا، وأضله: سماه ضالاً وهل يصح أن يقال: علمه إذا سماه عالمًا، وفهمه: إذا سماه فهمًا.

وكيف يصح هذا في مثل قوله تعالى: **﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾**. [البقرة: ٢٧٢].

فهل فَهِم أحد غير القدرية المحرفة للقرآن من هذا: ليس عليك تسميتهم مهتدين، ولكن الله يسمى من يشاء مهتديًا؟.

وهل فَهِم أحد قط من قوله تعالى: **﴿إنَّك لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾** [القصص: ٥٦]: لا تسميه مهتديًا ولكن الله يسميه بهذا الاسم؟ وهل فهم أحد من قول الداعي: **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾**، وقوله: اللهم اهدني من عندك ونحوه. اللهم سمني

مهتديًا؟ وهذا من جناية القدرية على القرآن ومعناه، نظير جناية إخوانهم من الجهمية على نصوص الصفات وتحريفها عن مواضعها، وفتحوا للزنادقة والملاحدة جنايتهم على نصوص المعاد وتأويلها بتأويلات إن لم تكن أقوى من تأويلاتهم لم تكن دونها، وفتحوا للقرامطة والباطنية تأويل نصوص الأمر والنهي بنحو تأويلاتهم.

فتأويل التحريف الذي سلكته هذه الطوائف أصل فساد الدنيا والدين وخراب العالم. وسنفرد إن شاء الله كتابًا نذكر فيه جناية المتأولين على الدنيا والدين. وأنت إذا وازنت بين تأويلات القدرية والجهمية والرافضة، لم تجد بينها وبين تأويلات الملاحدة والزنادقة من القرامطة الباطنية وأمثالهم كبير فرق.

والتأويل الباطل يتضمن تعطيل ما جاء به الرسول والكذب على المتكلم أنه أراد ذلك المعنى؛ فتتضمن إبطال الحق وتحقيق الباطل، ونسبة المتكلم إلى مالا يليق به من التلبيس والإلغاز مع القول عليه بلا علم أنه أراد هذا المعنى.

فصل(1)

ومما ينبغي أن يُعلم: أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل، حصول الإيمان بأن يفك الذي ختم على القلب، وطبع عليه، وضرب عليه القفل، ذلك الختم والطابع والقفل، ويهديه بعد ضلاله، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيّه، ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده، حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان.

وقرأ قارىء عند عمر بن الخطاب: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُون القرآنَ أَمْ على قُلُوبٍ أقفالُها**﴾. [محمد: ٢٤]. وعنده شاب فقال: اللهم عليها أقفالها ومفاتيحها بيدك لا يفتحها سواك. فعرفها له عمر وزادته عنده خيرًا، وكان عمر يقول في دعائه: اللهم إن كنت كتبتني شقيًّا فامحني واكتبني سعيدًا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت. فالرب تعالى فعّال لما يريد لا حجْر عليه.

وقد ضل ههنا فريقان: القدرية حيث زعمت أن ذلك ليس مقدورًا للرب، ولا يدخل تحت فعله؛ إذ لو كان مقدورًا له ومنعه العبد لناقض جوده ولطفه، والجبرية حيث زعمت أنه سبحانه إذا قدر قدرًا أو علم شيئًا فإنه لا يغيره بعد هذا

---
(١) ٩٠ شفاء العليل.

ولا يتصرف فيه بخلاف ماقدره وعلمه، والطائفتان حجرت على من لا يدخل تحت حجر أحد أصلا، وجميع خلقه تحت حجره شرعًا وقدراً وهذه المسألة من أكبر مسائل القدر، وسيمر بك إن شاء الله في باب المحو والإثبات مايشفيك فيها.

والمقصود: أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم والطابع، وفتح ذلك القفل يفتحه من بيده مفاتيح كل شيء وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه، وإن كان فك الختم وفتح القفل غير مقدور له كما أن شرب الدواء مقدور له، وزوال العلة وحصول العافية غير مقدور، فإذا استحكم به المرض وصار صفة لازمة له لم يكن له عذر في تعاطي ما إليه من أسباب الشفاء، وإن كان غير مقدور له ولكن لما ألف العلة وساكنها ولم يحب زوالها ولا آثر ضدها عليها مع معرفته بما بينها وبين ضدها من التفاوت، فقد سد على نفسه باب الشفاء بالكلية.

والله سبحانه يهدي عبده إذا كان ضالاًّ وهو يحسب أنه على هدى، فإذا تبين له الهدى لم يعدل عنه لمحبته وملائمته لنفسه، فإذا عرف الهدى فلم يحبه ولم يرض به وآثر عليه الضلال، مع تكرر تعريفه منفعة هذا وخيره ومضرة هذا وشره، فقد سد على نفسه باب الهدى بالكلية.

فلو أنه في هذه الحال تعرض وافتقر إلى من بيده هداه، وعلم أنه ليس إليه هدى نفسه وأنه إن لم يهده الله فهو ضال، وسأل الله أن يقبل بقلبه وأن يقيه شر نفسه وفقه وهداه، بل لو علم الله منه كراهية لما هو عليه من الضلال وأنه مرض قاتل إن لم يشفه منه أهلكه، لكانت كراهته وبغضه إياه مع كونه مبتلى به من أسباب الشفاء والهداية، ولكن من أعظم أسباب الشقاء والضلال محبته له ورضاه به وكراهته الهدى والحق، فلو أن المطبوع على قلبه المختوم عليه كره ذلك ورغب إلى الله في فك ذلك عنه وفعل مقدوره، لكان هداه أقرب شيء إليه لكن إذا استحكم الطبع والختم حال بينه وبين كراهة ذلك وسؤال الرب فكه وفتح قلبه.

فصـــل[1]

فإن قيل: فإذا جوزّتم أن يكـون الـطبع والختم والقفل، عقوبة وجزاء على الجرائم والإعراض والكفر السابق على فعل الجرائم.

قيل: هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس ويظنون بالله سبحانه خلاف موجب أسمائه وصفاته.

والقرآن من أوله إلى آخره، إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بينه له؛ وإنما فعله بعد تكـرار الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرار الإعراض منهم والمبـالغـة والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع بل كان اختيارًا، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية.

فتأمل هذا المعنى في قوله: ﴿إِنَّ الذين كَفَروا سَوَاءٌ عَلَيهم أءنْذَرْتَهُم أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لا يُؤمِنُون خَتَم الله على قُلُوبِهم وعَلى سَمْعِهِم وعَلى أَبْصَارِهِم غِشَاوَةٌ ولَهُم عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. [البقرة: ٦، ٧]. ومعلوم أن هذا ليس حكمًا يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارًا قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم.

فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا، بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنـازير، وبعضهم بالـطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقـوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه كما يعاقب بالعذاب كذلك[2].

[3]**قال** سبحانه وتعالى: ﴿ومن الناس من يقولُ آمنا بالله وَبالْيَوم الآخِرِ وَمَا

---

(١) ٢٤ شفاء العليل.

(٢) بعد هذا ذكر فصلا مطولاً مجموعاً فيه فائدة كبيرة جدًا لمن أراده وسنذكره مفرقًا في محاله إن شاء الله.

(٣) ٣٤٠ إغاثة جـ١.

هُمْ بِمؤمنين يُخَادِعُون الله والذين آمنوا وماَ يَخْدَعون إلاّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. [البقرة: ٨، ٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ المُنَافِقِين يُخَادِعُون الله وهو خَادِعُهُمْ﴾. [النساء: ١٤٢]. وقال في أهل العهد: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فإِنَّ حَسْبَكَ الله﴾. [الأنفال: ٦٢].

فأخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء المخادعين مخدوعون، وهم لا يشعرون أن الله خادع مَن خدعه، وأنه يكفي المخدوعَ شرَّ مَنْ خدعه.

والمخادعة: هي الاحتيال، والمراوغة: بإظهار الخير مع إبطان خلافه، ليحصل مقصود المخادع. وهذا موافق لاشتقاق اللفظ في اللغة. فإنهم يقولون: طريق خَيْدَع، إذا كان مخالفًا للقصد لا يُشعَر به، و لا يُفطن له، ويقال للسراب: الخَيْدَع. لأنه يَغُرُّ من يراه، وضبٌّ خَدِع، أي: مراوغ. كما قالوا: أخدع من ضَبّ، ومنه: «الحرب خدعة(١)» وسوق خادعة، أي: متلونة، وأصله: الإخفاء والستر. ومنه سميت الخِزانة مخدعًا.

فلما كان القائل: «آمنت» مُظهرًا لهذه الكلمة، غير مريد حقيقتها المرعيَّة المطلوبة شرعًا، بل مريد لحكمها وثمرتها فقط؛ مُخادعًا، كان المتكلم بلفظ «بعتُ» و «اشتريت» و «طلقت» و «نكحت» و «خالعت» و «آجرت» و «ساقيت»، و«أوصيت» غير مريد لحقائقها الشرعية المطلوبة منها شرعًا، بل مريد لأمور أخرى غير ما شرعت له، أو ضدِّ ما شرعت له؛ مخادعًا. ذاك مخادعٌ في أصل الإيمان، وهذا مخادع في أعماله وشرائعه.

قال شيخنا: وهذا ضرب من النفاق في آيات الله تعالى وحدوده. كما أن الأول نفاق في أصل الدين.

يؤيد ذلك: ما رواه سعيد بن منصور، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما؛ «أنه جاءه رجل فقال: إن عَمِّي طلَّق امرأته ثلاثًا، أيُحلُّها له رجل؟ فقال: «مَنْ يُخادع الله يخدعه».

---

(١) مثلثة الخاء، وكهُمَزَة، وروى بهن جميعًا، أي: تنقض بخدعة. رواه أحمد ومسلم والبخاري عن أبي هريرة.

فصل[1]

وأما المرض فقال تعالى: ﴿في قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾. [البقرة: ١٠].
وقال: ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾. [الأحزاب: ٣٢].
وقال: ﴿ولا يَرْتَابَ الذين أُوْتُوا الكِتَابَ والمؤمِنُونَ وليَقُولَ الذين في قُلُوبِهِم مَرَضٌ والكافِرُون ماذا أَرَادَ اللهُ بهذا مثلاً﴾. [المدثر: ٣١]. ومرض القلب خروج عن صحته واعتداله فإن صحته أن يكون عارفًا بالحق محبًا له، مُؤْثِرًا له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه. فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غيّ وشهوة، وقد سمى الله سبحانه كلًا منهما مرضًا. **قال** ابن الأنباري: أصل المرض في اللغة الفساد، مرض فلان فسد جسمه وتغيرت حاله، ومرضت بالمرض تغيرت وفسدت قالت ليلى الأخيلية:

إذا هبط الحجاج أرضًا مريضة		تتبع أقصى دائها فشفاها

وقال آخر:

ألم تر أن الأرض أضحت مريضة		لفقد الحسين والبلاد اقشعرت

والمرض يدور على أربعة أشياء: فساد وضعف، ونقصان، وظلمة، ومنه مرض الرجل في الأمر إذا ضعف فيه ولم يبالغ، وعين مريضة النظر أي فاترة ضعيفة، وريح مريضة إذا هب هبوبها كما قال: * راحت لأربعك الرياح مريضة *

أي: لينة ضعيفة حتى لا يعفى أثرها.

وقال ابن الأعرابي: أصل المرض النقصان ومنه بدن مريض أي: ناقص القوة وقلب مريض ناقص الدين، ومرض في حاجتي إذا نقصت حركته.

وقال الأزهري، عن المنذري، عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها، قال: والمرض الظلمة، وأنشد:

وليلة مرضت من كل ناحية		فما يضيء لها شمس ولا قمر

هذا أصله في اللغة. ثم الشك، والجهل، والحيرة، والضلال، وإرادة الغي وشهوة الفجور في القلب تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض، فيعاقبه الله بزيادة المرض لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها:

---
(١) ٩٨ شفاء.

...(١)**المرض** نوعان: مرض القلوب، ومرض الأبدان. وهما مذكوران في القرآن.

ومرض القلوب نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغي. وكلاهما في القرآن.

قال تعالى: في مرض الشبهة: **﴿في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾**. [البقرة: ١٠]. وقال تعالى: **﴿وَلِيَقُولَ الذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والكافِرُون: مَاذا أراد الله بهذا مثلاً﴾**. [المدثر: ٣١].

وقال تعالى في حق من دُعي إلى تحكيم القرآن والسنة فأبى وأعرض: **﴿وإذا دُعُوا إلى الله وَرَسُولِه لِيَحكمَ بَيْنَهُم إذا فَريقٌ منهم مُعرضُون. وإن يَكُنْ لَهُم الحقُّ يأتوا إليه مُذْعنين. أفي قُلُوبِهم مَرَضٌ؟ أم ارْتَابُوا؟ أَمْ يَخافُون أن يحِيفَ الله عليهم ورَسُولُهُ؟ بَلْ أُولئِك هُمُ الظالِمُون﴾**. [النور: ٤٨ ـ ٥٠]. فهذا مرض الشبهات والشكوك.

وأما مرض الشهوات فقال تعالى: **﴿يا نِسَاءَ النَّبي لسْتُنَّ كأحَدٍ من النِسَاءِ، إن اتَّقَيْتنَّ، فَلاَ تَخْضَعن بالقَولِ، فيَطْمعَ الذي في قَلبه مَرَضٌ﴾**. [الأحزاب: ٣٢]. فهذا مرض شهوة الزنا. والله أعلم.

(٢)**الوجه** السابع والثمانون: أن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه، إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته وهما: مرض الشهوات ومرض الشبهات، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله. وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين في كتابه.

أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب ففي قوله في حق المنافقين: **﴿في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضًا﴾**. [البقرة: ١٠]. وقوله: **﴿وَلَيقُولَ الذِيْن في قُلُوبِهم مَرَضٌ والكَافِرُون ماذَا أَرادَ الله بهَذا مثلاً﴾**. [المدثر: ٣١]. وقال تعالى: **﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً للذين في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾**. [الحج: ٥٣]. فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة.

وأما مرض الشهوة ففي قوله: **﴿يا نِسَاءَ النبيِّ لَسْتُنَّ كأحدٍ مِن النِساء إن اتَّقَيْتُنَّ فلا تَخْضَعنَ بالقَوْل فَيطْمَعَ الذي في قَلْبه مَرَضٌ﴾**. [الأحزاب: ٣٢]. أي: لا تلن في الكلام فيطمع الذي في قلبه فجور وزنا. قالوا: والمرأة ينبغي لها إذا خاطبت الأجانب أن تغلظ كلامها وتقويّه ولا تلينه وتكسره؛ فإن ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها.

وللقلب أمراض أخر؛ من الرياء والكِبْر والعجب والحسد والفخر والخيلاء

---

(١) ١٣٤ زاد المعاد جـ٣. (٢) ١١٠ مفتاح جـ١.

وحب الرياسة والعلو في الأرض، وهذا المرض مركب من مرض الشبهة والشهوة؛ فإنه لا بد فيه من تخيل فاسد وإرادة باطلة، كالعجب والفخر والخيلاء والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم، فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شبهة أو مركب منهما.

وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم، كما قال النبي ﷺ في حديث صاحب الشجة الذي أفتوه بالغسل فمات: «**قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال**» فجعل العي وهو عي القلب عن العلم، واللسان عن النطق به مرضًا وشفاؤه سؤال العلماء، فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان؛ لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت. وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم، ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ ربكم وَشِفاءٌ لما في الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ للمُؤْمِنِين**﴾. [يونس:٥٧]. ولهذا السبب نسبة العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الأبدان، وما يقال للعلماء: أطباء القلوب فهو لقدر ما جامع بينهما وإلا فالأمر أعظم، فإن كثيراً من الأمم يستغنون عن الأطباء، ولا يوجد الأطباء إلا في اليسير من البلاد، وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب.

وأما العلماء بالله وأمره، فهم حياة الوجود وروحه ولا يستغني عنهم طرفة عين؛ فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء بل أعظم.

وبالجملة فالعلم للقلب مثل الماء للسمك إذا فقده مات، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها وكنسبة سمع الأذن، وكنسبة كلام اللسان إليه، فإذا عدمه كان كالعين العمياء والأذن الصماء واللسان الأخرس.

ولهذا يصف سبحانه أهل الجهل بالعمى والصم والبكم، وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت العلم النافع، فبقيت على عماها وصممها وبكمها. قال تعالى: ﴿**وَمَنْ كَانَ في هذه أعْمى فَهُو في الآخِرَةِ أعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾. [الإسراء:٧٢]. والمراد عمي القلب في الدنيا....

فصل(١)

وأما النفاق: فالداء العضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئًا منه، وهو لا يشعر. فإنه أمر خفي على الناس. وكثيراً ما يخفي على من تلبّس به. فيزعم أنه مصلح وهو مفسد وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل. وهو أن يُظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله، مكذب به. لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس، يهديهم بإذنه. وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين. وكشف أسرارهم في القرآن. وجلّى لعباده أمورهم. ليكونوا منها ومن أهلها على حذر.

وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات. وفي الكفار آيتين. وفي المنافقين ثلاث عشرة آية. لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم. وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله. فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدًّا. لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة.

يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه عِلْم وإصلاح. وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه!! وكم من حِصْن له قد قلعوا أساسه وخربوه!! وكم من عَلَم له قد طمسوه!! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه!! وكم ضربوا بمعاول الشُبَه في أصول غراسه ليقلعوها!! وكم عَمَّوا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها!!

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبليّة. ولايزال يطرقه من شُبههم سَرِيَّةٌ بعد سرية. ويزعمون أنهم بذلك مصلحون **﴿أَلا إِنَّهُم هُم الْمُفْسِدُون ولكِن لا يَشْعُرُون﴾** [البقرة: ١٢]. **﴿يُرِيْدُونَ لِيُطفِئوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ واللهُ مُتمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُون﴾**. [الصف: ٨].

اتفقوا على مفارقة الوحي فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون **﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُم زُبُرًا كُلُّ حِزْب بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون﴾** [المؤمنون: ٥٣]. **﴿يُوحي بَعْضُهُم**

(١) ٣٤٧ مدارج جـ١.

إلى بَعْضٍ زُخرُفَ القَوْلِ غُرُورًا﴾. [الأنعام:١١٢]. ولأجل ذلك ﴿اتَّخَذُوا هَذا القُرآن مَهْجُورًا﴾. [الفرقان: ٣٠].

دَرَست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها. ودَثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفَلَت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحيونها. وكَسَفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها. لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله. ولم يرفعوا به رأسًا. ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسًا. خلعوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة. وعزلوها عن ولاية اليقين. وشَنُّوا عليها غارات التأويلات الباطلة. فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين. نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام. فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام. وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع في الصدور منها والأعجاز. وقالوا: مالكِ عندنا من عبور ـ وإن كان لابد ـ فعلى سبيل الاجتياز. أعدُّوا لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين، وقالوا ـ لما حَلَّت بساحتهم ـ: مالنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئًا من اليقين. وعوامُّهم قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا من المتأخرين. فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين. وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور. ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هِمَمَهم إلى فعل المأمور وترك المحظور. فطريقة المتأخرين؛ أعلم وأحكم. وطريقة السلف الماضين؛ أجهل، لكنها أسلم.

أنزلوا نصوص السنة والقرآن، منزلة الخليفة في هذا الزمان، اسمه على السِّكة وفي الخطبة فوق المنابر مرفوع. والحكم النافذ لغيره. فحكمه غير مقبول ولا مسموع.

لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران. فالظواهر ظواهر الأنصار. والبواطن قد تحيَّزت إلى الكفار. فألسنتهم ألسنة المسالمين. وقلوبهم قلوب المحاربين. ويقولون: ﴿آمَنَّا باللهِ وبِالْيَومِ الآخِرِ وما هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾. [البقرة: ٨].

رأس مالهم الخديعة والمكر. وبضاعتهم الكذب والخَتْر. وعندهم العقل المعيشي: أن الفريقين عنهم راضون. وهم بينهم آمنون ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ والذينَ آمَنُوا. ومَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وما يَشْعُرُونَ﴾. [البقرة: ٩].

قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها. وغلبت القصود السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها. ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾. [البقرة: ١٠].

من عَلَقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مَزَّقته كل تمزيق. ومن تَعلَّق شَرَرُ فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق. ومن دخلت شبهات تلبيسهم في مسامعه حال بين قلبه وبين التصديق. ففسادهم في الأرض كثير. وأكثر الناس عنه غافلون ﴿**وإذا قيلَ لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحنُ مُصْلِحُون* ألا إنَّهم هم المفسدون ولكنْ لا يشعرون**﴾. [البقرة: ١١، ١٢]. المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر، مبخوس حظه من المعقول، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفارًا. فهَمُّه في حمل المنقول. وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول. وأهل الاتّباع عندهم سفهاء فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون ﴿**وإذَا قِيل لهُم: آمنوُا كَما آمنَ الناسُ. قالوا: أنُؤمنُ كَما آمَنَ السُّفهاءُ؟ ألا إنهم هم السُّفهاءُ ولكنْ لا يعلمون**﴾. [البقرة: ١٣].

لكل منهم وجهان. وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين. وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون ﴿**وَإذا لقُوا الذين آمَنوا قالوا: آمَنَّا. وإذَا خَلَوا إلى شياطينهم قالوا: إنَّا معكم، إنما نحنُ مستهزئون**﴾. [البقرة: ١٤].

قد أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاء بأهلها واستحقارًا، وأَبَوْا أن ينقادوا لحكم الوحيين؛ فرحًا بما عندهم من العلم الذي لا ينفع الاستكثار منه أشرًا واستكبارًا. فتراهم أبدًا بالمتمسكين بصريح الوحي يستهزئون ﴿**الله يَسْتَهْزِيءُ بِهِمْ ويمدُّهم في طُغْيَانِهم يَعْمَهُونَ**﴾. [البقرة: ١٥].

خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات، فركبوا مراكب الشُّبه والشكوك تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقتها بين سُفن الهالكين ﴿**أُولئِكَ الذينَ اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بِالهُدَى. فَمَا رَبِحَت تِجارَتُهم، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾. [البقرة: ١٦].

أضاءت لهم نار الإيمان فأبصروا في ضوئها مواقع الهدى والضلال، ثم طفيء ذلك النور، وبقيت نارًا تأجج ذات لهب واشتعال، فهم بتلك النار معذبون، وفي تلك الظلمات يعمهون ﴿**مَثَلُهم كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَد نارًا، فلمّا أضاءتْ مَا حَولَهُ؛ ذَهَبَ الله بِنُورِهم، وَتركَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ**﴾. [البقرة: ١٧].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر؛ فهي لا تسمع منادي الإيمان. وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى؛ فهي لا تبصر حقائق القرآن. وألسنتهم بها خَرَس عن الحق فهم به لا ينطقون ﴿**صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ**﴾. [البقرة: ١٨].

صاب عليهم صَيِّب الوحي، وفيه حياة القلوب والأرواح؛ فلم يسمعوا منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التي وُظِّفت عليهم في المساء والصباح؛ فجعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشَوْا ثيابهم، وجدّوا في الهرب، والطلبُ في آثارهم والصياح، فنودي عليهم على رءوس الأشهاد، وكشفت حالهم للمستبصرين، وضرب لهم مثلان بحسب حال الطائفتين منهم: المناظرين، والمقلدين. فقيل: ﴿**أَوْ كصيِّبٍ من السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرعدٌ وَبَرْقٌ. يَجْعَلُون أصابعَهُم في آذانِهِم مِنْ الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوتِ. والله مُحِيطٌ بِالكَافِرِينَ**﴾. [البقرة: ١٩].

ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما في الصيب من بروق أنواره وضياء معانيه. وعجزت أسماعهم عن تلقي رعود وعوده وأوامره ونواهيه. فقاموا عند ذلك حيارَىَ في أودية التيه. لا ينتفع بسمعه السامع. ولا يهتدي ببصره البصير ﴿**كُلَّما أضاء لَهُم مَشَوا فِيه. وإذا أظْلَمَ عَلَيْهِم قَامُوا. ولو شَاء الله لَذَهَبَ بسمْعِهِم وأبْصَارِهِم. إن الله على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ**﴾. [البقرة: ٢٠].

لهم علامات يُعرفون بها مبينة في السنة والقرآن. بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان. قام بهم ـ والله ـ الرياء. وهو أقبح مقام قامه الإنسان، وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن. فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلاً ﴿**وإذَا قَامُوا إلى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالى. يُرَاءون النَّاسَ. ولا يَذكُرون الله إلا قليلاً**﴾. [النساء: ١٤٢].

أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، تَيْعَر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة. ولا تستقر مع إحدى الفئتين. فهم واقفون بين الجمعين. ينظرون أيُّهم أقوى وأعز قبيلاً.

﴿مُذَبْذَبِين بَيْنَ ذَلكَ لَا إلى هَؤلاء ولَا إلى هَؤلاء ومَن يُضلل الله فلن تجدَ له سبيلاً﴾ [النساء:١٤٣].

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن. فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم. وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم. وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين. فلا تحتاج بعده دليلاً ﴿الذينَ يَتَرَبَّصُون بكُمْ. فإن كَانَ لَكُم فتحٌ مِن الله، قَالوا: أَلَم نكن مَعكم؟ وإنْ كَان للكَافِرين نَصِيبٌ، قَالوا: أَلَم نستحوذْ عليكم ونمنعْكم من المؤمنين؟ فالله يحكمُ بينكم يومَ القيامة. ولن يَجعلَ الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾. [النساء: ١٤١].

يعجبُ السامعَ قولُ أحدهم لحلاوته ولينه. ويُشهد الله على ما في قلبه من كذبه ومَيْنه(١). فتراه عند الحق نائمًا. وفي الباطل على الأقدام. فخذ وصفهم من قول القدوس السلام: ﴿وَمِن النَّاس مَن يُعْجِبُك قولُه في الحياة الدنيا ويُشهِدُ الله على ما في قلبه. وهو ألدُّ الخصام﴾. [البقرة: ٢٠٤].

أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد. ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد. وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ﴿ وَإذَا تَولَّى سَعَى في الأرض لِيُفْسدَ فِيها ويُهْلكَ الحَرْثَ والنَّسلَ. والله لا يُحبُّ الفَسادَ﴾. [البقرة: ٢٠٥].

فهم جنس بعضه يشبه بعضًا. يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه. وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه. ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه. كم ذكَّرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه؟ وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه؟ فاسمعوا أيها المؤمنون: ﴿المُنَافِقُون والمُنَافِقَات بَعْضُهُم مِن بَعْض يَأمُرون بالمُنْكر ويَنْهَون عن المَعْرُوف ويقبضون أيديهم نَسُوا الله فنسيهم إنَّ المنافقين هم الفاسقون﴾. [التوبة: ٦٧].

(٢)**وإذا** تأملت القرآن وتدبرته وأعرته فكرًا وافيًا اطّلعت فيه من: أسرار المناظرات، وتقرير الحجج الصحيحة، وإبطال الشُّبه الفاسدة، وذكر النقض

---

(١) المَيْنُ: الكذب. راجع لسان العرب جـ١٣ ص (٤٢٥) طبعة دار صادر. المراجع.

(٢) ١٣٠ بدائع جـ٤.

والفرق والمعارضة والمنع على ما يشفي ويكفي لمن بصّره الله وأنعم عليه بفهم كتابه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**وإذَا قِيْل لَهُمْ لا تُفْسِدُوا في الأرْضِ قَالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون ألا إنَّهُم هُمْ المُفْسِدُونَ**﴾. [البقرة:١٢].

فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين فقال لهم المؤمنون: لا تفسدوا في الأرض فأجابهم المنافقون بقولهم: ﴿**إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون**﴾. فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين، ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين، وأن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا فساد، فحَكَم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن أسْجلَ على المنافقين أربع إسجالات:

أحدها: تكذيبهم، **والثاني:** الإخبار بأنهم مفسدون.. **والثالث:** حصر الفساد فيهم بقوله: ﴿**هم المفسدون**﴾ **والرابع**: وصفهم بغاية الجهل وهو أنه لا شعور لهم ألبتة بكونهم مفسدين.

وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع، ثم نفى عنهم العلم في قولهم: ﴿**أنُؤمِنُ كَمَا آمَنَ السُفَهاء**﴾. فقال: ﴿**ألا أنَّهُم هُمُ السُفَهَاء ولكِنْ لا يَعْلَمُونَ**﴾. [البقرة:١٣].

فنفى علمهم بسفههم وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل؛ أن يكون الرجل مفسدًا ولا شعور له بفساده ألبتة، مع أن أثر فساده مشهور في الخارج مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه.

وكذلك كونه سفيهًا، والسفه غاية الجهل وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده وإرادته بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله كان من أشقى النوع الإنساني، فنفيُ العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله، ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه، فتضمنت الآيتان: الإسجال عليهم بالجهل، وفساد آلات الإدراك؛ بحيث يعتقدون الفساد صلاحًا والشر خيرًا.

وكذلك المناظرة الثانية معهم أيضًا فإن المؤمنين قالوا لهم: ﴿**آمنوا كما آمن الناس**﴾. فأجابهم المنافقون بقولهم: ﴿**أنؤمن كما آمن السفهاء**﴾.

وتقرير المناظرة من الجانبين، أن المؤمنين دعوهم إلى الإيمان الصادر من

العقلاء بالله ورسوله، وأن العاقل يتعين عليه الدخول فيما دخل فيه العقلاء الناصحون لأنفسهم، ولاسيما إذا قامت أدلته وصحت شواهده، فأجابهم المنافقون بما مضمونه: إنّا إنما يجب علينا موافقة العقلاء، وأما السفهاء الذين لا عقل لهم يميزون به بين النافع والضار فلا يجب علينا موافقتهم. فرد الله تعالى عليهم وحكم للمؤمنين وأسجل على المنافقين بأربعة أنواع: **أحدها**: تسفيههم(١). **الثاني**: حصر السفه فيهم. **الثالث**: نفي العلم عنهم. **الرابع**: تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من الإخبار عن سفه أهل الإيمان. **وخامس** أيضًا وهو: تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من دعواهم التنزيه من السَّفَه.

...(٢)**ومن** هذا ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالِمون؛ فإنها تشبيهُ شيء بشيء في حكمه، وتقريبُ المعقولِ من المحسوس، أو أحدِ المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر، كقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿**مَثَلُهُم كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ نارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بِنُورِهِم، وتَرَكَهُم في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُون، صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ، أَوْ كَصَيِّبٍ من السَّماء فِيْهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وبَرْقٌ، يَجْعَلُون أَصَابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِن الصواعِقِ حَذَرَ المَوْتِ**﴾. إلى قوله: ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾. [البقرة: ١٧-٢٠].

فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين: مثلاً ناريًّا، ومثلا مائيًّا، لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة؛ فإن النار مادة النور، والماء مادة الحياة.

وقد جعل الله سبحانه الوَحْيَ الذي أنزله من السماء متضمنًا لحياة القلوب واستنارتها، ولهذا سمَّاه روحًا ونورًا، وجعل قابليه أحياء في النور، ومَنْ لم يرفع به رأسًا أمواتًا في الظلمات، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظِّهم من الوحي وأنهم بمنزلة مَنِ استوقد نارًا لتضيء له وينتفع بها، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به، وانتفعوا به، وآمنوا به، وخالطوا المسلمين، ولكن لما لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام طفيء عنهم، وذهب الله بنورهم، ولم يقل: بنارهم؛ فإن النار فيها الإضاءة والإحراق، فذهب الله بما فيها من الإضاءة، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فهذا حال مَنْ

---

(١) في نسخة: الحكم بسفههم.

(٢) ١٥٠ أعلام جـ١.

أبصر ثم عمي، وعَرَف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه، فهو لا يرجع إليه؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾. [البقرة: ١٨].

ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي، فشبههم بأصحاب صَيِّب ـ وهو المطر الذي يصوبُ أي: ينزل من السماء ـ فيه ظلمات ورعد وبرق، فلضعف بصائرهم وعقولهم؛ اشتدَّتْ عليهم زَوَاجر القرآن ووعيدُه وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يُشْبه الصواعق، فحالهم كحال مَنْ أصابه مطَر فيه ظلمة ورعد وبرق، فلضعفه وخَوَرِه جعل أصبعيه في أذنيه، وغمض عينيه خشية من صاعقة تصيبه.

وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيراً من مخانيث تلاميذ الجهمية والمبتدعة، إذا سمعوا شيئًا من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم رأيتهم عنها معرضين، كأنهم حُمُرٌ مستنفرة، فرَّتْ من قسورة؛ ويقول مُخنثهم: سُدُّوا عنا هذا الباب، واقرءوا شيئًا غير هذا، وترى قلوبهم مولية وهم يَجْمَحُون؛ لثقل معرفة الرب سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته على عقولهم وقلوبهم.

وكذلك المشركون على اختلاف شركهم، إذا جُرِّدَ لهم التوحيد وتُليت عليهم النصوصُ المبطلة لشركهم اشمأزَّتْ قلوبهم، وثقلت عليهم، ولو وَجَدوا السبيل الى سَدِّ آذانهم لفعلوا.

ولذلك تجد أعداء أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا نُصوص الثناء على الخلفاء الراشدين، وصحابة رسول الله ﷺ ثقل ذلك عليهم جدًّا، وأنكرته قلوبهم؛ وهذا كله شَبه ظاهر، ومثل محقق من إخوانهم من المنافقين في المَثَل الذي ضربه الله لهم بالماء؛ فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم.

(١)**يذكر سبحانه** هذين المثلين في القرآن في غير موضع لأوليائه وأعدائه، كما ذكرهما في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهم كَمَثَل الذي اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمَّا أَضَاءتْ ما حَوْلَه ذَهَب الله بِنُورِهِم وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُون، صُمٌّ بُكمٌ عميٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُون﴾. [البقرة: ١٧، ١٨].

شبّه سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارًا لتضيء لهم وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين، فهم كقوم سفر ضلوا عن الطريق فأوقدوا النار تضيء لهم

---

(١) ٢١ اجتماع الجيوش.

الطريق، فلما أضاءت لهم فأبصروا وعرفوا طفئت تلك الأنوار وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سُدت عليهم أبواب الهدى الثلاث.

فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى فلا تسمع قلوبهم شيئًا ولا تبصره ولا تعقل ما ينفعها.

وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ولا عقل. والقولان متلازمان، وقال في صفتهم: ﴿**فهم لا يرجعون**﴾ لأنهم قد رأوا في ضوء النار وأبصروا الهدى، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا، وقال سبحانه وتعالى: ﴿**ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ**﴾. ولم يقل: ذهب نورهم، وفيه سرٌّ بديع، وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالى، فإن الله تعالى مع المؤمنين، وإن الله مع الصابرين، وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. فذهاب الله بذلك النور انقطاع لمعيته التي خص بها أولياءه، فقطعها بينه وبين المنافقين فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم، فليس لهم نصيبٍ من قوله: ﴿**لا تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا**﴾. [التوبة: ٤٠]. ولا من ﴿**كَلَّا إِنَّ مَعِي: رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾. [الشعراء: ٦٢].

وتأمل قوله تعالى: ﴿**أضاءت ما حوله**﴾. كيف جعل ضوءها خارجًا عنه منفصلاً، ولو اتصل ضوؤها به ولابسه لم يذهب، ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة، وكأن الضوء عارضًا والظلمة أصلية فرجع الضوء إلى معدنه وبقيت الظلمة في معدنها، فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به، حجة من الله قائمة، وحكمة بالغة تعرَّف بها إلى أولي الألباب من عباده.

وتأمل قوله تعالى: ﴿**ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ**﴾. ولم يقل: بنارهم ليطابق أول الآية، فإن النار فيها إشراق وإحراق فذهب بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية.

وتأمل كيف قال: بنورهم، ولم يقل: بضوئهم مع قوله: ﴿**فلما أضاءت ما حوله**﴾. لأن الضوء هو زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم؛ لأوهَمَ الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته.

وأيضًا فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم.

وأيضًا فإن الله تعالى سمى كتابه نورًا ورسوله ﷺ نورًا، ودينه نورًا، وهداه نورًا؛ ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله.

وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله: ﴿**أولَئِك الَّذِيْنَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالهُدى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين**﴾. [البقرة: ١٦]. كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة، والرضى بها، وبدل الهدى في مقابلتها، وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضى بها بدلاً من النور الذي هو الهدى والنور، فبدّلوا الهدى والنور وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة، فيالها من تجارة ما أخسرها! وصفقة ما أشد غبنها!

وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿**ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ**﴾. فوحّده ثم قال: ﴿**وتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ**﴾. فجمعها فإن الحق واحد وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله ﷺ لا بالأهواء والبِدَع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله ﷺ، من الهدى ودين الحق، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة.

ولهذا يفرد سبحانه الحق ويجمع الباطل كقوله تعالى: ﴿**الله وَلِيُّ الَّذِيْنَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ من الظُلُمَاتِ إلى النُّورِ والذين كَفَرُوا أوْلِيَاؤهُم الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِن النُّور إلى الظُلُمَات**﴾. [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿**وأنَّ هَذَا صِراطِي مُسْتَقِيمًا فاتّبِعُوه ولا تَتَّبِعُوا السُبُلَ فَتَفَرَّقَ بكم عَن سَبِيلِه**﴾. [الأنعام: ١٥٣]. فجمع سبل الباطل ووحد سبيل الحق، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿**يَهْدي به الله من اتّبَع رِضْوَانَه سُبُل السَّلام**﴾. [المائدة: ١٦]. فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد وصراطه المستقيم، فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد، وسبيل واحد، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها.

وقد صح عن النبي ﷺ، أنه خطَّ خطًّا مستقيمًا وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله وقال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**وأنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوه ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّق بِكُم عن سَبِيلِه ذَلِكُم وصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون**﴾. [الأنعام: ١٥٣].

وقد قيل: إن هذا مثل للمنافقين وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين أهل الإسلام. ويكون بمنزلة قول الله تعالى: ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ**﴾. [المائدة: ٦٤].

ويكون قوله تعالى: ﴿**ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ**﴾. مطابقًا لقوله تعالى: ﴿**أطفأها الله**﴾. ويكون تخييبهم وإبطال ما راموه، هو تركهم في ظلمات الحيرة لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه، ولا يبصرون سبيلاً بل هم صم بكم عمي.

وهذا التقدير ـ وإن كان حقًا ـ ففي كونه مرادًا بالآية نظر، فإن السياق إنما قصد لغيره.

ويأباه قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَضَاءَتْ ما حَوْلَه**﴾. وموقد نار الحرب لا يضيء ما حوله أبدًا.

ويأباه قوله تعالى: ﴿**ذهب الله بنورهم**﴾ وموقد نار الحرب لا نور له.

ويأباه قوله تعالى: ﴿**وتَرَكَهُمْ في ظُلُمَات لا يُبْصِرون**﴾. وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة إلى ظلمة الشك والكفر.

قال الحسن رحمه الله: هو المنافق أبصر ثم عمي وعرف ثم أنكر، ولهذا قال: ﴿**فهم لا يرجعون**﴾. أي: لا يرجعون إلى النور الذي فارقوه. وقال تعالى في حق الكفار: ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُون**﴾. فَسَلَبَ العقل عن الكفار إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان، وسلب الرجوع عن المنافقين لأنهم آمنوا ثم كفروا فلم يرجعوا إلى الإيمان.

ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً آخر مائيًا فقال تعالى: ﴿**أو كصَيِّب مِن السَّماء فِيهِ ظُلُماتٌ ورَعْدٌ وَبَرْقٌ يجْعلون أصَابِعَهُمْ في آذانِهِم مِن الصَّواعِقِ حَذَر المَوْتِ والله مُحِيطٌ بِالكافِرين**﴾ [البقرة: ١٩].

فشبه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ، من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره وبقي في الظلمات حائرًا تائهًا لا يهتدي سبيلاً، ولا يعرف طريقًا، وبنصيب أصحاب الصيّب وهو المطر الذي يصوب أي: ينزل من عُلو إلى أسفل.

فشبه الهدى الذي هدى به عباده بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيبَ المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك مما هو المقصود

بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وأن تلك الظلمات التي فيه وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب، فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب: من ظلمة ورعد وبرق، ولوازم ذلك: من برد شديد وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام، وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل، لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب.

وهذه حال أكثر الخلق إلا من صحت بصيرته، فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد: من التعب والمشاق والتعرض لإتلاف المُهْجة والجراحات الشديدة، وملامة اللوّام ومعاداة من يخاف معاداته، لم يقدم عليه لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون.

وكذلك مَن عَزَم على سفر الحج إلى البيت الحرام فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد وفراق المألوفات، ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته فإنه لا يخرج إليه ولا يعزم عليه.

وحال هؤلاء حال ضعيف البصيرة والإيمان الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد، والزواجر والنواهي، والأوامر الشاقة على النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام على الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول، إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألبّاء، وأدرك الحق علماً وعملاً ومعرفة، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيب وما فيه من الرعد والبرق والصواعق، ويعلم أنه حياة الوجود.

وقال الزمخشري: «لقائل أن يقول: شُبِّه دين الإسلام بالصيّب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من تشبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفزاع من البلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق».

والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، والمراد: كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا.

قال: والصحيح الذي عليه علماء أهل البيان لا يتخطونه، أن التمثيلين جميعًا من جهة التمثيلات المركبة دون المفرقة، لا يتكلف لواحد واحد شيء بقدر شبهه فيه، وهذا القول الفصل والمذهب الجزل.

بيانه: أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها من بعض، ثم تأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها كما جاء في القرآن؛ حيث شبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئًا واحدًا بأخرى مثلها، كقوله تعالى: ﴿**مَثَل الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يَحْمِلُوها كَمَثِل الحِمارِ يَحْمِلُ أسفارًا**﴾. [الجمعة: ٥]. الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالين عند من حمل أسفار الحكمة، وحمل ما سواها من الأحمال ولا يشعر ذلك إلا بما يزيد فيه من الكد والتعب.

وكقوله تعالى: ﴿**واضْرِبْ لهم مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنيا كَماءٍ أنْزَلْنَاهُ مِن السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذرُوه الرِياحُ**﴾. [الكهف: ٤٥]. المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء هذا النبات، فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض وتصييرها شيئًا واحدًا فلا.

كذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة، فشبه حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق.

قال: فإن قلت: أي المثلين أبلغ؟ قلت: الثاني؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته، ولذلك أخر، وهم يتدرجون في مثل هذا من الأهون إلى الأغلظ.

قلت: قال شيخنا: الناس في الهدى الذي بعث الله تعالى به رسوله ﷺ أربعة أقسام، قد اشتملت عليهم هذه الأيات من أول السورة إلى ههنا: .

القسم الأول: قبلوه باطنًا وظاهرًا وهم نوعان:

أحدهما: أهل الفقه فيه والفهم والتعليم، وهم الأئمة الذين عقلوا عن الله تعالى كتابه وفهموا مراده، وبلغوه إلى الأمة واستنبطوا أسراره وكنوزه، فهؤلاء مثل الأرض الطيبة التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فرعى الناس فيه ورعت

أنعامهم، وأخذوا من ذلك الكلأ الغذاء والقوت والدواء وسائر ما يصلح لهم.

النوع الثاني: حفظوه وضبطوه وبلغوا ألفاظه إلى الأمة فحفظوا عليهم النصوص، وليسوا من أهل الاستنباط والتفقه في مراد الشارع، فهم أهل حفظ وضبط وأداء لما سمعوه، والأولون أهل فهم وفقه واستنباط وإثارة لدفائنه وكنوزه، وها النوع الثاني بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس فوردوه وشربوا منه وسقوا منه أنعامهم وزرعوا به.

القسم الثاني: من رده ظاهرًا وباطنًا وكفر به ولم يرفع به رأسًا، وهؤلاء أيضًا نوعان:

أحدهما: عرفه وتيقن صحته، وأنه حق ولكن حمله الحسد والكبر وحب الرياسة والملك والتقدم بين قومه؛ على جحده ودفعه بعد البصيرة واليقين.

النوع الثاني: أتباع هؤلاء الذين يقولون: هؤلاء ساداتنا وكبراؤنا وهم أعلم منا بما يقبلونه وما يردونه، ولنا أسوة بهم ولا نرغب بأنفسنا عن أنفسهم، ولو كان حقًا لكانوا هم أهله وأولى بقبوله، وهؤلاء بمنزلة الدواب والأنعام يساقون حيث يسوقهم راعيهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا. كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾. [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وقال تعالى فيهم: ﴿**يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا**﴾. [الأحزاب: ٦٦، ٦٨].

وقال تعالى فيهم: ﴿**وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا، إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ**﴾. [غافر: ٤٧، ٤٨].

وقال فيهم: ﴿**هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، هَٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ، قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ**﴾. [ص: ٥٧، ٦٠]. أي: سننتموه لنا وشرعتموه ﴿**قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ**﴾. [ص: ٦١]. فقولهم: لا مرحبًا بهم إنهم صالوا النار أي: داخلوها كما دخلناها، ومقاسون عذابها كما نقاسيه، فأجابهم

الأتباع وقالوا: بل أنتم لا مرحبًا بكم أنتم قدمتموه لنا.

وفي الضمير قولان: **أحدهما**: أنه ضمير الكفر والتكذيب ورد قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم واستبدال غيره به، والمعنى أنتم زينتم لنا الكفر ودعوتمونا إليه وحسنتموه لنا.

وقيل على هذا القول: إنه قول الأمم المتأخرين للمتقدمين. والمعنى على هذا: أنتم شرعتم لنا تكذيب الرسل ورد ما جاءوا به، والشرك بالله سبحانه وتعالى، أي: بدأتم به وتقدمتمونا إليه فدخلتم النار قبلنا فبئس القرار، أي بئس المستقر والمنزل.

والقول الثاني: إن الضمير في قوله: ﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾. [ص: ٦٠]. ضمير العذاب وصلي النار، والقولان متلازمان وهما حق.

وأما القائلون: ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾. [ص: ٦١]. فيجوز أن يكون الأتباع دعوا على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم به؛ لأنهم الذين حملوهم عليه ودعوهم إليه.

ويجوز أن يكون جميع أهل النار سألوا ربهم أن يزيد مَن سَنّ لهم الشرك وتكذيب الرسل، صلى الله عليهم وسلم، ضعفًا وهم الشياطين.(١)

القسم الثالث: الذين قبلوا ما جاء به الرسول ﷺ، وآمنوا به ظاهرًا، وجحدوه وكفروا به باطنًا، وهم المنافقون الذين ضُرب لهم هذا المثلان بمستوقد النار وبالصيب، وهم أيضًا نوعان:

أحدهما: من أبصر ثم عمي، وعلم ثم جهل وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر، فهؤلاء رءوس أهل النفاق وساداتهم وأئمتهم، ومثلهم مثل من استوقد نارًا ثم حصل بعدها على الظلمة.

والنوع الثاني: ضعفاء البصائر الذين أعشى بصائرهم ضوء البرق؛ فكاد أن يخطفها لضعفها وقوته، وأصم آذانهم صوت الرعد فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق، ولا يقربون من سماع القرآن والإيمان بل يهربون منه، ويكون حالهم حال من يسمع الرعد الشديد، فمن شدة خوفه منه يجعل أصابعه في أذنه، وهذه حال كثير من خفافيش البصائر في كثير من نصوص الوحي، وإذا

---

(١) سيأتي هذا البحث في سورة ص إن شاء الله(ج).

وردت عليه مخالفة لما تلقاه عن أسلافه وذوي مذهبه ومن يحسن به الظن، ورآها مخالفة لما عنده عنهم، هرب من النصوص وكره من يسمعه إياها، ولو أمكنه لسد أذنيه عند سماعها، ويقول: دعنا من هذه، ولو قدر لعاقب من يتلوها ويحفظها وينشرها ويعلمها، فإذا ظهر له منها ما يوافق ما عنده مشى فيها وانطلق، فإذا جاءت بخلاف ما عنده أظلمت عليه، فقام حائرًا لا يدري أين يذهب، ثم يعزم له التقليد وحسن الظن برؤسائه وسادته على اتباع ما قالوه دونها، ويقول مسكين الحال:هم أخبر بها مني وأعرف.

فيالله العجب: أوَ ليس أهلها والذابّون عنها والمنتصرون لها والمعظِّمون لها والمخالفون لأجلها آراء الرجال المقدمون لها على ما خالفها، أعرف بها أيضًا منك وممن اتبعته، فلِمَ كان من خالفها وعزلها عن اليقين، وزعم أن الهدى والعلم لا يستفاد منها، وأنها أدلة لفظية لا تفيد شيئًا من اليقين، ولا يجوز أن يحتج بها على مسألة واحدة من مسائل التوحيد والصفات ويسميها الظواهر النقلية، ويسمي ما خالفها القواطع العقلية، فلِمَ كان هؤلاء أحق بها وأهلها، وكان أنصارها والذابُّون عنها والحافظون لها، هم أعداؤها ومحاربوها؟

ولكن هذه سنة الله في أهل الباطل، أنهم يعادون الحق وأهله، وينسبونهم إلى معـاداته ومحاربته، كالرافضة الذين عادوا أصحاب محمد ﷺ، بل وأهل بيته، ونسبوا أتباعه وأهل سنته إلى معاداته ومعاداة أهل بيته، وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

والمقصود: أن هؤلاء المنافقين قسمان: أئمة وسادة يدعون إلى النار، وقد مردوا على النفاق.

وأتباع لهم بمنزلة الأنعام والبهائم، فأولئك زنادقة مستبصرون، وهؤلاء زنادقة مقلدون، فهؤلاء أصناف بني آدم في العلم والإيمان.

ولا يجاوز هذه الستـة ـ اللهم ـ إلا من أظهـر الكفـر وأبطن الإيمان، كحال المستضعف بين الكفار الذي تبين له الإسلام ولم يمكنه المجاهرة بخلاف قومه، ولم يزل هذا الضرب في الناس على عهد رسول الله ﷺ، وبعده.

وهؤلاء عكس المنـافقين من كل وجه. وعلى هذا فالناس: إما مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإما كافر ظاهرًا وباطنًا، أو مؤمن ظاهرًا كافر باطنًا، أو كافر ظاهرًا مؤمن باطنًا، والأقسام الأربعة قد اشتمل عليها الوجود، وقد بين القرآن أحكامها.

فالأقسام الثلاثة الأولى ظاهرة، وقد اشتمل عليها أول سورة البقرة.

وأما القسم الرابع ففي قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ**﴾. [الفتح: ٢٥]. فهؤلاء كانوا يكتمون إيمانهم في قومهم ولا يتمكنون من إظهاره، ومن هؤلاء مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه، ومن هؤلاء النجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ، فإنه كان ملك النصارى بالحبشة، وكان في الباطن مؤمنًا، وقد قيل: إنه وأمثاله الذين عناهم الله عز وجل بقوله: ﴿**وإنَّ من أَهْلِ الكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بالله وَمَا أُنْزِل إلَيْكُم وَمَا أَنْزَل إلَيْهِمْ خاشِعِين لله لا يَشْتَرُون بآيَاتِ الله ثَمنًا قَلِيلاً**﴾. [آل عمران: ١٩٩]. وقوله تعالى: ﴿**مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُوْن آياتِ الله آناء الليل وَهُم يَسْجُدُون، يُؤمنون بالله واليوم الآخِرِ ويأمُرون بالمعرُوف وَيَنْهَون عن المنكر ويسارعون في الخيراتِ وأولئك من الصالحين**﴾. [آل عمران: ١١٣، ١١٤]. فإن هؤلاء ليس المراد بهم المتمسك باليهودية والنصرانية بعد محمد، ﷺ، قطعًا فإن هؤلاء قد شهد لهم بالكفر وأوجب لهم النار، فلا يثنى عليهم بهذا الثناء، وليس المراد به من آمن من أهل الكتاب ودخل في جملة المؤمنين وباين قومه، فإن هؤلاء لا يطلق عليهم أنهم من أهل الكتاب إلا باعتبار ماكانوا عليه، وذلك الاعتبار قد زال بالإسلام واستحدثوا اسم المسلمين والمؤمنين، وإنما يطلق الله سبحانه هذا الاسم على من هو باق على دين أهل الكتاب، **هذا هو المعروف في القرآن** كقوله تعالى: ﴿**يا أهلَ الكتابِ لِمَ تكفرون بآياتِ الله**﴾ [آل عمران: ٧٠]، ﴿**يا أهلَ الكتاب تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم**﴾ [آل عمران: ٦٤]، ﴿**يا أهلَ الكتاب لِمَ تُحاجُّونَ في إبراهيمَ**﴾ [آل عمران: ٦٥]، ﴿**وإن الذين أُوتوا الكتابَ ليعلمون أنهُ الحقُّ من ربِّهم**﴾ [البقرة: ٤٤]، ونظائره.

ولهذا قال جابر بن عبدالله، وعبدالله بن عباس، وأنس بن مالك، والحسن وقتادة: **إن قوله تعالى: ﴿وإنَّ من أهلِ الكتابِ لمن يؤمنُ بالله وما أُنزلَ إليكم وما أُنزل إليهم﴾** [آل عمران: ١٩٩]: إنها نزلت في النجاشي، زاد الحسن وقتادة: وأصحابه.

وذكر ابن جرير في تفسيره من حديث أبي بكر الهذلي، عن قتادة، عن ابن المسيب، عن جابر رضي الله عنه أن النبي، ﷺ، قال: «**اخرجوا فصلوا على أخيكم**» فصلى بنا فكبر أربع تكبيرات، فقال: «**هذا النجاشي أصحمة**» فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط فأنزل الله تعالى ﴿**وإنَّ**

من أهلِ الكتابِ لمن يؤمنُ باللهِ﴾، الآية.

والمقصود أنَ الأقسام الأربعة قد ذكرها الله تعالى في كتابه وبين أحكامها في الدنيا وأحكامها في الآخرة، وقد تبين أن أحد الأقسام من آمن ظاهرًا وكفر باطنًا، وأنهم نوعان: رؤساؤهم وساداتهم، وأتباعهم ومقلدوهم.

وعلى هذا فأصحاب المثل الأول الناري شر من أصحاب المثل الثاني المائي، كما يدل السياق عليه، وقد يقال - وهو أَوْلى -: إن المثلين لسائر النوع وإنهم قد جمعوا بين مقتضى المثل الأول من الإنكار بعد الإقرار، والحصول في الظلمات بعد النور، وبين مقتضى المثل الثاني من ضعف البصيرة في القرآن، وسد الآذان عند سماعه والإعراض عنه، فإن المنافقين فيهم هذا وهذا، وقد يكون الغالب على فريق منهم المثل الأول، وعلى فريق منهم المثل الثاني.

وقد اشتمل هذان المثلان على حكم عظيمة:

منها: أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره لا من قبل نفسه، فإذا ذهبت تلك النار بقي في ظلمة، وهكذا المنافق لما أقر بلسانه من غير اعتقاد ومحبة بقلبه، وتصديق جازم، كان ما معه من النور كالمستعار.

ومنها: أن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة تحمله، وتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها ويدوم بدوامها، فإذا ذهبت مادة الإيمان طفيء كما تطفأ النار بفراغ مادتها.

ومنها: أن الظلمة نوعان: ظلمة مستمرة لم يتقدمها نور، وظلمة حادثة بعد النور، وهي أشد الظلمتين وأشقهما على من كانت حظه، فظلمة المنافق ظلمة بعد إضاءة، فمثلت حاله بحال المتسوقد للنار الذي حصل في الظلمة بعد الضوء، وأما الكافر فهو في الظلمات لم يخرج منها قط.

ومنها: أن في هذا المثل إيذانًا وتنبيهًا على حالهم في الآخرة، وأنهم يعطون نورًا ظاهرًا كما كان نورهم في الدنيا ظاهرًا، ثم يطفأ ذلك النور أحوج ما يكونون إليه؛ إذ لم تكن له مادة باقية تحمله ويبقون في الظلمة على الجسر لا يستطيعون العبور، فإنه لا يمكن أحدًا عبوره إلا بنور ثابت يصحبه حتى يقطع الجسر، فإن لم يكن لذلك النور مادة من العلم النافع والعمل الصالح، وإلا ذهب الله تعالى به أحوج ما كان إليه صاحبه، فطابق مثلهم في الدنيا بحالتهم التي هم عليها في هذه الدار،

وبحالتهم يوم القيامة عندما يقسم، ومن ههنا يعلم السر في قوله تعالى: ﴿**ذهب الله بنورهم**﴾ ولم يقل: أذهب الله نورهم.

فإن أردت زيادة بيان وإيضاح، فتأمل ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ وقد سئل عن الورود فقال: «**نجيء نحن يوم القيامة على تل فوق الناس، قال: فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا تبارك وتعالى بعد ذلك فيقول: من تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك، قال: فينطلق بهم فيتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم ـ منافق أو مؤمن ـ نورًا، ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كلاليب وحَسَك تأخذ من شاء الله تعالى، ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون فينجو أول زمرة، وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفًا لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوإ نجم في السماء، ثم كذلك، ثم تحل الشفاعة، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، فيجعلون بفناء الجنة، ويجعل أهل الجنة يرشّون عليهم الماء**» وذكر باقي الحديث.

فتأمل قوله: فينطلق فيتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم نورًا المنافق والمؤمن.

ثم تأمل قوله تعالى: ﴿**ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِم وتَرَكَهُم في ظلماتٍ لا يُبصِرُونَ**﴾. [البقرة: ١٧].

وتأمل حالهم إذا طفئت أنوارهم فبقوا في الظلمة، وقد ذهب المؤمنون في نور إيمانهم يتبعون ربهم عز وجل.

وتأمل قوله ﷺ في حديث الشفاعة: «**لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع كل مشرك إلهه الذي كان يعبده**»، والموحد حقيق بأن يتبع الإله الحق، الذي كل معبود سواه باطل.

وتأمل قوله تعالى: ﴿**يَوم يُكْشَفُ عن سَاقٍ ويُدعَوْن إلى السُّجُودِ فلا يستطيعون**﴾. [القلم: ٤٢]. وذكر هذه الآية في حديث الشفاعة في هذا الموضع، وقوله في الحديث: «**فيكشف عن ساقه**» وبهذه[1] الإضافة يتبين المراد بالساق المذكور في الآية.

وتأمل ذكر الانطلاق واتباعه سبحانه بعد هذا، وذلك يفتح لك بابًا من أسرار

---

(١) في النسخة المعتمدة: هذه. والصواب ما أثبتناه لاستقامة المعنى. المراجع.

التوحيد وفهم القرآن، ومعاملة الله سبحانه وتعالى لأهل توحيده الذين عبدوه وحده ولم يشركوا به شيئًا، هذه المعاملة التي عامل بمقابلتها أهل الشرك؛ حيث ذهبت كل أمة مع معبودها فانطلق بها واتبعته إلى النار، وانطلق المعبود الحق واتبعه أولياؤه وعابدوه.

فسبحان الله رب العالمين الذي قرّت عيون أهل التوحيد به في الدنيا والآخرة، وفارقوا الناس فيه أحوج ما كانوا إليهم.

ومنها: أن المثل الأول متضمن لحصول الظلمة التي هي الضلال، والحيرة التي ضدها الهدى، والمثل الثاني متضمن لحصول الخوف الذي ضده الأمن فلا هدى ولا أمن ﴿**الذين آمنوا ولم يَلْبسوا إيمانهم بِظُلْمٍ أولئك لَهُمْ الأمنُ وهم مُهْتَدُون**﴾. [الأنعام: ٨٢]. قال ابن عباس وغيره من السلف: مثل هؤلاء في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارًا في ليلة مظلمة في مفازة فاستضاء، ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي في ظلمة خائفًا متحيراً، كذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان، أمِنوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف.

قال مجاهد: إضاءة النار لهم إقبالهم إلى المسلمين والهدى، وذهاب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضلالة.

وقد فسرت تلك الإضاءة وذهاب النور بأنها في الدنيا، وفسرت بالبرزخ، وفسرت بيوم القيامة.

والصواب أن ذلك شأنهم في الدور الثلاثة، فإنهم لما كانوا كذلك في الدنيا جوزوا في البرزخ وفي القيامة بمثل حالهم جزاء وفاقًا ﴿**وما ربُّك بظلَّامٍ للعبيدِ**﴾ [فصلت: ٤٦]فإن المعاد يعود على العبد فيه ما كان حاصلاً له في الدنيا، ولهذا يسمّى يوم الجزاء ﴿**ومَنْ كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً**﴾. [الإسراء: ٧٢]. ﴿**ويزيدُ الله الذين اهتدوا هدًى**﴾. [مريم: ٧٦].

ومن كان مستوحشًا مع الله بمعصيته إياه في هذه الدار، فوحشته معه في البرزخ، ويوم المعاد أعظم وأشد، ومن قرّت عينه به في هذه الحياة الدنيا قرت عينه به يوم القيامة، وعند الموت ويوم البعث، فيموت العبد على ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه، ويعود عليه عمله بعينه فينعم به ظاهرًا وباطنًا، فيورثه من

الفرح والسرور واللذة والبهجة وقرة العين، والنعيم وقوة القلب، واستبشاره وحياته وانشراحه، واغتباطه ما هو من أفضل النعيم وأجله، وأطيبه وألذه، وهل النعيم إلا طيب النفس، وفرح القلب وسروره وانشراحه واستبشاره؟!

هذا وينشأ له من أعماله ما تشتهيه نفسه، وتلذ عينه من سائر المشتهيات التي تشتهيها الأنفس وتلذها الأعين، ويكون تنوّع تلك المشتهيات وكمالها وبلوغها، مرتبة الحسن والموافقة: بحسب كمال عمله ومتابعته فيه وإخلاصه وبلوغه مرتبة الإحسان فيه، وبحسب تنوعه فمن تنوعت أعماله المرضية المحبوبة له في هذه الدار، تنوعت الأقسام التي يتلذذ بها في تلك الدار. وتكثرت له بحسب تكثر أعماله هنا، وكان مزيده بتنوعها والابتهاج بها، والالتذاذ هناك على حسب مزيده من الأعمال وتنوعه فيها في هذه الدار.

وقد جعل الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والمسخوطة، أثرًا وجزاءً ولذة وألمًا يخصه لا يشبه أثر الآخر وجزائه، ولهذا تنوعت لذات أهل الجنة وآلام أهل النار. وتنوع ما فيهما من الطيبات والعقوبات، فليست لذة من ضرب في كل مرضاة الله بسهم وأخذ منها بنصيب، كلذة من أنمى سهمه ونصيبه في نوع واحد منها، ولا ألم من ضرب في كل مسخوط لله بنصيب وعقوبته كألم من ضرب بسهم واحد في مساخطه، وقد أشار النبي ﷺ، إلى أن كمال ما يستمتع به من الطيبات في الآخرة بحسب كمال ما قابله من الأعمال في الدنيا، فرأى قنواً[1] من حشف معلقًا في المسجد للصدقة فقال: «**إن صاحب هذا يأكل الحشف يوم القيامة**» فأخبر أن جزاءه يكون من جنس عمله؛ فيجزى على تلك الصدقة بحشف من جنسها.

وهذا الباب يفتح لك أبوابًا عظيمة من فهم المعاد وتفاوت الناس في أحواله، ومايجري فيه من الأمور.

فمنها: خفة حمل العبد على ظهره وثقله إذا قام من قبره؛ فإنه بحسب خفة وزره وثقله، إن خف خف وإن ثقل ثقل.

ومنها: استظلاله بظل العرش أو ضحاؤه[2] للحر والشمس، إن كان له من

---

(١) القنو: العذق الكبير (السباطة).

(٢) أي: بروزه.

الأعمال الصالحة الخالصة والإيمان مما يظله في هذه الدار من حر الشرك والمعاصي والظلم، استظل هناك في ظل أعماله تحت عرش الرحمن، وإن كان ضاحيًا هنا للمعاصي والمخالفات والبدع والفجور ضحى هناك للحر الشديد.

ومنها: طول وقوفه في الموقف ومشقته عليه، وتهوينه عليه إن طال وقوفه في الصلاة ليلاً ونهاراً لله، وتحمل لأجله المشاق في مرضاته وطاعته، خف عليه الوقوف في ذلك اليوم وسهل عليه، وإن آثر الراحة هنا والدعة والبطالة والنعمة؛ طال عليه الوقوف هناك واشتدت مشقته عليه.

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿**إِنَّا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً، فاصبر لحكم ربِّك ولا تطع منهم آثما أو كفوراً، واذكر اسم ربِّك بكرةً وأصيلاً، ومن الليل فاسجدْ له وسبحْه ليلاً طويلاً، إن هؤلاء يحبون العاجلة وَيذرُونَ وراءهم يومًا ثقيلاً**﴾. [الإنسان: ٢٣-٢٧]. فمن سبَّح الله ليلاً طويلاً، لم يكن ذلك اليوم ثقيلاً عليه بل كان أخف شيء عليه.

ومنها: أن ثقل ميزانه هناك بحسب تحمل ثقل عمل الحق في هذه الدار، لا بحسب مجرد كثرة الأعمال، وإنما يثقل الميزان باتّباع الحق والصبر عليه وبذله إذا سئل، وأخذه إذا بذل، كما قال الصّديق في وصيته لعمر رضي الله عنهما:

«**واعلم أن لله حقًّا بالليل لا يقبله بالنهار وله حق بالنهار لا يقبله بالليل. واعلم أنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق وثقل ذلك عليهم، ولا يستضيء به غيره، ولا يمشي أحد إلا في نور نفسه إن كان له نور مشى في نوره، وإن لم يكن له نور أصلاً لم ينفعه نور غيره**».

ولما كان المنافق في الدنيا قد حصل له نور ظاهر، غير مستمر ولا متصل بباطنه، ولا له مادة من الإيمان أعطي في الآخرة نورًا ظاهرًا، لا مادة له ثم يطفأ عنه أحوج ما كان إليه.

ومنها: أن مشيهم على الصراط في السرعة والبطء، بحسب سرعة سيرهم وبطئه على صراط الله المستقيم في الدنيا، فأسرعهم سيراً هنا أسرعهم هناك، وأبطأهم هنا أبطأهم هناك، وأشدهم ثباتًا على الصراط المستقيم هنا أثبتهم هناك، ومن خطفته كلاليب الشهوات والشبهات والبدع المضلة هنا خطفته الكلاليب التي كأنها شوك السعدان هناك، ويكون تأثير كلاليب الشهوات والشبهات والبدع فيه

هاهنا، فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومخردل أي مقطع بالكلاليب مُكرْدس في النار، كما أثر فيهم تلك الكلاليب في الدنيا جزاء وفاقًا ﴿**وماربك بظلام للعبيد**﴾ [فصلت: ٤٦].

والمقصود أن الله تبارك وتعالى ضرب لعباده المثلين: المائي والناري في سورة البقرة، وفي سورة الرعد، وفي سورة النور لما تضمن المثلان من الحياة والإضاءة، فالمؤمن حي القلب مستنيره، والكافر والمنافق ميت القلب مظلمه.

وقال الله تعالى: ﴿**أوَمَنْ كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس**﴾. [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿**وما يستوي الأعمى والبصيرُ ولا الظلماتُ ولا النورُ ولا الظلُّ ولا الحرورُ ومايستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ**﴾. [فاطر: ١٩-٢٢].

فجعل من اهتدى بهداه واستنار بنوره بصيراً حيًّا في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك، مستنيراً بنوره، والآخر أعمى ميتًا في حر الكفر والشرك والضلال منغمساً في الظلمات.

وقال تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ماكنتَ تدري ماالكتابُ ولا الإيمانُ**﴾. [الشورى: ٥٢].

وقد اختلفوا في مفسر الضمير من قوله تعالى: ﴿**ولكن جعلناه نوراً**﴾. فقيل: هو الإيمان لكونه أقرب المذكورين، وقيل: هو الكتاب فإنه النور الذي هدى به عباده.

قال شيخنا: والصواب أنه عائد على الروح المذكور في قوله تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك رُوحًا من أمرنا**﴾. [الشورى: ٥٢]، فسمى وحيه رُوحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح التي هي الحياة في الحقيقة، ومن عدمها فهو ميت لا حي، والحياة الأبـدية السرمدية في دار النعيم هي ثمرة حياة القلب بهذا الروح الذي أوحى إلى رسوله، ﷺ، فمن لم يَحْيَ به في الدنيا فهو ممن له جهنم لا يموت فيها فيها ولا يحيى.

وأعظم الناس حياة في الدور الثلاث:دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الجزاء، أعظمهم نصيبًا من الحياة بهذا الروح.

وسماه رُوحًا في غير موضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿**رَفِيعُ الدَرَجات ذُو العَرْشِ يُلقي الرُّوحَ مِنْ أمره على من يَشاء مِن عِبادِه لِيُنْذِرَ يوم التَّلاقِ**﴾.

[غافر: ١٥] . وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بالرُّوحِ مِنْ أمرِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أنْ أنْذِرُوا أنَّه لا إله إلاَّ أنا فاتَّقُونِ﴾ . [النحل: ١٢] .

وسماه نورًا لما يحصل به من استنارة القلوب وإضاءتها .

وكمال الروح بهاتين الصفتين: بالحياة والنور، ولا سبيل إليهما إلا على أيدي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والاهتداء بما بعثوا به وتلقي العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم، وإلا فالروح ميتة مظلمة وإن كان العبد مشارًا إليه بالزهد والفقه والفضيلة والكلام في البحوث، فإن الحياة والاستنارة بالروح الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ وجعله نورًا يهدي به من يشاء من عباده وراء ذلك كله، فليس العلم كثرة النقل والبحث والكلام، ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها، وحقها من باطلها، وما هو من مشكاة النبوة مما هو من آراء الرجال، ويميز النقد الذي عليه سكة أهل المدينة النبوية الذي لا يقبل الله عز وجل ثمنًا لجنته سواه، من النقد الذي عليه سكة جنكسخان ونوابه من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة. وكل من اتخذ لنفسه سكة وضربًا ونقدًا يروّجه بين العالم.

فهذه الأثمان كلها زيوف لا يقبل الله سبحانه وتعالى في ثمن جنته شيئًا منها، بل ترد على عاملها أحوج ما يكون إليها، وتكون من الأعمال التي قدم الله تعالى عليها فجعلها هباءً منثورًا.

(١)**قوله** تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذي خَلَقَكُم والذين مِن قَبْلِكُمْ لعَلَكُم تَتَّقُونَ﴾ . [البقرة: ٢١] . إلى قوله: ﴿فاتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودُها النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكَافِرِيْنَ﴾ . [البقرة: ٢٤] .

فهذا استدلال في غاية الظهور ونهاية البيان على جميع مطالب أصول الدين؛ من إثبات الصانع وصفات كماله من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وحكمته وأفعاله وحدوث العالم، وإثبات نوعي توحيده تعالى: توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر، وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلا له.

ثم قرر تعالى بعد ذلك إثبات نبوة رسوله محمد ﷺ، أبلغ تقرير وأحسنه وأتمه وأبعده عن المعارض، فثبت بذلك صدق رسوله في كل ما يقوله، وقد أخبر عن

---

(١) ١٣١ بدائع جـ٤ .

المعاد والجنة والنار فثبت صحة ذلك ضرورة، فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه فصدَّرها تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم.

ثم قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُم﴾ فأمرهم بعبادة ربهم وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته؛ لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكًا خالصًا حقيقيًّا، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه فعبادته له وشكره إياه واجب عليه ولهذا قال: ﴿اعبدوا ربكم﴾ ولم يقل: إلهكم.

والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح. والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفِطَر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿الذي خلقكم﴾ فنبه بهذا أيضًا على وجوب عبادته وحده وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود، وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم، كما قال في غير موضع من القرآن: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾. [الزخرف: ٨٧].

فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود، وكيف تجعلون معه شريكًا في العبادة وأنتم مقرّون بأنه لا شريك له في الخَلْق، وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية.

ثم قال: ﴿والذين من قبلكم﴾ فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم وأنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم، وخلقُه تعالى لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته، وذلك مستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله، فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته، فلا شبيه له فيها ولا في أفعاله فلا شريك له فيها.

ثم ذكر المطلوب من خلقهم، وهو أن يتقوه فيطيعونه ولا يعصونه ويذكرونه فلا ينسونه ويشكرونه ولا يكفرونه، فهذه حقيقة تقواه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قيل: إنه تعليل للأمر، وقيل: تعليل للخلق، وقيل: المعنى: اعبدوه لتتقوه بعبادته. وقيل: المعنى: خلقكم لتتقوه وهو أظهر لوجوه:

أحدها : أن التقوى هي العبادة، والشيء لا يكون علة لنفسه.

الثاني: أن نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ .[الذاريات: ٥٦].

الثالث : أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ من الأمر.

ولمن نصر الأول أن يقول: لا يمتنع أن يكون قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ تعليلاً للأمر بالعبادة.

ونظيره قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُم الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الذين مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونْ﴾ .[البقرة:١٨٣]. فهذا تعليل لِكَتْبِ الصيام، ولا يمتنع أن يكون تعليلاً للأمرين معًا، وهذا هو الأليق بالآية، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم الأَرْضَ فِرَاشًا والسَّماء بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِن السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِن الثَّمَرَات رِزْقًا لكُمْ﴾ .[البقرة:٢٢]. فذكر تعالى دليلاً آخر متضمنًا للاستدلال بحكمته في مخلوقاته.

فالأول: متضمن لأصل الخلق والإيجاد، ويسمى دليل الاختراع والإنشاء.

والثاني: متضمن للحِكَم المشهودة في خلقه، ويسمى دليل العناية والحكمة، وهو تعالى كثيرًا ما يكرر هذين النوعين من الاستدلال في القرآن.

ونظيره قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوات والأَرْضَ وأَنْزَل من السَّماءِ مَاءً فأَخْرَجَ به مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُم الفُلكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُم الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُم الشَّمْسَ والقَمَرَ دَائِبَينِ وَسَخَّر لَكُم اللَّيْلَ والنَّهَارَ﴾ .[إبراهيم: ٣٢]. فذكر خلق السموات والأرض، ثمّ ذكر منافع المخلوقات وحكمها.

ونظيره قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوات والأَرْضَ وَأَنْزَل لَكُمْ مِن السَّماءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرها أَءِلَهٌ مع الله بل هُمْ قَومٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قرارًا وجَعَلَ خِلَالَها أنْهارًا وَجَعَل لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ .[النمل: ٦٠، ٦١]. إلى آخر الآيات، على أن في هذه الآيات من الأسرار والحكم مابحسب عقول العالمين أن يفهموه ويدركوه، ولعله أن يمر بك إن شاء الله التنبيه على رائحة يسيرة من ذلك.

ونظير ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيل وَالنَّهارِ وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي في البَحْر بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ

من ماءٍ فأحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيْها مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . [البقرة: ١٦٤].
وهذا كثير في القرآن لمن تأمله.

وذكر سبحانه في آية البقرة قرار العالَم، وهو الأرض وسقفه وهو السماء وأصول منافع العباد وهو الماء الذي أنزله من السماء، فذكر المسكن، والساكن وما يحتاج إليه من مصالحه، ونبه تعالى بجعله للأرض فراشًا على تمام حكمته في أن هيأها لاستقرار الحيوان عليها؛ فجعلها فراشًا ومهادًا وبساطًا وقرارًا وجعل سقفها بناءً محكمًا مستويًا لا فطور فيه ولا تفاوت ولا عيب. ثم قال: **﴿فلا تَجْعَلُوا لله أَنْدَادًا وَأَنْتُم تَعْلَمُونْ﴾** . [البقرة: ٢٢]. فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها، وظفر العقل بها بأول وهلة وخلوصها من كل شبهة وريبة وقادح، وأن كل متكلم ومستدل ومحاجّ إذا بالغ في تقرير ما يقرره وأطاله وأعرض القول فيه فغايته؛ إن صح ما يذكره أن ينتهي إلى بعض ما في القرآن.

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من البرهان الشافي في التوحيد، أي إذا كان الله وحده هو الذي فعل هذه الأفعال، فكيف تجعلون له أندادًا وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله؟!

فلما قرر نوعي التوحيد انتقل إلى تقرير النبوة فقال: **﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَدَاءكُمْ مِنْ دُوْنِ الله إنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾** . [البقرة: ٢٣]. إن حصل لكم ريب في القرآن وصدق من جاء به وقلتم إنه مفتعل فأتوا ولو بسورة واحدة تشبهه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه، يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك حتى إن الذين راموا معارضته، كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه، فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه ويحكمون بسماجته وقبح ركاكته وخسته، فهو كمن أظهر طيبًا لم يشم أحد مثل ريحه قط وتحدّى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله، فاستحيى العقلاء وعرفوا عجزهم، وجاء الحُمقان بعذرة منتنة خبيثة وقالوا: قدجئنا بمثل ما جئت به، فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوة وبرهانًا وعظمة وجلالة؟

وأكد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. [البقرة: ٢٣]. كما يقول المعجز لمن يدعي مقاومته: أجهد على بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعوانك وأوليائك، ولا تبق منهم أحدًا حتى تستعين به. فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلاً، إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه، أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم وأوثقهم بما يقوله، والنبي ﷺ، يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أميهم وكتابيهم وعربهم وعجمهم ويقول: «**لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبدًا**» فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب، فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة وإيتام الأولاد وقتل النفوس والإقرار بالعجز عن معارضته.

وتقرير النبوة بهذه الآية له وجوه متعددة هذا أحدها.

وثانيها: إقدامه ﷺ على هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالاً عامًّا إلى يوم القيامة، أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا، فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك، مستند إلى وحي من الله تعالى، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك.

وثالثها: النظر إلى نفس ما تحدى به وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله، الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه. وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه. وبالوجهين الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره، ولو لم يفهمه ولم يتأمله.

فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه حتى قصر بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها.

وبعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته.

وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام.

وبعضهم على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب إلى غير ذلك من الأقوال القاصرة، التي لا تشفي ولا تجدي، وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله.

فإذا ثبتت النبوة بهذه الحجة القاطعة، فقد وجب على الناس تصديق الرسول في خبره وطاعة أمره.

(١) **التاسعة** «التعبد» وهو فوق التتيم. فإن العبد هو الذي قد ملك المحبوبُ رِقَّه، فلم يبق له شيء من نفسه ألبتة؛ بل كله عبد لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا. وهذا هو حقيقة العبودية. ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة؛ وصفه الله بها في أشرف مقاماته: مقام الإسراء، كقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾. [الإسراء: ١].

ومقام الدعوة. كقوله: ﴿وأنه لما قام عبدُ الله يدعوه﴾. [الجن: ٩].

ومقام التحدى كقوله: ﴿وإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَا نَزلْنَا عَلى عَبْدِنَا﴾. [البقرة: ٢٣]. وبذلك استحق التقديم على الخلائق في الدنيا والآخرة.

وكذلك يقول المسيح عليه الصلاة والسلام لهم، إذا طلبوا منه الشفاعة ـ بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ: «**اذهبوا إلى محمد، عبدٍ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**». **سمعت** شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: فحصلت له تلك المرتبة: بتكميل عبوديته الله تعالى، وكمال مغفرة الله له.

وحقيقة العبودية: الحب التام، مع الذل التام والخضوع للمحبوب. تقول العرب: «**طريق معبد**» أي: قد ذللته الأقدام وسهلته.

(٢) **وقد** أخبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعن المعاد والجنة والنار فثبتت صحة ذلك يقينًا، فقال تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودَها النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ للكَافِرِينْ وَبَشِّرِ الذين آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ**﴾. [البقرة: ٢٤، ٢٥]. الآية.

فاشتملت الآيات على تقرير مهمات أصول الدين: من إثبات خالق العالم، وصفاته ووحدانيته، ورسالة رسوله والمعاد الأكبر.

(٣) **قال** تعالى: ﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقًا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة**﴾، وقولهم: ﴿**هذا الذي رزقنا من قبل**﴾ أي: شبيهه ونظيره لا عينه، وهل المراد هذا الذي رزقنا في الدنيا نظيره من الفواكه والثمار، أو هذا نظير الذي رزقناه قبل في الجنة؟.

---

(١) ٢٩ مدارج جـ٣.
(٢) ١٣٦ بدائع جـ٤.
(٣) ١٢٢ حادي الأرواح.

قيل فيه قولان: ففي تفسير السدى، عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس. وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي، ﷺ: ﴿**قالوا هذا الذي رزقنا من قبل**﴾ أنهم أتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا. قال مجاهد: ما أشبهه به! وقال ابن زيد: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأتوا به متشابهًا يعرفونه.

وقال آخرون: هذا الذي رزقنا من قبل من ثمار الجنة، من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضًا في اللون والطعم.

واحتج أصحاب هذا القول بحجج:

إحداها: أن المشابهة التي بين ثمار الجنة بعضها لبعض أعظم من المشابهة التي بينها وبين ثمار الدنيا؛ ولشدة المشابهة قالوا: هذا هو.

الحجة الثانية: ماحكاه ابن جرير عنهم قال: ومن علة قائلي هذا القول أن ثمار الجنة كلما نزع منها شيء عاد مكانه آخر مثله، كما كان حدثنا ابن بشار: حدثنا ابن مهدي: حدثنا سفيان: سمعت ابن مرة يحدث عن أبي عبيدة وذكر ثمر الجنة وقال: كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى.

الحجة الثالثة: قوله ﴿**وأتوابه متشابهًا**﴾ وهذا كالتعليل والسبب الموجب لقولهم: ﴿**هذا الذي رزقنا من قبل**﴾.

الحجة الرابعة: أن من المعلوم أنه ليس كل مافي الجنة من الثمار قد رزقوه في الدنيا، وكثير من أهلها لا يعرفون ثمار الدنيا ولا رأوها، ورجحت طائفة منهم ابن جرير وغيره القول الآخر، واحتجت بوجوه.

قال ابن جرير: والذي يحقق صحة قول القائلين أن معنى ذلك: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا أن الله جل ثناؤه قال: ﴿**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا**﴾. [البقرة: ٢٥]. يقولون: هذا الذي رزقنا من قبل ولم يخصص أن ذلك من قيلهم في بعض دون بعض، فإذا كان قد أخبرجل ذكره عنهم أن ذلك من قيلهم كلما رزقوا ثمرة، فلا شك أن ذلك من قيلهم في أول رزق رزقوه من ثمارها أتوا به بعد دخولهم الجنة واستقرارهم فيها الذي لم يتقدمه عندهم من ثمارها ثمرة، فإذا كان لا شك أن ذلك من قيلهم في أوله كما هو من قيلهم في وسطه وما يتلوه،

فمعلوم أنه محال أن يقولوا لأول رزق رزقوه من ثمار الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل هذا من ثمار الجنة، وكيف يجوز أن يقولوا لأولِ رزق من ثمارها ولما يتقدمه عندهم غيرها: هذا هو الذي رزقنا من قبل، إلا أن ينسبهم ذو غية وضلال إلى قيل الكذب الذي قد طهرهم الله منه، أو يدفع دافع أن يكون ذلك من قيلهم لأول رزق يرزقونه من ثمارها، فيدفع صحة ما أوجب الله صحته من غير نصب، دلالة على أن ذلك في حال من أحوالهم دون حال.

فقد تبين أن معنى الآية: كلما رزقوا من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة، قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا.

قلت: أصحاب القول الأول يخصون هذا العام بما عدا الرزق الأول لدلالة العقل والسياق عليه، وليس هذا ببدع من طريقة القرآن، وأنت مضطر إلى تخصيصه ولابد بأنواع من التخصيصات:

أحدها: أن كثيراً من ثمار الجنة وهي التي لا نظير لها في الدنيا لا يقال فيها ذلك.

الثاني: أن كثيراً من أهلها لم يرزقوا جميع ثمرات الدنيا التي لها نظير في الجنة.

الثالث: أنه من المعلوم أنهم لا يستمرون على هذا القول أبد الآباد كلما أكلوا ثمرة واحدة قالوا: هذا الذي رزقنا في الدنيا، ويستمرون على هذا الكلام دائماً إلى غير نهاية، والقرآن العظيم لم يقصد إلى هذا المعنى، ولا هو مما يعتني بهم من نعيمهم ولذتهم، وإنما هو كلام مبين خارج على المعتاد المفهوم من الطيب.

ومعناه: أنه يشبه بعضه بعضًا ليس أوله خيراً من آخره، ولا هو مما يَعْرِض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها؛ من نقصان حملها وصغر ثمرها وغير ذلك، بل أوله مثل آخره، وآخره مثل أوله وهو خيار كله يشبه بعضه بعضًا، فهذا وجه قولهم، ولا يلزم مخالفة ما نصه الله سبحانه وتعالى، ولا نسبة أهل الجنة إلى الكذب بوجه، والذي يلزمهم من التخصيص يلزمك نظيره وأكثر منه والله أعلم.

وأما قوله عز وجل: ﴿وأتوا به متشابها﴾ قال الحسن خيار كله لا رذل ألم تروا إلى ثمر الدنيا كيف تسترذلون بعضه وأن ذلك ليس فيه رذل وقال قتادة: خيار لا رذل فيه فإن ثمار الدنيا ينقى منها ويرذل منها وكذلك قال ابن جريج وجماعة، وعلى هذا فالمراد بالتشابه التوافق

والتماثل. قالت طائفة أخرى منهم ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب رسول الله، ﷺ، متشابها في اللون والمرأى وليس يشبه الطعم قال مجاهد متشابها لونه مختلفا طعمه وكذا قال الربيع بن أنس.

وقال يحيى بن أبي كثير «عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك ويطوف عليهم الولدان بالفاكهة فيأكلونها ثم يأتونهم بمثلها فيقولون هذا الذي جئتمونا به آنفا، فيقول لهم الخدم كلوا فإن اللون واحد والطعم مختلف فهو قوله عز وجل: **﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها﴾** وقالت طائفة وناس معنى الآية أن يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أفضل وأطيب قال ابن وهب قال عبدالرحمن بن زيد يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا التفاح بالتفاح والرمان بالرمان قالوا في الجنة هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها يعرفونه وليس هو مثله في الطعم واختار ابن جرير هذا القول قال ودليلنا على فساد قول من قال إن معنى الآية هذا الذي رزقنا من قبل أي في الجنة وتلك الدلالة على فساد ذلك القول هي الدلالة على فساد قول من خالف قولنا في تأويل قوله وأتوا به متشابها أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن المعنى الذي من أجله قال القوم هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها.

«**قلت**» وهذا لا يدل على فساد قولهم لما تقدم.

(١)**قال** تعالى: **﴿وَبَشر الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالحات أن لَهُمْ جَنَّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار كُلما رُزقوا منها من ثمرة رزقًا قالوا هذا الذي رُزقنا من قبلُ وأُتوا به مُتَشابهاً وَلهُمْ فيها أزواجٌ مُطهرةٌ وَهُم فيها خَالِدُون﴾**. فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة وقدر مابشرك به وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره.

وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات ومافيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه.

والأزواج جمع زوج والمرأة زوج للرجل وهو زوجها هذا هو الأفصح وهو لغة قريش وبها نزل القرآن كقوله: **﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾**.

ومن العرب من يقول: زوجة وهو نادر لا يكادون يقولونه! وأما المطهرة فإن جرت صفة على الواحد؛ فيجري صفة على جمع التكسير؛ إجراء له مجرى جماعة

(١) ١٥٥ حادي الأرواح.

كقوله تعالى: ﴿مساكن طيبة﴾ .[الصف:١٢]. ﴿وقرى ظاهرة﴾ .[سبأ:١٨].ونظائره.

والمطهرة: من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق، وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاء، وطهر طرفها من أن تطمح به إلى غير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ.

قال عبدالله بن المبارك: ثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي نظرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: ﴿لهم فيها أزواجٌ مطهرةٌ﴾ قال: «من الحيض والغائط والنخامة والبصاق».

وقال عبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس ﴿مطهرة﴾: لا يحضن ولا يُحْدِثن ولا يتنخمن.

وقال ابن عباس أيضًا: مطهرة من القذر والأذى.

وقال مجاهد: لا يَبُلن ولا يتغوطن ولا يُمذين ولا يُمنين ولا يحضن ولا يبصقن ولا يتنخمن ولا يلدن.

وقال قتادة: مطهرة من الإثم والأذى، طهرهن الله سبحانه من كل بول وغائط وقذر ومأثم.

وقال عبدالرحمن بن زيد: المطهرة التي لا تحيض، وأزواج الدنيا لسن بمطهرات، ألا تراهن يدمين ويتركن الصلاة والصيام؟ قال: وكذلك خلقت حواء حتى عصت ،فلما عصت قال الله: **إني خلقتك مطهرة وسأدميك كما دميت هذه الشجرة.**

ذكر من يستحق هذه البشارة

(١)**قال** الله تعالى: ﴿وبَشِّر الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحَاتِ أنَّ لَهُمْ جَنات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا﴾ .[البقرة:٢٥].

وقال تعالى: ﴿ألا إنَّ أوْلِيَاء الله لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون، الذين آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون لَهُم البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيل لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيْم﴾ .[يونس:٦٢: ٦٤].

(١) ٢٩١ حادي الأرواح.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الذين قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠، الأحقاف: ١٣] الآية.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤمِنُونَ﴾. [المؤمنون: ١]. إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُون الذين يَرِثُونَ الفِرْدَوْس هُمْ فِيها خَالِدُون﴾. [المؤمنون: ١١].

وفي المسند وغيره: أن النبي ﷺ، قال: «قد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ثم تلا ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر آيات.

وقال تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلماتِ﴾. إلى قوله: ﴿أعدَّ الله لَهُمْ مغْفِرَةً وأجْرًا عَظِيمًا﴾. [الأحزاب: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿التَّائِبُون العَابِدُون الحَامِدُون السَّائِحُون الرَّاكِعُون السَّاجِدُونَ الآمِرُون بِالمَعْرُوف والنَّاهُونَ عَنْ المُنْكَرِ والحَافِظُون لِحُدُود الله وبَشِّر المُؤمنِين﴾. [التوبة: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿تلك الجنة التي نُورثُ من عبادنا من كان تقيًّا﴾. [مريم: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ من رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمواتُ والأرْضُ أُعِدَتْ للمُتَّقِين الذين يُنْفِقُونَ في السرَّاء والضرَّاء والكَاظِمِينَ الغيْظَ والعَافِينَ عَن النَّاس والله يُحب المُحْسِنِين والذين إذا فَعَلُوا فَاحِشَة أو ظَلَموا أنْفُسَهم ذَكَرُوا الله فاسْتَغْفَروا لِذُنُوبِهم ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا الله ولم يُصِرُّوا على ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون أُولئك جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِم وَجَنْات تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهَارُ خالدين فِيْها ونِعْمَ أجْرُ العَامِلِين﴾. [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا هَلْ أدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارةٍ تُنجيكُمْ مِن عَذَابٍ أَلِيْم تُؤمِنُون بِالله وَرَسُولِه وتُجَاهِدُون في سَبِيلِ الله بِأمْوَالِكُم وأنْفُسِكُم ذَلِكُم خَيرٌ لَكُم إن كُنْتم تَعْلَمون﴾. إلى قوله: ﴿وبَشِّر المُؤمنين﴾. [الصف: ١٠ - ١٣].

وقال تعالى: ﴿ولِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه جَنَّتَان﴾. [الرحمن: ٤٦]

وقال تعالى: ﴿وَأمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الهَوى فَإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾. [النازعات: ٤٠] وهذا في القرآن كثير، مداره على ثلاث قواعد: إيمان، وتقوى، وعمل خالص لله على موافقة السنة.

فأهل هذه الأصول الثلاثة، هم أهل البشرى دون من عداهم من سائر الخلق، وعليها دارت بشارات القرآن والسنة جميعها.

وهي تجتمع في أصلين: إخلاص في طاعة الله، وإحسان إلى خلقه. وضدها

يجتمع في الذين يراءُون ويمنعون الماعون.

وترجع إلى خصلة واحدة وهي موافقة الرب تبارك وتعالى في محآبه، ولا طريق إلى ذلك إلا بتحقيق القدوة ظاهرًا وباطنًا برسول الله ﷺ.

وأما الأعمال التي هي تفاصيل هذا الأصل فهي بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وبين هاتين الشعبتين سائر الشعب التي مرجعها تصديق الرسول في كل ما أخبر به، وطاعته في جميع ما أمر به إيجابًا واستحبابًا: كالإيمان بأسماء الرب، وصفاته، وأفعاله، وآياته؛ من غير تحريف لها ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَها**﴾[البقرة: ٢٦]. الآية.

وهذا جواب اعتراض، اعترض به الكفار على القرآن وقالوا: إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب والعنكبوت ونحوها من الحيوانات الخسيسة، فلو كان ما جاء به محمد ﷺ، كلام الله؛ لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة.

فأجابهم الله تعالى بأن قال: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾. [البقرة: ٢٦].

فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها، إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه وإبطال الباطل وإدحاضه؛ كان من أحسن الأشياء، والحسن لا يستحيا منه، فهذا جواب الاعتراض.

فكأن معترضًا اعترض على هذا الجواب أو طلب حكمة ذلك، فأخبر تعالى عمّا له في ضرب تلك الأمثال من الحكمة، وهي إضلال من شاء وهداية من شاء.

ثم كأن سائلاً سأل عن حكمة الإضلال لمن يضله بذلك.

فأخبر تعالى عن حكمته وعدله، وأنه إنما يضل به الفاسقين ﴿**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض**﴾. [البقرة: ٢٧]. فكانت أعمالهم هذه القبيحة التي ارتكبوها سببًا لأن أضلهم وأعماهم عن الهدى.

---

(١) ١٣٦ بدائع جـ٤.

(١)**ولا** ريب أن القلب إذا طُبع عليه أظلمت صورة العلم فيه، وانطمست وربما ذهب أثرها حتى يصير السبب الذي يهتدي به المهتدون سببًا لضلال هذا، كما قال تعالى: ﴿**يُضِلُّ به كثيراً ويهدي به كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسقين الذين يَنْقُضُون عَهْد الله مِنْ بَعْد مِيثَاقِهِ ويَقْطَعُون مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَل ويُفْسِدُون في الأَرْض أولئك هُم الخَاسِرُون**﴾. [البقرة: ٢٦، ٢٧].

فأخبر تعالى أن القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس، وهو هداه الذي هدى به رسوله وعباده المؤمنين، ولهذا أخبر سبحانه أنه إنما يهتدي به من اتبع رضوان الله.

قال تعالى: ﴿**وإذا أُنْزِلَت سُورَة فَمِنْهُم مَنْ يَقُول أَيّكُم زَادَتْهُ هَذه إِيمَانًا فَأَمَّا الذين آمَنُوا فَزَادَتْهُم إيمانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُون، وأَمَّا الذين في قُلوبِهم مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ ومَاتُوا وهُمْ كَافِرُون**﴾. [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

ولا شيء أعظم فسادًا لمحل العلم من صيرورته؛ بحيث يضل بما يهتدي به، فنسبته إلى الهدى والعلم نسبة الفم الذي قد استحكمت فيه المرارة إلى الماء العذب كما قيل: ومن يـك ذا فـم مـر مريـض	يجـد مُرًّا بـه المـاءَ الـزلالا

وإذا فسد القلب فسد إدراكه وإذا فسد الفم فسد إدراكه وكذلك إذا فسدت العين.

(٢)**وأما** الأصل(٣) الثاني وهو اقتضاء الفجور والكِبْر والكذب والضلال، فكثير أيضًا في القرآن، كقوله تعالى: ﴿**يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً، ومَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِين، الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بَعْد مِيثَاقِهِ ويَقْطَعُون مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَلَ ويُفْسِدُون في الأَرْض، أولَئِكَ هُم الخَاسِرُون**﴾. [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ الله الَّذِيْنَ آمَنُوا بالقَوْل الثَّابِتِ في الحَيَاة الدُّنيا وفي الآخِرَة، ويُضِلُّ الله الظَّالِمِين ويَفْعَلُ الله ما يَشَاء**﴾. [إبراهيم: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿**فَمَا لَكُمْ في المُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ والله أَرْكَسهم بما كَسَبُوا**﴾. [النساء: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ. بَل لَعَنَهُم الله بِكُفْرِهِم فَقَلِيلاً ما يُؤمِنُون**﴾. [البقرة: ٨٨].

---

(١) ١٠٠ مفتاح جـ١.	(٢) ١٣٠ فوائد.

(٣) تقدم الأصل الأول في الصفحة رقم ١٤٣(ج).

وقال تعالى: ﴿ونُقَلِّبُ أفْئِدَتَهُمْ وأبْصارَهُم كَما لم يُؤمِنُوا بِهِ أوَّلَ مَرةٍ﴾. [الأنعام: ١١٠].

فأخبر أنه عاقبهم على تخلفهم عن الإيمان، لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه بأن قلّب أفئدتهم وأبصارهم وحال بينهم وبين الإيمان، كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرسُوْلِ إذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ، واعْلَمُوْا أنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِهِ﴾. [الأنفال: ٢٤]. فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم إلى ما فيه حياتهم، ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة، الذي يكون سببًا لأن يحول بينهم وبين قلوبهم.

قال تعالى: ﴿فلَمَّا زاغُوا أزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ، والله لا يَهْدِي القَوْمَ الفاسِقِينَ﴾. [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿كلَّا بَلْ رانَ على قُلوبِهم ما كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. [المطففين: ١٤].

فأخبر سبحانه أن كسبهم غطى على قلوبهم، وحال بينها وبين الإيمان بآياته، فقالوا: أساطير الأولين.

وقال تعالى: في المنافقين: ﴿نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ﴾، [التوبة: ٦٧]. فجازاهم على نسيانهم له أن نسيهم، فلم يذكرهم بالهدى والرحمة، وأخبر أنه أنساهم أنفسهم، فلم يطلبوا كمالها بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما: الهدى، ودين الحق. فأنساهم طلب ذلك ومحبته ومعرفته، والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له.

وقال تعالى في حقهم: ﴿أولَئِك الذين طَبَع الله عَلى قُلُوبِهِم واتَّبَعُوا أهْوَاءهُم، والذين اهْتَدَوْا زَادَهُم هُدَىً وآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾. [محمد: ١٦، ١٧].

فجمع لهم بين اتباع الهوى والضلال الذي هو ثمرته وموجبه، كما جمع للمهتدين بين التقوى والهدى.

(١)**قوله** تعالى: ﴿كيف تَكْفُرون بالله وكُنْتُمْ أمْوَاتًا فَأحْيَاكُمْ ثُم يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحْيِيكُم ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُون﴾. [البقرة: ٢٨]. فهذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفِطَر والعقول، وأنه لا عذر لأحد في الكفر به ألبتة، فذكر تعالى أربعة أمور، ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم، والرابع منتظر موعود به وعد الحق:

---

(١) ١٣٧ بدائع جـ٤.

الأول: كونهم كانوا أمواتًا لا أرواح فيهم، بل نطفًا وعلقًا ومضغة مواتًا لا حياة فيها.

الثاني: أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة.

الثالث: أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة.

الرابع: أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه.

فما بال العاقل يشهد الثلاثة الأطوار الأُوَل ويكذب بالرابع؟! وهل الرابع إلَّا طور من أطوار التخليق؟ فالذي أحياكم بعد أن كنتم أمواتًا، ثم أماتكم بعد أن أحياكم ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعدما يميتكم؟! وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله؟! فكيف يقع منكم بعدما شاهدتموه؟.

ففي ضمن هذه الآية الاستدلال على وجود الخالق وصفاته وأفعاله وعلى المعاد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِسُ لَكَ قَالَ إِنِي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ وعلّم آدمَ الأَسْماء كُلَّها ثُم عَرَضَهُم على المَلائكة فَقَال أَنْبِئوني بِأَسْماءِ هَؤلاء إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لنَا إلاّ مَا علّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ قَال يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِم قَال أَلَم أَقُلْ لَكُم إِنِي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمواتِ والأَرْضِ وأَعْلَمُ ما تُبْدُون وما كُنْتُم تَكْتُمُونَ**﴾. [البقرة: ٣٠ - ٣٣].

فهذه كالمناظرة من الملائكة، والجواب عن سؤالهم كأنهم قالوا: إن استخلفت في الأرض خليفة كان منه الفساد وسفك الدماء، وحكمتك تقتضي أن لا تفعل ذلك، وإن جعلت فيها فتجعل فيها من يسبح بحمدك ويقدس لك، ونحن نفعل ذلك فأجابهم تعالى عن هذا السؤال؛ بأن له من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا تعلمه الملائكة، وإن وراء ما زعمتم من الفساد مصالح وحِكَمًا لا تعلمونها أنتم. وقد ذكرنا منها قريبًا من أربعين حكمة[1] في كتاب (التحفة المكيّة). فاستخرج تعالى من هذا الخليفة وذريته الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين وعمر بهم الجنة، وميّز الخبيث من ذريته من الطيب فعمر بهم النار. وكان في ضمن ذلك من الحكم والمصالح ما لم تكن الملائكة تعلمه.

---

(١) يظهر أنها هي الموجودة في أول (مفتاح دار السعادة). (ج).

ثم إنه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خصه به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة، وأمرهم بالسجود له تكريمًا له وتعظيمًا له وإظهارًا لفضله. وفي ضمن ذلك من الحكم مالا يعلمه إلا الله.

فمنها: امتحانهم بالسجود لمن زعموا أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء؛ فأسجدهم له وأظهر فضله عليهم؛ لما أثنوا على أنفسهم وذموا الخليفة كما فعل سبحانه ذلك بموسى لما أخبر عن نفسه أنه أعلم أهل الأرض؛ فامتحنه بالخضر وعجزه معه في تلك الوقائع الثلاث. وهذه سنته تعالى في خليقته وهو الحكيم العليم.

ومنها: جبره لهذا الخليفة وابتداؤه له بالإكرام والإنعام؛ لما علم مما يحصل له من الانكسار والمصيبة والمحنة فابتدأه بالجبر والفضل، ثم جاءت المحنة والبلية والذل، وكانت عاقبتها إلى الخير والفضل والإحسان، فكانت المصيبة التي لحقته محفوفة بإنعامين: إنعام قبلها، وإنعام بعدها ولذريته المؤمنين نصيب مما لأبيهم، فإن الله تعالى أنعم عليهم بالإيمان ابتداء، وجعل العاقبة لهم فما أصابهم بين ذلك من الذنوب والمصائب، فهي محفوفة بإنعام قبلها وإنعام بعدها، فتبارك الله رب العالمين.

ومنها: استخراجه تعالى ما كان كامنًا في نفس عدوه إبليس؛ من الكبر والمعصية الذي ظهر عند أمره بالسجود، فاستحق اللعنة والطرد والإبعاد على ما كان كامنًا في نفسه عند إظهاره، والله تعالى كان يعلمه منه ولم يكن ليعاقبه ويلعنه على علمه فيه، بل على وقوع معلومه، فكان أمْرُه بالسجود له مع الملائكة مظهرًا للخبث والكفر الذي كان كامنًا فيه، ولم تكن الملائكة تعلمه فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه، وكان خافيًا عنهم من أمره، فكان في الأمر بالسجود له تكريمًا لخليفته الذي أخبرهم بجعله في الأرض، وجبرًا له وتأديبًا للملائكة وإظهارًا لما كان مستخفيًا في نفس إبليس، وكان ذلك سببًا لتمييز الخبيث من الطيب، وهذا من بعض حِكَمه تعالى في إسجادهم لآدم.

ثم إنه سبحانه لما علّم آدم ما علّمه، ثم امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه فأنبأهم به آدم، وكان في طي ذلك جوابًا لهم عن كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض؛ فإنه يفسد فيها ويسفك الدماء؛ فأراهم من فضله وعلمه خلاف ما كان في ظنهم.

(١)**الوجه** التاسع والعشرون : أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفـة قالوا له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. [البقرة: ٣٠-٣٢]. إلى آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى إبليس فلعنه وأخرجه من السماء.

بيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه رد على الملائكة لما سألوه: كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه؟ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَالا تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٣٠]. فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها مالا يعلمونه وهو العليم الحكيم.

فظهر من هذا الخليفة: من خيار خلقه، ورسله وأنبيائه، وصالحي عباده، والشهداء، والصديقين، والعلماء، وطبقات أهل العلم والإيمان؛ من هو خير من الملائكة.

وظهر من إبليس؛ من هو شر العالمين، فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا، ولا بهذا ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة.

الثاني: أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله؛ ميزه عليهم بالعلم فعلمه الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.

جاء في التفسير أنهم قالوا: لن يخلق ربُّنا خلقًا هو أكرم عليه منا، فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، فلما امتحنهم بعلم ما علَّمه لهذا الخليفة؛ أقروا بالعجز والجهل ما لم يعلموه فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. [البقرة: ٣٢]. فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقـال: ﴿يـا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم﴾. [البقرة: ٣٣]. أقروا له بالفضل.

الثالث: أنه سبحانه لما أن عرَّفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما

---

(١) ٥٢ مفتاح جـ١.

كنتم تكتمـون﴾. [البقرة:٣٣]. فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم، وأنه أحاط علمًا بظاهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض فتعرف إليهم بصفة العلم، وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم، وكفى بهذا شرفًا للعلم.

الرابع: أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه فأظهر لهم أحسن ما فيه، وهو علمه؛ فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم.

ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام؛ لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم، أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير، فحينئذ قدمه ومكّنه وسلم إليه خزائن الأرض. وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته، ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ومكنه في الأرض؛ فدل على أن صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة.

(١)**قول** الملائكة: ﴿**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾ [البقرة: ٣٠] فقيل: المعنى: ونقدس أنفسنا لك فعدّى باللام، وهذا ليس بشيء، والصواب أن المعنى: نقدسك وننزهك عما لا يليق بك، هذا قول جمهور أهل التفسير.

وقال ابن جرير: ونقدس لك: ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس ومما أضاف إليك أهل الكفر بك قال: وقال بعضهم: نعظّمك ونمجدك قاله أبوصالح، وقال مجاهد: نعظمك ونكبرك. انتهى.

وقال بعضهم: ننزهك عن السوء فلا ننسبه إليك. واللام فيه على حدها في قوله: ﴿**رَدِفَ لكم**﴾ [النمل:٧٢]. لأن المعنى تنزيه الله لا تنزيه نفوسهم لأجله.

قلت: ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم: نسبح بحمدك؛ فإن التسبيح تنزيه الله سبحانه عن كل سوء.

قال ميمون بن مهران: سبحان الله: كلمة يعظم بها الرب، ويحاشى بها من السوء.

وقال ابن عباس: هي تنزيه لله من كل سوء، وأصل اللفظة من المباعدة من قولهم: سَبَحْتُ في الأرض إذا تباعدت فيها ومنه ﴿**وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون**﴾.

(١) ١٧٨ شفاء.

[يس: ٤٠]. فمن أثنى على الله ونزهه عن السوء، فقد سبحه. ويقال: سبح الله وسبح له وقدسه وقدس له.

(١)**الوجه** السادس والعشرون: قوله: أي حكمة في إبقاء إبليس إلى آخر الدهر وإماتة الرسل؟ فكم لله في ذلك من حكمة تضيق بها الأوهام!

فمنها: أنه سبحانه لما جعله محكًا ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث، ووليه من عدوه؛ اقتضت حكمته إبقاءه؛ ليحصل الغرض المطلوب بخلقه، ولو أماته؛ لفات ذلك الغرض.

كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار في الأرض إلى آخر الدهر، ولو أهلكهم ألبتة لتعطلت الحكم الكثيرة في إبقائهم، فكما اقتضت حكمته امتحان أبي البشر؛ اقتضت امتحان أولاده من بعده به، فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه، وينحاز إليه من وافقه ووالاه.

ومنها: أنه لما سبق حلمه وحكمته أنه لا نصيب له في الآخرة، وقد سبق له طاعة وعبادة جزاه بها في الدنيا؛ بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر، فإنه سبحانه لا يظلم أحدًا حسنة عملها، فأما المؤمن فيجزيه بحسناته في الدنيا وفي الآخرة، وأما الكافر فيجزيه بحسنات ما عمل في الدنيا، فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له شيء. كما ثبت هذا المعنى في الصحيح عن النبي ﷺ.

ومنها: أن إبقاءه لم يكن كرامة في حقه، فإنه لو مات كان خيرًا له وأخف لعذابه وأقل لشرِّه، ولكن لما غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية، ومخاصمة من ينبغي التسليم لحكمه والقدح في حكمته والحلف على اقتطاع عباده وصدهم عن عبوديته، كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه فأبقي في الدنيا، وأملي له ليزداد هذا إثمًا على إثم ذلك الذنب، فيستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره، فيكون رأس أهل الشرِّ في العقوبة، كما كان رأسهم في الشر والكفر.

ولما كان مادة كل شر **فعنه** ينشأ جوزي في النار مثل فعله، فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ به فيه، ثم يسري منه إلى أتباعه عدلاً ظاهرًا وحكمة بالغة.

ومنها: أنه قال في مخاصمته لربه: ﴿**أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً**﴾، [الإسراء: ٦٢]. وعلم سبحانه أن في الذرية من لا يصلح لمساكنته في داره، ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث

(١) ٢٤٠ شفاء.

أبقاه له وقال له بلسان القدر: هؤلاء أصحابك وأولياؤك فاجلس في انتظارهم، وكلما مر بك واحد منهم فشأنك به، فلو صلح لي لما ملكتك منه، فإني أتولى الصالحين وهم الذي يصلحون لي، وأنت ولي المجرمين الذين غنوا عن موالاتي وابتغاء مرضاتي قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الذين آمَنُوا وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون إِنَّمَا سُلْطَانُهُ على الذين يَتولونَهُ والذين هُمْ بِهِ مُشْرِكُون﴾. [النحل: ٩٩، ١٠٠].

فأما إماتة الأنبياء والمرسلين، فلم يكن ذلك لهوانهم عليه، ولكن ليصلوا إلى محل كرامته ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها ومقاساة أعدائهم وأتباعهم، وليحيا الرسل بعدهم يرى رسولاً بعد رسول، فإماتتهم أصلح لهم وللأمة. أما هم فلراحتهم من الدنيا ولحوقهم بالرفيق الأعلى في أكمل لذة وسرور، ولاسيما وقد خيرهم ربهم بين البقاء في الدنيا واللحاق به. وأما الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوهم في حياتهم خاصة، بل أطاعوهم بعد مماتهم كما أطاعوهم في حياتهم، وأن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم، والله هو الحي الذي لا يموت، فكم في إماتتهم من حكمة ومصلحة لهم وللأمم!!

هذا وهُم بَشر، ولم يخلق الله البشر في الدنيا على خلقة قابلة للدوام، بل جعلهم خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضًا، فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في جعلهم خلائف، ولضاقت بهم الأرض فالموت كمال لكل مؤمن، ولولا الموت لما طاب العيش في الدنيا ولا هناء لأهلها بها، فالحكمة في الموت كالحكمة في الحياة.

الوجه السابع والعشرون: قوله: أي حكمة ومصلحة في إخراج آدم من الجنة إلى دار الابتلاء والامتحان؟.

فالجواب أن يقال: كم لله سبحانه في ذلك من حكمة! وكم فيه من نعمة ومصلحة تعجز العقول عن معرفتها على التفصيل ولو استفرغت قواها كلها في معرفة ذلك!

وإهباط آدم وإخراجه من الجنة، كان سبيل[1] كماله ليعود إليها على أحسن أحواله، وهو سبحانه إنما خلقه ليستعمره وذريته في الأرض ويجعلهم خلفاء يخلف بعضهم بعضًا، فخلقهم سبحانه ليأمرهم وينهاهم ويبتليهم، وليست الجنة دار

---

(١) في النسخة: (كان يعسر كماله) والصواب ما أثبتناه لاستقامة المعنى. المراجع.

ابتلاء وتكليف، فأخرج الأبوين إلى الدار التي خلقوا منها وفيها؛ ليتزودوا منها إلى الدار التي خلقوا لها، فإذا وفوا تعب دار التكليف ونصبها، عرفوا قدر تلك الدار وشرفها وفضلها، ولو نشؤوا في تلك الدار لما عرفوا قدر نعمته عليهم بها، فأسكنهم دار الامتحان وعرضهم فيها لأمره ونهيه لينالوا بالطاعة أفضل ثوابه وكرامته، وكان من الممكن أن يحصل لهم النعيم المقيم هناك، لكن الحاصل عقيب الابتلاء والامتحان، ومعاناة الموت وما بعده وأهوال القيامة، والعبور على الصراط نوع آخر من النعيم لا يدرك قدره، وهو أكمل من نعيم من خلق في الجنة من الوِلْدان والحور العين بما لا تشابه بينهما بوجه من الوجوه.

ومن الحكم في ذلك أنه سبحانه أراد أن يتخذ من ذرية آدم رسلاً وأنبياء وشهداء، يحبهم ويحبونه وينزل عليهم كتبه ويعهد إليهم عهده، ويستعبدهم له في السراء والضراء، ويؤثرون محابه ومراضيه على شهواتهم وما يحبونه ويهوونه؛ فاقتضت حكمته أن أنزلهم إلى دار ابتلاهم فيها بما ابتلاهم ليكملوا بذلك الابتلاء مراتب عبوديته ويعبدونه بما تكرهه نفوسهم، وذلك محض العبودية، وإلا فمن لا يعبد الله إلا بما يحبه ويهواه فهو في الحقيقة إنما يعبد نفسه، وهو سبحانه يحب من أوليائه أن يوالوا فيه، ويعادوا فيه، ويبذلوا نفوسهم في مرضاته ومحابه، وهذا كله لا يحصل في دار النعيم المطلق.

ومن الحكمة في إخراجه من الجنة ما تقدم التنبيه عليه من اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها: كالغفور الرحيم التواب العفو المنتقم الخافض الرافع المعز المذل المحيي المميت الوارث. ولا بد من ظهور أثر هذه الأسماء ووجود ما يتعلق به، فاقتضت حكمته أن إنزال الأبوين من الجنة؛ ليظهر مقتضي أسمائه وصفاته فيهما وفي ذريتهما، فلو تَرَبَّت الذرية في الجنة لفاتت آثار هذه الأسماء وتعلقاتها، والكمال الإلهي يأبى ذلك، فإنه الملك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى ويكرم ويهين ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل، فأنزل الأبوين والذرية إلى دار تجري عليهم هذه الأحكام.

وأيضًا فإنهم أنزلوا إلى دار يكون إيمانهم تامًّا، فإن الإيمان قول وعمل وجهاد وصبر واحتمال، وهذا كله إنما يكون في دار الامتحان لا في جنة النعيم.

وقد ذكر غير واحد من أهل العلم، منهم أبو الوفا بن عقيل وغيره: أن أعمال

الرسل والأنبياء والمؤمنين في الدنيا أفضل من نعيم الجنة.

قالوا: لأن نعيم الجنة حظهم وتمتعهم، فأين يقاس إلى الإيمان وأعماله، والصلوات وقراءة القرآن والجهاد في سبيل الله، وبذل النفوس في مرضاته وإيثاره على هواها وشهواتها؟ فالإيمان متعلق به سبحانه، وهو حقه عليهم ونعيم الجنة متعلق بهم وهو حظهم، فهم إنما خلقوا للعبادة والجنة دار نعيم لا دار تكليف وعبادة.

وأيضًا فإنه سبحانه سبق حكمه وحكمته بأن يجعل في الأرض خليفة وأعلمَ بذلك ملائكته، فهو سبحانه قد أراد بكون هذا الخليفة وذريته في الأرض قبل خلقه؛ لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة، فلم يكن بد من إخراجه من الجنة إلى دار قَدَّر سكناهم فيها قبل أن يخلقه، وكان ذلك التقدير بأسباب وحكم، فمن أسبابه النهي عن تلك الشجرة، وتخليته بينه وبين عدوه حتى وسوس إليه بالأكل وتخليته بينه وبين نفسه حتى وقع في المعصية، وكانت تلك الأسباب موصلة إلى غايات محمودة مطلوبة، يترتب على خروجه من الجنة، ثم يترتب على خروجه أسباب أخر جُعلت غايات لحكم أخر، ومن تلك الغايات عوده إليها على أكمل الوجوه، فذلك التقدير وتلك الأسباب وغاياتها صادرة عن محض الحكمة البالغة، التي يحمده عليها أهل السموات والأرض والدنيا والآخرة، فما قدّر أحكم الحاكمين ذلك باطلًا، ولا دبره عبثًا ولا أخلاه من حكمته البالغة وحمده التام.

وأيضًا فإنه سبحانه قال للملائكة: **﴿إِني جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَة قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّح بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّس لَكَ قَالَ إِني أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾**. [البقرة: ٣٠].

ثم أظهر سبحانه من علمه وحكمته الذي خفي على الملائكة من أَمْر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعرفونه؛ بأن جعل من نسله من أوليائه وأحبائه ورسله وأنبيائه من يتقرب إليه بأنواع التقرب ويبذل نفسه في محبته ومرضاته، يسبح بحمده أناء الليل وأطراف النهار، ويذكره قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه، ويعبده ويذكره ويشكره في السراء والضراء، والعافية والبلاء، والشدة والرخاء، فلا يثنيه عن ذكره وشكره وعبادته شدة ولا بلاء، ولا فقر ولا مرض، ويعبده مع معارضة الشهوة وغلبات الهوى وتعاضد الطباع لأحكامها ومعاداة بني جنسه وغيرهم له، فلا يصده ذلك عن عبادته وشكره وذكره والتقرب إليه، فإن كانت عبادتكم لي بلا معارض ولا

ممانع فعبادة هؤلاء لي مع هذه المعارضات والموانع والشواغل.

وأيضًا فإنه سبحانه أراد أن يُظهر لهم ما خفي عليهم من شأن ما كانوا يعظمونه ويجلّونه ولا يعرفون ما في نفسه من الكِبْر والحسد والشر، فذلك الخير وهذا الشر كامن في نفوس لا يعلمونها، فلا بد من إخراجه وإبرازه لكي يعلم حكمة أحكم الحاكمين في مقابلة كل منهما بما يليق به.

وأيضًا فإنه سبحانه لما خَلَق خَلْقه أطوارًا وأصنافًا، وسبق في حكمه وحكمته تفضيل آدم وبنيه على كثير ممن خلق تفضيلاً، جعل عبوديتهم أكمل من عبودية غيرهم، وكانت العبودية أفضل أحوالهم وأعلى درجاتهم، أعني العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعًا واختيارًا لا كرهًا واضطرارًا.

ولهذا أرسل الله جبريل إلى سيد هذا النوع الإنساني، يخيره بين أن يكون عبدا رسولاً أو ملكًا نبيًا، فاختار بتوفيق ربه له أن يكون عبدًا رسولاً، وذكره سبحانه بأتم العبودية في أشرف مقاماته وأفضل أحواله: كمقام الدعوة والتحدي والإسراء وإنزال القرآن ﴿وأنَّهُ لَمَّا قَام عَبْدُ الله يَدْعُوهُ﴾، [الجن: ١٩]. ﴿وإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنـا على عَبْدِنَا﴾، [البقرة: ٢٣]. ﴿سُبْحَان الذي أسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، [الإسراء: ١]. ﴿تَبارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ على عَبْدِهِ﴾، [الفرقان: ١]. فأثنى عليه ونوَّه به لعبوديته التامة له، ولهذا يقول أهل الموقف حين يطلبون الشفاعة: **«اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»**[(١)].

فلما كانت العبودية أشرف أحوال بني آدم وأحبها إلى الله وكان لها لوازم وأسباب مشروطة لا يحصل إلا بها، كان من أعظم الحكمة أن أخرجوا إلى دار تجري عليهم فيهـا أحكـام العبـودية وأسبابها وشروطها وموجباتها، فكان إخراجهم من الجنة تكميلاً لهم وإتمامًا لنعمته عليهم مع ما في ذلك من محبوبات الرب تعالى، فإنه يحب: إجابة الدعوات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، ومغفرة الزلات وتكفير السيئات ودفع البليات، وإعزاز من يستحق العز وإذلال من يستحق الذل، ونصر المظلوم وجبر الكسير، ورفع بعض خلقه على بعض وجعلهم درجات؛ ليعرف قدر فضله وتخصيصه، فاقتضى ملكه التام وحمده الكامل أن يخرجهم إلى دار يحصل فيها محبوباته سبحانه، وإن كان لكثير منها طرق وأسباب يكرهها، فالوقوف على

---

(١) سبق ص ١٨٢ أن قائل هذا هو عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام، ولا معارضة هنا؛ لأن عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، من أهل الموقف. المراجع.

الشيء لابد منه[1] وإيجاد لوازم الحكمة من الحكمة، كما أن إيجاد لوازم العدل من العدل، كما ستقف عليه في فصل إيلام الأطفال، إن شاء الله.

[2] ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم

وإبائه من السجود له وبيان فسادها، وقد كرر الله تعالى ذكرها في كتابه وأخبر فيها: أن امتناع إبليس من السجود كان كبراً منه وكفراً ومجرد إباء، وإنما ذكر تلك الشبهة تعنتًا، وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر، وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم مايناقض الحكمة بوجه.

وأما شبهته الداحضة وهي أن أصله وعنصره النار، وأصل آدم وعنصره التراب، ورتب على ذلك أنه خير من آدم، ثم رتب على هاتين المقدمتين أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو فوقه وخير منه، فهي باطلة من وجوه عديدة:

أحدها: أن دعواه كونه خيراً من آدم دعوى كاذبة باطلة، واستدلاله عليها بكونه مخلوقًا من نار وآدم من طين استدلال باطل، وليست النار خيراً من الطين والتراب؛ بل التراب خير من النار وأفضل عنصرًا من وجوه:

أحدها: أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب.

الثاني: أن طبعها الخفة والحدة والطيش، والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.

الثالث: أن التراب يتكون فيه ومنه: أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزينتهم وآلات معايشهم ومساكنهم، والنار لا يتكون فيها شي من ذلك.

الرابع: أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه ألبتة، ولا عن ما يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقًا، وقد يستغني عنها الإنسان الأيام والشهور، فلا تدعوه إليها الضرورة فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنار في بعض الأحيان؟.

الخامس: أن التراب إذا وُضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه، فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفًا، ولو استودعته النار لخانتك وأكلته ولم تُبق ولم تذر.

السادس: أن النار لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به يكون حاملاً لها، والتراب لا يفتقر إلى حامل، فالتراب أكمل منها.

---

(١) بالنسخة: (لا بدونه) ولعل الصواب ما أثبتناه (لابد منه) المراجع.

(٢) ١٣٩ بدائع جـ٤.

السابع: أن النار مفتقرة إلى التراب وليس بالتراب فقر إليها، فإن المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلا مكونًا من التراب أو فيه، فهي الفقيرة إلى التراب وهو الغني عنها.

الثامن: أن المادة الإبليسية هي المارج من النار، وهو ضعيف يتلاعب به الهوى فيميل معه كيفما مال. ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره، ولما كانت المادة الآدمية التراب وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب قهر هواه وأسره ورجع إلى ربه، فاجتباه واصطفاه، فكان الهوى الذي مع المادة الآدمية عارضًا سريع الزوال، فزال وكان الثبات والرزانة أصليًّا له فعاد إليه، وكان إبليس بالعكس من ذلك فرجع كل من الأبوين إلى أصله وعنصره: آدم إلى أصله الطيب الشريف، واللعين إلى أصله الرديء.

التاسع: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع؛ فالشر كامن فيها لا يصدها عنه إلا قسرها وحبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته فأين أحدهما من الآخر؟.

العاشر: أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه وأخبر عن منافعها وخلقها، وأنه جعلها مهادًا وفراشًا وبساطًا وقرارًا وكفاتًا للأحياء والأموات، ودعا عباده إلى التفكر فيها والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها، ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلا موضعًا أو موضعين ذكرها فيه بأنها تذكرة ومتاع للمُقْوِين: تذكرة بنار الآخرة، ومتاع لبعض أفراد الإنسان وهم المقوون النازلون بالقواء وهي: الأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله، فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن؟.

الحادي عشر: أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصًا، وأخبر أنه بارك فيها عمومًا فقال: **﴿أئنكم لتكْفُرون بالذي خَلَقَ الأرْضَ في يَوْمَيْنْ وتَجْعلُون لَهُ أنْدَادًا ذَلِك رَبُّ العَالَمِين وَجَعَلَ فِيها رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وبَارَكَ فِيْهَا وقَدَّرَ فِيها أقْوَاتها في أرْبَعَةِ أيَّامٍ سَوَاء للسَّائِلِيْنَ﴾**. [فصلت: ٩، ١٠]. فهذه بركة عامة.

وأما البركة الخاصة ببعضها فكقوله: **﴿ونَجَّيْنَاهُ ولُوطًا إلى الأرْض التي بَارَكْنَا**

فِيها للعَالِمِين﴾. [الأنبياء: ٧١].

وقوله: ﴿وجَعَلْنَا بَيْنَهُم وبَيْنَ القُرَى التي بَارَكْنَا فِيها قُرىً ظَاهِرَةً﴾. [سبأ: ١٨]. وقوله: **﴿ولسُلَيْمانَ الرِّيْحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأمْرِهِ إلى الأَرْضِ التي بَارَكْنَا فِيها﴾**. [سبأ: ٨١].

وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلاً، بل المشهور أنها مُذهِبة للبركة ماحقة لها، فأين المبارَك في نفسه المبارِك فيما وضع فيه إلى مزيل البركة وماحقها؟.

الثاني عشر: أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه ويسبّح له فيها بالغُدوّ والآصال عمومًا، وبيته الحرام الذي جعله قيامًا للناس مباركًا فيه وهدى للعالمين خصوصًا، ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفًا وفضلًا على النار.

الثالث عشر: أن الله تعالى أودع في الأرض: من المنافع والمعادن والأنهار والعيون، والثمرات والحبوب والأقوات وأصناف الحيوانات وأمتعتها، والجبال والجنان والرياض والمراكب البهية والصور البهيجة ما لم يُودع في النار شيئًا منه، فأي روضة وجدت في النار أو جنة، أو معدن أو صورة أو عين فوارة أو نهر مطرد، أو ثمرة لذيذة أو زوجة حسنة أو لباس وسترة؟!.

الرابع عشر: أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض، فالنار إنما محلها الخادم لهذه الأشياء المكمل لها، فهي تابعة لها خادمة فقط، إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها، وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه ومن يقضي حوائجه.

الخامس عشر: أن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته، رأى صورة الطين ترابًا ممتزجًا بماء فاحتقره، ولم يعلم أن الطين مركّب من أصلين: الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم، هذا وكم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة! فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل.

وإذا استقريت الوجوه التي تدلك على أن التراب أفضل من النار وخير منها وجدتها كثيرة جدًّا، وإنما أشرنا إليها إشارة. ثم لو سلّم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين لم يلزمه من ذلك أن يكون المخلوق منها خيرًا من المخلوق من الطين، فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة،

والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص المادة، فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة ولم يعبر منها إلى كمال الصـورة ونهاية الخلقـة، فأين الماء المهين الذي هو نطفة ومضغة واستقذار النفوس له إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خُلُقًا وخَلْقًا؟.

وقد خلق الله تعالى الملائكة من نور، وآدم من تراب، ومن ذرية آدم من هو خير من الملائكة، وإن كان النور أفضل من التراب.

فهذا وأمثاله مما يدلك على ضعف مناظرة اللعين وفساد نظره وإدراكه، وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم؛ فعارض حكمة الله وأمره برأيه الباطل ونظره الفاسد، فقياسه باطل نصًا وعقلاً.

وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه، فنعوذ بالله من الخذلان ونسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء، الذي ما رمي العبد بشر منه، ولأن يلقى الله بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراك به، أسلم له من أن يلقى الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي بني جنسه، وهل طرد الله إبليس ولعنه وأحل عليه سخطه وغضبه؛ إلا حيث عارض النص بالرأي والقياس ثم قدمه عليه؟ والله يعلم أن شُبَه عدو الله مع كونها داحضة باطلة، أقوى من كثير من شُبَه المعارضين لنصوص الأنبياء بآرائهم وعقولهم.

فالعالم يتدبر سر تكرير الله لهذه القصة مرة بعد مرة، وليحذر أن يكون له نصيب من هذا الرأي والقياس، وهو لا يشعر فقد أقسم عدو الله أنه ليغوين بني آدم أجمعين إلا المخلَصين منهم، وصدق تعالى ظنه عليهم، وأخبر أن المخلصين لا سبيل له عليهم، والمخلصون هم الذين أخلصوا العبادة والمحبة والإجلال والطاعة لله، والمتابعة والانقياد لنصوص الأنبياء، فيجرد عبادة الله من عبادة ما سواه، ويجرد متابعة رسوله وترك ما خالفه لقوله دون متابعة غيره، فليزن العاقل نفسه بهذا الميزان قبل أن يوزن يوم القدوم على الله. والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١)**ولما** أهبطه سبحانه من الجنة وعرّضه وذريته لأنواع المحن والبلاء، أعطاهم أفضل مما منعهم وهو عهده الذي عهد إليه وإلى بنيه. وأخبر أنه من تمسك به صار إلى رضوانه ودار كرامته.

قال تعالى عقب إخراجه منها: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى**

---

(١) ٣٢ مفتاح جـ١.

فَمَن تَبِع هُدَاي فلا خَوْفٌ عَلَيهم ولا هُمْ يَحْزَنُون﴾. [البقرة:٣٨].

وفي الآية الأخرى قال: **﴿اهْبِطَا مِنْها جَميعًا بعضكم لبعض عدوٌ فَإِمَّا يَأتِيَنَّكُم مِني هُدى فَمَن اتَّبع هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ومن أعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَـةً ضَنْكًا ونَحْشُرُه يَوْمَ القِيَامَةِ أعْمَى قَال رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قَال كَذَلِكَ أَتَتْك آيَاتُنَا فَنَسِيْتَها وَكَذَلِك اليَوْمَ تُنْسَى﴾**. [طه:١٢٣:١٢٦]. فلما كسره سبحانه بإهباطه من الجنة جبره وذريته بهذا العهد الذي عهده إليهم. فقال تعالى: **﴿فَإِمَّا يَأتِيَنَّكم مِني هُدَىً﴾**. [طه:١٢٣]. وهذه هي إن الشرطية المؤكدة بما الدالة على استغراق الزمان.

والمعنى: أي وقت وأي حين أتاكم مني هدى، وجعل جواب هذا الشرط جملة شرطية وهي قوله: **﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾**. [طه:١٢٣].

(١)**ومتابعة** هدي الله التي رتب عليها هذه الأمور هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدح في تصديقه، وأمتثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله.

وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر. ويتبعهما أمران آخران: وهما نفي شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق، وأن لا يخمش بها وجه تصديقه، ودفع شهوات الغي الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال. فهنا أربعة أمور:

أحدها: تصديق الخبر.

الثاني: بذل الاجتهاد في رد الشبهات التي توحيها شياطين الجن والإنس في معارضته.

الثالث: طاعة الأمر.

والرابع: مجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة، وهذان الأمران أعني: الشبهات والشهوات، أصل فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده، كما أن الأصلين الأولين وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر، أصل سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده.

وذلك أن العبد له قوتان: قوة الإدراك والنظر وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام، وقوة الإرادة والحب وما يتبعه من النية والعزم والعمل، فالشبهة تؤثر

(١) ٤٠ مفتاح جـ١.

فسادًا في القوة العلمية النظرية ما لم يداوها بدفعها، والشهوة تؤثر فسادًا في القوة الإرادية العملية ما لم يداوها بإخراجها.

قال الله تعالى في حق نبيه، يذكر ما منَّ به عليه من نزاهته وطهارته مما يلحق غيره من ذلك: ﴿**والنَّجْم إذا هَوى ما ضَلَّ صَاحِبُكُم وما غَوَى**﴾. [النجم: ١،٢]. فما ضل دليل على كمال علمه ومعرفته وأنه على الحق المبين، وما غوى دليل على كمال رشده وأنه أبر العالمين فهو الكامل في علمه وفي عمله.

(١)**وهذه** المتابعة هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها في قوله تعالى: ﴿**إنَّ الذين يَتْلون كِتَاب الله**﴾. [فاطر: ٢٩]. وفي قوله: ﴿**الذين آتَيْنَاهُم الكِتَاب يَتْلُونه حَقَّ تِلاوَتِه أولئِك يُؤمِنُون بِهِ**﴾. [البقرة: ١٢١].

والمعنى: يتبعون كتاب الله حق اتباعه.

وقال تعالى: ﴿**اتْلُ ما أُوحِيَ إليْكَ مِن الكِتَاب وأَقِم الصَّلاَة**﴾. [العنكبوت: ٤٥]. وقال: ﴿**إنَّما أُمرتُ أن أعْبُد رَبَّ هَذِه البَلْدَةِ الذي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شيءٍ وأُمرتُ أن أَكونَ من المُسْلِمين وأن أَتْلواْ القرآن**﴾. [النمل: ٩١،٩٢].

فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى، فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع يقال: اتل أثر فلان وتلوت أثره وقفوته وقصصته بمعنى: تبعت خلفه.

ومنه قوله تعالى: ﴿**والشَّمْسِ وَضُحَاهَا والقَمَرِ إذا تَلاَها**﴾. [الشمس: ١،٢]. أي تبعها في الطلوع بعد غيبتها.

ويقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضًا أي: يتبع، وسمي تالي الكلام تاليًا؛ لأنه يتبع بعض الحروف بعضًا لا يخرجها جملة واحدة؛ بل يتبع بعضها بعضًا مرتبة، كلما انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى.

وهذه التلاوة وسيلة وطريقة. والمقصود التلاوة الحقيقية وهي تلاوة المعنى واتّباعه تصديقًا بخبره، وائتمارًا بأمره، وانتهاءً بنهيه وائتمامًا به، حيث ما قادك انقدت معه، فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقًا.

---

(١) ٤٢ مفتاح جـ١.

[(١)] **وقوله** تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِي هُدىً﴾. هو خطاب لمن أهبطه من الجنة بقوله: ﴿اهبطا منها جميعًا بعضكم لبعض عدو﴾. ثم قال: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾. وكلا الخطابين لأبوي الثقلين، وهو دليل على أن الجن مأمورون منهيون داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة، وأن نبينا بُعث إليهم كما بعث إلى الإنس، كما لا خلاف بينهم أن مسيئهم مستحق العقاب.

إنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة، فالجمهور على أن مُحسنهم في الجنـة، كما أن مسيئهم في النار، وقيل: بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس، وإنما هي لبني آدم وصالحي ذريته خاصة. وحُكي هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى.

واحتج الأولون بوجوه:

أحدها: هذه الآية فإنه سبحانه أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى، وهذا مستلزم لكمال النعيم.

ولا يقال: إن الآية إنما تدل على نفي العذاب فقط، ولا خلاف أن مؤمنيهم لا يعاقبون. . لأنا نقول: لو لم تدل الآية إلا على أمر عدمي فقط لم يكن مدحًا لمؤمني الإنس، ولما كان فيها إلا مجرد أمر عدمي وهو عدم الخوف والحزن، ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها إنما أريد به: أن من اتّبع هدى الله الذي أنزله حصل له غاية النعيم واندفع عنه غاية الشقاء، وعبّر عن هذا المعنى المطلوب بنفي الأمور المذكورة؛ لاقتضاء الحال لذلك فإنه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل، فأخبره سبحانه أنه معطيه وذريته عهدًا؛ من اتبعه منهم انتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء. ومعلوم أنه لا ينتفي ذلك كله إلا بدخول دار النعيم، ولكن المقام بذكر التصريح بنفي غاية المكروهات أولى.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وإذ صرَفْنَا إليْكَ نفَرًا مِن الجنّ يَسْتَمِعُون القرآن فلَمَّا حَضَرُوه قالوا أنْصِتُوا فلَمَّا قُضِيَ ولَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرين، قَالُوا يا قَوْمَنَا إنَّا سَمِعْنا كِتَابًا أُنْزِل مِن بَعْد موسى مُصَدقًا لِمَا بَين يَدَيْه يَهْدِي إلى الحَق وإلى طَرِيق مُسْتَقِيم، يَا قَوْمَنَا أجيبوا دَاعِي الله وآمِنُوا بِه يَغْفِرْ لَكُمْ من ذُنُوبِكم وَيجِرْكُم مِن عَذَاب أليم﴾. [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١].

(١) ٣٧ مفتاح جـ١.

فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم إخبارًا(١) بقوله: إن من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب، ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلاً بقوله: ﴿وَيُجِرْكُم مِن عَذَابٍ أليم﴾. [الأحقاف: ٣١]. بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار، فكل من غفر الله له فلا بد من دخوله الجنة.

الثالث: قوله تعالى في الحور العين: ﴿لَمْ يَطْمِثهن إنْسٌ قَبْلَهُم ولا جَانٌّ﴾. [الرحمن: ٧٤]. فهذا يدل على أن مؤمني الجن والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور، فدل على أن مؤمنيهم يتأتّى منهم طمث الحور العين بعد الدخول كما يتأتى من الإنس، ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الإخبار عنهم بذلك.

الرابع: قوله تعالى: ﴿فَإنْ لَّم تَفْعَلوا ولَن تَفْعَلوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَتِي وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّت للكافِرين وبَشِّرِ الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمرةٍ رِزْقًا قَالوا هَذا الذي رُزِقْنا من قَبْل وأُتُوا بِه مُتَشَابِهًا وَلَهُم فِيها أزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فيها خَالِدُون﴾. [البقرة: ٢٤، ٢٥]. والجن منهم مؤمن ومنهم كافر، كما قال صالحوهم: ﴿وأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُون وَمِنَّا القَاسِطُون﴾. فكما دخل كافرهم في الآية الثانية، وجب أن يدخل مؤمنهم في الأولى.

الخامس: قوله عن صالحيهم: ﴿فَمَن أَسْلَم فأولئك تَحَرَّوا رَشَدًا﴾. [الجن: ١٤]. والرشد هو الهدى والفلاح، وهو الذي يهدي إليه القرآن، ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد؛ بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العلم.

السادس: قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إلى مَغْفرةٍ من رَبِّكُم وجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّماء والأرْض أُعِدَّت للذين آمَنُوا بالله وَرُسُلِه ذلك فَضْل الله يُؤتِيْه مَنْ يَشاء والله ذُو الفَضْلِ العظيم﴾. [الحديد: ٢١]. ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله، فيدخل في المبشرين ويستحق البشارة.

السابع: قوله تعالى: ﴿والله يَدْعُو إلى دَارِ السلام وَيَهْدِي مَنْ يشاء إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾. [يونس: ٢٥].

عم سبحانه بالدعوة، وخص بالهداية المفضية إليها، فمن هداه إليها، فهو ممن دعاه إليها، فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين إليها.

---

(١) لعلها: (إخبارًا مقررًا له أن). ج.

الثامن: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جَمِيعًا يا مَعْشَر الجِنِّ قد اسْتَكْثَرْتُم من الإنس وَقَال أَوْلِيَاؤهم من الإِنس رَبَّنا اسْتَمتع بعضُنا بِبَعْضٍ وبَلغنا أجلَنا الذي أَجَّلْت لنـا قَال النَّارُ مَثْوَاكم خَالِدِين فيها إلا ما شاء الله إنَّ رَبَّك حكيمٌ عليم وكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْض الظالمين بعضًا بِمَا كَانوا يَكْسِبُون يَا مَعْشَر الجِنِّ والإِنْس أَلَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنْكُم يَقُصُّون عَلَيكم آيَاتي ويُنْذِرُونَكم لِقَاء يَوْمِكُم هَذا قَالوا شَهِدْنا على أَنْفُسِنَا وغَرَّتْهُم الحَيَاة الدُّنْيَا وشَهِدُوا على أَنْفُسِهم أَنَّهُم كَانُوا كَافِرين ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّك مُهْلِك القُرَى بِظُلم وأَهْلُهَا غَافِلُون وَلِكُلٍّ دَرجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾.
[الأنعام: ١٢٨ ـ ١٣٢].

وهـذا عام في الجن والإنس، فأخـبرهم تعـالى أن لكلهم درجات من عمله فاقتضى أن يكون لمحسنهم درجات من عمله كما لمحسن الإنس.

التاسـع: قولـه تعـالى: ﴿إنَّ الذين قَالُوا رَبُّنا الله ثُم اسْتَقَامُوا تَتنزَّل عَلَيْهِم المَلائكة أَنْ لا تَخَافُوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بالجَنَة التِي كُنْتُم تُوعَدُون﴾. [فصلت: ٣٠].
وقـوله تعالى: ﴿إنَّ الذين قَالوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُون أولئك أَصْحَابُ الجَنَّة خَالِدِين فيها جَزاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾[الأحقاف: ١٣، ١٤].

ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة:

أحدها: عموم الاسم الموصول فيها.

الثاني: ترتيبه الجزاء المذكور على المسألة ليدل على أنه مستحق بها، وهو قول: ﴿ربنا الله﴾ مع الاستقامة: والحكم يعم بعموم علته فإذا كان دخول الجنة مرتبًا على الإقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره، فمن أتى ذلك استحق الجزاء.

الثالث: أنه قال: ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُون أولئك أصحابُ الجَنَّة خَالِدين فيها جَزاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾. [الأحقاف: ١٣، ١٤]. فدل على أن كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة، وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالى: ﴿فَمَن اتَّبع هُدَايَ فلا خَوفٌ عَلَيْهِم ولا هم يَحْزنون﴾. وأنَه متناول للفريقين، ودلّت هذه الآية على أن من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

العاشر: أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله، فدخول محسنهم الجنة بفضله ورحمته أولى، فإن رحمته سبقت غضبه والفضل أغلب من العدل، ولهذا لا يدخل النار إلا من عمل أعمال أهل النار، وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيرًا قط؛ بل

ينشيء لها أقوامًا يسكنهم إياها من غير عمل عملوه ويرفع فيها درجات العبد من غير سعي منه، بل بما يصل إليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها إليه، بخلاف أهل النار فإنه لا يعذب فيها بغير عمل أصلاً.

وقد ثبت بنص القرآن وإجماع الأمة أن مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون، فمحسنهم في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون.

لكن قيل: إنهم يكونون في ربض الجنة يراهم أهل الجنة ولا يرونهم، كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف تنقطع الحجة عنده، فإن ثبتت حجة يجب اتباعها، وإلا فهو مما يحكى ليعلم وصحته موقوفة على الدليل، والله أعلم.

(١)**قال الله تعالى: ﴿واسْتَعِينوا بالصَبْرِ والصلاةِ، وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين﴾**. [البقرة: ٤٥]. وقال: **﴿يا أيُّها الذين آمنوا استعينوا بالصبرِ والصلاةِ، إنَّ الله مع الصابرين﴾**. [البقرة: ١٥٣].

وقال تعالى: **﴿وَأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عليها، لا نَسْألُك رزقًا، نحنُ نرزقُك، والعاقِبَةُ للتَّقوى﴾**. [طه: ١٣٢].

وفي السنن: «**كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة**» وقد تقدم ذكر الاستشفاء بالصلاة من عامة الأوجاع قبل استحكامها، والصلاة مجلبة للرزق حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدَّة للقوى، شارحة للصدر مغذية للروح، منورة للقلب. حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مبعدة من الشيطان، مقربة من الرحمن.

وبالجملة: فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب وقواهما، ودفع المواد الرديئة عنهما. وما ابتلي رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بلية، إلا كان حظ المصلي منهما أقل. وعاقبته أسلم، وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهرًا وباطنًا، فما اسْتُدْفِعَتْ شرورُ الدنيا والآخرة، ولا اسْتُجْلِبَتْ مصالحُها بمثل الصلاة.

وسر ذلك: أن الصلاة صلة بالله عز وجل، وعلى قدر صلة العبد بربه عز

---

(١) ٣٦٢ زاد المعاد جـ٣.

وجل، تفتح عليه من الخيرات أبوابها. وتقطع عنه من الشرور أسبابها. وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه عز وجل، والعافية والصحة والغنيمة والغنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات كلها مُحضرة لديه، ومسارعة إليه.

[1]**وهو**[2] أكبر العون على نيل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿**واسْتَعِينوا بِالصَبر والصَّلاة. وإنها لكَبِيرة إلا عَلى الخَاشعين**﴾. [البقرة: ٤٥].

[3]**ثبت** في الصحيحين عنه ﷺ، أنه قال: «**فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**» والثريد - وإن كان مركبًا - فإنه مركب من خبز ولحم، فالخبز أفضل الأقوات، واللحم سيد الإدام، فإذا اجتمعا لم يكن بعدهما غاية.

وتنازع الناس: أيهما أفضل؟ والصواب: أن الحاجة إلى الخبز أكثر وأعم، واللحم أجل وأفضل، وهو أشبه بجوهر البدن من كل ما عداه، وهو طعام أهل الجنة، وقد قال تعالى، لمن طلب البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل: ﴿**أتَسْتبدِلون الذي هُوَ أدْنَى بالذي هُوَ خيْرٌ؟**﴾. [البقرة: ٦١].

وكثير من السلف على أن الفوم: الحنطة. وعلى هذا: فالآية نص على أن اللحم خير من الحنطة. اهـ.

[4]ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة وكيده لهم

أنهم قيل لهم[5]، وهم مع نبيِّهم، والوحيُ ينزلُ عليه من الله تعالى: ﴿**ادخلوا هذه القرية**﴾. [البقرة: ٥٨].

قال قتادة، وابن زيد، والسُّدي، وابن جرير وغيرهم: هي قريةُ بيت المقدس ﴿**فَكلوا مِنْها حَيْثُ شِئتم رَغدًا**﴾. أي: هنيئًا واسعًا ﴿**وادْخُلوا الباب سُجَّدًا**﴾ قال السُّدِّي: هو بابٌ من أبواب بيت المقدس. وكذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى

---

(١) ٣١٧ مدارج جـ٢. وقد بحث الشيخ في زاد المعاد بحثًا واسعًا ذكر فوائده الدينية والدنيوية ص٣٦٧ جـ٣.

(٢) وهو، أي: الصبر.

(٣) ٣٧٧ زاد المعاد جـ٣.

(٤) ٣٠٨ إغاثة جـ٢.

(٥) لهم، أي: اليهود.

عنهما قال: والسجود بمعنى الركوع. وأصلُ السجود: الانحناءُ لمن تعظمه. فكل منحنٍ لشيء تعظيمًا له فهو ساجدٌ. قاله ابن جرير وغيره.

قلت: وعلى هذا فانحناء المتلاقيين عند السلام، أحدهما لصاحبه من السجود المحرَّم. وفيه نهيٌ صريحٌ عن النبي ﷺ.

ثم قيل لهم: ﴿قُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: حُطَّ عنَّا خطايانا. هذا قول الحسن، وقتادة، وعطاء.

وقال عكـرمة وغيره: أي قولوا: «لا إله إلا الله» وكأن أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تحطُّ بها الخطايا. وهي كلمة التوحيد.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «أمروا بالاستغفار».

وعلى القولين: فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار، وضمن لهم بذلك مغفرة خطاياهم. فتلاعب الشيطان بهم، فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، وفعلاً غير الذي أمروا به.

فروى البخاري في صحيحه، ومسلم أيضًا: من حديث همَّام بن منبِّه، عن أبي هريرة رضي الله تعـالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سُجَّدًا وقولوا حطَّة، نغفر لكم خطاياكم، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة. فبدلوا القول والفعل معًا. فأنزل الله عليهم رجزًا من السماء**»(١)

قال أبوالعالية: هو الغضبُ. وقال ابن زيدٍ: هو الطاعون(٢).

وعلى هذا، فالطاعونُ بالرصدِ لمن بَدَّل دين الله قولاً وعملاً.

---

(١) رواه البخاري في قصة موسى من أحاديث الأنبياء. وفي تفسير سورة البقرة. وتفسير سورة الأعراف.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية من سورة البقرة. وروى ابن أبي حاتم عن سعد بن مالك، وأسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «**الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم**» وهكـذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري به، وأصل الحديث في الصحيحين من حديث حبيب بن أبي ثابت «**إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها**» ـ الحديث.

فصــل ومن تلاعب الشيطان بهم

أنهم كانوا في البرِّية قد ظلل عليهم الغمامُ، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملُّوا ذلك، وذكروا عيش الثُّوم والبصل، والعدس، والبقل، والقِثَّاء. فسألوه موسى عليه السلام.

وهذا من سوءِ اختيارهم لأنفسهم، وقلَّة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها. ولهذا قال لهم موسى عليه السلام **﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خَيْرٌ؟ اهبطوا مِصْرًا﴾**. أي: مصرًا من الأمصار(١) **﴿فَإن لكم مَاسألتُمْ﴾**. [البقرة: ٦١].

فكانوا في أفسح الأمكنة وأوسعها، وأطيبها هواء، وأبعدها عن الأذى، ومجاورة الأنتــان والأقــذار، سقفهم الــذي يظلهم من الشمس: الغــمام، وطعــامهم: السلوى: وشرابهم: المنّ.

قال ابن زيدٍ: كان طعامُ بني إسرائيل في التيه واحدًا، وشرابهم واحدًا. كان

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالى **﴿اهبطوا مِصْرًا﴾** هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف واللام في المصاحف الأئمة العثمانية. وهو قراءة الجمهور بالصرف. قال ابن جرير: ولا أستجيز القراءة بغير ذلك، لإجماع المصاحف على ذلك. وقال ابن عباس «اهبطوا مصر من الأمصار» رواه ابن أبي حاتم. قال: وروي عن السدي وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك. وقال ابن جرير: وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود: **﴿اهبطوا مِصْرَ﴾ من غير إجراء، يعني من غير صرف. ثم روي عن أبي العالية والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون. وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية والربيع وعن الأعمش أيضًا. قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون، على قراءة الإجراء أيضًا. ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف، كما في قوله تعالى: ﴿قواريرًا قواريرًا﴾** [الإنسان: ١٥، ١٦]. ثم توقف في المراد: ما هو؟ أمصر فرعون أم مصر من الأمصار؟ وهذا الذي قاله فيه نظر. والحق أن المراد مصر من الأمصار ا. هـ. وقال الزمخشري: وإنما صرفه مع اجتماع السببين فيه ـ وهما التعريف والتأنيث ـ لسكون وسطه. كقوله: (ونوحًا ولوطًا) وفيهما العجمة والتعريف. وإن أريد به البلد فما فيه إلا سبب واحد، وأنه يريد مصرًا من الأمصار اهـ. ورجح ابن جرير في تفسيره أن يكون مصر المعروفة. لقوله تعالى: **﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾** [الشعراء٥٩]. يعني مصر. وهو الأظهر؛ لأن تلك الأطعمة إنما كان يعرفها بنو إسرائيل في مصر التي كانوا فيها في مصر ليتمتعوا بألوان الأطعمة. وأن ذلك أعظم نقيصة وعيب في الإنسان أن يهتم ببطنه وإن باع لها عزته وشرفه وحريته. والأمة التي تصاب بذلك أولى بها الموت، بل الموت خير من حياة هذه الأمة الحقيرة الذليلة التي لا تهتم إلا لبهيميتها. فالأولى أن يكون المراد مصر المعروفة التي كانوا بها يسومهم فرعون فيها العذاب، قبل أن ينقذهم الله بموسى منها.

شرابُهم عسلًا ينزل من السماء، يقال له: المن. وطعامهم طيرٌ، يقال له: السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل. لم يكن لهم خبز ولا غيره.

ومعلوم فضلُ هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الأغذية والأشربة.

وكانوا مع ذلك يتفجر لهم من الحجر اثنا عشر عينًا من الماء. فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير. فذموا على ذلك. فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغيَّ بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والبدعة بالسنة[1]، وخدمة المخلوق بخدمة الخالق، والعيش النَكِد الفاني في هذه الدار بحظه من العيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى؟!

[2]فصل في الصابئة

وقد اختلف الناس فيهم اختلافًا كثيرًا، وأشكل أمرهم على الأئمة لعدم الإحاطة بمذهبهم ودينهم، فقال الشافعي رحمه الله تعالى: هم صنف من النصارى.

وقال في موضع: يُنظَر في أمرهم، فإن كانوا يوافقون النصارى في أصل الدين، ولكنهم يخالفونهم في الفروع، فتؤخذ منهم الجزية؛ وإن كانوا يخالفونهم في أصل الدين لم يُقَرّوا على دينهم ببذل الجزية.

واختلف أصحابه؛ فقال أبوسعيد الأصطخري: ليسوا من النصارى، ولا يجوز إقرارهم على دينهم. قال: لأنهم يقولون: إن الفلك حي ناطق، وإن الكواكب السبعة آلهة، فهم في حكم عَبَدة الأوثان.

واستفتى القاهر بالله العباسي الفقهاء فيهم، فأفتاه أبوسعيد أنهم لا يُقرُّون، فأمر بقتلهم، فبذلوا مالًا عظيمًا فتركهم.

وأما أقوال السلف فيهم، فذكر سفيان، عن ليث، عن مجاهد قال: هم قوم بين اليهود والمجوس ليس لهم دين.

وفي تفسير شيبان، عن قتادة قال: الصابئة قوم يعبدون الملائكة.

قال محمد بن جرير: واختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم من أهل

---

(١) بالنسخة: (والسنة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى بحظه من العيش النكد الفاني في هذه الدار). والصواب: ما أثبتناه؛ لأن الصحيح في اللغة هو دخول الباء على المتروك كما قال من قبل: الضلال بالهدى، والغيّ بالرشاد، والشرك بالتوحيد. والمفهوم: بل المراد: أنهم تركوا السنة، وخدمة الخالق، والعيش الطيب. كما تركوا الهدى، والرشاد، والتوحيد. المراجع.

(٢) ١٩٢ أحكام جـ١.

الملل، فقال بعضهم: يلزم كل من خرج من دين إلى دين غير دينه. وقالوا: الذي عنى الله بهذا الاسم قوم لا دين لهم، ثم ذكر عن عبدالرزاق، عن سفيان، عن ليث، عن مجاهد قال: الصابئون قوم ليسوا يهود ولا نصارى ولا دين لهم.

وحكي عن حجاج، عن مجاهد قال: الصابئون بين المجوس واليهود، لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: الصابئون زعموا أنهم ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارى، قال: قد سمعنا ذلك.

وقال ابن وهب: قال ابن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي، إلا قول: لا إله إلا الله. قال: ولم يؤمنوا برسول الله عز وجل، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ، وأصحابه: هؤلاء الصابئون! يشبهونهم بهم.

وقال سعيد، عن قتادة: هم يعبدون الملائكة ويصلون [إلى] القبلة ويقرءُون الزبور.

وقال سفيان، عن السدي: هم طائفة من أهل الكتاب.

وقال ابن جرير: الصابىء المستحدث سوى دينه دينًا، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه؛ وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب صابئًا، يقال منه: صبأ فلان يصبأ صبأ، ويقال: صبأت النجوم إذا طلعت، وصبأ علينا فلان إذا طلع.

قلت: الصابئة أمة كبيرة، فيهم السعيد والشقي، وهي إحدى الأمم المنقسمة إلى مؤمن وكافر، فإن الأمم قبل مبعث النبي ﷺ، نوعان:

نوع كفار أشقياء كلهم، ليس فيهم سعيد، كعبدة الأوثان والمجوس.

ونوع منقسمون إلى سعيد وشقي، وهم اليهود والنصارى والصابئة.

وقد ذكر الله سبحانه النوعين في كتابه فقال: **﴿إنَّ الذين آمَنُوا والذين هَادُوا والنَّصارى والصَّابئِين مَن آمن بالله واليَوْم الآخِرِ وَعَمِل صَالِحًا فَلَهُم أجْرُهم عِنْدَ رَبهِم ولا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُون﴾**. [البقرة: ٦٢]. وكذلك قال في المائدة.

وقال في سورة الحج: **﴿إنَّ الذين آمَنُوا والذين هَادُوا والصَّابئِين والنَّصَارى والمَجُوسَ والذين أشْرَكُوا إن الله يَفْصِلُ بَيْنَهُم يومَ القيامة، إنَّ اللهَ على كل شيءٍ شهيدٌ﴾**. [الحج: ١٧].

فلم يقل هاهنا: من آمن منهم[1] بالله واليوم الآخر، لأنه ذكر معهم المجوس والذين أشركوا، فذكر ست أمم: منهم اثنتان شقيتان، وأربع منهم منقسمة إلى شقي وسعيد، وحيث وعد أهل الإيمان والعمل الصالح منهم بالأجر؛ ذكرهم أربع أمم ليس إلا. ففي آية الفصل بين الأمم أدخل معهم الأمتين، وفي آية الوعد بالجزاء لم يدخلهما[2] معهم، فعلم أن الصابئين فيهم المؤمن والكافر، والشقي والسعيد، وهذه أمة قديمة قبل اليهود والنصارى، وهم أنواع: صابئة حنفاء، وصابئة مشركون.

وكانت حران دار مملكة هؤلاء قبل المسيح، ولهم كتب وتآليف وعلوم.

وكان في بغداد منهم طائفة كبيرة: منهم إبراهيم بن هلال الصابيء صاحب «الرسائل»، وكان على دينهم، ويصوم رمضان مع المسلمين. وأكثرهم فلاسفة، ولهم مقالات مشهورة ذكرها أصحاب المقالات.

وجملة أمرهم أنهم لا يكذبون الأنبياء ولا يوجبون اتباعهم.

وعندهم أن من اتبعهم فهو سعيد ناج، وأن من أدرك بعقله ما دعوا إليه فوافقهم فيه وعمل بوصاياهم، فهو سعيد وإن لم يتقيد بهم.

فعندهم: دعوة الأنبياء حق، ولا تتعين طريقًا للنجاة، وهم يقرون أن للعالم صانعًا مدبرًا حكيمًا منزهًا عن مماثلة المصنوعات، ولكن كثيرًا منهم أو أكثرهم قالوا: نحن عاجزون عن الوصول إلى جلاله بدون الوسائط، والواجب التقرب إليه بتوسط الروحانيين المقدسين المطهرين عن المواد الجسمانية، المبرئين عن القوى الجسدية، المنزهين عن الحركات المكانية والتغييرات الزمانية، بل قد جبلوا على الطهارة، وفطروا على التقديس.

قالوا: وإنما أرشدنا إليهم معلمنا الأول «هرمس» فنحن نتقرب إليهم وبهم. وهم آلهتنا وشفعاؤنا عند رب الأرباب وإله الآلهة، فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن الشبهات الطبيعية، ونهذّب أخلاقنا عن علائق القوة العصبية، حتى تحصل المناسبة بيننا وبين الروحانيات، فحينئذ نسأل حاجاتنا منهم، ونعرض أحوالنا

---

(١) ما ذكره الشيخ ابن القيم يلفت النظر؛ حيث لم يكن في الآيات الأولى ذكر (منهم) فلا أدري كيف هذا؟ ج.

(٢) بالنسخة (يدخلها) والصواب ما أثبتناه؛ لأنه يتحدث عن أمتين هما: المجوس، والذين أشركوا. المراجع.

عليهم، ونصبو في جميع أمورنا إليهم، فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم، ورازقنا ورازقهم. وهذا التطهير والتهذيب لا يحصل إلا برياضتنا وفطام أنفسنا عن دنيات الشهوات: وذلك إنما يتم بالاستمداد من جهة الروحانيات. والاستمداد هو التضرع والابتهال بالدعوات، وإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والصيام عن المطعومات والمشروبات.

(١)**وأما** الصابئة فأهل حران وكثير من بلاد الروم، وأما المشركون فجزيرة العرب جميعها وبلاد الهند وبلاد الترك وما جاورها، وأديان أهل الأرض لا تخرج عن هذه الأديان الخمسة، ودين الحنفاء لا يعرف فيهم ألبتة، وهذه الأديان الخمسة كلها للشيطان.

كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الأديان ستة: واحد للرحمن وخمسة للشيطان. وهذه الأديان الستة مذكورة في آية الفصل في قوله تعالى: **﴿إنَّ الذين آمَنُوا وَالذِّين هَادُوا والصَّابئِين والنَّصارى والمَجُوْسَ والذين أشْرَكُوا إن الله يَفْصِلُ بيْنَهُم يَوْمَ القِيامَة إنَّ الله على كلِّ شيءٍ شَهيدٌ﴾**. [الحج: ١٧].

فلما بعث الله رسوله ﷺ، استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعًا واختيارًا، ولم يكره أحدًا قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالاً لأمر ربه سبحانه حيث يقول: **﴿لا إكْرَاه في الدِّينِ قد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِن الغَيِّ﴾**. [البقرة: ٢٥٦].

وهذا نفي في معنى النهي، أي: لا تكرهوا أحدًا على الدين، نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام.

والصحيح أن الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوّز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين، بل إما أن يدخلوا في الدين وإما أن يعطوا الجزية كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان.

---

(١) ١١ هداية.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ، تبين له أنه لم يكره أحدًا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فلم يقاتله مادام مقيمًا على هدنته لم ينقض عهده؛ بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له كما قال تعالى: ﴿**فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم**﴾. [التوبة: ٧].

ولما قدم المدينة صالَح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدءوه بالقتال قاتلهم، فمنَّ على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقتل بعضهم.

وكذلك لما هادن قريشًا عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدءوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضًا هم جاءُوا لقتاله ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم.

والمقصود أنه ﷺ، لم يُكره أحدًا على الدخول في دينه ألبتة، وإنما دخل الناس في دينه اختيارًا وطوعًا، فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته لما تبين لهم الهدى وأنه رسول الله حقًّا.

فهؤلاء أهل اليمن كانوا على دين اليهودية، أو أكثرهم. كما قال النبي ﷺ، لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة: أن لا إله إلا الله**» وذكر الحديث.

ثم دخلوا في الإسلام من غير رغبة ولا رهبة، وكذلك من أسلم من يهود المدينة، وهم جماعة كثيرون غير عبدالله بن سلام، مذكورون في كتب السير والمغازي . . .

(١)**أمر** الله سبحانه وتعالى بتلقي أوامره بالعزم والجد. فقال: ﴿**خُذوا ما آتَيْنَاكُم بقُوَّةٍ**﴾. [الأعراف: ١١٧]. وقال: ﴿**وكتبنا له في الألواح من كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ. فخُذْها بقوَّةٍ**﴾. [الأعراف: ١٤٥]. وقال: ﴿**يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوَّةٍ**﴾. [مريم: ١٢]. أي: بجد واجتهاد وعزم. لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور.

---

(١) ٤٧٠ مدارج جـ١.

[1]ومن تلاعبه بهذه الأمة أيضًا

ما قصه الله تعالى علينا («٢ :٦٥، ٦٦ و٤ : ٤٧ ، ١٥٤ و٧ :١٦٣ - ١٦٧و ١٦ : ١٢٤») من قصة أصحاب السبت، حتى مسخهم قِرَدةً لما تحيَّلوا على استحلال محارم الله تعالى.

ومعلوم أنهم كانوا يعصون الله تعالى بأكل الحرام، واستباحةِ الفروجِ الحرامِ، والدم الحرامِ. وذلك أعظم إثمًا من مجرد العمل يوم السبت. ولكن لما استحلُّوا محارمَ الله تعالى بأدنى الحيل، وتلاعبوا بدينه، وخادعوه مخادعة الصبيان، ومسخوا دينه بالاحتيال، مسخهم الله تعالى قردَةً. وكان الله تعالى قد أباح لهم الصيد في كل أيام الأسبوع إلا يومًا واحدًا، فلم يدعهم حرصُهم وجشعهم حتى تعدَّوا إلى الصيد فيه، وساعد القدر بأن عوقبوا بإمساك الحيتان عنهم في غير يوم السبت، وإرسالها عليهم يوم السبت، وهكذا يفعل الله سبحانه بمن تعرض لمحارمه، فإنه يرسلها عليه بالقدر تزدلف إليه بأيِّها يبدأ.

فانظر ما فعل الحرص، وما أوجب من الحرمان بالكلية. ومن ههنا قيل: من طلبهَ كلَّه فاته كلُّه.

[2]**قال** الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُم الذين اعْتَدَوا مِنْكُم في السَّبْتِ**﴾. [البقرة:٦٥]. قال: رَمَوُا الحيتان في السبت، ثم أرجؤوها في الماء، فاستخرجوها بعد ذلك، فطبخوها فأكلوها ـ والله ـ أوخَمَ أكلةٍ، أسرعت في الدنيا عقوبة وأسرعت عذابًا في الآخرة، والله ما كانت لحوم الحيتان تلك بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين، إلا إنه عَجَّلَ لهؤلاء وأخر لهؤلاء.

وقوله: «رموها في السبت». يعني: احتالوا على وقوعها في الماء يوم السبت، كما بين غيره أنهم حفروا لها حياضًا ثم فتحوها عشية الجمعة، ولم يرد أنهم باشروا رميها يوم السبت؛ إذ لو اجترءوا على ذلك لاستخرجوها.

قال شيخنا: وهؤلاء لم يكفروا بالتوراة وبموسى، وإنما فعلوا ذلك تأويلًا

(١) ٣١٧ إغاثة جـ٢. (٢) ١٧٤ أعلام جـ٣.

واحتيالاً، ظاهرهُ ظاهرُ الاتقاء وحقيقته حقيقة الاعتداء، ولهذا - والله أعلم - مسخوا قردة؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مَسَخَ أولئك المعتدون دين الله؛ بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته؛ مسخهم الله قردة تشبه الإنسان في بعض ظاهره دون الحقيقة، جزاء وفاقًا.

ويقوي ذلك أن بني إسرائيل أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل، وهو أعظم من أكل الصيد في يوم بعينه، ولم يعاقب أولئك بالمسخ كما عُوقب به من استحل الحرام بالحيلة؛ لأن هؤلاء لما كانوا أعظم جرمًا كانت عقوبتهم أعظم، فإنهم بمنزلة المنافقين يفعلون ما يفعلون ولا يعترفون بالذنب؛ بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم، بخلاف من أكل الربا وأموال الناس بالباطل والصيد المحرم عالمًا بتحريمه، فإنه يقترن بمعصيته اعترافُه بالتحريم وخشيته لله واستغفاره وتوبته يوماً ما، واعترافه بأنه مذنب عاصٍ، وانكسار قلبه من ذل المعصية، وازدراؤه على نفسه، ورجاؤه لمغفرة ربه له، وعد نفسه من المذنبين الخاطئين، وهذا كله إيمان يُفضي بصاحبه إلى خير، بخلاف الماكر المخادع المحتال على قلب دين الله، ولهذا حَذَّر النبي ﷺ أمته من ارتكاب الحيل فقال: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل**».

وقد أخبر الله تعالى أنه جعل هذه القرية أو هذه الفعلة التي فعلها بأهلها، نَكَالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين.

فحقيق بمن اتقى الله وخاف نكاله أن يحذر استحلال محارم الله بأنواع المكر والاحتيال، وأن يعلم أنه لا يخلصه من الله ما أظهره مكرًا وخديعة من الأقوال والأفعال، وأن يعلم أن لله يومًا تكع فيه الرجال، وتنسف فيه الجبال، وتترادف فيه الأهوال، وتشهد فيه الجوارح والأوصال، وتبلى فيه السرائر، وتظهر فيه الضمائر، ويصير الباطن فيه ظاهرًا، والسر علانية، والمستور مكشوفًا، والمجهول معروفًا، ويُحصّل ويبدو ما في الصدور، كما يبعثر ويخرج ما في القبور، وتجري أحكام الرب تعالى هنالك على القصود والنيات، كما جرت أحكامه في هذه الدار على ظواهر الأقوال والحركات، يوم تَبْيَضُّ وجوه بما في قلوب أصحابها من النصيحة لله ورسوله وكتابه، وما فيها من البر والصدق والإخلاص للكبير المتعال، وتسوَدُّ وجوه بما في

قلوب أصحابها من الخديعة والغش والكذب والمكر والاحتيال، هنالك يعلم المخادعون أنهم لأنفسهم كانوا يخدعون، وبدينهم كانوا يلعبون، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون.

(١)**ومن** تلاعبه بهم في حياة نبيهم أيضًا ما قصّه الله سبحانه وتعالى: في كتابه «٢(٢): ٦٧ - ٧٤» من قصة القتيل الذي قتلوه وتدافعوا فيه، حتى أمروا بذبح بقرة وضربه ببعضها. وفي هذه القصة أنواع من العِبَرِ:

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدْل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدي، وإعذارًا وإنذارًا للضالِّ.

ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: أعتق رقبة، وأطعم مسكينًا، وصُم يومًا، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، فإن الآية غنية عن البيان المنفصل، مبيّنة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شُدِّد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير، عن الربيع، عن أبي العالية: **«لو أن القوم حين أُمروا أن يذبحوا بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إيَّاها. ولكنهم شدَّدوا**

---

(١) ٣١٤ إغاثة جـ٢.

(٢) الرقم يعني سورة البقرة.

على أنفسهم فشدَّد الله عليهم».

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجهَ الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر. فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إنَّ الله يأمُركم أن تذبحوا بقرة﴾. [البقرة:٦٧]. قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أتَتَّخذُنَا هُزُوًا؟﴾. فلما لم يعلموا وجهَ الحكمةِ في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه، قالوا: ﴿أتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟﴾ وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله. فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به. ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك. فلما قال لهم: ﴿أعوذُ بالله أنْ أكون من الجاهلين﴾ وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولوْنها. فلما أُخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها. فلما تعينَتْ لهم ولم يبق إشكالٌ، توقفوا في الامتثال ولم يكادوا يفعلون[1].

---

(١) قال أبو جعفر بن جرير: وهذه الأقوال التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه من الصحابة والتابعين والخالفين بعدهم، من قولهم: إن بني إسرائيل لو كانوا أخذوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم؛ من أوضح الدلالة على أن القوم كانوا يرون أن حكم الله فيما أمر ونهى في كتابه وعلى لسان رسول الله ﷺ على العموم الظاهر، دون الخصوص الباطن، إلا أن يخص بعض ما عمه ظاهر التنزيل كتاب من الله أو رسول الله، وأن التنزيل أو الرسول إن خص بعض ما عمه ظاهر التنزيل بحكم خلاف مادل عليه الظاهر. فالمخصوص من ذلك خارج من حكم الآية التي عمت ذلك الجنس خاصة، وسائر حكم الآية على العموم، على نحو ما قد بيناه في كتابنا «كتاب الرسالة من لطيف القول في البيان عن أصول الأحكام» ـ في قولنا في العموم والخصوص ـ وموافقة قولهم في ذلك قولنا ومذهبهم مذهبنا، وتخطئتهم قول القائلين بالخصوص في الأحكام وشهادتهم على فساد قول من قال: حكم الآية الجائية مجيء العموم على العموم مالم يختص منها بعض ماعمته الآية. فإن خص منها بعض فحكم الآية حينئذ على الخصوص فيما خص منها وسائر ذلك على العموم وذلك أن جميع من ذكرنا قوله آنفًا ممن عاب على بني إسرائيل مسألتهم نبيهم عن صفة البقرة التي أمروا بذبحها وسنها وحليتها؛ رأوا أنهم كانوا في مألتهم رسول الله موسى ذلك مخطئين، وأنهم لو كانوا استعرضوا أدنى بقرة من البقر إذ أمروا بذبحها بقوله: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾. [البقرة: ٦٧]. فذبحوها كانوا للواجب عليهم من أمر الله في ذلك مؤدين، وللحق مطيعين. إذ لم يكن القوم حصروا على نوع من البقر دون نوع وسن دون سن. ورأوا مع ذلك أنهم إذا سألوا موسى عن سنها فأخبرهم عنها وحصرهم منها على سن دون سن، ونوع دون نوع، وخص من جميع أنواع البقر نوعاً منها، كانوا في مسألتهم إياه في المسألة الثانية بعد الذي خص لهم من أنواع البقر من الخطأ على مثل الذي كانوا عليه من الخطأ في مسألتهم إياه المسألة الأولى. وكذلك رأوا أنهم في المسألة الثالثة ـ على مثل الذي كانوا عليه من ذلك في الأولى والثانية. وأن اللازم كان لهم ⟵

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم: قولهم لنبيهم: ﴿**الآن جئتَ بالحق**﴾ فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردَّة وكفر ظاهر. وإن أرادوا: أنك الآن بَيَّنتَ لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها. فذلك جهلٌ ظاهر. فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿**إن الله يَأمُرُكُم أنْ تَذْبَحُوا بَقَرةً**﴾. [البقرة:٦٧] فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل. ولا في المذبوح. فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

قال محمد بن جرير: وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسى: ﴿**الآن جئْتَ بالحق**﴾ وزعم أن ذلك نفيٌ منهم أن يكون موسى عليه السلام أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، قال: وليس الأمر كما قال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلاً منهم، وهفْوة من هفواتهم.

= في الحالة الأولى استعمال ظاهر الأمر وذبح أي بهيمة شاءوا مما وقع عليه اسم بقرة عوان لا فارض ولا بكر، ولم يروا أن حكمهم إذ خص لهم بعض البقر دون البعض في الحال الثانية انتقل عن اللازم الذي كان لهم في الحال الأولى من استعمال ظاهر الأمر إلى الخصوص.

ففي إجماع جميعهم على ما روينا عنهم من ذلك مع الرواية التي رويناها عن رسول الله ﷺ بالموافقة لقولهم؛ دليل واضح على صحة قولنا في العموم والخصوص، وأن أحكام الله جل ثناؤه في آي كتابه فيها أمر ونهي على العموم، مالم يخص ذلك مايجب التسليم له، وأنه إذا خص منه شيء فالمخصوص منه خارج حكمه من حكم الآية العامة الظاهر، وسائر حكم الآية على ظاهرها العام. ويؤيد حقيقة ماقلنا في ذلك، وشاهد عدل على فساد قول من خالف قولنا فيه.

وقد زعم بعض من عظمت جهالته، واشتدت حيرته؛ أن القوم إنما سألوا موسى ما سألوا بعد أمر الله اياهم بذبح بقرة من البقر لأنهم ظنوا أنهم أمروا بذبح بقرة بعينها خصت بذلك، كما خصت عصا موسى في معناها. فسألوه ليجليها لهم ليعرفوها. ولو كان الجاهل تدبر قوله هذا لسهل عليه ما استصعب من القول. وذلك أنه استعظم من القوم مسألتهم نبيهم ما سألوه تشددًا منهم في دينهم، ثم أضاف إليهم من الأمر ماهو أعظم مما استنكره أن يكون كان منهم. فزعم أنهم كانوا يرون أنه جائز أن يفرض الله عليهم فرضاً، ويتعبدهم بعبادة ثم لا يبين لهم مايفرض عليهم ويتعبدهم به، حتى يسألوا بيان ذلك لهم. فأضاف إلى الله تعالى ذكره ما لا يجوز إضافته إليه، ونسب القوم من الجهل إلى ما لا ينسب المجانين إليه. فزعم أنهم كانوا يسألون ربهم أن يفرض عليهم الفراض. فنعوذ بالله من الحيرة. ونسأله التوفيق والهداية.

(١)**قال** تعالى في أصحاب الطريقين: ﴿**أفَتَطْمَعُون أنْ يُؤمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كان فريقٌ مِنْهُم يسمعـون كلامَ الله ثم يحرّفـونه من بعد ما عَقَلُوه وَهُمْ يعلمون**﴾. [البقرة: ٧٥].

ثم قال في أهل الطريق الثاني: ﴿**ومِنْهُم أُميّون لا يَعْلَمُون الكِتَابَ إلا أمَاني وإنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّون**﴾. [البقرة: ٧٨].

ثم قال في المصنفين الذين يصنفون ما لا يعلم أن الرسول قاله وجاء به؛ بل يعلم أن الرسول جاء بخلافه: ﴿**فَوَيلٌ للذين يَكْتُبون الكِتَابَ بأَيْدِيهم ثم يقولون هذا من عند الله**﴾. الآية. [البقرة: ٧٩]. فهذه الطريق المذمومة التي سلكها علماء اليهـود، وقـد سلكها أشباههم من هذه الأمة تحقيقًا لقول الصادق المصدوق: «**لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبراً بشبر وذراعًا بذراع**».

وفي لفظ آخـر: «**لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقذة**» وكثير من هؤلاء الأشباه يحرفون كلام الله ويكتمونه لئلا يحتج به عليهم في خلاف أهوائهم.

فتارة يغل كتب الآثار التي فيها كلام رسول الله ﷺ وكلام أصحابه والتابعين وأئمة السنة ويمنع من إظهارها، وربما أعدمها وربما عاقب من كتبها أو وجدها عنده كما شاهدناه منهم عيانًا.

وكثير من هؤلاء يمنـع من تبليغ الأحـاديث النبـوية وتفسـير القرآن بالآثار والأخبـار، حتى إذا جاءت تفـاسير الجهمية والمعتزلة ونحوهم بالغ في مدحها، وقال: إن التحقيق فيها.

وما لم يمكنهم منعه من الكتاب والسنة وكتمانه سطوا عليه بالتحريف وتأولوه على غير تأويله، ثم يعتمدون على آثار موضوعة مكذوبة على رسول الله ﷺ وأصحابه موافقة لأهوائهم وبدعهم، فيقولون: هذا من عند الله، ويحتجون به ويضعون قواعد ابتدعوها وآراء اخترعوها ويسمونها: أصل الدين، وهي أضر شيء على الدين.

(٢) **ومن** ذلك قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إلَّا أيَّامًا مَعْدودةً قُل أتخذتُم عِندَ الله عَهدًا فَلَنْ يُخلِفَ الله عَهدَه أمْ تَقولُونَ عَلَى الله مَا لا تَعلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٨٠].

---

(١) ٣٤٩ مختصر الصواعق جـ٢.	(٢) ١٤٣ بدائع جـ٤.

فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم، وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لابد من واحد منهما. وقد تعين بطلان أحدهما؛ فلزم ثبوت الآخر، فإن قولهم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودةً﴾ خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي. فإمَّا أن يكون قولاً على الله بلا علم فيكون كاذباً، وإما أن يكون مستنداً إلى وحي من الله وعهد عهده إلى المخبر، وهذا منتفٍ قطعاً فتعين أن يكون خبراً كاذباً، قائله كاذب على الله تعالى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُم لا تَسفِكُونَ دِمَآءَكُم وَلاَ تُخرِجُونَ أنفُسَكُم مِن دِيَارِكُم ثُمَّ أَقرَرتُم وَأَنتُم تَشهَدُونَ ثُمَّ أَنتُم هَؤلاَءِ تَقتُلُونَ أنفُسَكُم وَتُخرِجُونَ فَرِيقاً مِنكُم مِن دِيَارِهِم تَظَاهَرُونَ عَلَيهِم بِالإِثمِ وَالعُدوَانِ وَإِن يَأتُوكُم أَسَارَى تُفَادُوهُم وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيكُم إِخرَاجُهُم أَفَتُؤمِنُونَ بِبَعضِ الكِتَبِ وَتَكفُرُونَ بِبَعضٍ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

فهذه حجة من الله احتج بها على أهل الكتاب؛ فإنه كان قد أخذ عليهم الميثاق: أن لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يجليه عن دياره، وأن يفدي بعضهم بعضاً من الأسر، فهذه ثلاثة عهود خالفوا منها عهدين، وأخذوا بالثالث؛ فقتل بعضهم بعضاً وأخرجه من دياره ثم فادوا أسراهم، لأن الله أمرهم بذلك، فإن كنتم قد فاديتم الأسارى لأن الله أمركم بفدائهم فلِمَ قتلتم بعضكم بعضاً وأخرجتموهم من ديارهم والله قد نهاكم عن ذلك؟ والأخذ ببعض الكتاب يوجب عليكم الأخذ بجميعه فكيف تكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض؟ ﴿فما جزاءُ مَنْ يفعلُ ذلك منكم إلا خزيٌ في الحياةِ الدنيا ويومَ القيامةِ يُرَدُّون إلى أشدِّ العذابِ وما اللَّهُ بغافلٍ عما تعملون﴾ [البقرة: ٨٥].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُم رَسُولُ بِمَا لاَ تَهوَى أَنفُسُكُمُ استَكبَرتُم فَفَرِيقًا كَذَّبتُم وَفَرِيقًا تَقتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. فهذا هو الذي تسميه النظار والفقهاء التشهي والتحكم فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته. وإن كان القول موافقًا لما تهواه وتشتهيه إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده قبلته وأجزته فترد ما خالف هواك وتقبل ما وافق هواك، وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان للخصم لا جواب له عليهما ألبتة؛ فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ

بجميعه، والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات؛ إذ لو كان الشرع تابعًا للهوى والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعًا له ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهواءَهُم لَفَسَدَتِ السَّمٰواتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

(١) **قال** تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفرِهِم﴾ [البقرة: ٨٨]. وقد اختلف في معنى قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

فقالت طائفة: المعنى: قلوبنا أوعية للحكمة والعلم، فما بالها لا تفهم عنك ما أتيت به أوَ لا تحتاج إليك؟، وعلى هذا فيكون غلف جمع غلاف.

والصحيح قول أكثر المفسرين: أن المعنى: قلوبنا لا تفقه ولا تفهم ما تقول؛ وعلى هذا فهو جمع أغلف كأحمر وحمر.

قال أبو عبيدة: كل شيء في غلاف فهو أغلف كما يقال: سيف أغلف وقوس أغلف ورجل أغلف غير مختون.

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد: على قلوبنا غشاوة فهي في أوعية فلا تعي ولا تفقه ما تقول.

وهذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن كقولهم: ﴿قُلُوبنا في أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١]. ونظائر ذلك.

وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة؛ فليس في اللفظ ما يدل عليه ألبتة وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف أي: أوعية للعلم؟، والغلاف قد يكون وعاء للجيد والرديء فلا يلزم من كون القلب غلافاً؛ أن يكون داخله العلم والحكمة وهذا ظاهر جدًا.

فإن قيل: فالإضراب ببل على هذا القول الذي قويتموه ما معناه.

---

(١) ٩٣ شفاء.

وأما على القول الآخر فظاهر أي: ليست قلوبكم محلًّا للعلم والحكمة بل مطبوع عليها.

قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته؛ بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه، فكيف تقوم به عليهم الحجة؟، وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف فهم معذورون في عدم الإيمان فأكذبهم الله وقال: ﴿**بل طبع الله عليها بكفرهم**﴾ [النساء:١٥٥]. وفي الآية الأخرى: ﴿**بَل لَّعنَهمُ الله بِكُفرِهِم**﴾ [البقرة:٨٨]. فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله؛ إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان؛ فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة والمعنى لم نخلق قلوبهم غلفاً لا تعي ولا تفقه؛ ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه؛ بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**ولما جاءهم كتابٌ من عندِ الله مُصدِّقٌ لما معهم وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنةُ الله على الكافرين**﴾ [البقرة: ٨٩]. فهذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد ﷺ فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية، ويستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل ظهوره فيفتح لهم وينصرون، فلما ظهر النبي ﷺ كفروا به وجحدوا نبوته.

فاستفتاحهم به وجحد نبوته مما لا يجتمعان، فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي كان جحد نبوته محالًا، وإن كان جحد نبوّته كما يزعمون حقًّا كان استفتاحهم به باطلًا، فإن كان استفتاحهم به حقًّا فنبوته حق، وإن كانت نبوته كما يقولون باطلًا فاستفتاحهم به باطل، وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه ألبتة ويمكن تقريرها على صور عديدة:

منها: أن يقال: قد أقررتم بنبوته قبل ظهوره باستفتاحكم به فتعين عليكم الإقرار بها بعد ظهوره.

الثانية: أن يقال: كنتم تستفتحون به، وذلك إقرار منكم بنبوته قبل ظهوره

---

(١) بدائع جـ٤. ١٤٤.

استنادًا إلى ما عندكم من العلم بظهوره؛ فلما شاهدتموه وصار المعلوم معاينًا بالرؤية؛ فالتصديق به حينئذ يكون أولى، فكفرتم به عند كمال المعرفة وآمنتم به حين كانت غيبًا لم تكمل، فآمنتم به على تقدير وجوده، وكفرتم به عند تحقق وجوده، فأي تناقض وعناد أبلغ من هذا؟!(١)

التاسعة : أن يقال: الاستفتاح به تصديق وإقرار بنبوته، وتكذيبه جحد وكفر بها، والإيمان والتصديق برسالة الرجل الواحد والتكذيب والجحد بها، مستلزم للكفر ولابد فإنه يستلزم أحد الأمرين: إما التصديق بنبوة من ليس بنبي، وإما جحد نبوة من هو نبي، وأيهما كان فهو كفر وقد أقررتم على أنفسكم بالكفر ولا بد، فلعنة الله على الكافرين.

العاشرة: تقرير الاستدلال بطريقة استسلاف المقدمات المؤاخذة بالاعتراف فيقال لهم: ألستم كنتم تستفتحون به؟ فيقولون: بلى، فيقال: أليس الاستفتاح به إيمان به؟ فلابد من الاعتراف بذلك. فيقال: أفليس ظهور من كنتم تؤمنون به قبل وجوده موجبًا عليكم الإيمان به؟ فلا بد من الاعتراف أو العناد الصريح، وليس لأعداء الله على هذه الوجوه اعتراض ألبتة سوى أن قالوا: هذا كله حق، ولكن ليس هذا الموجود بالذي كنا نستفتح به، وهذا من أعظم البهت والعناد؛ فإن الصفات والعلامات التي فيه طابقت ما كانت عندهم مطابقة المعلوم لعلمه، فإنكار أن يكون هو إنما يكون جحدًا للحق وإنكارًا له باللسان والقلب يعرفه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ الله على الكَافِرِين**﴾. [البقرة: ٨٩]. فأغنى عن هذه الوجوه والتقريرات كلها قوله تعالى: ﴿**ولَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِن عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُم وكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُون على الذين كَفَروا فَلَمَّا جَاءَهُم ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ الله على الكَافِرِين**﴾. [البقرة: ٨٩]. والمادة الحق يمكن إبرازها في الصور المتعددة، وفي أي قالب أفرغت وصورة أبرزت ظهرت صحيحة، وهذا شأن مواد براهين القرآن في أي صورة أبرزتها ظهرت في غاية الصحة والبيان، فالحمد لله المانّ بالهدى على عباده المؤمنين.

---

(١) اختصرنا كلام الشيخ من الثالثة إلى الثامنة، وهو موجود بالأصل. (ج).

وتأمل قوله تعالى في هذه الآية : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُم رسولٌ من عِنْد الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ . [البقرة: ١٠١]. كيف تجد تحته برهانًا عظيمًا على صدقه، وهو مجيء الرسول الثاني بما يطابق ما جاء به الرسول الأول ويصدقه، مع تباعد زمانهما وشهادة أعدائه وإقرارهم له بأنه لم يتلقَّه مِن بشر، ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياء يعلمون أنه لا يخبر بها إلا نبي أو من أخذ عنه وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد ألبتة، ولو كان ذلك؛ لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه ولعارضوه بمثل ما جاء به، إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذًا عن بشر أن يأخذوهم عن ملك أو عن نظيره فيعارضوا ما جاء به.

والمقصود أن مطابقة ما جاء به لما أخبر به الرسول الأول؛ من غير مواطأة ولا تشاعر ولا تلقي منه ولا ممن أخذ عنه، دليل قاطع على صدق الرسولين معًا.

ونظير هذا أن يشهد رجل بشهادة فيخبر فيها بما يقطع به أنه صادق في شهادته صدقًا لا يتطرق إليه شبهة، فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع بالأول ولم يتواطأ معه، فيخبر بنظير تلك الشهادة سواء مع القطع بأنه لم يجتمع به ولا تلقاها عن أحد اجتمع به، فهذا يكفي في صدقه؛ إذا تجرد الإخبار فكيف إذا اقترن بأدلة يقطع بها بأنه صادق، أعظم من الأدلة التي اقترنت بخبر الأول فيكفي في العلم بصدق الثاني مطابقة خبره لخبر الأول، فكيف إذا بشر به الأول، فكيف إذا اقترن بالثاني من البراهين الدالة على صدقه نظير ما اقترن بالأول وأقوى منها والله أعلم.

(١)**وقال** تعالى عن اليهود: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم ما عَرَفُوا كفروُا به فلعنةُ الله على الكافرين﴾ . ثم قال: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِه أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُروا بِمَا أَنْزَلَ الله بَغْيًا أَنْ يُنزِل الله مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاء من عِبادِه﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن كفرهم شكًا ولا اشتباهًا ولكن بغيًا منهم حيث صارت النبوة في ولد إسماعيل. ثم قال بعد ذلك: ﴿ولما جاءهم رسولٌ من عندِ الله مصدِّقٌ لما معهم نَبَذَ فريقٌ من الذين أوتوا الكتابَ كتابَ الله وراءَ ظهورِهم كأنهم لا يعلمون﴾ [البقرة: ١٠١]. فلما شبههم في فعلهم هذا بمن لا يعلم؛ دل على أنهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم، تقول إذا خاطبت من

(١) ٩١ مفتاح جـ١.

عصاك عمدًا: كأنك لم تعلم ما فعلت أو كأنك لم تعلم بنهيي إياك، ومنه على أحد القولين قوله تعالى: ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغُ المبينُ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرُهم الكافرون﴾ [النحل: ٨٢،٨٣].

قال السدي: يعني محمدًا ﷺ واختاره الزجاج. فقال: يعرفون أن أمر محمدٍ ﷺ حق ثم ينكرون ذلك، وأول الآية يشهد لهذا القول.

(١)**ومن** تلاعبه بهم: ما كان منهم في شأن زكريا ويحيى عليهما السلام، وقتلهم لهما، حتى سلط الله عليهم بُخْتُنَصَّر، وسَنْجاريب وجنودَهما، فنالوا منهم ما نالوه.

ثم ما(٢) كان منهم في شأن المسيح ورَمْيه وأمه بالعظائم، وهم يعلمون أنه رسول الله تعالى إليهم فكفروا به بَغْياً وعناداً، وراموا قَتْله وصَلْبه، فصانه الله تعالى من ذلك، ورفعه إليه، وطهره منهم. فأوقعوا القتل والصَّلب على شَبَهِه، وهم يظنون أنه رسول الله عيسى ﷺ؛ فانتقم الله تعالى منهم، ودَمّر عليهم أعظم تدمير، وألزَمَهم كلهم حكم الكفر بتكذيبهم بالمسيح؛ كما ألزم النصارى معهم حكم الكفر بتكذيبهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به في سِفال ونَقْص إلى أن قَطَّعهم الله تعالى في الأرض أمماً، ومزَّقهم كل مُمزَّق، وسَلَبهم عزّهم وملكهم، فلم يَقُمْ لهم بعد ذلك مُلك إلى أن بَعث الله تعالى محمدًا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فكفروا به وكذبوه، فأتمَّ عليهم غضَبه، ودمَّرهم غاية التدمير، وألزمهم ذُلًّا وصغاراً لا يُرفع عنهم إلى أن يَنْزِل أخوه المسيح من السماء، فيستأصل شأفتهم، ويُطَهِّر الأرض منهم، ومن عُبَّاد الصَّليب.

قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا به أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُروا بِمَا أَنْزَلَ الله بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ الله مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاء من عِبَادِهِ فَبَاءوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ وللكَافِرِيْن عَذَابٌ مُهِين﴾. [البقرة: ٩٠].

فالغضب الأول: بسبب كفرهم بالمسيح، والغضب الثاني. بسبب كفرهم

---

(١) ٣١٩ إغاثة جـ٢.

(٢) بالنسخة: (ثم كان منهم) بدون (ما) وقد أثبتناها لتمام المعنى. المراجع.

بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما.

(١) **قوله** تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمِنُوا بِمَآ أَنزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَينَا وَيَكفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُم قُل فَلِمَ تَقتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللهِ مِن قَبلُ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]. هذه حكاية مناظرة بين الرسول ﷺ وبين اليهود لما قال لهم: ﴿آمِنُوا بِمَآ أَنزَلَ اللهُ﴾ فأجابوه بأن قالوا: ﴿نُؤمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَينَا﴾ ومرادهم بهذا التخصيص أن نؤمن بالمنزل علينا دون غيره، فظهرت عليهم الحجة بقولهم هذا من وجهين دل عليهما قوله تعالى: ﴿وَيَكفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الحَقُّ﴾ إلى آخر الآية. قال: إن كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم لأنه حق؛ فقد وجب عليكم أن تؤمنوا بما جاء به محمد لأنه حق مصدق لما معكم، وحكم الحق الإيمان به أين كان ومع من كان؛ فلزمكم الإيمان بالحقين جميعاً أو الكفر الصراح.

وفي قوله: ﴿وَيَكفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الحَقُّ﴾ نكتة بديعة جدًا، وهي: أنهم لما كفروا به وهو حق لم يكن إيمانهم بما أنزل عليهم لأجل أنه حق، فإذًا لم يتبعوا الحق فيما أنزل عليهم ولا فيما جاء به محمد ﷺ؛ لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني وأعطوا الحق حقه من الإيمان. ففي ضمن هذه؛ الشهادة عليهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق الأول ولا بالثاني؛ وهكذا الحكم في كل من فرق الحق فآمن ببعضه وكفر ببعضه، كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض؛ لم ينفعه إيمانه بما كفر به حتى يؤمن بالجميع.

ونظير هذا التفريق تفريق من يردُّ آيات الصفات وأخبارها، ويقبل آيات الأوامر والنواهي؛ فإن ذلك لا ينفعه لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض. فإن كانت الشبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة له؛ فالشبهة التي عرضت لمن رد بعض ما جاء به النبي ﷺ أولى أن لا تكون نافعة، وإن كانت هذه عذرًا له فشبهة من كذب بعض الأنبياء مثلها. وكما أنه لا يكون مؤمنًا حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ومن كفر بنبي من الأنبياء فهو كمن كفر بجميعهم؛ فكذلك لا يكون مؤمنًا حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول، فإذا آمن ببعضه ورد بعضه فهو كمن كفر به كله.

---

(١) ١٤٨ بدائع جـ٤.

فتأمل هذا الموضع واعتبر به الناس على اختلاف طوائفهم، يتبين لك أن أكثر من يدعي الإيمان بريء من الإيمان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الوجه الثاني من النقض قوله: ﴿**فَلِمَ تَقْتُلُون أَنْبِيَاء الله مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنين**﴾. [البقرة: ٩١].

ووجه النقض: أنكم إن زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وبالأنبياء الذين بعثوا فيكم فلم قتلتموهم من قبل، وفيم أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم فلا آمنتم بما أنزل إليكم، ولا بما أنزل على محمد ﷺ؟ ثم كأنه توقع منهم الجواب: بأنا لم نقتل من ثبتت نبوته ولم نكذب به، فأجيبوا على تقدير هذا الجواب الباطل منهم؛ بأن موسى قد جاءكم بالبينات ومالا ريب معه في صحة نبوته، ثم عبدتم العجل بعد غيبته عنكم وأشركتم بالله وكفرتم به، وقد علمتم نبوة موسى وقيام البراهين على صدقه فقال: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُم مُوسى بِالبَيِّنات ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجَل مِنْ بَعْدِه وأَنْتُمْ ظَالِمُون**﴾. [البقرة: ٩٢]. فهكذا تكون الحجج والبراهين ومناظرات الأنبياء لخصومهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ الله خَالِصَةً مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوا المَوْتَ إِنْ كُنْتُم صَادِقِين**﴾. [البقرة: ٩٤]. كانوا يقولون: نحن أحباء الله ولنا الدار الآخرة خالصة من دون الناس، وإنما يعذب منا من عبد العجل مدة، ثم يخرج من النار وذلك مدة عبادتهم له، فأجابهم تبارك وتعالى عن قولهم: إن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، بالمطالبة وتقسيم الأمر: بين أن يكون لهم عند الله عهد عَهِده إليهم، وبين أن يكونوا قد قالوه عليه بما لا يعلمون. ولا سبيل لهم إلى ادعاء العهد، فتعين الثاني وقد تقدم.

ثم أجابهم عن دعواهم خلوص الآخرة لهم بقوله: ﴿**فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُم صَادِقِين**﴾. لأن الحبيب لا يكره لقاء حبيبه، والابن لا يكره لقاء أبيه، لاسيما إذا علم أن كرامته ومثوبته مختصة به؛ بل أحب شيء إليه لقاء حبيبه وأبيه؛ فحيث لم يحب ذلك ولم يتمنه فهو كاذب في قوله مبطل في دعواه.

ونظير هذا قوله في سورة المائدة ردًا عليهم قولهم: ﴿**نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وأَحِبَاؤه قُلْ فَلِمَ يُعَذبُكُم بِذُنُوبِكُمْ**﴾. [المائدة: ١٨]. يعني: أن الأب لا يعذب ابنه، والحبيب لا يعذب حبيبه.

وههنا نكتة لطيفة جدًّا قلّ من ينتبه لها، ونحن نقررها بسؤال وجواب.

فإن قيل: معلوم أن الأب قد يؤدب ولده إذا أذنب، والحبيب قد يهجر حبيبه إذا رأى منه بعض ما يكره.

قيل: لو تأملت أيها السائل قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾. لعلمت الفرق بين هذا التعذيب وبين الهجران والتأديب. فإن التعذيب بالذنب ثمرة الغضب المنافي للمحبة، فلو كانت المحبة قائمة كما زعموا لم يكن هناك ذنوب يستوجبون عليها العذاب: من المسخ قردة وخنازير، وتسلط أعدائهم عليهم يستبيحونهم ويستعبدونهم ويخربون متعبداتهم ويَسْبُون ذراريهم، فالمحب لا يفعل هذا بحبيبه ولا الأب بابنه. ومعلوم أن الرحمن الرحيم لا يفعل هذا بأمة إلا بعد فرط إجرامها وعتوها على الله واستكبارها عن طاعته وعبادته، وذلك ينافي كونهم أحبابه؛ فلو أحبوه لما ارتكبوا من غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك، ولو أحبهم لأدَّبهم ولم يعذبهم. فالتأديب شيء، والتعذيب شيء. والتأديب يراد به التهذيب والرحمة والإصلاح، والتعذيب للعقوبة والجزاء على القبائح فهذا لون وهذا لون.

وفي ضمن هذه المناظرة معجزة باهرة للنبي ﷺ وهي: أنه في مقام المناظرة مع الخصوم الذين هم أحرص الناس على عداوته وتكذيبه، وهو يخبرهم خبراً جزمًا أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمنونه لوجدوا طريقًا إلى الرد عليه، بل ذلوا وغلبوا وعلموا صحة قوله، وإنما منعهم من تمني الموت معرفتهم بما لهم عند الله: من الخزي والعذاب الأليم بكفرهم بالأنبياء وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ.

فإن قيل: فهلا أظهروا التمني وإن كانوا كاذبين! فقالوا: فنحن نتمناه.

قيل: وهذا أيضًا معجزة أخرى، وهي: أن الله تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألسنتهم فلم ترده قلوبهم ولم تنطق به ألسنتهم تصديقًا لقوله: ﴿ولن يتمنوه أبدًا﴾ [البقرة: ٩٥]

قلت: هذه الآية فيها للناس كلام معروف.

قالوا: إنها معجزة للنبي ﷺ، أعجز بها اليهود، ودعاهم إلى تمني الموت. وأخبر أنهم لا يتمنونه أبدًا. وهذا عَلَم من أعلام نبوته ﷺ، إذ لا يمكن الاطلاع على بواطنهم إلا بأخبار الغيب. ولم ينطق الله ألسنتهم بتمنيه أبدًا.

وقالت طائفة: لما ادعت اليهود: أن لهم الدار الآخرة عند الله، خالصة من دون

الناس، وأنهم أبناؤه وأحباؤه وأهل كرامته، كذبهم الله في دعواهم. وقال: إن كنتم صادقين فتمنوا الموت؛ لتصلوا إلى الجنة دار النعيم، فإن الحبيب يتمنى لقاء حبيبه.

ثم أخبر سبحانه: أنهم لا يتمنونه أبدًا بما قدمت أيديهم من الأوزار والذنوب الحائلة بينهم وبين ما قالوه. فقال: **﴿ولن يتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم﴾**[البقرة: ٩٥]

وقالت طائفة ـ منهم محمد بن إسحاق وغيره ـ: هذه من جنس آية المباهلة، وأنهم لما عاندوا، ودفعوا الهدى عيانًا. وكتموا الحق: دعاهم إلى أمر يحكم بينهم وبينه. وهو أن يدعو بالموت على الكاذب المفتري. و«التمني» سؤال ودعاء، فتمنوا الموت، وادعوا به على المبطل الكاذب المفتري.

وعلى هذا فليس المراد: تمنوه لأنفسكم خاصة. كما قاله أصحاب القولين الأولين. بل معناه: ادعوا بالموت وتمنوه للمبطل. وهذا أبلغ في إقامة الحجة وبرهان الصدق، وأسلم من أن يعارضوا رسول الله بقولهم: فتمنوه أنتم أيضًا. إن كنتم محقين أنكم أهل الجنة. لتقدموا على ثواب الله وكرامته. وكانوا أحرص شيء على معارضته، فلو فهموا منه ما ذكره أولئك لعارضوه بمثله.

وأيضًا فإنا نشاهد كثيرًا منهم يتمنى الموت لضره وبلائه، وشدة حاله، ويدعو به. وهذا بخلاف تمنيه والدعاء به على الفرقة الكاذبة. فإن هذا لا يكون أبدًا، ولا وقع من أحد منهم في حياة النبي ﷺ ألبتة؛ وذلك لعلمهم بصحة نبوته وصدقه، وكفرهم به حسدًا وبغيًا. فلا يتمنوه أبدًا. لعلمهم أنهم هم الكاذبون. وهذا القول هو الذي نختاره. والله أعلم بما أراد من كتابه.

(١)**قال** ابن سعد: وأخبرنا علي بن محمد، عن علي بن مجاهد، عن محمد بن إسحق، عن سالم مولى عبدالله بن مطيع، عن أبي هريرة، قال: أتى رسول الله ﷺ بيت المدارس، فقال: «**أخرجوا إليَّ أعلمكم**»، فقالوا: عبد الله بن صوريا، فخلا به رسول الله ﷺ، فناشده بدينه وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم من المن والسلوى وظللهم من الغمام: «**أتعلم أني رسول الله؟**» قال: اللهم نعم، وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وأن صفتك ونعتك لمبين في التوراة ولكن حسدوك، قال: «**فما يمنعك أنت؟**» قال: أكره خلاف قومي عسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم.

وقال أبو الشيخ الأصبهاني: حدثنا أبويحيى الرازي: حدثنا سهل بن عثمان:

---

(١) ٩٤ هداية.

حدثنا علي بن مسهر، عن دواد، عن الشعبي، قال: قال عمر بن الخطاب: كنت آتي اليهود عند دراستهم التوراة، فأعجب من موافقة التوراة للقرآن وموافقة القرآن للتوراة، فقالوا: يا عمر ما أحد أحب إلينا منك لأنك تغشانا، قلت: إنما أجيء لأعجب من تصديق كتاب الله بعضه بعضًا، فبينا أنا عندهم ذات يوم إذ مر رسول الله ﷺ، فقالوا: هذا صاحبك، فقلت: أنشدكم الله وما أنزل عليكم من الكتاب أتعلمون أنه رسول الله؟ فقال سيدهم: قد نشدكم الله فأخبروه، فقالوا: أنت سيدنا فأخبره، فقال: إنا نعلم أنه رسول الله، قلت: فأني أهلككم إن كنتم تعلمون أنه رسول الله لِمَ لم تتبعوه؟! قالوا: إن لنا عدوًّا من الملائكة وسلمًا من الملائكة، عدونا جبريل وهو ملك الفظاظة والغلظة، وسلمنا ميكائيل وهو ملك الرأفة واللين. قلت: فإني أشهد ما يحل لجبريل أن يعادي سلم ميكائيل، ولا لميكائيل أن يعادي سلم جبريل ولا أن يسالم عدوه، ثم قمت فاستقبلني رسول الله ﷺ فقال: **«ألا أقرئك آيات نزلت علي قبل»**؟ فتلا **﴿مَنْ كان عدوًّا لجبريلَ فإنه نزلـه على قلبك بإذن الله﴾**. [البقرة:٩٧]. الآية، فقلت: والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لأخبرك بقول اليهود قال عمر: فلقد رأيتني أشد في دين الله من حجر.

وذكر أبو نعيم، من حديث عمرو بن عبسة قال: رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية، وعرفت أنها على الباطل يعبدون الحجارة، وهي لا تضر ولا تنفع، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب فسألته عن أفضل الدين؟ فقال: يخرج رجل من مكة ويرغب عن آلهة قومه يأتي بأفضل الدين، فإذا سمعت به فاتبعه، فلم يكن لي هم إلا مكة آتيها فأسأل: هل حدث فيها خبر؟ فيقولون: لا، فأنصرف إلى أهلي، وأعترض الركبان فأسألهم فيقولون: لا، فإني لقاعد إذ مر بي راكب فقلت: من أين جئت؟ قال: من مكة. قلت: هل حَدَث حَدَثٌ فيها؟ قال: نعم. رجل رغب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها. قلت: صاحبي الذي أريد فشددت راحلتي وجئت فأسلمت.

فصل(1)

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة

أن ألقى إليهم أن الربَّ تعالى محجور عليه في نَسْخ الشرائع، فحجروا عليه

---

(١) ٣٢٠ إغاثة جـ٢.

أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد، وجعلوا هذه الشبهة الشَيطانية تُرسًا لهم في جَحْد نبوة رسول الله، محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقرَّروا ذلك بأن النسخ يستلزم البداء(١) وهو على الله تعالى محال.

وقد أكذبهم الله تعالى في نص التوراة، كما أكذبهم في القرآن. قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ. قُلْ فأتوا بِالتَّوْراة فَاتْلُوها إن كنتم صَادِقِين* فَمَن افْتَرَى على الله الكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِك فأولَئك هُمُ الظَّالِمُون* قُلْ صَدقَ الله فَاتَّبِعُوا مِلَةَ إِبْرَاهِيمِ حَنِيْفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِين﴾. [آل عمران: ٩٣ - ٩٥].

فتضمنت هذه الآيات بيان كذبهم صريحًا في إبطال النسخ، فإنه سبحانه وتعالى أخبر أن الطعام كله كان حلالاً لبني إسرائيل، قبل نزول التوراة، سوى ما حرَّم إسرائيل على نفسه منه.

ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالاً إنما هو بإحلال الله تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم، التي كانت حلالاً لبني إسرائيل. وهذا محض النسخ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾. [آل عمران: ٩٣]. أي: كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة، وهم يعلمون ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فأتوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوها إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. [آل عمران: ٩٣]. هل تجدون فيها أن إسرائيل حرّم على نفسه ما حرَّمته التوراة عليكم؟ أم تجدون فيها تحريم ما خصَّه بالتحريم؟ وهي لحوم الإبل وألبانها خاصة. وإذا كان إنما حرَّم هذا وحده، وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه، وقد حرمت التوراةُ كثيرًا منه، ظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع، والحجر على الله تعالى في نسخها.

فتأمل هذا الموضع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسرين، وما وردُوه.

(٢)**الفائدة** السابعة: إذا كان الحكم مستغربًا جدًّا مما لم تألفه النفوس، وإنما ألفت خلافه؛ فينبغي للمفتي أن يُوطِّىء قبله ما يكون مؤذنًا به كالدليل عليه

---

(١) أي ابتداء علم جديد لم يكن.
(٢) ١٦٣ أعلام جـ٤.

والمقدمة بين يديه، فتأمل ذكره سبحانه قصة زكريا وإخراج الولد منه بعد انصرام عصر الشبيبة، وبلوغه السن الذي لا يُولد فيه لمثله في العادة، فذكر قصته مقدمة بين يدي قصة المسيح وولادته من غير أب؛ فإن النفوس لما آنست بولد من بين شيخين كبيرين لا يُولد لهما عادة؛ سهل عليها التصديق بولادة ولد من غير أب.

وكذلك ذكر سبحانه قبل قصة المسيح، مُوافاة مريم رزقها في غير وقته وغير إبَّانه، وهذا الذي شجع نفس زكريا وحركها لطلب الولد وإن كان في غير إبَّانه.

وتأمل قصة نسخ القِبْلة لما كانت شديدة على النفوس جدًّا، كيف وطأ سبحانه قبلها عدة موطئات؟

منها: ذكر النسخ، ومنها: أنه يأتي بخير من المنسوخ أومثله.

ومنها: أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم؛ فعموم قدرته وعلمه صالح لهذا الأمر الثاني كما كان صالحًا للأول.

ومنها: تحذيرهم الاعتراض على رسوله كما اعترض مَنْ قبلهم على موسى، بل أمَرَهم بالتسليم والانقياد.

ومنها: تحذيرهم بالإصغاء إلى اليهود، وأن لا تستخفهم شبههم، فإنهم يودون أن يردوهم كفارًا من بعد ما تبين لهم الحق.

ومنها: إخباره أن دخول الجنة ليس بالتهود ولا بالتنصر، وإنما هو بإسلام الوجه والقصد والعمل والنية لله مع متابعة أمره.

ومنها: إخباره سبحانه عن سَعَته، وأنه حيث ولى المصلّي وجهه فثمَّ وجهه تعالى، فإنه واسع عليم، فذكر الإحاطتين: الذاتية والعلمية، فلا يتوهمون أنهم في القبلة الأولى لم يكونوا مستقبلين وجهه تبارك وتعالى ولا في الثانية؛ بل حيثما توجهوا فثم وجهه تعالى.

وَمنها: أنه سبحانه وتعالى حَذَّر نبيه ﷺ عن اتباع أهواء الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، بل أمر أن يتبع هو وأمته ما أوحي إليه فيستقبلونه بقلوبهم وحده.

وَمنها: أنه ذكر عظمة بيته الحرام، وعظمة بانيه وملته، وَسَفَّه مَنْ يرغب عنها، وأمر باتباعها، فنوَّه بالبيت وبانيه وملته، وكل هذا توطئة بين يدي التحويل، مع ما في ضمنه من المقاصد الجليلة والمطالب السنية.

ثم ذكر فضل هذه الأمة وأنهم الأمة الوَسَط العدل الخيار، فاقتضى ذلك أن يكون نبيهم ﷺ، أوسَطَ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وخيارهم، وكِتَابهم كذلك، ودينهم كذلك، وقبلتهم التي يستقبلونها كذلك، فظهرت المناسبة شرعًا وقدرًا في أحكامه تعالى الأمرية والقدرية، وظهرت حكمته الباهرة، وتجلّت للعقول الزكية المستنيرة بنور ربها تبارك وتعالى.

والمقصود أن المفتي جديرٌ أن يذكر بين يدي الحكم الغريب الذي لم يؤلف مقدمات تؤنسُ به، وتدل عليه، وتكون توطئة بين يديه، وبالله التوفيق.

فصل(١)

في سياق الآيات الدالة على غش أهل الذمة للمسلمين وعداوتهم وخيانتهم وتمنيهم السوء لهم، ومعاداة الرب تعالى لمن أعزهم أو والاهم أو ولّاهم أمور المسلمين.

قال تعالى: ﴿**مَا يَودُّ الذين كَفَرُوا مِنْ أهْلِ الكِتَابِ ولا المُشْرِكِين أن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِن خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾؛ [البقرة: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿**وَدَّ كثيرٌ من أهْلِ الكِتَابِ لو يَرُدُّونكم مِن بَعْدِ إيمانِكُم كُفّارًا، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ**(٢)﴾ [البقرة: ١٠٩] وقال تعالى لرسوله: ﴿**ولَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ ولا النَّصَارَى حَتّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم. قُلْ إنَّ هُدى الله هو الهُدَى، وَلَئِن اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْد الذي جاءك من العلمِ ما لكَ مِن الله من وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ**﴾. [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿**لا يَتَخِذِ المؤمنون الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، ومن يفعلْ ذلك فليس من الله في شيءٍ إلا أن تتقوا منهم تقاةً؛ ويحذِّرُكم الله نفسَه، وإلى الله المَصِيرُ**﴾. [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿**يَا أيُّها الذين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً من دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً، ودُّوا ما عَنِتُم، قَدْ بدت البغضاءُ من أفواهِهم وما تُخفي صدورُهم أكبرُ،**

---

(١) ٢٣٨ أحكام جـ١.

(٢) يأتي البحث على هذه الآية، وماشاكلها عند البحث في الحسد والمنافسة والغبطة في سورة المطففين - إن شاء الله تعالى. ويأتي أيضاً في سورة الفلق. ج.

قد بيَّنّا لَكُمُ الآيَاتِ إنْ كُنْتُم تَعْقِلُون﴾. [آل عمران: ١١٨].

وقال تعالى: ﴿أَلَم تَرَ إلى الذين أُوتُوا نَصِيبًا من الكِتَاب يَشْتَرُون الضلالَةَ، وَيُريدون أنْ تَضِلُّوا السَّبيلَ؟ والله أَعْلَمُ بِأعْدائِكم، وكَفَى بالله وَلِيًّا، وكَفى بالله نَصيراً﴾. [النساء: ٤٤، ٤٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين أُوتوا نَصِيبًا من الكِتَاب يُؤمِنُون بالجِبْت والطَّاغُوت، ويَقُولون للذين كَفُروا: هَؤلاءِ أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. أُولَئِك الذين لعَنَهُمُ الله، ومَنْ يَلْعَن الله فَلَنْ تَجِد لَهُ نَصِيراً﴾. [النساء: ٥١، ٥٢].

وقال تعالى مبشرًا لمن والاهم بالعذاب الأليم: ﴿بَشِّرِ المنافقين بأنَّ لهم عذابًا أليمًا. الذين يَتَّخِذُون الكَافِرين أوْلِياءَ مِنْ دُونِ المؤمنين. أيبتغون عندهم العزة؟ فَإنَّ العِزَةَ لله جَمِيعًا﴾. [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الكَافِرين أوْلِيَاءَ من دونِ المؤمنين. أتُريدون أن تَجْعَلُوا لله عَلَيْكُم سلطانًا مُبينًا؟﴾. [النساء: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تَتَخِذُوا اليَهُود والنَّصارى أوْلياء، بَعْضُهم أَوْلِيَاء بَعْضٍ، ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإنَّهُ منْهُم، إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين. فَتَرى الذين في قُلُوبهم مَرضٌ يُسَارِعُون فِيهم، يَقُولون: نَخْشَى أن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ، فعَسَى الله أنْ يَأتِي بالفَتْح أو أمرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا على ما أسَرُّوا في أَنْفُسِهِمْ نَادمين. ويَقُولُ الذين آمَنوا: أهؤلاءِ الذين أقْسَمُوا بالله جَهْدَ أَيْمانِهِم إنَّهُمْ لمعكم؟ حَبِطَتْ أعْمالُهم، فَأصْبَحُوا خَاسِرين﴾. [المائدة: ٥١، ٥٣].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الذين اتَّخَذُوا دِينَكُم هُزُوًا ولَعِبًا مِنْ الذين أُوتوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُم والكُفَّارَ أولياءَ، واتقُوا الله إنْ كُنْتُم مُؤمِنِين. وإذا نَادَيْتُم إلى الصَّلاة اتَّخذوها هزوًا ولعبًا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾. [المائدة: ٥٧، ٥٨].

وقال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّون الذين كَفَرُوا، لَبِئْسَ ما قَدَّمَت لَهُمْ أنْفُسُهُم أنْ سَخِطَ الله عَلَيْهم، وفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُون. وَلَوْ كَانُوا يُؤمِنُون بالله والنبيِّ وما أُنزلَ إليه مَا اتَّخَذُوهُمْ أوْلِيَاءَ، وَلكِنَّ كَثِيراً مِنهُم فَاسِقُون﴾. [المائدة: ٨٠، ٨١].

وقال تعالى: ﴿كَيْف وإنْ يَظْهَروا عَلَيْكُم لا يَرْقُبوا فِيكُم إلًّا ولا ذِمَّةً؟ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِم، وتَأبَى قلوبهم، وأَكْثَرُهم فَاسقون. اشتروا بآياتِ الله ثمنًا

قليلًا، فصدوا عن سبيلِهِ: إنَّهم ساء ما كَانَوا يعملون. لا يرقبون في مؤمنٍ إلًّا ولا ذمة، وأولئك هُمْ المُعْتَدون﴾. [التوبة: ٨ - ١٠].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءكُم وإخْوَانَكُمْ أَوْلياءَ إن اسْتَحَبُّوا الكُفْر على الإيمان، وَمَنْ يَتولَّهُمْ مِنْكم فأولئك هُمُ الظالمون﴾. [التوبة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤمِنُون بالله واليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّون مِنْ حادَّ الله ورسولَه ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾. [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين تَوَلَّوا قَوْمًا غَضِبَ الله عليهم، ما هُمْ مِنْكُمْ ولا مِنْهُم، وَيَحْلِفُون على الكذب وَهُمْ يَعْلَمون. أعدَّ الله لهُم عذابًا شديدًا. إنهُمْ ساء ما كانُوا يَعْمَلُون﴾. [المجادلة: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدوي وعَدُوكم أَوْلياء، تُلْقُون إليهم بالمَودة، وَقَد كَفَرُوا بِمَا جَاءكم مِن الحَقِّ، يُخرجون الرسولَ﴾. إلى قوله: ﴿قَد كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَة حَسَنَةٌ فِي إبْرَاهيم والذين مَعَهُ إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرآءُ مِنكم ومِمَّا تَعْبُدُون مِنْ دُونِ الله، كَفَرْنَا بِكُمْ، وبَدَا بَيْنَنا وبَيْنَكُم العَدَاوةُ والبَغْضاءُ أَبَدًا حتى تُؤمِنُوا بالله وَحْدَهُ﴾. [الممتحنة: ١ - ٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا لا تَتولَّوْا قَوْمًا غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا من الآخرةِ كما يئس الكُفارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُور﴾. [الممتحنة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا إنَّما المُشْرِكُون نجسٌ﴾. [التوبة: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿هَاأَنْتُمْ أولاء تُحِبُّونَهُم ولا يُحِبُّونَكُم، وتَؤمِنُون بالكِتاب كُلِّه، وإذَا لَقُوكُمْ قَالُوا: آمَنَّا، وإذا خَلَوا عَضُوا عَلَيْكُمُ الأنامِلَ من الغَيْظِ، قُلْ مُوتُوا بغَيْظِكم، إنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور. إنْ تَمْسَسْكُم حَسَنَةٌ تسؤهم، وإن تُصِبْكُم سيئةٌ يَفرَحُوا بها، وإنْ تَصبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضرُّكُم كَيْدُهُم شيئًا، إن الله بِمَا يَعملُون مُحِيطٌ﴾. [آل عمران: ١١٩، ١٢٠].

وقد أخبر سبحانه عن أهل الكتاب، أنهم يعتقدون أنهم ليس عليهم إثم ولا خطيئة في خيانة المسلمين وأخذ أموالهم، فقال تعالى: ﴿وَمِن أَهْلِ الكِتَاب مَنْ إن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّه إليك، وَمِنْهُم مَنْ إنْ تَأمَنْهُ بدِينار لا يُؤدِّه إلَيْك، إلَّا مَادُمت عَلَيْه قَائِمًا: ذَلِكَ بأَنَّهُم قَالُوا: لَيْسَ عَلَيْنَا في الأُمِّيِّن سَبِيلٌ، وَيَقُولُون على الله

الكَذِبَ، وَهُمْ يَعلمُوْنَ﴾. [آل عمران: ٧٥].

والآيات في هذا كثيرة، وفي بعض هذا كفاية.

فصـــل

ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعًا من توليهم. وقد حكم تعالى بأن من تولاهم فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم. والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبدًا، والولاية صلة، فلا تجامع معاداة الكافر أبدًا.

ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتاب، ومكاتبتهم الفرنج وأعداء الإسلام، وتمنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان، لثَنَاهُمْ ذلك عن تقريبهم وتقليدهم الأعمال. وهذا الملك (الصالح) كان في دولته نصراني يسمى محاضر الدولة أبا الفضائل بن دخان، ولم يكن في المباشرين أمكَنُ منه. وكان المذكور قذاةً في عين الإسلام، وبثرة في وجه الدين. ومثالُبُه في الصحف مسطورة، ومخازيه مخلّدة مذكورة، حتى بلغ من أمره أنه وقع لرجل نصراني أسلم برده إلى دين النصرانية، وخروجه من الملة الإسلامية؛ ولم يزل يكاتب الفرنج بأخبار المسلمين وأعمالهم وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها. وكان مجلسه معمورًا برسل الفرنج والنصارى، وهم مكرمون لديه، وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الأدرار والضيافات؛ وأكابر المسلمين محجوبون على الباب لا يؤذن لهم، وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في الكلام. فاجتمع به بعض أكابر الكتّاب فلامه على ذلك وحذره من سوء عاقبة صنعه، فلم يزده ذلك إلا تمردًا، فلم يمض على ذلك إلا يسير حتى اجتمع في مجلس (الصالح) أكابر الناس من الكتاب والقضاة والعلماء. فسأل السلطان بعض الجماعة عن أمر أفضى به إلى ذكر مخازي النصارى، فبسط لسانه في ذلك، وذكر بعض ما هم عليه من الأفعال والأخلاق، وقال من جملة كلامه: إن النصارى لا يعرفون الحساب ولا يدرونه على الحقيقة، لأنهم يجعلون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحدًا، والله تعالى يقول: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الذين قالوا: إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ﴾**. [المائدة: ٧٣]. وأول أمانتهم وعقد دينهم: بسم الأب والابن وروح القدس، إله واحد، فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء وقال في قصيدة له:

كيف يدري الحساب من جعل الوا ... حِدَ رب الورى تعالى ثلاثة

ثم قال: كيف تأمن أن يفعل في معاملة السلطان كما فعل في أصل اعتقاده، ويكون مع هذا أكثر النصارى أمانة؟ وكلما استخرج ثلاثة دنانير دفع إلى السلطان دينارًا، وأخذ لنفسه اثنين، ولاسيما وهو يعتقد ذلك قربة وديانة؟

وانصرف القوم، واتفق أن كبت بالنصراني بطنته، وظهرت خيانته، فأريق دمه: وسُلِّط على وجوده عدمه، وفيه يقول عمارة اليمني:

قل لابن دخان إذا جئته ... ووجهه يندى من القَرْقَفِ
لم تكفك الدنيا ولو أنها ... أضعاف ما في سورة الزخرفِ
فاصفع قفا الذل ولو أنه ... بين قفا القسيس والأسقفِ
ملَّكك الدهر سُبال الورى ... فاحلق لحاهم آمنًا وانتفِ
خلا لك الديوان من ناظر ... مستيقظ العزم ومن مُشرفِ
فاكسب وحصل وادخر واكتنزْ ... واسرقْ وخُنْ وابطش ولا تضعف
وابك وقل ما صح في درهم ... فردٌ، وصلِّب وابتهل واحلف
واغتنم الفرصة من قبل أن ... تقضي على الإنجيل والمصحف

(١)**وقوله** تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾. [البقرة: ١١١]. هذه دعوى كل واحدة من الطائفتين: أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهما، فقالت اليهود: لا يدخلها إلا من كان هودًا. وقالت النصارى: لا يدخلها إلا من كان نصرانيًّا فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه، مع أمن اللبس ووضوح المعنى، فطالبهم الله تعالى بالبرهان على صحة الدعوى فقال: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾. [البقرة: ١١١]. وهذا هو المسمى سؤال المطالبة بالدليل، فمن ادعى دعوى بلا دليل يقال له: هات برهانك إن كنت صادقًا فيما ادعيت، ويحتج بهذه الآية من يقول بلزوم النافي الدليل، كما يلزم المثبت.

وحكوا في ذلك ثلاثة مذاهب، ثالثها يلزمه في الشرعيات دون العقليات، واستدلالهم بالآية لا يصح؛ لأن الله تعالى لم يطالبهم بدليل النفي المجرد؛ بل

---

(١) ١٥٠ بدائع جـ٤.

ادعوا دعوى مضمونها: إثبات دخولهم هم الجنة وأن غيرهم لن[1] يدخلها فطولبوا بالدليل الدال على هذه الدعوة المركبة من النفي والإثبات، وصاحب هذه الدعوى يلزمه الدليل باتفاق الناس، وإنما الخلاف في النفي المجرد.

ولو استدل هؤلاء بقوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أيامًا معدودةً**﴾. [البقرة: ٨٠]. لكان أقرب مع كونه متضمنًا للنفي والإثبات، لكن الدعوى فيه إنما توجهت إلى النفي.

ومقصود الكلام: أنا لا نعذب بعد تلك الأيام، فلم ينكر عليهم اعترافهم بالتعـذيب تلك الأيام؛ بل دعواهم أنهم لا يعذبون بعدها، وذلك نفي محض فلذلك قلنا: إن الاستدلال بها أقرب من هذه الآية.

وبعد فالتحقيق في مسألة النافي: هل عليه دليل؟ أن النفي نوعان:

نوع: مستلزم لإثبـات ضد المنفي فهـذا يلزم النـافي فيه الدليل، كمن نفى الإباحة فإنه يطالب بالدليل قطعًا؛ لأن نفيها يستلزم ثبوت ضد من أضدادها ولا بد من دليل، وكذلك نفي التعذيب بالنار بعد الأيام المعدودة يستلزم دخول الجنة والفوز بالنعيم ولابد له من دليل.

النوع الثاني: نفي لا يستلزم ثبوتًا كنفي صحة عقد من العقود أو شرط أو عبادة في الشرعيات، ونفي إمكان شيء ما من الأشياء في العقليات، فالنافي إن نفى العلم به لم يلزمه دليل، وإن نفى المعلوم نفسه وادعى أنه منتف في نفس الأمر فلا بد له من دليل.

[2]**المثال** الخامس: وجه الرب جلَّ جلاله حيث ورد في الكتاب والسنة، فليس بمجاز بل على حقيقته واختلف المعطلون: في جهة التجوز في هذا فقالت طائفة: لفظ الوجه زائد والتقدير: ويبقى ربك، إلا ابتغاء ربه الأعلى ويريدون ربهم.

وقالت فرقة أخرى منهم: الوجه بمعنى الذات، وهذا قول أولئك وإن اختلفوا في التعبير عنه.

وقالت فرقة: ثوابه وجزاؤه فجعله هؤلاء مخلوقًا منفصلاً، قالوا: لأن الذي يراد هو الثواب وهذه أقوال، نعوذ بوجه الله العظيم من أن يجعلنا من أهلها.

---

(١) بالنسخة (لم) والصواب ما أثبتناه (لن). المراجع.

(٢) ١٧٤ مختصر الصواعق جـ٢.

قال عثمان بن سعيد الدارمي، وقد حكى قول بشر المريسي، أنه قال في قول النبي ﷺ: «**إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه**»: يحتمل أن يقبل الله عليه بنعمته وإحسانه وأفعاله وما أوجب للمصلي من الثواب فقوله: ﴿**ويبقى وجهُ ربِّك**﴾ [الرحمن:٢٧]. أي ما توجه به إلى ربك من الأعمال الصالحة وقوله: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**﴾. [البقرة:١١٥]. أي: قبلة الله.

قال الدارمي: لما فرغ المريسي من إنكار اليدين ونفيهما عن الله، أقبل قبل وجه الله ذي الجلال والإكرام لينفيه عنه كما نفى عنه اليدين، فلم يدع غاية في إنكار وجه الله ذي الجلال والإكرام والجحود به، حتى ادعى أن وجه الله الذي وصفه بأنه ذو الجلال والإكرام مخلوق، لأنه ادعى أنه أعمال مخلوقة يتوجه بها إليه، وثواب وإنعام مخلوق يثيب به العامل، وزعم أنه قبلة الله وقبلة الله لا شك مخلوقة، ثم ساق الكلام في الرد عليه.

والقول بأن: لفظ الوجه مجاز، باطل من وجوه:

أحدها: أن المجاز لا يمتنع نفيه فعلى هذا لا يمتنع أن يقال: ليس لله وجه ولا حقيقة لوجهه، وهذا تكذيب صريح لما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسول الله ﷺ.

الثاني: أنه خروج عن الأصل والظاهر بلا موجب.

الثالث: أن ذلك يستلزم كون حياته وسمعه وبصره وقدرته وكلامه وإرادته وسائر صفاته مجازًا لا حقيقة كما تقدم تقريره.

الرابع: أن دعوى المعطل أن الوجه صلة، كذب على الله وعلى رسوله وعلى اللغة، فإن هذه الكلمة ليست مما عهد زيادتها.

الخامس: أنه لو ساغ ذلك لساغ لمعطل آخر أن يدعي الزيادة في قوله: أعوذ بعزة الله وقدرته، ويكون التقدير أعوذ بالله، ويدعي معطل آخر الزيادة في سمعه وبصره وغير ذلك.

السادس: أن هذا يتضمن إلغاء وجهه الكريم لفظًا ومعنى، وأن لفظه زائد ومعناه مُنتفٍ.

(١)**الوجه** السادس والعشرون: أنك إذا تأملت الأحاديث الصحيحة وجدتها مفسِّرة للآية مشتقة منها كقوله ﷺ: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإنما يستقبل ربه**».

---

(١) ١٨٨ مختصر الصواعق جـ٢.

وقوله: «**فالله يُقبلُ عليه بوجهه ما لم يصرفْ وجهَه عنه**».

وقوله: «**إذا قام أحدُكم إلى الصلاة فلا يبصقن قِبَل وجهه**».

وقوله: «**فإن الله بينه وبين القبلةِ**».

وقوله: «**إن الله يأمُركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت**». رواه ابن حبان في صحيحه والترمذي.

وقال: «**إن العبدَ إذا توضأ فأحسن الوضوءَ ثم قام إلى الصلاةِ أقبل الله عليه بوجهه فلا ينصرف عنه حتى ينصرف أو يُحدث حدث سوء**».

وقال: جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ «**إذا قام العبدُ يصلي أقبل الله عليه بوجههٍ، فإذا التفت أعرض الله عنه**، وقال: **يا ابن آدم أنا خير ممن تلتفت إليه فإذا أقبل على صلاته أقبل الله عليه فإذا التفت أعرض الله عنه**».

وقال ابن عمر: عن النبي ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فلا يتنخمَن تجاهَ وجْهِ الرحمن**».

وقال أبو هريرة: عن النبي ﷺ: «**إن العبد إذا قام إلى الصلاةِ فإنه بين عيني الرحمن فإذا التفت قال له: ابن آدم إلى من تلتفت؟ إلى خير لك مني تلتفت**».

...[1]**بقي** النظر في ترجيح أحد قولي الاجتهاد والتخيير في مسألة القبلة على الآخر، فمن نصر التخيير احتج بما في الترمذي وسنن ابن ماجة، عن عامر بن ربيعة،عن أبيه قال: «**كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلَّى كل رجل على حياله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فنزل** ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**﴾» [البقرة: ١١٥]. قال الترمذي:هذا حديث حسن إلا إنه من حديث أشعث السمان وفيه ضعف.

وروى الدارقطني، من حديث عطاء، عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ في مسير فأصابنا غيم فتحيرنا فاختلفنا في القبلة، فصلى كل رجل منا على حدة، وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا فذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فلم يأمرنا بالإعادة فقال: «**قد أجزأتكم صلاتكم**». قال الدارقطني: رواه محمد بن سالم، عن عطاء.

قال: ويروى أيضًا، عن محمد بن عبدالله العزرمي، عن عطاء، وكلاهما ضعيف. وقال العقيلي: لا يروى متن هذا الحديث من وجه يَثْبت.

(١) ٣٦٠ بدائع جـ٣.

واحتجوا أيضًا بما تقدم حكايته أن الله لم يأمر بالاستقبال إلا من كان عالمًا به وقادرًا عليه، وأما العاجز الجاهل فساقط عنه فرض الاستقبال فلا يكلَّف به.

ومن نصر الاجتهاد احتج بأن الله تعالى أوجب على العبد أن يتقيه ما استطاع، وهذا مقتضى وجوب الاجتهاد عليه في تقوى ربه تعالى، والتقوى هي: فعل ما أمر وترك ما نهى.

قالوا: وأيضًا فإنه من المعلوم أنه إذا قام إلى الصلاة، لم يجز له أن يستقبل أي جهة شاء ابتداء؛ بل ينظر إلى مطالع الكواكب ومساقطها وسمت جهة القبلة، حتى إذا علم جهتها استقبلها وهذا نوع اجتهاد، وأدلة الجهة متفاوتة الخفاء والظهور، فيجب على كل أحد فعل مقدوره من ذلك فإن لم يصبها قطعًا أصابها ظنًّا، وهو الذي يقدر عليه، فمتى ترك مقدوره لم يكن قد اتقى الله بحسب استطاعته.

وقولكم: إن الله إنما أوجب الاستقبال على القادر عليه العالم به.

قلنا: الله سبحانه وتعالى أوجب على كل عبد ما تؤديه إليه استطاعته من طاعته، فإذا عجز عن هذا اليقين وأدلة الجهة سقط عنه؛ ولكن من أين يسقط عنه بذل وسعه ومقدوره اللائق به؟.

(1)**قوله** تعالى: ﴿وقالوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة:١١٦، ١١٧]. إلى قوله: ﴿كُنْ فَيَكُون﴾.

فرد عليهم سبحانه دعواهم له اتخاذ الولد ونزه نفسه عنه. ثم ذكر أربع حجج على استحالة اتخاذه الولد:

أحدها: كون ما في السموات والأرض ملكًا له، وهذا ينافي أن يكون فيهما ولد له؛ لأن الولد بعض الوالد وشريكه فلا يكون مخلوقًا له مملوكًا له؛ لأن المخلوق مملوك مربوب عبد من العبيد، والابن نظير الأب فكيف يكون عبده تعالى ومخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره. فهذا من أبطل الباطل.

وأكد مضمون هذه الحجة بقوله: ﴿كل له قانتون﴾. [البقرة:١١٦]. فهذا تقرير لعبوديتهم له وأنهم مملوكون مربوبون، ليس فيهم شريك ولا نظير ولا ولد، فإثبات الولد لله من أعظم الإشراك به، فإن المشرك به جعل له شريكًا من مخلوقاته مع اعترافه بأنه مملوك،

---

(١) ١٥٢ بدائع جـ٤.

كما كان المشركون يقولون في تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلّا شريكًا هو لك تملكه وما ملك، فكانوا يجعلون من أشركوا به مملوكًا له عبدًا مخلوقًا.

والنصارى جعلوا له شريكًا هو نظيره، وجزء من أجزائه.

كما جعل بعض المشركين الملائكة بناته فقال تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزءًا**﴾. [الزخرف: ١٥].

فإذا كان له ما في السموات والأرض عبيد قانتون مربوبون مملوكون؛ استحال أن يكون له منهم شريك، وكل من أقر بأن الله ما في السموات وما في الأرض؛ لزمه أن يقر له بالتوحيد ولا بد.

ولهذا يحتج سبحانه على المشركين بإقرارهم بذلك كقوله: ﴿**قُل لمن الأرْضُ ومَنْ فِيها إنْ كُنْتُم تعلَمُون. سَيَقُولُون لله قُلْ أفَلا تذَكَّرون**﴾. [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]. وسيأتي إن شاء تعالى مزيد بيان لهذا في موضعه.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿**بَدِيْعُ السَّموات والأرْضِ**﴾. [البقرة: ١١٧]. وهذه من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه؛ ولهذا قال في سورة الأنعام: ﴿**بَدِيعُ السَّمَواتِ والأرْضِ أنّى يَكُون له وَلَدٌ**﴾ [الأنعام: ١٠١]. أي: من أين يكون لبديع السموات والأرض ولد؟

ووجه تقرير هذه الحجة: أن من اخترع هذه السموات والأرض مع عظمهما وآياتهما وفطرهما وابتدعهما، فهو قادر على اختراع ما هو دونهما ولا نسبة له إليهما ألبتة، فكيف يخرجون هذا الشخص بالعين عن قدرته وإبداعه ويجعلونه نظيراً وشريكًا وجزءاً؛ مع أنه تعالى بديع العالم العلوي والسفلي وفاطره ومخترعه وبارئه؟ فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أب حتى يقولوا: إنه ولده، فإذا كان قد ابتدع العالم علويَّه وسفليَّه، فما يعجزه ويمنعه عن إبداع هذا العبد وتكوينه وخلقه بالقدرة التي خلق بها العالم العلوي والسفلي؟.

فمن نسب الولد لله، فما عرف الرب تعالى ولا آمن به ولا عَبَدَه.

فظهر أن هذه الحجة من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه.

وإن شئت أن تقرر الاستدلال بوجه آخر وهو أن يقال: إذا كان نسبة السموات والأرض وما فيهما إليه، إنما هي بالاختراع والخلق والإبداع؛ أنشأ ذلك وأبدعه من العدم إلى الوجود، فكيف يصح نسبة شيء من ذلك إليه بالبنوة؛ وقدرته على

اختراع العالم وما فيه لم تزل ولم يحتج فيها إلى معاون ولا صاحب ولا شريك.

وإن شئت أن تقررها بوجه آخر فتقول: النسبة إليه بالبنوة تستلزم حاجته وفقره إلى محل الولادة، وذلك ينافي غناه وانفراده بإبداع السموات والأرض. وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿**قَالوا اتَّخذ الله ولدًا سُبحانه هو الغنيُّ له ما في السموات وما في الأرض**﴾. [يونس:٦٨]. فكمال قدرته وكمال غناه وكمال ربوبيته يحيل نسبة الولد إليه، ونسبته إليه تقدح في كمال ربوبيته، وكمال غناه وكمال قدرته. ولذلك كان نسبة الولد إليه مسبة له تبارك وتعالى.

كما ثبت في الصحيحين، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**يقول الله تعالى: شتمني عبدي ابنُ آدم وما ينبغي له ذلك، وكَذبني ابنُ آدم وما ينبغي له ذلك، أما شَتْمُه إيايَّ فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحدُ الصمدُ الذي لم ألدْ ولم أُولدْ ولم يكن لي كُفُوًا أحد. وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يُعيدني كما بدأني وليس أولُ الخلقِ بأهْوَن علي من إعادته**».

وقال عمر بن الخطاب في النصارى: «**أذلوهم ولا تظلموهم؛ فلقد سبوا الله مسبةً ما سبَّه إياها أحد من البشر**».

وقال تعالى: ﴿**وَينذرَ الذين قالوا اتَّخَذ الله ولدًا ما لهُمْ به من عِلْم ولا لآبائهم**﴾. [الكهف:٥٤]. الآية.

وأخبر تعالى أنَّ السَموات كَادت تنفطر من قولهم هذا، وتَنْشَقَ الأرْض مِنْهُ، وتَخِر الجبال هدًّا، وما ذاك إلا لتضمنه شتم الرب تبارك وتعالى والتنقصَ به، ونسبة ما يمنع كمال ربوبيته وقدرته وغناه إليه.

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿**وإذَا قَضَى أمْرًا فَإنَّمَا يَقُول لَهُ كُنْ فَيكُون**﴾. [البقرة:١١٧]

وتقرير هذه الحجة: أن من كانت قدرته تعالى كافية في إيجاد ما يريد إيجاده بمجرد أمره وقوله: ﴿**كُن**﴾ فأي حاجة به إلى ولد وهو لا يتكثّر به من قلة ولا يتعزز به، ولا يستعين به، ولا يعجز عن خلق ما يريد خلقه؟! وإنما يحتاج إلى الولد من لا يخلق، ولا إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، وهذا المخلوقُ(١) العاجز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد.

وقد ذكر تعالى حججًا أخرى على استحالة نسبة الولد إليه فنذكرها في

(١) هذه الكلمة (المخلوقُ) معطوفة على مَنْ الموصولة السابقة التي هي في محل رفع فاعل. المراجع.

هـذا المـوضـع:

منها: كمال علمه وعموم خلقه لكل شيء، واستحالة نسبة الصاحبة إليه فقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿**بَديع السموات والأرْض أنى يَكُون لَهُ وَلَد وَلم تَكُنْ لَهُ صاحبة**﴾. [الأنعام: ١٠١]. الآية.

فأمّا منافاة عموم خلقه لنسبة الولد إليه فظاهر؛ فإنه لو كان له ولد لم يكن مخلوقًا، بل جزءًا وهذا ينافي كونه خالق كل شيء.

وبهذا يُعلم أن الفلاسفة الذين يقولون بتولد العقول والنفوس عنه بواسطة أو بغير واسطة، شرٌّ من النصارى، وأن من زعم أن العالم قديم فقد أخرجه عن كونه مخلوقًا لله، وقوله: أخبث من قول النصارى؛ لأن النصارى أخرجوا عن عموم خلقه شخصًا واحدًا أو شخصين، ومن قال بقدم العالم فقد أخرج العالم العلوي والسفلي والملائكة عن كونه مخلوقًا لله، والنصارى لم يصل كفرهم إلى هذا الحد.

وأما منـافاة عدم الصاحبة للولد فظاهر أيضًا؛ لأن الولد إنما يتولد من أصلين: فاعل، ومحل قابل يتصلان اتصالاً خاصًا، فينفصل من أحدهما جزء في الآخر يكون منه الولد، فمن ليس له صاحبة كيف يكون له ولد؛ ولذلك لما فهم عوام النصارى أن الابن يستلزم الصاحبة، لم يستنكفوا من دعوى كون مريم إلهة وأنها والدة الإله عيسى، فيقول عوامهم: يا والدة الإله اغفري لي، ويصرح بعضهم بأنها زوجة الرب.

ولا ريب أن القول بالإيلاد يستلزم ذلك، أو إثبات إيلاد لا يعقل ولا يتوهم، فخـواص النصارى في حيرة وضلال، وعوامهم لا يستنكفون أن يقولوا بالزوجة والإيلاد المعقول، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيراً.

والقوم في هذا المذهب الخبيث أضل خلق الله، فهم كما وصفهم الله بأنهم: ﴿**قد ضلوا من قبلُ وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواءِ السبيل**﴾ [المائدة: ٧٧].

وأما منافاة عموم علمه تعالى للولد فيحتاج إلى فهم خاص.

وتقريره أن يقال: لو كان له ولد لعلمه لأنه بكل شيء عليم، وهو تعالى لا يعلم له ولـدًا فيستحيل أن يكون له ولد لا يعلمه، وهذا استدلال بنفي علمه للشيء على نفيه في نفسه، إذ لو كان لَعَلِمَهُ، فحيث لم يعلمه فهو غير كائن.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُون مِنْ دُونِ الله مَالا يَضرُّهُم ولا يَنْفَعُهُمْ**﴾.

[يونس: ١٨]. الآية. فهذا نفي لما ادعوه من الشفعاء بنفي علم الرب تعالى بهم، المستلزم لنفي المعلوم ولا يمكن أعداء الله المكابرة، وأن يقولوا: قد علم الله وجود ذلك؛ لأنه تعالى إنما يعلم وجود ما أوجده وكونه، ويعلم أنه سيوجد ما يريد إيجاده فهو يعلم نفسه وصفاته، ويعلم مخلوقاته التي دخلت في الوجود وانقطعت، والتي دخلت في الوجود وبقيت، والتي لم توجد بعد. وأما شيء آخر غير مخلوق له ولا مربوب فالرب تعالى لا يعلمه؛ لأنه مستحيل في نفسه فهو يعلمه مستحيلاً لا يعلمه واقعًا؛ إذ لو عَلِمه واقعًا لكان العلم به عين الجهل، وذلك من أعظم المحال.

فهذه حجج الرب تبارك وتعالى على بطلان مانسبه إليه أعداؤه المفترون عليه، فوازن بينها وبين حجج المتكلمين الطويلة العريضة، التي هي كالضريع الذي لا يُسمِن ولا يُغني من جوع.

فإذا وازنت بينهما ظهرت لك المفاضلة إن كنت بصيرًا، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

فالحمد لله الذي أغنى عباده المؤمنين بكتابه وما أودعه من حججه وبيناته عن شقاشق المتكلمين وهذيانات المتهوكين، فلقد عظمت نعمة الله على عبد أغناه بفهم كتابه عن الفقر إلى غيره ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلنا عَلَيْك الكِتابَ يُتْلَى عليهم إنَّ في ذَلِكَ لَرَحْمَةً وذِكْرَى لِقَومٍ يؤمِنُون**﴾. [العنكبوت: ٥١].

...(١)**ولا** خلاف بين أهل اللغة أن الذرية يقال على الأولاد الصغار، وعلى الكبار أيضًا قال تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إبْرَاهِيم ربُّه بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهن قَال إنِي جَاعِلُك للنَّاس إمَامًا قَال ومِنْ ذُرِيَّتِي**﴾. [البقرة: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿**إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدم وَنُوحًا وآلَ إبْرَاهِيم وآلَ عِمْرَان على العالَمِين. ذُرِّيَّةً بَعْضُها من بَعْضٍ**﴾. [آل عمران: ٣٣، ٣٤]. وقال: ﴿**وَمِنْ آبائِهِم وذُرِيَّاتِهِمْ وإِخْوَانِهِمْ واجْتَبَيْنَاهُم وَهَدَيناهُمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم**﴾. [الأنعام: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿**وآتَيْنا مُوسى الكِتَابَ وَجَعَلْناه هُدًى لِبَنِي إسْرَائِيلَ أن لَّا تتخذوا من دوني وكيلاً. ذرية مَنْ حملنا مع نوحٍ إنَّهُ كان عبدًا شكورًا**﴾. [الإسراء: ٢، ٣].

وهل تقال الذرية على الآباء؟ فيه قولان: أحدهما أنهم يسمون ذرية أيضًا.

---

(١) ١٥٠/ جلاء الأفهام.

واحتجوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وآيَةٌ لَهُم أنَّا حَمَلنا ذُرِيَّتَهم في الفُلْكِ المَشْحونِ﴾. [يس: ٤١].

وأنكر ذلك جماعة من أهل اللغة، وقالوا: لا يجوز هذا في اللغة، والذرية كالنسل، والعقب لا يكون إلا للعمود الأسفل. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمن آبَائِهم وذُرِيَّاتِهِم وإخِوانِهِم﴾. [الأنعام: ٨٧]. فذكر جهات النسب الثلاث من فوق، ومن أسفل، ومن الأطراف.

قالوا: وأما الآية التي استشهدتم بها فلا دليل لكم فيها، لأن الذرية فيها لم تضف إليهم بوجه ما، والإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص. وإذا كان الشاعر قد أضاف الكوكب في قوله:

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحره ... سهيل أذاعت غزلها في القرائب

فأضاف إليها الكوكب؛ لأنها كانت تغزل إذا لاح وظهر. والاسم قد يضاف بوجهين مختلفين إلى شيئين، وجهة إضافته إلى أحدهما غير جهة إضافته إلى الآخر.

قال أبو طالب في النبي ﷺ:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعزي لقول الأباطل

فأضاف بنوته بجهة غير جهة إضافته إلى أبيه عبدالله.

وهكذا لفظة رسول الله، فإن الله سبحانه يضيفه إليه تارة كقوله: ﴿قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا﴾. [المائدة: ١٥]. وتارة إلى المرسل إليهم كقوله: ﴿أَمْ لَم يَعْرِفُوا رَسولَهُم﴾. [المؤمنون: ٦٩]. فإضافته سبحانه إليه إضافة رسول إلى مرسله. وإضافته إليهم إضافة رسول إلى مرسل إليهم.

وكذا لفظ «كتابه» فإنه يضاف إليه تارة. فيقال كتاب الله. ويضاف إلى العباد تارة فيقال: كتابنا القرآن، وكتابنا خير الكتب، وهذا كثير، فهكذا لفظ الذرية أضيف إليهم بجهة غير الجهة التي أضيف بها إلى آبائهم.

وقالت طائفة: بل المراد جنس بني آدم ولم يقصد الإضافة إلى الموجود في زمن النبي ﷺ، وإنما أريد ذرية الجنس.

وقالت طائفة: بل المراد بالذرية نفسها. وهذا أبلغ في قدرته وتعديد نعمه عليهم. أن حمل ذريتهم في الفلك في أصلاب آبائهم، والمعنى: أنا حملنا الذين هم ذرية هؤلاء وهم نطف في أصلاب الآباء. وقد أشبعنا الكلام على ذلك في

كتاب الروح والنفس.

إذا ثبت هذا فالذرية: الأولاد، وأولادهم.

وهل يدخل فيها أولاد البنات؟ فيه قولان للعلماء هما روايتان عن أحمد:

أحدهما: يدخلون وهو مذهب الشافعي.

والثاني: لا يدخلون وهو مذهب أبي حنيفة رحمهم الله تعالى.

واحتج من قال بدخولهم: بأن المسلمين مجمعون على دخول أولاد فاطمة رضي الله عنها في ذرية النبي ﷺ، المطلوب لهم من الله الصلاة؛ لأن أحدًا من بناته لم يعقب غيرها، فمن انتسب إليه ﷺ، من أولاد ابنته، فإنما هو من جهة فاطمة رضي الله عنها خاصة. ولهذا قال النبي ﷺ في الحسن ابن ابنته: «**إن ابني هذا سيد**» فسماه ابنه.

ولما أنزل الله سبحانه آية المباهلة ﴿**فَمَن حَآجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعدِ ما جَاءك مِن العِلْمِ فَقُلْ تَعالوا نَدْعُ أبناءَنا وأَبْنَاءَكم**﴾. [آل عمران: ٦١]. الآية؛ دعا النبي ﷺ فاطمة رضي الله عنها، وحسنًا رضي الله عنه، وحسينًا رضي الله عنه وخرج للمباهلة.

قالوا: وأيضًا فقد قال تعالى في حق إبراهيم: ﴿**وَمِنْ ذُرّيَّتِه دَاودَ وسُليمانَ وأيوبَ ويُوسُفَ ومُوسى وهَارُونَ وكَذَلِك نَجزي المُحْسِنين. وزَكَرِيَّا ويَحْيى وعِيسى وإليَاس**﴾. [الأنعام: ٨٤، ٨٥]. ومعلوم أن عيسى لم ينتسب إلى إبراهيم إلا من جهة أمه مريم.

وأما من قال بعدم دخولهم: فحجته أن ولد البنات إنما ينتسبون إلى آبائهم حقيقة، ولهذا إذا ولد الهذلي أو التيمي أو العدوي هاشمية لم يكن ولدها هاشميًا، فإن الولد في النسب يتبع أباه وفي الحرية والرق أمه، وفي الدين خيرهما دينًا؛ ولهذا قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا … بنوهن أبناء الرجال الأباعد

ولو وصى أو وقف على قبيلة لم يدخل فيها أولاد بناتها من غيرها.

قالوا: وأما دخول فاطمة رضي الله عنها في ذرية النبي ﷺ، فلشرف هذا الأصل العظيم والوالد الكريم، الذي لا يدانيه أحد من العالمين. سرى ونفذ إلى أولاد البنات لقوته وجلالته وعظم قدره، ونحن نرى من لا نسبة له إلى هذا الجناب العظيم من العظماء والملوك وغيرهم تسري حرمة إيلادهم وأبوتهم إلى أولاد بناتهم،

فتلحظهم العيون بلحظ أبنائهم ويكادون يضربون عن ذكر آبائهم صفحًا، فما الظن بهذا الإيلاد العظيم قدره الجليل خطره؟.

قالوا: وأما تمسككم بدخول المسيح في ذرية إبراهيم فلا حجة لكم فيه. فإن المسيح لم يكن له أب، فنسبه من جهة الأب مستحيل فقامت أمه مقام أبيه.

وهكذا كل من انقطع نسبه من جهة الأب: إما بلعان، أو غيره، قامت أمه في النسب مقام أبيه وأمه، ولهذا تكون في هذه الحال عصبته في أصح الأقوال. وهو إحدى الروايات عن الإمام أحمد رحمه الله. وهو مقتضى النصوص، وقول ابن مسعود وغيره. والقياس يشهد له بالصحة. لأن النسب في الأصل للأب، فإذا انقطع من جهته عاد إلى الأم فلو قدر عوده من جهة الأب رجع من الأم إليه وهكذا.

كما اتفق الناس عليه في الولاء أنه لموالي الأب. فإن تعذر رجوعه إليهم صار لموالي الأم. فإن أمكن عوده إليهم رجع من موالي الأم إلى معدنه وقراره.

ومعلوم أن الولاء فرع على النسب يحتذي فيه حذوه، فإذا كان عصبات الأم من الولاء، عصبات لهذا المولى الذي انقطع تعصيبه من جهة موالي أبيه؛ فلأن تكون عصبات الأم من النسب، عصبات لهذا الولد الذي انقطع تعصيبه من جهة أبيه بطريق الأولى. وإلا فكيف يثبت هذا الحكم في الولاء ولا يثبت في النسب الذي غايته أن يكون شبيهًا به ومفرعًا عليه، وهذا مما يدل على أن القياس الصحيح لا يفارق النص أصلاً، ويدلك على عمق علم الصحابة رضي الله عنهم، وبلوغهم في العلم إلى غاية يقصر عن نيلها السباق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.(١)

(٢)**وتأمل** كيف جاء في القرآن: ﴿**وباركنا عليه وعلى إسحاق**﴾. [الصآفات: ١٣٠] ولم يذكر إسماعيل، وجاء في التوراة ذكر البركة على إسماعيل ولم يذكر إسحاق، كما تقدم حكايته وعن إسماعيل: «**سمعتك هانا باركته**». فجاء في التوراة ذكر البركة في إسماعيل إيذانًا بما حصل لبنيه من الخير والبركة، لاسيما خاتمة بركتهم وأعظمها وأجلها برسول الله ﷺ، فنبههم بذلك على ما يكون في بنيه من هذه البركة العظيمة الموافية على لسان المبارك ﷺ، وذكر لنا في القرآن بركته على إسحاق منبهًا لنا على ما حصل

(١) سيأتي ذكر خليل الله إبراهيم في سورة الصافات وذكر فضائله وأهل بيته بأوسع من هذا إن شاء الله فراجعه (ج).

(٢) ١٨١ جلاء الأفهام.

في أولاده من نبوة موسى وغيره، وما أوتوه من الكتاب والعلم مستدعيًا من عباده الإيمان بذلك والتصديق به، وأن لا يهملوا معرفة حقوق هذا البيت المبارك وأهل النبوة منهم، ولا يقول القائل: هؤلاء أنبياء بني إسرائيل لا تعلق لنا بهم؛ بل يجب علينا احترامهم وتوقيرهم والإيمان بهم ومحبتهم وموالاتهم والثناء عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولما كان هذا البيت المبارك المطهر أشرف بيوت العالم على الإطلاق، خصهم الله سبحانه منه بخصائص:

منها: أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من أهل بيته.

ومنها: أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيامة، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم، فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم.

ومنها: أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين: إبراهيم، ومحمدًا ﷺ، وقال تعالى ﴿**وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾. [النساء: ١٢٥]. وقال النبي ﷺ: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيمَ خليلاً**» وهذا من خواص هذا البيت.

ومنها: أنه سبحانه جعل صاحب هذا البيت إمامًا للعالمين كما قال تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾. [البقرة: ١٢٤].

ومنها: أنه أجرى على يديه بناء بيته الذي جعله قيامًا للناس وقبلة لهم وحجًّا، فكان ظهور هذا البيت من أهل هذا البيت الأكرمين.

ومنها: أنه أمر عباده بأن يصلوا على أهل هذا البيت، كما صلى على أهل بيتهم وسلفهم وهم إبراهيم وآله، وهذه خاصية لهم.

ومنها: أنه أخرج منهم الأمتين المعظمتين التي لم تخرج من أهل بيت غيرهم. وهم: أمة موسى، وأمة محمد. وأمة محمد ﷺ تمام سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله.

ومنها: أن الله سبحانه أبقى عليهم لسان صدق وثناء حسنًا في العالم، فلا يذكرون إلا بالثناء عليهم والصلاة والسلام عليهم قال الله تعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ. سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾. [الصافات: ١٠٨-١١٠].

ومنها: جعل أهل هذا البيت فرقانًا بين الناس، فالسعداء أتباعهم ومحبوهم ومن تولاهم، والأشقياء من أبغضهم وأعرض عنهم وعاداهم. فالجنة لهم

ولأتباعهم، والنار لأعدائهم ومخالفيهم.

ومنها: أنه سبحانه جعل ذكرهم مقرونًا بذكره. فيقال: إبراهيم خليل الله ورسوله ونبيه. ومحمد رسول الله وخليله ونبيه. وموسى كليم الله ورسوله. قال تعالى لنبيِّه يذكره بنعمته عليه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. [الشرح:٤]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا ذُكرتُ ذكرتَ معي. فيقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله في كلمة الإسلام، وفي الأذان، وفي الخطب. وفي التشهدات وغير ذلك.

ومنها: أنه سبحانه جعل خلاص خَلْقه من شقاء الدنيا والآخرة على أيدي أهل هذا البيت. فلهم على الناس من النعم مالا يمكن إحصاؤها ولا جزاؤها، ولهم المنن الجسام في رقاب الأولين والآخرين من أهل السعادة، والأيدي العظام عندهم التي يجازيهم الله عز وجل عليها.

ومنها: أن كل ضرر[1] ونفع وعمل صالح وطاعة لله تعالى حصلت في العالم، فلهم من الأجر مثل أجور عامليها. فسبحان من يختص بفضله من يشاء من عباده.

ومنها: أنه سبحانه وتعالى سد جميع الطرق بينه وبين العالمين وأغلق دونهم الأبواب، فلم يفتح لأحد قط إلا من طريقهم وبابهم.

قال الجنيد رضي الله عنه: يقول الله عز وجل لرسوله ﷺ: «**وعزتي وجلالي لو أتوني من كل طريق أو استفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك**».

ومنها: أنه سبحانه خصهم من العلم بما لم يخص به أهل بيت سواهم من العالمين، فلم يطرق العالم أهل بيت أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكامه وأفعاله وثوابه وعقابه وشرعه، ومواقع رضاه وغضبه وملائكته ومخلوقاته منهم، فسبحان من جمع لهم علم الأولين والآخرين.

ومنها: أنه سبحانه خصهم من توحيده ومحبته وقربه والاختصاص به، بما لم يخص به أهل بيت سواهم.

ومنها: أنه سبحانه مكّن لهم في الأرض واستخلفهم فيها، وأطاع لهم أهل الأرض ما لم يحصل لغيرهم.

ومنها: أنه سبحانه أيدهم ونصرهم وأظفرهم بأعدائه وأعدائهم بما لم يؤيد غيرهم.

(١) قلت: [هكذا في المطبوعة، والصواب حذفها إذ المقام مقام مدح. وإثباتها تستلزم الذم] اهـ المراجع.

ومنها: أنه سبحانه محا بهم من آثار أهل الضلال والشرك، ومن الآثار التي يبغضها ويمقتها ما لم يمحه بسواهم.

ومنها: أنه سبحانه غرس لهم من المحبة والإجلال والتعظيم في قلوب العالمين، ما لم يغرسه لغيرهم.

ومنها: أنه سبحانه جعل آثارهم في الأرض سببًا لبقاء العالم وحفظه، فلا يزال العالم باقيًا ما بقيت آثارهم، فإذا ذهبت آثارهم من الأرض فذاك أوان خراب العالم. قال الله تعالى: ﴿**جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَامًا للنَّاسِ والشَّهْرَ الحَرَامَ والهَدْيَ والقَلائِدَ**﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: «**لو ترك الناس كلهم الحج لوقعت السماء على الأرض**» وقال: «**لو ترك الناس كلهم الحج لما نظروا**» وأخبر النبي ﷺ، أن في آخر الزمان يرفع الله بيته من الأرض وكلامه من المصاحف وصدور الرجال، فلا يبق له في الأرض بيت يحج ولا كلام يتلى، فحينئذ يقرب خراب العالم.

وهكذا الناس اليوم إنما قيامهم بقيام آثار نبيهم وشرائعه بينهم. وقيام أمورهم وحصول مصالحهم واندفاع أنواع البلاء والشر عنهم؛ بحسب ظهورها بينهم وقيامها وهلاكهم وعنتهم وحلول البلاء والشر بهم، عند تعطلها والإعراض عنها والتحاكم إلى غيرها واتخاذ سواها.

ومن تأمل تسليط الله سبحانه من سلَّطه على البلاد والعباد من الأعداء؛ علم أن ذلك بسبب تعطيلهم لدين نبيهم وسننه وشرائعه؛ فسلط الله عليهم من أهلكهم وانتقم منهم، حتى إن البلاد التي لآثار النبي ﷺ، وسننه وشرائعه فيها ظهور دفع عنها، بحسب ظهور ذلك بينهم.

وهذه الخصائص وأضعاف أضعافها من آثار رحمة الله وبركاته على أهل هذا البيت. فلهذا أمرنا رسول الله ﷺ أن نطلب له من الله تعالى أن يبارك عليه وعلى آله، كما بارك على هذا البيت المعظم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن بركات أهل هذا البيت أنه سبحانه أظهر على أيديهم من بركات الدنيا والآخرة، ما لم يظهره على يدي أهل بيت غيرهم.

ومن بركاتهم وخصائصهم أن الله سبحانه أعطاهم من خصائصهم، ما لم يعط غيرهم

فمنهم: من اتخذه خليلاً، ومنهم الذبيح، ومنهم من كلمه تكليمًا وقربه نجيًا.

ومنهم: من أتاه شطر الحسن وجعله من أكرم الناس عليه.

ومنهم: من آتاه ملكًا لم يؤته أحدًا غيره، ومنهم من رفعه مكانًا عليًا.

ولما ذكر سبحانه هذا البيت وذريتهم أخبر أن كلهم فضله على العالمين.

ومن خصائصهم وبركاتهم على أهل الأرض، أن الله سبحانه رفع العذاب العام عن أهل الأرض بهم وببعثتهم، وكانت عادته سبحانه في أمم الأنبياء قبلهم أنهم إذا كذبوا أنبياءهم ورسلهم أهلكهم بعذاب يعمهم كما فعل بقوم نوح وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط؛ فلما أنزل الله التوراة والإنجيل والقرآن، رفع بها العذاب العام عن أهل الأرض وأمر بجهاد من كذبهم وخالفهم. فكان بذلك نصرة لهم بأيديهم، وشفاء لصدورهم، واتخاذ الشهداء منهم وإهلاك عدوهم بأيديهم لتحصيل محابه سبحانه على أيديهم.

وحق لأهل بيت هذا بعض فضائلهم وخصائصهم؛ أن لا تزال الألسن رطبة بالصلاة عليهم والسلام والثناء والتعظيم، والقلوب ممتلئة من تعظيمهم ومحبتهم وإجلالهم، وأن يعرف المصلي عليهم أنه لو أنفق أنفاسه كلها في الصلاة عليهم ما وفَّى القليل من حقهم، فجزاهم الله عن بريته أفضل الجزاء، وزادهم في الملأ الأعلى تعظيمًا وتشريفًا وتكريمًا، وصلى الله عليهم صلاة دائمة لا انقطاع لها وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

(1)**قوله** تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾. [البقرة: ١٣٥]. فأُجيبوا عن هذه الدعوة بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمن المنع والمعارضة:

أما المنع فما تضمنه حرف (بل) من الإضراب أي: ليس الأمر كما قالوا. وأما المعارضة ففي قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: يتبع أو يتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا.

وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب، مما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية، لأنه وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك، ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد، فهو أولى بأن يتبع ممن ملته اليهودية والنصرانية، فإن الحنيفية والتوحيد هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه، وهو الفطرة التي فطر الله عليها عباده، فمن كان عليها فهو المهتدي لا من كان يهوديًا أو نصرانيًا.

---

(١) ١٥٥ بدائع جـ٤.

فإن الحنيفية تتضمن الإقبال على الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذل.

والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره؛ فيُعبَد وحده ويُحب وحده ويطاع وحده، ولا يجعل معه إلهًا آخر، فمن أولى بالهداية صاحب هذه الملة أو ملة اليهودية والنصرانية؟

ولا يبقى بعد هذا للخصوم إلا سؤال واحد. وهو أن يقولوا: فنحن على ملته أيضًا لم نخرج عنها وإبراهيم وبنوه كانوا هودًا أو نصارى.

فأجيبوا عن هذا السؤال بأنهم كاذبون فيه، وأن الله تعالى قد علم أنه لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا فقال تعالى: ﴿**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إبراهيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحاق ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أو نَصَارى**﴾. [البقرة: ١٤٠]. الآية وقرر تعالى هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله: ﴿**مَا كان إبْرَاهِيمُ يَهُوديًا ولا نَصْرَانِيًّا**﴾. إلى قوله: ﴿**والله وليُّ المؤمنين**﴾. [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

فإن قالوا: فهب أن إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا فنحن على ملته وإن انتحلنا هذا الاسم.

فأجيبوا عن هذا بقوله تعالى: ﴿**قُولوا آمَنَّا بالله**﴾ إلى قوله: ﴿**ونحنُ له مسلمون**﴾. [البقرة: ١٣٦]. فهذه للمؤمنين.

ثم قال: ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُم به فقد اهْتَدوا**﴾ [البقرة: ١٣٧]. وإن أتوا من الإيمان بمثل ما أتيتم به، فهم على ملة إبراهيم وهم مهتدون، وإن لم يأتوا بإيمان مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيم وملته في شيء، وإنما هم في شقاق وعداوة فإن ملة إبراهيم الإيمان بالله وكتبه ورسله، وأن لا يفرق بين أحد منهم فيؤمن ببعضهم ويكفر ببعضهم، فمن لم يأت بمثل هذا الإيمان فهو بريء من ملة إبراهيم مشاق لمن هو على ملته.

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ أأنْتُم أعْلَمُ أم الله**﴾. [البقرة: ١٤٠]. أي: الله تعالى يعلم ما كان عليه إبراهيم والنبيون من الملل، وأنهم لم يكونوا يهودًا ولا نصارى فالله تعالى يعلم ذلك، فلو كانوا يهودًا أو نصارى والله تعالى لا يعلم ذلك لكنتم أعلم من الله بهم، هذا مع أن عندكم شهادة وبيّنة من الله بما كان عليه إبراهيم، وبأن هذا النبي على ملته ولكنكم كتمتم هذه الشهادة عن أتباعكم؛ فلم تؤدوها إليهم مع تحققكم لها، ولا أظلم ممن كتم شهادة استشهده الله بها فهي عنده من الله؛ إلا أنه كتمها من الله فالمجرور

متعلق بما تضمنه الظرف الذي هو عنده من الكون والحصول.

(١) **قوله** تعالى: ﴿**بِمِثْلِ ما آمَنْتُم بِهِ**﴾ وليس له مثل والجواب من أوجه:

الأول: أن المراد به التبكيت والمعنى: حصلوا دينًا آخر مثله وهو لا يمكن.

الثاني: أن المثل صلة.

الثالث: أنكم آمنتم بالفرقان من غير تصحيف ولا تحريف، فإن آمنوا بالتوراة من غير تصحيف ولا تحريف فقد اهتدوا.

الرابع: أن المراد: إن آمنوا بمثل ما صرتم به مؤمنين، روى ابن جرير أن ابن عباس قال: **قولوا فإن آمنوا بالذي آمنتم به**. قال عبد الجبار: ولا يجوز ترك القراءة المتواترة.

(٢)الفصل السابع في حكمة الختان وفوائده

الختان من محاسن الشرائع التي شرعها الله سبحانه لعباده، وكمل بها محاسنهم الظاهرة والباطنة، فهو مكمل الفطرة التي فطرهم عليها، ولهذا كان من تمام الحنيفية ملة إبراهيم، وأصل مشروعية الختان لتكميل الحنيفية، فإن الله عز وجل لما عاهد إبراهيم ووعده أن يجعله للناس إمامًا، وعده أن يكون أبًا لشعوب كثيرة، وأن تكون الأنبياء والملوك من صلبه، وأن يكثر نسله، وأخبره أنه جاعل بينه وبين نسله علامة العهد أن يختنوا كل مولود منهم، ويكون عهدي هذا ميسمًا في أجسادهم، فالختان عَلم للدخول في ملة إبراهيم، وهذا موافق لتأويل من تأول قوله تعالى: ﴿**صِبْغَةَ الله وَمَن أحْسَنُ مِنْ الله صِبْغَةً**﴾ [البقرة:١٣٨]. على الختان.

فالختان للحنفاء بمنزلة الصبغ والتعميد لعباد الصليب، فهم يطهرون أولادهم بزعمهم حين يصبغونهم في ماء المعمودية، ويقولون: الآن صار نصرانيًا، فشرع الله سبحانه للحنفاء صبغة الحنيفية، وجعل ميسمها الختان، فقال: ﴿**صِبْغَةَ الله ومَنْ أحْسَنُ من الله صِبْغَةً**﴾.

وقد جعل الله سبحانه السمات علامات لمن يضاف إليه المعلم بها، ولهذا الناس يسمون دوابهم ومواشيهم بأنواع السمات، حتى ما يكون مضاف منها إلى كل إنسان معروفًا بسمته، ثم قد تكون هذه السمة متوارثة في أمة بعد أمة.

فجعل الله سبحانه الختان علمًا لمن يضاف إليه وإلى دينه وملته، وينسب إليه

---

(١) ٢٠٨ بدائع جـ٤. (٢) ١٠٩ تحفة المودود.

بنسبة العبودية والحنيفية، حتى إذا جهلت حال إنسان في دينه عرف بسمة الختان ودينه، وكانت العرب تدعى بأمة الختان.

ولهذا في حديث هرقل: إني أجد ملك الختان قد ظهر، فقال له أصحابه: لا يهمنك هذا، فإنما تختتن اليهود فاقتلهم، فبينما هم على ذلك، وإذا برسول رسول الله ﷺ، قد جاء بكتابه، فأمر به أن يكشف وينظر هل هو مختون؟ فوجد مختونًا، فلما أخبره أن العرب تختتن، قال هذا ملك هذه الأمة.

ولما كانت وقعة أجنادين بين المسلمين والروم جعل هشام بن العاص يقول: يا معشر المسلمين! إن هؤلاء القلف لا صبر لهم على السيف، فذكرهم بشعار عباد الصليب ودينهم، وجعله مما يوجب إقدام الحنفاء عليهم وتطهير الأرض منهم.

والمقصود أن صبغة الله هي الحنيفية التي صبغت القلوب بمعرفته ومحبته والإخلاص له وعبادته وحده لا شريك له.

وصبغة الأبدان بخصال الفطرة: من الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الآباط والمضمضة والاستنشاق والسواك والاستنجاء، فظهرت فطرة الله على قلوب الحنفاء وأبدانهم.

قال محمد بن جرير في قوله تعالى: ﴿صبغةَ الله﴾. [البقرة:١٣٨]. يعني بالصبغة: صبغة الإسلام، وذلك أن النصارى إذا أرادت أن تُنصِّر أطفالها جعلتهم في مباهم، وتزعم أن ذلك مما يقدس بمنزلة الختان لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية، فقال الله جل ثناؤه لنبيه ﷺ، لما قال اليهود والنصارى: ﴿**كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا، قلْ بلْ ملةَ إبراهيمَ حنيفًا وما كان من المشركين - إلى قوله - صبغةَ الله ومن أحسنُ من الله صبغة**﴾. [البقرة:١٣٥-١٣٨].

قال قتادة: إن اليهود تصبغ أبناءها يهودًا، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى، وإن صبغة الله: الإسلام، فلا صبغة أحسن من الإسلام ولا أطهر.

وقال مجاهد: صبغة الله: فطرة الله، وقال غيره: دين الله.

هذا مع ما في الختان من الطهارة والنظافة والتزيين وتحسين الخلقة وتعديل الشهوة، التي إذا أفرطت ألحقت الإنسان بالحيوانات، وإن عدمت بالكلية ألحقته بالجمادات، فالختان يعدلها. ولهذا تجد الأقلف من الرجال والقلفاء من النساء لا يشبع من الجماع.

ولهذا يذم الرجل ويشتم ويعير بأنه ابن القلفاء ـ إشارة إلى غلمتها ـ وأي زينة أحسن من أخذ ما طال وجاوز الحد: من جلدة القلفة، وشعر العانة، وشعر الإبط، وشعر الشارب، وما طال من الظفر؛ فإن الشيطان يختبىء تحت ذلك كله ويألفه ويقطن فيه، حتى أنه ينفخ في إحليل الأقلف وفرج القلفاء ما لا يُنفخ في المختون، ويختبىء في شعر العانة وتحت الأظفار، فالغرلة أقبح في موضعها من الظفر الطويل، والشارب الطويل والعانة الفاحشة الطول، ولا يخفى على ذي الحس السليم قبح الغرلة، وما في إزالتها من التحسين والتنظيف والتزيين، ولهذا لما ابتلى الله خليله إبراهيم بإزالة هذه الأمور فأتمهن جعله إمامًا للناس، هذا مع ما فيه من بهاء الوجه وضيائه. وفي تركه من الكسفة التي ترى عليه.

(1)**وإنما** كانت هذه الخصال من الفطرة؛ لأن الفطرة، هي الحنيفية ملة إبراهيم، وهذه الخصال أمر بها إبراهيم، وهي من الكلمات التي ابتلاه ربه بهن، كما ذكر عبدالرزاق عن معمر، عن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: «ابتلاه بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد، التي في الرأس: ١ ـ قص الشارب، ٢ ـ والمضمضة، ٣ ـ والاستنشاق، ٤ ـ والسواك، ٥ ـ وفرق الرأس. وفي الجسد: ١ ـ تقليم الأظفار، ٢ ـ وحلق العانة، ٣ ـ والختان، ٤ ـ ونتف الإبط، ٥ ـ وغسل أثر الغائط والبول بالماء».

والفطرة فطرتان: فطرة تتعلق بالقلب، وهي معرفة الله ومحبته وإيثاره على ما سواه، وفطرة عملية، وهي هذه الخصال: فالأولى: تزكّي الروح وتطهِّر القلب، والثانية: تطهِّر البدن، وكل منهما تمد الأخرى وتقويها، وكان رأس فطرة البدن: الختان، لما سنذكره في الفصل السابع إن شاء الله.

وفي مسند الإمام أحمد: من حديث عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: **«من الفطرةِ ـ أو الفطرةُ ـ: ١ ـ المضمضة، ٢ ـ والاستنشاق، ٣ ـ وقص الشارب، ٤ ـ والسواك، ٥ ـ وتقليم الأظفار، ٦ ـ وغسل البراجم، ٧ ـ ونتف الإبط، ٨ ـ والاستحداد، ٩ ـ والاختتان، ١٠ ـ والانتطاق»**، [نسخة: الانتضاح] وقد اشتركت خصال الفطرة في الطهارة والنظافة وأخذ الفضلات المستقذرة، التي يألفها الشيطان ويجاورها من بني آدم، وله بالغرلة اتصال واختصاص ستقف عليه،

(١) ٩٤ تحفة المودود.

في الفصل السابع إن شاء الله.

وقال غير واحد من السلف: من صلَّى وحج واختتن فهو حنيف، فالحج والختان: شعار الحنيفية، وهي ﴿**فطرة الله التي فَطَرَ الناسَ عليها**﴾. [الروم: ٣٠].

قال الراعي: يخاطب أبا بكر رضي الله عنه:

أخليفة الرحمن إنّا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً
عربًا نرى لله في أموالنا حق الزكاة مُنزّل تنزيلاً

(١)**قوله** تعالى: ﴿**سيقول السفهاء**﴾ إلى قوله: ﴿**صراط مستقيم**﴾. [البقرة: ١٤٢]

هذا سؤال من السفهاء أوردوه على المؤمنين.

ومضمونه أن القبلة الأولى إن كانت حقًا فقد تركتم الحق، وإن كانت باطلاً فقد كنتم على باطل، ولفظ الآية وإن لم يدل على هذا؛ فالسفهاء المجادلون في القبلة قالوه فأجاب الله تعالى عنه بجواب شاف بعد أن ذكر قبله مقدمات تقرره وتوضحه.

والسؤال من جهة الكفار أوردوه على صور متعددة ترجع إلى شيء واحد فقالوا ما تقدم.

وقالوا: لو كان نبيًا ما ترك قبلة الأنبياء قبله.

وقالوا: لو كان نبيًا ماكان يفعل اليوم شيئًا وغدًا خلافه.

وقال المشركون: قد رجع إلى قبلتكم فيوشك أن يرجع إلى دينكم.

وقال أهل الكتاب: لو كان نبيًا ما فارق قبلة الأنبياء، وكثر الكلام وعظمت المحنة على بعض الناس كما قال تعالى:

﴿**وإنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إلا عَلَى الذين هدى الله**﴾. [البقرة: ١٤٣].

وتأمل حكمة العزيز الحكيم ولطفه وإرشاده في هذه القصة؛ لما علم أن هذا التحويل أمر كبير كيف وطّأه ومهّده وذلله بقواعد قبله، فذكر النسخ وأنه إذا نسخ شيئًا أتى بمثله أو خير منه، وأنه قادر على ذلك فلا يعجزه، ثم قرر التسليم للرسول وأنه لا ينبغي أن يعترض عليه ويسأل تعنتًا كما جرى لموسى مع قومه.

ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمته وذكر بانيه وأثنى عليه وأوجب اتباع ملته، فقرر في النفوس بذلك توجهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة، وإلى بانيه بالاتّباع والموالاة والموافقة.

---

(١) ١٥٧ بدائع جـ٤.

وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرًا، فالقلوب عاكفة على محبته دائمة الاشتياق إليه، متوجهة إليه حيث كانت.

ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين وأضافه إليه بقوله: ﴿**أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ**﴾. [البقرة: ١٢٥].

وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من محبته والشوق إليه ما أسكنت.

وهي التي أقبلت بأفئدة العالم إليه، فلما استقرت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذُكّروا بها؛ فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة، ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت فلما برز مرسوم ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجدِ الحَرَامِ**﴾ [البقرة: ١٤٤] تلقاه رسول الله ﷺ والراسخون في الإيمان بالبشرى والقبول وكان عيدًا عندهم؛ لأن رسول الله ﷺ، كان كثيراً ما يقلب وجهه في السماء ينتظر أن يحوِّله الله عن قبلة أهل الكتاب، فولاه الله القبلة التي يرضاها وتلقى ذلك الكفار بالمعارضة، وذكر الشبهات الداحضة، وتلقاه الضعفاء من المؤمنين بالإغماض والمشقة، فذكر تعالى أصناف الناس عند الأمر باستقبال الكعبة، وابتدأ ذلك بالتسلية لرسوله وللمؤمنين عما يقول السفهاء من الناس: فلا تعبؤوا بقولهم فإنه قول سفيه.

ثم قال: ﴿**قُلْ لله المَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ**﴾. [البقرة: ١٤٢].

فأخبر تعالى أن المشرق والمغرب له وأنه رب ذلك، فأينما تعبَّد له عباده بأمره إلى أي جهة كانت، فهم مطيعون له.

كما قال: ﴿**ولله المَشْرِقُ والمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله**﴾. [البقرة: ١١٥].

فلم يُصل مستقبل الجهات بأمره إلَّا له تعالى، فإذا كنتم تصلون إلى غير الكعبة بأمره ثم أمركم أن تصلوا إليها، فما صليتم إلَّا له أولاً وآخرًا وكنتم على حق في الاستقبال الأول والآخر، لأن كليهما كان بأمره ورضاه فانتقلتم من رضاه إلى رضاه.

ثم نبّه على فضل الجهة التي أمرهم بالاستقبال إليها ثانيًا، بأنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، كما هداكم للقبلة التي جعلها قبلتكم وشرعها لكم ورضيها، ولكن أمركم باستقبال غيرها أولاً لحكمة له في ذلك، وهو أن يعلم سبحانه من يتبع

الرسول ويدور معه حيثما دار ويأتمر بأوامره كيف تصرفت، وهو العالم بكل شيء؛ ولكن شاء أن يعلم معلومه الغيبي عيانًا مشاهدًا فيتميز بذلك الراسخ في الإيمان المُسَلِّم للرسول المنقاد له، ممن يعبد الله على حرف فينقلب على عقبه بأدنى شبهة، فهذا من بعض حكمه في أن جعل القبلة الأولى غير الكعبة، فلم يشرع ذلك سُدًى ولا عبثًا.

ثم أخبر سبحانه أنه كما جعل لهم أوسط الجهات قبلة بتعبّدهم، فكذلك جعلهم أمة وسطًا، فاختار القبلة الوسط في الجهات للأمة الوسط في الأمم.

ثم ذكر أن هذا التفضيل والاختصاص ليستشهدهم على الأمم، فيقبل شهادتهم على الخلائق يوم القيامة.

ثم أجاب تعالى عما سأل عنه المؤمنون: من صلاتهم إلى القبلة الأولى، وصلاة من مات من إخوانهم قبل التحويل فقال: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾. [البقرة:١٤٣]. وفيه قولان:

أحدهما: ما كان ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يجازيكم عليها لأنها كانت بأمره ورضاه.

والثاني: ما كان ليضيع إيمانكم بالقبلة الأولى وتصديقكم بأن الله شرعها ورضيها.

وأكثر السلف والخلف على القول الأول، وهو مستلزم للقول الآخر.

ثم ذكر منّته على رسوله واطلاعه على حرصه على تحويله عن قبلته الأولى فقال:

﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾. [البقرة:١٤٤].

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب بأنهم يعلمون أنه الحق من ربهم، ولم يذكر للضمير مفسرًا غير ما في السياق وهو الأمر باستقبال المسجد الحرام، وأن أهل الكتاب عندهم من علامات هذا النبي أن يستقبل بيت الله الذي بناه إبراهيم في صلاته .ثم أخبر تعالى عن شدة كفر أهل الكتاب بأنهم لو أتاهم الرسول بكل آية ماتبعوا قبلته، ففي ذلك التسلية له وتركهم وقبلتهم، ثم برأه من قبلتهم فقال: ﴿**وما أنت بتابع قبلتهم**﴾. [البقرة:١٤٥].

ثم ذكر اختلافهم في القبلة وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى؛

لأن القبلة من خواص الدين وأعلامه وشعائره الظاهرة، فأهل كل دين لا يفارقون قبلتهم إلا أن يفارقوا دينهم، فأخبر تعالى في هذه الجمل الثلاث بثلاث إخبارات تتضمن براءة كل طائفة من قبلة الطائفة الأخرى، وتتضمن الإخبار بأن أهل الكتاب لو رأوا كل آية تدل على صدق الرسول لما تبعوا قبلته عنادًا وتقليدًا لآبائهم، وإنهم وإن اشتركوا في خلاف القبلة الحق فهم مختلفون في باطلهم فلا تتبع طائفة قبلة الأخرى، فهم متفقون على خلاف الحق مختلفون في اختيار الباطل.

وفي هذه الآية أيضًا تثبيت للرسول، ﷺ، وللمؤمنين على لزوم قبلتهم وأنه لا يشتغل بما يقوله أهل الكتاب: ارجعوا إلى قبلتنا فنتبعكم على دينكم فإن هذا خداع ومكر منهم؛ فإنهم لو رأوا كل آية تدل على صدقك ماتبعوا قبلتك؛ لأن الكفر قد تمكن من قلوبهم فلا مطمع للحق فيها، ولست أيضًا بتابع قبلتهم فليقطعوا مطامعهم من موافقتك لهم وعودك إلى قبلتهم، وكذلك هم أيضًا مختلفون فيما بينهم فلا يتبع أحد منهم قبلة الآخر،فهم مختلفون في القبلة، ولستم أيها المؤمنون موافقين لأحد منهم في قبلته؛ بل أكرمكم الله بقبلة غير قبلة هؤلاء المختلفين، اختارها الله لكم ورضيها.

وأكد تعالىٰ هذا المعنى بقوله: **﴿ولئِن اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهم من بعدِ ما جاءَكَ من العلم إنَّك إذًا لَمِنَ الظالمين﴾** [البقرة: ١٤٥].

فهذا كله تثبيت وتحذير من موافقتهم في القبلة وبراءة من قبلتهم كما هم براء من قبلتك وكما بعضهم بريء من قبلة بعض، فأنتم أيها المؤمنون أولى بالبراءة من قبلتهم التي أكرمكم الله بالتحويل عنها.

ثم أكد ذلك بقوله: **﴿الحقُّ من ربِّك فلا تكونَنَّ من المُمْتَرِين﴾**. [البقرة: ١٤٧].

ثم أخبر تعالى عن اختصاص كل أمة بقبلتهم فقال: **﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُو مُوَلِّيها﴾**. [البقرة: ١٤٨] وأصح القولين أن المعنى: هو متوجه إليها أي: موليها وجهه، فالضمير راجع إلى كل.

وقيل: إلى الله أي الله موليها إياه وليس بشيء؛ لأنه الله لم يولِّ القبلة الباطلة أبدًا، ولا أمر النصارى باستقبال الشرق قط؛ بل هم تولوا هذه القبلة من تلقاء أنفسهم وولوها وجوههم وقوله: **﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾**. [البقرة: ١٤٨] مشعر بصحة هذا القول أي: إذا كان أهل الملل قد تولوا الجهات فاستبقوا أنتم الخيرات،

وبادروا إلى ما اختاره الله لكم ورضيه وولاكم إياه ولا تتوقفوا فيه، أينما تكونوا يأتِ بكم الله جميعًا، يجمعكم من الجهات المختلفة والأقطار المتباينة إلى موقف القيامة، كما تجتمعون من سائر الجهات إلى جهة القبلة التي تأمونها، فهكذا تجتمعون من سائر أقطار الأرض إلى جهة الموقف الذي يؤمه الخلائق.

وهذا نظير قوله تعالى: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُم شِرْعَةً ومِنْهاجًا ولو شاء الله لجَعَلَكُم أُمَةً واحِدَةً ولكن لِيَبْلُوَكُم فِيما آتاكُم فاسْتَبِقُوا الخَيرات﴾**. [المائدة: ٤٨].

وأخبر أن مرجعهم إليه عند إخباره بتعدد شرائعهم ومناهجهم، كما ذكر ذلك بعينه عند إخباره بتعدد وجهتهم وقبلتهم. فقال: **﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فاستبقوا الخَيْراتِ أَيْنَما تَكُونوا يأتِ بكم الله جميعًا﴾**. [البقرة: ١٤٨].

وتحت هذا سر بديع يفهمه من يفهمه، وهو أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل يكون أقربها إلى الحق ما كان أدل على الله وأوصل إليه؛ لأنه كما أن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم، فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد، فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه؛ إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة.

فإذا كان أكثر الناس قد أبى ذلك إلا كفورًا وذهابًا في الطرق الباطلة وعبادة غيره، وإن دانوا غير دينه فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون للخيرات وبادروا إليها، ولا تذهبوا مع الذين يسارعون في الباطل والكفر.

فتأمل هذا السر البديع في السورتين، وفي قوله: **﴿فَيُنَبِّئُكُم بِما كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفُون﴾**. [المائدة: ٤٨، الأنعام: ١٦٤] سر آخر أيضًا، وهو أن هذا الاختلاف دليل على يوم الفصل، وهو اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، ويبيِّن[1] لهم حقيقة ما اختلفوا فيه، فنفس الاختلاف دليل على يوم الفصل والبعث.

وقد أوضح ذلك قوله تعالى في سورة النحل: **﴿وأَقْسَمُوا بالله جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعثُ الله من يَموتُ. بلى وَعْدًا عَلْيه حَقًّا ولَكِنَّ أَكْثَر النَّاسِ لا يَعْلَمُون لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الذي يَخْتَلِفُون فيه ولِيَعْلَمَ الذين كَفَرُوا أَنَّهُم كَانُوا كَاذِبِين﴾**. [النحل: ٣٨، ٣٩].

فذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثه الأموات بعدما أماتهم.

---

(١) في النسخة (بين) والصواب ما أثبتناه. المراجع.

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذبًا وأنه كان على باطل، وأن نسبته أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه؛ فيخزيه ذلك أعظم خزي.

فتأمل أسرار كلام الرب تعالى، وما تضمنته آيات الكتاب المجيد من الحكمة البالغة الشاهدة بأنه كلام رب العالمين، والشاهدة لرسوله بأنه الصادق المصدوق، وهذا كله من مقتضى حكمته وحمده تعالى، وهو معنى كونه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، ولم يخلق ذلك باطلاً بل خلقه خلقًا صادرًا عن الحق آيلاً إلى الحق مشتملاً على الحق، فالحق سابق لخلقها مقارن له غاية له؛ ولهذا أتى بالباء الدالة على هذا المعنى دون اللام المفيدة لمعنى الغاية وحدها، فالباء مفيدة معنى اشتمال خلقها على الحق السابق والمقارن والغاية.

فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته، وبكمال هاتين الصفتين؛ يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمة كله ومصلحة وحقًّا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَدُن حَكِيْمٍ عَلِيْمٍ**﴾. [النمل: ٦]. فأخبر أن مصدر التلقِّي عن علم المتكلم وحكمته، وما كان كذلك كان صدقًا وعدلاً وهدى وإرشادًا.

وكذلك قالت الملائكة لامرأة إبراهيم حين قالت: ﴿**عجوز عقيم**﴾ قالوا: ﴿**كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ**﴾. [الذاريات: ٣٠]. وهذا راجع إلى قوله وخلقه، وهو خلق الولد لها على الكِبَر.

وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات، فهو ما اشتملت من الحكم والمصالح والمنافع والآيات الدالة للعباد على الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسله، وأن لقاءه حق لا ريب فيه.

ومن نظر في الموجودات ببصيرة قلبه؛ رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد؛ لأنها شهادة حال لا يقبل كذبًا، فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقًا حق تأمله إلا وجده دالاًّ على فاطره وبارئه وعلى وحدانيته، وعلى كمال صفاته وأسمائه، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه.

وهذه طريقة القرآن في إرشاده الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات

وأحوالها على إثبات الصانع، وعلى التوحيد والمعاد والنبوات.

فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلاً ولا عبثًا، ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق.

ومرة يخبرهم وينبههم على وجوه الاعتبار والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسله، حتى يبين لهم أن الرسل إنما جاءوهم بما يشاهدون أدلة صدقه وبما لو تأملوه؛ لرأوه مركوزًا في فطرهم مستقرًا في عقولهم، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به رسله عنه: من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته، وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان إنما يفتحه الله على من سبقت له منه سابقة السعادة، وهذا أشرف علم يناله العبد في هذه الدار.

وقد بينتُ في موضع آخر أن كل حركة تشاهد على اختلاف أنواعها، فهي دالة على التوحيد والنبوات والمعاد بطريق سهلة واضحة برهانية.

وكذلك ذكرتُ في رسالة إلى بعض الأصحاب بدليل واضح: أن الروح مركوز في أصل فطرتها وخلقتها شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركوزًا في نفس روحه وذاته وفطرته.

فلو تأمل العاقل الروح وحركتها فقط، لاستخرج منها الإيمان بالله وصفاته والشهادة بأنه: لا إله إلا هو، والإيمان برسله وملائكته ولقائه، وإنما يصدق بهذا من أشرقت شمس الهداية على أفق قلبه، وانجابتْ عنه سحائب غيّه وانكشف عن قلبه حجاب: ﴿إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارِهِمْ مُقْتَدُون﴾.

[الزخرف: ٢٣].

فهنالك يبدو له سرٌّ طال عنه اكتتامه، ويلوح له صباح هو ليله وظلامه.

فقف الآن عند كل كلمة من قوله تعالى: ﴿إنّ في السَّموَاتِ والأرْضِ لآيَاتٍ للمُؤمِنِين. وفي خَلْقِكم وما يبثُّ من دَآبَةٍ آيَاتٌ لِقَومٍ يُوقِنُون. واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ وَمَا أَنزَل الله من السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْض بَعْد مَوْتِها وتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْم يعقلون﴾. [الجاثية: ٣-٥].

ثم تأمل وجه كونها آية وعلى ماذا جعلت آية؟ أعلى مطلوب واحد أم مطالب متعددة؟ وكذلك سائر ما في القرآن من هذا النمط كآخر آل عمران.

وقوله في سورة الروم: ﴿**ومن آياته**﴾. [الروم: ٢٠-٢٥]. إلى آخرها.

وقوله في سورة النمل: ﴿**قُلِ الحَمْدُ لله وَسَلامٌ على عِبادِهِ الذين اصْطَفى**﴾. [النمل: ٥٩-٦٤]. إلى آخر الآيات وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن. وكقوله في سورة الذاريات: ﴿**وَفِي الأَرْضِ آياتٌ لِلمُوقِنِين. وفي أنْفُسِكُم أفلا تُبْصِرُون**﴾. [الذاريات: ٢٠، ٢١].

﴿**وَكَأَيِّن مِن آيَةٍ في السَّمٰوات والأَرْضِ يَمُرُّون عَلَيْها وَهُمْ عَنها مُعْرِضُون**﴾. [يوسف: ١٠٥].

فهذا كله من الحق الذي خُلقت به السموات والأرض وما بينهما، وهو حق مقارن لوجود هذه المخلوقات، مسطور في صفحاتها يقرؤه كل موفق: كاتب، وغير كاتب كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائلُ
وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ

وأما الحق الذي هو غاية خلقها، فهو غاية تُراد من العباد وغاية تراد بهم.

فالتي تراد منهم أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله عز وجل، وأن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا؛ فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم.

قال تعالى: ﴿**الله الذي خَلَق سَبْع سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُن يَتَنزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أنَّ الله على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ وأنَّ الله قَدْ أَحَاط بِكُلِّ شيءٍ عِلْمًا**﴾. [الطلاق: ١٢].

فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده.

وقال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾. [الذاريات: ٥٦]. فهذه الغاية هي المرادة من العباد، وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده.

وأما الغاية المرادة بهم، فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب.

قال تعالى: ﴿**ولله مَا في السَّمٰوَاتِ وما في الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الذين أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا ويَجْزِيَ الذين أَحْسَنُوا بالحُسْنَى**﴾. [النجم: ٣١].

وقال تعالى: ﴿**إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخفِيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعى**﴾. [طه: ١٥].

وقال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذي يَخْتَلِفُون فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِين﴾. [النحل: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُم الله الذي خَلَقَ السَّمٰوات والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى على العَرْش يُدَبِرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْد إِذْنِهِ ذَلِكُم الله رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوه أفَلا تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُم جَمِيعًا وعد الله حَقًّا إِنَّهُ يَبْدأ الخَلْق ثُم يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَالِحَاتِ بِالقِسْطِ والذين كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُون﴾. [يونس: ٣، ٤].

فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق أولاً وآخرًا ووسطًا، وأنها خلقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق.

وقد أنكر تعالى على من زعم خلاف ذلك فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُم عَبَثًا وأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُون(١)﴾. [المؤمنون: ١١٥].

(٢)**ولنرجع** إلى ما كنا بصدده من الكلام في ذكر محاجة أهل الباطل للمسلمين في القبلة، ونصر الله لهم بالحجة عليهم.

وقد رأيت لأبي القاسم السهيلي في الكلام على هذه الآيات فصلاً أذكره بلفظه:

قال في قول النبي ﷺ، للبراء بن معرور: «**قد كنت على قبلة لو صبرت عليها**» يعني: لما صلى إلى الكعبة قبل الأمر بالتوجه إليها، ولم يأمره بالإعادة لأنه كان متأولاً.

قلت: ونظير هذا أنه لم يأمر من أكل في نهار رمضان بالإعادة؛ لما ربط الخيطين في رجليه وأكل حتى تبيَّنا له لأجل التأويل.

ونظيره أنه لم يأمر أبا ذر بإعادة ما ترك من الصلاة مع الجنابة؛ إذ لم يعرف شرع التيمم للجنب، فقال: يا رسول الله إني تصيبني الجنابة فأمكث الشهر والشهرين لا أصلي يعني في البادية ـ فقال: «**أين أنت عن التيمم؟**».

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر المستحاضة بالإعادة، وقد قالت: إني أستحاض حيضة شديدة، وقد منعتني الصوم والصلاة فأمرها أن تجلس أيام الحيض، ثم

---

(١) آخر البحث نقل إلى سورة المؤمنون.	(٢) ١٦٧ بدائع جـ٤.

تصلي ولم يأمرها بإعادة ما تركت.

ونظيره أيضاً أنه لم يأمر المسيء في صلاته بإعادة ما تقدم له من الصلوات التي لم تكن صحيحة، وإنما أمره بالإعادة في الوقت؛ لأنه لم يؤد فرض وقته مع بقائه بخلاف ما تقدم له.

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر المتمعك في التراب كما تتمعك الدابة لأجل التيمم بالإعادة؛ مع أنه لم يصب فرض التيمم.

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر معاوية بن الحكم السلمي بإعادة الصلاة، وقد تكلم فيها بكلام أجنبي ليس من مصلحتها.

ونظيره أيضًا أنه لم يضمن أسامة قتيله بعد إسلامه بقصاص ولا دية ولا كفارة. ولا تجد هذه النظائر مجموعة في موضع.

فالتأويل والاجتهاد في إصابة الحق، منع في هذه المواضع من الإعادة والتضمين.

وقاعدة هذا الباب أن الأحكام إنما تثبت في حق العبد بعد بلوغه هو وبلوغها إليه. فكما لا يترتب في حقه قبل بلوغه هو؛ فكذلك لا يترتب في حقه قبل بلوغها إليه.

وهذا مجمع عليه في الحدود أنها لا تقام إلا على من بلغه تحريم أسبابها.

وما ذكرناه من النظائر يدل على ثبوت ذلك في العبادات والحدود..

ويدل عليه أيضًا في المعاملات قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا اتَّقُوا الله وذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينْ﴾. [البقرة:٢٧٨]. فأمرهم تعالى أن يتركوا ما بقي من الربا وهو ما لم يقبض، ولم يأمرهم برد المقبوض؛ لأنهم قبضوه قبل التحريم فأقرهم عليه.

بل أهل قبا صلوا إلى القبلة المنسوخة بعد بطلانها، ولم يعيدوا ما صلوا؛ بل استداروا في صلاتهم وأتموها؛ لأن الحكم لم يثبت في حقهم إلا بعد بلوغه إليهم.

وفي هذا الأصل ثلاثة أقوال للفقهاء وهي لأصحاب أحمد، هذا أحدها وهو أصحها وهو اختيار شيخنا رضي الله عنه.

والثاني: أن الخطاب إذا بلغ طائفة ترتب في حق غيرهم ولزمهم كما لزم من بلغه، وهذا اختيار كثير من أصحاب الشافعي وغيرهم.

الثالث: الفرق بين الخطاب الابتدائي والخطاب الناسخ، فالخطاب الابتدائي يعم ثبوته من بلغه وغيره، والخطاب الناسخ لا يترتب في حق المخاطب إلا بعد بلوغه.

والفرق بين الخطابين: أنه في الناسخ مستصحب لحكم مشروع مأمور به

بخلاف الخطاب الابتدائي، ذكره القاضي أبو يعلى في بعض كتبه، ونصوص القرآن والسنة تشهد للقول الأول، وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة وإنما أشرنا إليها إشارة.

قال أبو القاسم: وفي الحديث دليل على أن النبي ﷺ، كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس، وهو قول ابن عباس يعني قوله للبراء: «**لقد كنتَ على قبلة**».

وقال طائفة: ما صلى إلى بيت المقدس إلا منذ قدم المدينة سبعة عشر شهرًا أو ستة عشر شهرًا. فعلى هذا يكون في القبلة نسخان: نسخ سُنَّة بسنة، ونسخ سنة بقرآن، وقد بين حديث ابن عباس منشأ الخلاف في هذه المسألة.

فروي عنه من طرق صحاح؛ أن رسول الله ﷺ، كان إذا صلَّى بمكة استقبل بيت المقدس، وجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس.

فلما كان ﷺ يتحرى القبلتين جميعًا، لم يُبِنْ توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة، ولذلك - والله أعلم - قال الله تعالى في الآية الناسخة: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾. [البقرة: ١٥٠]. أي: من أي جهة جئت إلى الصلاة وخرجت إليها فاستقبل الكعبة؛ كنت مستدبرًا بيت المقدس أو لم تكن؛ لأنه كان بمكة يتحرى في استقباله بيت المقدس؛ أن تكون الكعبة بين يديه.

قال: وتدبر قوله: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ**﴾. [البقرة: ١٥٠]. وقال لأمته: ﴿**وحيثما كنتم فَوَلُّوا وجوهَكم شَطْرَهُ**﴾. [البقرة: ١٥٠]. ولم يقل: حيث ما خرجتم، وذلك لأنه ﷺ، كان إمام المسلمين فكان يخرج إليهم في كل صلاة ليصلي بهم، وكان ذلك واجبًا عليه؛ إذ كان الإمام المقتدى به، فأفاد ذكر الخروج في خاصته هذا المعنى، ولم يكن حكم غيره هكذا يقتضي الخروج، ولاسيما النساء ومن لا جماعة عليه.

قلت: ويظهر في هذا معنى آخر وهو أن قوله: ﴿**وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾ خطاب عام له ﷺ، ولأمته يقتضي أمرهم بالتوجه إلى المسجد الحرام في أي موضع كانوا من الأرض.

وقوله: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾. [البقرة: ١٥٠]. خطاب بصيغة الإفراد، والمراد هو والأمة كقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ**﴾.

[الأحزاب: ١]. ونظائره، وهو يفيد الأمر باستقبالها من أي جهة ومكان خرج منه.

وقوله: ﴿وَحَيْثُمَا كنتم فَوَلُّوا وجوهَكم شَطْرَه﴾ يفيد الأمر باستقبالها في أي موضع استقر فيه، وهو تعالى لم يقيد الخروج بغاية؛ بل أطلق غايته كما عم مبدأه، فمن حيث خرج إلى أي مخرج كان: من صلاة أو غزو أو حج أو غير ذلك، فهو مأمور باستقبال المسجد الحرام هو والأمة، وفي أي بقعة كانوا من الأرض، فهو مأمور هو والأمة باستقباله، فتناولت الآيتان أحوال الأمة كلها: في مبدأ تنقلهم من حيث خرجوا، وفي غايته إلى حيث انتهوا، وفي حال استقرارهم حيث ما كانوا، فأفاد ذلك عموم الأمر بالاستقبال في الأحوال الثلاث التي لا ينفك منها العبد.

فتأمل هذا المعنى ووازن بينه وبين ما أبداه أبوالقاسم يتبين لك الرجحان، والله أعلم بما أراد من كلامه، وإنما هو كدّ أفهام أمثالنا من القاصرين. فقوله: ﴿ومن حيث خرجت﴾. [البقرة: ١٥٠]. يتناول مبدأ الخروج وغايته له وللأمة. وكان أولى بهذا الخطاب؛ لأن مبدأ التوجه على يديه كان، وكان شديد الحرص على التحويل.

وقوله: ﴿وحيثما كنتم﴾. [البقرة: ١٥٠]. يتناول أماكن الكون كلها له وللأمة، وكانوا أولى بهذا الخطاب لتعدد أماكن أكوانهم وكثرتها؛ بحسب كثرتهم واختلاف بلادهم وأقطارهم واستدارتها حول الكعبة شرقًا وغربًا ويمنًا وعراقًا، فكان الأحسن في حقهم أن يقال لهم: ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُم﴾ أي: من أقطار الأرض في شرقها وغربها وسائر جهاتها، ولا ريب أنهم أدخل في هذا الخطاب منه ﷺ.

فتأمل هذه النكت البديعة فلعلك لا تظفر بها في موضع غير هذا، والله أعلم.

قال أبوالقاسم: وكرر الباري تعالى الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام في ثلاث آيات؛ لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس:

اليهود؛ لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم.

وأهل الريب والنفاق اشتد إنكارهم له؛ لأنه كان أول نسخ نزل.

وكفار قريش قالوا: نَدِم محمد على فراق ديننا فسيرجع إليه كما رجع إلى قِبلتنا.

وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه فيقولون: يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم وإسماعيل، وقد فارق قبلة إبراهيم وإسماعيل وآثر عليها قبلة اليهود.

فقال الله له حين أمره بالصلاة إلى الكعبة: ﴿لئلاَّ يكون للناسِ عليكم حجةُ

إلا الذين ظلموا منهم﴾ على الاستثناء المنقطع أي: لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون.

وقال: ﴿**الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِيْن**﴾. [البقرة:١٤٧]. أي: من الذين شكوا وامتروا.

ومعنى الحق من ربك: أي: الذي أمرتُك به من التوجه إلى البيت الحرام، هو الحق الذي كان عليه الأنبياء قبلك فلا تمتر في ذلك فقال: ﴿**وَإِنَّ الذِيْنَ أُوتوا الكِتَابَ ليَعْلَمُون أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبهم**﴾. [البقرة: ١٤٤].

وقال: ﴿وإنَّ فَرِيْقًا مِنْهُمْ ليكتمون الحقَّ وهُمْ يَعْلَمُون﴾. [البقرة:١٤٦]. أي: يكتمون ما علموا أن الكعبة هي قِبلة الأنبياء.

ثم ساق: من طريق أبي داود في كتاب الناسخ والمنسوخ. قال: حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا عنبسة، عن يونس، عن ابن شهاب قال: كان سليمان بن عبدالملك لا يعظم إيليا كما يعظمها أهل بيته، قال: فسرت معه وهو ولي عهد، قال: ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، فقال سليمان، وهو جالس فيه: والله إن في هذه القبلة التي صلى إليها المسلمون والنصارى لعجبًا ـ كذا رأيته. والصواب: اليهود ـ قال خالد بن يزيد: أما والله إني لأقرأ الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ، وأقرأ التوراة فلم تجدها اليهود في الكتاب الذي أنزله الله عليهم، ولكن تابوت السكينة كان على الصخرة، فلما غضب الله عز وجل على بني إسرائيل رفعه فكانت صلاتهم إلى الصخرة عن مشاورة منهم.

وروى أبو داود أيضًا أن يهوديًا خاصم أبا العالية في القبلة فقال أبوالعالية: إن موسى كان يصلي عند الصخرة ويستقبل البيت الحرام، فكانت الكعبة قبلته وكانت الصخرة بين يديه. وقال اليهودي: بيني وبينك مسجد صالح النبي ﷺ، فقال أبو العالية: فإني صليت في مسجد صالح وقبلته الكعبة. انتهى.

قلت: وقد تضمن هذا الفصل فائدة جليلة، وهي أن استقبال أهل الكتاب لقبلتهم لم يكن من جهة الوحي والتوقيف من الله، بل كان عن مشورة منهم واجتهاد.

أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق أبدًا، وهم مقرون بذلك، ومقرون أن قبلة المسيح كانت قبلة بني إسرائيل

وهي الصخرة، وإنما وضع لهم شيوخهم وأسلافهم هذه القبلة وهم يعتذرون عنهم، بأن المسيح فوَّض إليهم التحليل والتحريم وشرع الأحكام، وأن ما حللوه وحرموه فقد حلّله هو وحرمه في السماء، فهم مع اليهود متفقون على أن الله لم يشرع استقبال المشرق على لسان رسوله أبدًا والمسلمون شاهدون عليهم بذلك.

وأما قبلة اليهود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة ألبتة، وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلون إليه من حيث خرجوا، فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا إليه، فلما رُفع صلوا إلى موضعه وهو الصخرة.

وأما السامرة فإنهم يصلون إلى طور لهم بأرض الشام يعظمونه ويحجون إليه، ورأيته أنا وهو في بلد نابلس، وناظرت فضلاءهم في استقباله، وقلت: هو قبلة باطلة مبتدعة، فقال مشار إليه في دينهم: هذه هي القبلة الصحيحة. واليهود أخطؤوها لأن الله تعالى أمر في التوراة باستقباله عيناً، ثم ذكر نصًّا بزعمه من التوراة في استقباله، فقلت له: هذا خطأ قطعًا على التوراة؛ لأنها إنما أنزلت على بنى إسرائيل فهم المخاطبون بها وأنتم فرع عليهم فيها، وإنما تلقيتموها عنهم، وهذا النص ليس في التوراة التي بأيديهم، وأنا رأيتها وليس هذا فيها، فقال لي: صدقت إنما هو في توراتنا خاصة.

قلت له: فمن المحال أن يكون أصحاب التوراة المخاطبون بها، وهم الذين تلقوها عن الكليم وهم متفرقون في أقطار الأرض، قد كتموا هذا النص وأزالوه وبدّلوا القبلة التي أمروا بها وحفظتموها أنتم، وحفظتم النص بها فلم يرجع إليَّ الجواب.

قلت: وهذا كله مما يقوِّي أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها**﴾. [البقرة:١٤٨]. راجعًا إلى كل أي هو موليها وجهه ليس المراد أن الله موليه إياها لوجوه هذا أحدها.

الثاني: أنه لم يتقدم لاسمه تعالى ذكر يعود الضمير عليه في الآية، وإن كان مذكورًا فيما قبلها؛ ففي إعادة الضمير إليه تعالى دون كل، رد الضمير إلى غير من هو أولى به ومنعه من القريب منه اللاحق به.

الثالث: أنه لو عاد الضمير عليه تعالى لقال: هو موليه إياها. هذا وجه الكلام كما قال تعالى: ﴿**نُوَلِّهِ ما تَوَلّى**﴾. [النساء:١١٥]. فوجه الكلام أن يقال: ولاه القبلة، لا يقال: ولى القبلة إياه فتأمله.

وقول أبي القاسم: أنه تعالى كرر ذكر الأمر باستقبالها ثلاثًا ردًا على الطوائف الثلاث؛ ليس بالبين ولا في اللفظ إشعار بذلك. والذي يظهر فيه، أنه أمر به في كل سياق لمعنى يقتضيه:

فذكره أول مرة؛ ابتداء للحكم ونسخًا للاستقبال الأول فقال: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجهكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّك قِبْلَةً تَرْضَاها فَوَلِّ وَجْهَك شطْرَ المَسْجِد الحَرامِ وحَيْثُما كُنْتُمَ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شطْرَه﴾. [البقرة: ١٤٤].

ثم ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا هو الحق من ربهم؛ حيث يجدونه في كتبهم كذلك.

ثم أخبر عن عنادهم وكفرهم، وأنه لو أتاهم بكل آية ما تبعوا قبلته ولا هو أيضًا بتابع قبلتهم، ولا بعضهم بتابع قبلة بعض، ثم حذره من اتباع أهوائهم، ثم كرر معرفة أهل الكتاب به كمعرفتهم بأبنائهم وأنهم ليكتمون الحق عن علم، ثم أخبر أن هذا هو الحق من ربه فلا يلحقه فيه امتراء.

ثم أخبر أن لكل من الأمم وجهة هو مستقبلها ومولبها وجهه، فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون الخيرات، ثم أعاد الأمر باستقبالها من حيث خرج في ضمن هذا السياق الزائد على مجرد النسخ، ثم أعاد الأمر به غير مكرر له تكررًا محضًا؛ بل في ضمنه أمرهم باستقبالها حيثما كانوا، كما أمرهم باستقبالها أولا حيثما كانوا عند النسخ وابتداء شرع الحكم، فأمرهم باستقبالها حيثما كانوا عند شرع الحكم وابتدائه، وبعد المحاجة والمخاصمة والحكم لهم وبيان عنادهم ومخالفتهم مع علمهم، فذكر الأمر بذلك في كل موطن لاقتضاء السياق له فتأمله. والله أعلم.

وقوله: إن الاستثناء في قوله: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾. [البقرة: ١٥٠]. منقطع قد قاله أكثر الناس، ووجهه أن الظالم لا حجة له، فاستثناؤه مما ذكر قبله منقطع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ليس الاستثناء بمنقطع بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن حكموا بانقطاعه؛ حيث ظنوا أن الحجة ههنا المراد بها الحجة الصحيحة الحق.

والحجة في كتاب الله يراد بها نوعان:

أحدهما: الحجة الحق الصحيحة كقوله: ﴿وَتِلْك حُجَّتُنا آتَيْنَاها إبْرَاهِيم على

قَوْمِه﴾. [الأنعام: ٨٣]. وقوله: ﴿قُل فلله الحُجَّة البَالِغَة﴾. [الأنعام: ١٤٩].

ويراد بها مطلق الاحتجاج بحق أو بباطل كقوله: ﴿فَإن حَآجُّوك فَقُلْ أسلمتُ وجْهِيَ لله﴾. [آل عمران: ٢٠]. وقوله: ﴿وإذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَينَاتٍ ما كَان حُجَّتُهُم إلا أن قَالُوا ائتوا بآبائنا إنْ كُنْتُم صَادِقِين﴾. [الجاثية: ٢٥]. وقوله: ﴿ألم ترَ إلى الذي حآجَّ إبراهيمَ في ربّه﴾. [البقرة: ٢٥٨]. وقوله: ﴿والذين يُحَآجُّون في الله مِنْ بَعْدِ ما استجيب له حُجَّتُهُم داحضةٌ عِنْد رَبّهم﴾. [الشورى: ١٦].

وإذا كانت الحجة اسمًا لما يحتج به من حق أو باطل، صح استثناء حجة الظالمين من قوله: ﴿لئلا يكون للناسِ عليكم حجةٌ﴾. [البقرة: ١٥٠]. وهذا في غاية التحقيق.

والمعنى: أن الظالمين يحتجون عليك بالحجة الباطلة الداحضة، فلا تخشوهم واخشوني.

(١)**قوله تعالى**: ﴿وكَذَلِك جَعَلْنَاكُم أمةً وسطًا لتكونوا شُهَداءَ على النَّاسِ ويكونَ الرسولُ عليكمُ شهيدًا﴾. [البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿وفي هذا لِيَكُونَ الرسولُ شهيدًا عليكم وتكونوا شهداءَ على الناسِ﴾. [الحج: ٧٨].

وجه الاستدلال: أنه تعالى أخبر أن جعل هذه الأمة عدولاً خيارًا ليشهدوا على الناس: بأن رسلهم قد بلغوهم عن الله رسالته وأدوا عليهم ذلك، وهذا يتناول شهادتهم على الأمم الماضية وشهادتهم على أهل عصرهم ومن بعدهم أن رسول الله ﷺ، أمرهم بكذا ونهاهم عن كذا، فهم حجة الله على من خالف رسول الله، وزعم أنه لم يأتهم من الله ما تقوم به عليه الحجة، وتشهد هذه الأمة الوسط عليه؛ بأن حجة الله بالرسل قامت عليه، ويشهد كل واحد بانفراده بما وصل إليه من العلم الذي كان به من أهل الشهادة، فلو كانت أحاديث رسول الله ﷺ لا تفيد؛ لم يشهد به الشاهد ولم تقم به الحجة على المشهود عليه.

(٢)**قوله تعالى**: ﴿وَكَذلِك جَعَلْنَاكُم أمَّةً وَسَطًا لِتَكُونوا شُهَداءَ على النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. [البقرة: ١٤٣]. ووجه الاستدلال بالآية: أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خيارًا عدولاً، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم

---

(١) ٣٩٧ مختصر الصواعق جـ٢. (٢) ١٣٢ أعلام جـ٤.

وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم.

وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة.

والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوَّه بهم ورفع ذكرهم وأثنى عليهم؛ لأنه تعالى لما اتخذهم شهداء أعلم خلقه من الملائكة وغيرهم بحال هؤلاء الشهداء، وأمر ملائكته أن تصلي عليهم وتدعو لهم وتستغفر لهم.

والشاهد المقبول عند الله هو الذي يشهد بعلم وصدق؛ فيخبر بالحق مستندًا إلى علمه به كما قال تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾. [الزخرف: ٨٦]. فقد يخبر الإنسان بالحق اتفاقًا من غير علمه به، وقد يعلمه ولا يخبر به؛ فالشاهد المقبول عند الله هو الذي يخبر به عن علم؛ فلو كان علمهم أن يفتي أحدهم بفتوى وتكون خطأ مخالفة لحكم الله ورسوله ولا يفتي غيره بالحق الذي هو حكم الله ورسوله إما: مع اشتهار فتوى الأول، أو بدون اشتهارها، كانت هذه الأمة العدل الخيار قد أطبقت على خلاف الحق.

بل انقسموا قسمين: قسمًا أفتى بالباطل، وقسمًا سكت عن الحق، وهذا من المستحيل، فإن الحق لا يعدوهم ويخرج عنهم إلى من بعدهم قطعًا، ونحن نقول لمن خالف أقوالهم: لو كان خيرًا ما سبقونا إليه.

فصل(1)

وكان يصلي إلى قبلة بيت المقدس، ويُحبُّ أن يُصرف إلى الكعبة. وقال لجبرائيل «**وَددتُ أن يصرف الله وجهي عن قبلة اليهود**»، فقال: إنما أنا عبد، فادعُ ربَّك واسأله. فجعل يُقلب وجهه في السماء يرجو ذلك، حتى أنزل الله عليه: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾. [البقرة: ١٤٤].

وذلك بعد ستة عشر شهرًا من مقدمه المدينة، قبل وقعة بدر بشهرين.

قال محمد بن سعد: أنبأنا هاشم بن القاسم قال: حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي قال: ما خالف نبيٌّ نبيًا قط في قبلة ولا في سُنة، إلا أن رسول الله ﷺ استقبل بيت المقدس حين قدم المدينة ستة عشر شهرًا، ثم قرأ:

---

(١) ١٤٧ زاد المعاد جـ٢.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحًا والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾. [الشورى: ١٣]. الآية.

وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثم في تحويلها إلى الكعبة حِكَمٌ عظيمة، ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين.

فأما المسلمون، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وقالوا: آمنا به، كُلٌّ من عند ربنا. وهم الذين هدى الله، ولم تكن كبيرة عليهم.

وأما المشركون، فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق.

وأما اليهود، فقالوا: خالف قبلة الأنبياء قبله. ولو كان نبيًّا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء.

وأما المنافقون، فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه إن كانت الأولى حقًّا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق: فقد كان على باطل. وكثرت أقاويل السفهاء من الناس. وكانت كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا على الذين هدى الله﴾. [البقرة: ١٤٣]. وكانت محنة من الله، امتحن بها عباده، ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه.

ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيمًا وطَّأ سبحانه قبلها أمر النسخ وقدرته عليه، وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله.

ثم عقَّب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت مع رسول الله ﷺ، ولم يَنْقَدْ له.

ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى، وشهادة بعضهم عل بعض بأنهم ليسوا على شيء، وحذَّر عباده المؤمنين من موافقتهم واتباع أهوائهم.

ثم ذكر كفرهم وشركهم به، وقولهم: إن له ولدًا، سبحانه وتعالى عما يقولون.

ثم أخبر: أن له المشرق والمغرب، وأينما يُولِّي عبادهُ وجوههم فَثَمَّ وجهه وهو الواسع العليم، لعظمته وسعته وإحاطته أينما يوجّه العبد فثم وجه الله.

ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يصدقونه.

ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يَتَّبِع ملَّتهم، وأنه إن فعل ـ وقد أعاذه الله من ذلك ـ فما له من الله من ولي ولا نصير.

ثم ذكَّرَ أهل الكتاب بنعمته عليهم، وخوَّفهم من بأسه يوم القيامة.

ثم ذكر خليله إبراهيم بَاني بيته الحرام، وأثنى عليه ومدحه، وأخبر أنه جعله

للناس إمامًا يأتمُّ به أهل الأرض.

ثم ذكر بيته الحرام، وبناء خليله له، وفي ضمن هذا: أنَّ باني البيت كما هو إمام للناس، فكذلك البيت الذي بناه: إمام لهم.

ثم أخبر: أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفهُ الناس.

ثم أمر عباده أن يأتموا برسوله الخاتم، ويؤمنوا بما أنزل إليه، وإلى إبراهيم، وإلى سائر النبيين.

ثم ردَّ على من قال: إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هُودًا أو نصارى، وجعل هذا كله توطئةً ومقدمة بين يَدي تحويل القبلة ومع هذا كله: فقد كبُر ذلك على الناس، إلا من هدى الله منهم. وأكَّد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة، بعد ثالثة، وأمر به رسوله ﷺ حيثما كان، ومن حيث خرج.

وأخبر أن الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. هو الذي هداهم إلى هذه القبلة، وأنها هي القبلة التي تليق بهم وهم أهلها. لأنها أوسط القبل وأفضلها، وهم أوسط الأمم وخيارهم. فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم، كما اختار لهم أفضل الرسل، وأفضل الكتب، وأخرجهم في خير القرون، وخصهم بأفضل الشرائع، ومنحهم خير الأخلاق، وأسكنهم خير الأرض، وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل. وموقفهم في القيامة خير المواقف. فهم على تلِّ عالٍ، والناس تحتهم. فسبحان من يختص برحمته من يشاء. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك لئلا يكون للناس عليهم حجة، ولكن الظالمون الباغون يحتجون عليهم بتلك الحجج التي ذكرت. ولا يعارض الملحدون الرسل إلا بها وبأمثالها من الحجج الداحضة. وكل من قدَّم على أقوال الرسول سواها، فحجته من جنس حجج هؤلاء. وأخبر سبحانه: أنه فعل ذلك ليتمَّ نعمته عليهم، وليهديهم.

ثم ذكَّرهم نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم، وإنزال كتابه عليهم، ليُزكِّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. ثم أمرهم بذكره وبشكره، إذ بهذين الأمرين يستوجبون إتمام نعمه، والمزيد من كرامته، ويستجلبون ذكره لهم، ومحبته لهم.

ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به، وهو الصبر والصلاة. وأخبرهم أنه مع الصابرين.

فصل[1]

مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر. قال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُون**﴾. [البقرة: ١٥٢]. وقال النبي ﷺ لمعاذ: «**والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبي واللساني.

وذكره يتضمن ذكر أسمائه، وصفاته، وذكر أمره، ونهيه، وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به، وبصفات كماله ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده؛ فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهرًا وباطنًا؛ وهذان الأمران هما جماع الدين.

فذكره مستلزم لمعرفته، وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس والسموات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل؛ وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه، وهو ظن أعدائه به. قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾، [ص: ٢٧]. وقال: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾. [الدخان: ٣٨، ٣٩]. . . . .

[2]**ولله** تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك منهما:

---

(١) ١٢٧ فوائد		(٢) ١٥٥ عدة الصابرين.

أحدهما: أمره ونهيه الذي هو محض حقه عليه.

والثاني: شكر نعمه التي أنعم بها عليه فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لايزال يشهده تقصيره وتفريطه، وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته، فإن لم يتداركه بذلك هلك وكلما كان أفقه في دين الله؛ كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة؛ بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثر الديانين لا يعبؤون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس.

وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم، فضلاً عن أن يريدوا فعلها، فضلاً عن أن يفعلوها. وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات؛ وإن زهد في الدنيا جميعها.

وقلّ أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته ويبذل عرضه في نصرة دينه، وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء.

وقد ذكر أبوعمر وغيره: أن الله تعالى أمر ملكًا من الملائكة أن يخسف بقرية فقال: يارب إن فيهم فلانًا الزاهد العابد قال: «**به فابدأ وأسمعني صوته إنه لم يتمعر وجهه في يوم قط**».

. . ....[1]**وفي** كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة. و«الذكر» عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة. بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قيامًا، وقعودًا، وعلى جنوبهم. فكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها. فكذلك القلوب بور خراب. وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا: ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقًا. وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه: نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء.

به يزول الوقْر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن

---

(١) ٤٢٣ مدارج جـ٢.

الأبصار. زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن. فإن وجدتم... وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

قال بعض السلف: إذا تمكن الذِّكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان. فيجتمع عليه الشياطين. فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة؛ فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه. والله أعلم.

وهو في القرآن على عشرة أوجه:

الأول: الأمر به مطلقًا ومقيدًا.

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته. وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

تفصيل ذلك

أما الأول: فكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكرًا كَثِيراً. وسَبِّحُوه بُكْـرَةً وأصِيْلاً* هو الذي يُصَلي عَليكُمْ ومَلائكَتُهُ. لِيُخْرِجَكُم من الظُّلُمَاتِ إلى النُورِ. وَكَان بِالمؤمِنِين رَحِيمًا﴾. [الأحزاب: ٤١، ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَبك في نَفْسِك تَضرعًا وخِيْفَةً﴾. [الأعراف: ٢٠٥].

وفيه قولان:

أحدهما: في سرك وقلبك. والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك،

وأما النهي عن ضده: فكقوله ﴿ولا تَكُن مِّنَ الغَافِلِين﴾. [الأعراف: ٢٠٥].

وقوله ﴿ولا تَكُونُوا كالذين نَسُوا الله فَأَنْسَاهُم أَنْفُسَهُمْ﴾. [الحشر: ١٩].

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله: ﴿واذكُرُوا الله كَثِيراً لعَلَكُم تُفْلِحُون﴾. [الجمعة: ١٠].

وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم: فكقوله: ﴿إنَّ المُسْلِمِين والمُسْلِمَاتِ - إلى قوله - والذَّاكِرِين الله كَثِيراً والذَّاكِرَات: أعدَّ الله لَهُمْ مَغْفِرَةً وأجْرًا عَظِيمًا﴾. [الأحزاب: ٣٥].

وأما خسران من لها عنه، فكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا لا تُلْهِكُم أَمْوَالُكُمْ ولا أوْلادُكُم عَنْ ذِكْرِ الله. ومَنْ يَفْعَل ذلك فأولئك هُم الخَاسِرُون﴾. [المنافقون: ٩].

وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله: ﴿فاذْكُرُوني أذْكُركُم. واشْكُرُوا لي ولا تَكْفُرُون﴾. [البقرة: ١٥٢].

وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شيء فكقوله تعالى: ﴿اتْلُ ما أُوحِي إلَيْك من الكتـاب وأَقِم الصَلاةَ. إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عن الفَحْشَاءِ والمنكرِ. وَلَذِكْرُ الله أكبرُ﴾. [العنكبوت: ٤٥]. وفيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره. فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم. فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل. وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر؛ بل إذا تَمَّ

الذكر: مَحَقَ كل خطيئة ومعصية. هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين:

إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له، ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر(١).

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿**ولتُكْمِلُوا العِدَّةَ، ولتكبِّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون**﴾. [البقرة: ١٨٥].

وختم به الحج في قوله: ﴿**فإذا قَضَيْتُم مناسِكَكُم فاذْكُروا الله كَذِكركُم آباءَكُم أو أشَدَّ ذِكْرًا**﴾. [البقرة: ٢٠٠].

وختم به الصلاة كقوله: ﴿**فإذا قَضَيْتُم الصَّلاَة فَاذْكُروا اللّهَ قِيَامًا وقُعُودًا وعلى جُنُوبِكُم**﴾. [النساء: ١٠٣].

وختم به الجمعة كقوله: ﴿**فإذَا قُضيَت الصَّلاةُ فَانْتَشِروا في الأرْضِ. وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله، واذْكُرُوا الله كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون**﴾. [الجمعة: ١٠].

ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا؛ وإذا كان آخر كلام العبد؛ أدخله الله الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته. وهم أولو الألباب والعقول. فكقوله تعالى: ﴿**إنَّ في خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأرْضِ واخْتِلاَفِ الَّليْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأوْلِي الألْبَابِ. الَّذين يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وقُعُودًا وعَلى جُنُوبِهِم**﴾. [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقترانه بها، وأنه روحها: فإنه سبحانه:

قرنه بالصلاة. كقوله: ﴿**وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾. [طه: ١٤].

وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه. بل هو روح الحج، ولُبُّه ومقصوده. كما قال النبي ﷺ: «**إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار؛ لإقامة ذكر الله**».

---

(١) ولعل في الآية معنى آخر: أن الصلاة هي أكبر الذكر. فقد قال تعالى: ﴿**أقم الصلاة لذكري**﴾ [طه: ١٤]. وهي أكبر وأقوى وأشد ناهٍ عن الفحشاء والمنكر.

وقرنه بالجهاد. وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء. فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُم فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُروا الله كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون**﴾. [الأنفال: ٤٥]. وفي أثر إلهي يقول الله تعالى: «**إن عبدي - كلَّ عبدي - الذي يذكرني وهو ملاق قِرْنه**».

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يستشهد به.

وسمعته يقول: المحبون يفتخرون بذكر من يحبونه في هذه الحال، كما قال عنترة:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ كأنها   أشطان بئر في لبانِ الأدهم

وقال الآخر:

ذكرتك والخَطِّيُّ يَخْطُر بيننا   وقد نَهَلَتْ منا المُثَقَّفة السُّمْر

وقال آخر:

ولقد ذكرتك والرماحُ شواجر   نحوي. وبيضُ الهند تَقْطُر من دمي

وهذا كثير في أشعارهم. وهو مما يدل على قوة المحبة. فإن ذكر المحب محبوبه في تلك الحال التي لا يهم المرء غير نفسه - يدل على أنه عنده بمنزلة نفسه أو أعز منها. وهذا دليل على صدق المحبة والله أعلم.

فصل[1]

ومن منازل ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُد وإِيَّاكَ نَسْتَعِين**﴾. [الفاتحة: ٥]. منزلة «الصبر».

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا.

وهو واجب بإجماع الأمة. وهو نصف الإيمان. فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعًا:

الأول: الأمر به. نحو قوله تعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمَنُوا اسْتَعِينوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ**﴾. [البقرة: ١٥٣]. وقوله: ﴿**واسْتَعِينوا بِالصَبْرِ والصَّلاةِ**﴾. [البقرة: ٤٥]. وقوله: ﴿**اصبِروا وصابِروا**﴾. [آل عمران: ٢٠٠]. وقوله: ﴿**واصبرْ وَمَا صبرُكَ إلا بالله**﴾. [النحل: ١٢٧].

---

(١) ١٥٢ مدارج جـ٢.

الثاني: النهي عن ضده. كقوله: ﴿**فاصبر كما صبرَ أُولُوا العزم من الرُّسل، ولا تستعجلْ لهم**﴾. [الأحقاف: ٣٥]. وقوله: ﴿**وَلاَ تُولُّوهم الأدبارَ**﴾. [الأنفال: ١٥]. فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة.

وقوله: ﴿وَلاَ تُبطِلُوا أعمالَكم﴾. [محمد: ٣٣]. فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها.

وقوله: ﴿**فَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تحزنوا**﴾. [آل عمران: ١٣٩]. فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى: ﴿**الصَّابرين والصَّادِقين**﴾ الآية. [آل عمران: ١٧]. وقوله: ﴿**والصَّابِرِيْن في البَأسَاءِ والضرَّاءِ وَحِينَ البَأس. أولئك الذين صَدَقُوا. وأولئِكَ هُمُ المُتَّقُون**﴾. [البقرة: ١٧٧]. وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله: ﴿**والله يحبُّ الصَّابِرين**﴾. [آل عمران: ١٤٦].

الخامس: إيجاب معيته لهم. وهي معية خاصة. تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم. ليست معية عامة. وهي معية العلم، والإحاطة. كقوله: ﴿**واصْبِرُوا. إنَّ الله مع الصَّابِرِينَ**﴾. [الأنفال: ٤٦]. وقوله: ﴿**والله مع الصَّابِرِينَ**﴾. [البقرة: ٢٤٩].

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه. كقوله: ﴿**وَلَئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَ خيرٌ لِلصَّابِرِين**﴾. [النحل: ١٢٦]. وقوله: ﴿**وأنْ تَصْبِرُوا خيرٌ لَكُمْ**﴾. [النساء: ٢٥].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله تعالى: ﴿**وَلَنَجزِيَنَّ الذين صَبَرُوا أجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كَانُوا يَعْمَلُون**﴾. [النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالى: ﴿**إنَّما يُوَفَّي الصَّابِرُون أجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَاب**﴾. [الزمر: ١٠].

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر. كقوله تعالى: ﴿ **ولنَبْلُونَّكم بِشيءٍ مِنْ الخَوْفِ والجُوعِ ونَقْصٍ من الأمْوَالِ والأنْفُسِ والثَّمَرَاتِ. وبَشِّرِ الصَّابِرِين**﴾. [البقرة: ١٥٥].

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم. كقوله تعالى: ﴿ **بَلى، إنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا، ويَأتُوكُمْ من فَوْرِهِم هذا يُمْدِدْكُم رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ من المَلائِكَةِ**

مُسَوِّمِين﴾. [آل عمران: ١٢٥]. ومنه قول النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر».

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم. كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَر وغفرَ إنَّ ذلك لَمِنْ عَزْمِ الأمُورِ﴾. [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿وَيْلَكُم. ثَوابُ الله خيرٌ لمن آمَنَ وعَمِلَ صَالِحًا. ولا يُلَقَّاها إلا الصَّابِرُون﴾. [القصص: ٨٠]. وقوله: ﴿وما يُلقَّاها إلا الذين صَبَروا وما يُلَقَّاها إلا ذو حظٍّ عَظِيم﴾. [فصلت: ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر. كقوله تعالى لموسى: ﴿أن أَخْرِجْ قَوْمَك من الظُّلُماتِ إلى النُورِ. وذَكِّرْهُم بأيَّامِ الله. إنَّ في ذَلِك لآيَاتٍ لِكُلِّ صبَّارٍ شَكُورٍ﴾. [إبراهيم: ٥].

وقوله في أهل سبأ: ﴿فجعَلْنَاهُم أحَادِيثَ. ومَزَّقْناهم كُل مُمزَّق. إنَّ في ذَلك لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. [سبأ: ١٩].

وقوله في سورة الشورى: ﴿ومن آيَاتِهِ الجَوَارِ في البَحْرِ كَالأعْلام. إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيظللنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ. إنَّ في ذلك لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. [الشورى: ٣٢، ٣٣].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر. كقوله تعالى: ﴿والمَلائِكَةُ يَدْخُلُون عَلَيْهم مِن كُلِّ بَاب. سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُم. فَنِعْم عُقبى الدَّار﴾. [الرعد: ٢٣، ٢٤].

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُم أئِمَّةً يَهْدُون بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون﴾. [السجدة: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان. وبالتقوى والتوكل. وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر

له. كما أنه لا جسد لمن لا رأس له.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خير عيش أدركناه بالصبر».

وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح «أنه ضياء» وقال: «**مَنْ يتصبَّرْ يُصبِّرْهُ الله**».

وفي الحديث الصحيح: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سرَّاء شكر؛ فكان خيراً له. وإن أصابته ضرَّاء صبر؛ فكان خيراً له**».

وقال للمرأة السوداء التي كانت تُصرع. فسألته: أن يدعو لها: «**إن شئتِ صبرت؛ ولك الجنة. وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**». فقالت: إني أتكشف فادع الله: أن لا أتكشف. فدعا لها.

وأمر الأنصار ـ رضي الله تعالى عنهم ـ بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده، حتى يلقوه على الحوض.

وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر. وأمر بالصبر عند المصيبة. وأخبر: أنه إنما يكون «**عند الصَّدمة الأولى**».

وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب. فإن ذلك يخفف مصيبته، ويوفِّر أجره. والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة، ويذهب الأجر.

وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله، فقال:

«**وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً له وأوسع؛ من الصبر**».

فصل

و«الصبر» في اللغة: الحبس والكف. ومنه: قُتل فلان صبراً. إذا أمسك وحبس.

ومنه قوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَك مع الذين يَدْعُون رَبَّهُم بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُون وَجْهَهُ**﴾. [الكهف: ٢٨]. أي: احبس نفسك معهم.

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط. وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله. وصبر عن معصية الله. وصبر على امتحان الله.

فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب. والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها؛ أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر.

وأما صبره عن المعصية؛ فصبر اختيار ورضى، ومحاربة للنفس. ولاسيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة. فإنه كان شابًّا، وداعية الشباب إليها قوية. وعَزبًا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته. وغريبًا. والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه مَنْ بين أصحابه ومعارفه وأهله. ومملوكًا. والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحر. والمرأة جميلة. وذات منصب. وهي سيدته. وقد غاب الرقيب. وهي الداعية له إلى نفسها. والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل: بالسجن والصغار. ومع هذه الدواعي كلها؛ صبر اختيارًا، وإيثارًا لما عند الله. وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟

وكان يقول(١): الصبر على أداء الطاعات؛ أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل. فإن مصلحة الطاعة؛ أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية. ومفسدة عدم الطاعة؛ أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية.

وله ـ رحمه الله ـ في ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجهًا. ليس هذا موضع ذكرها. انتهى.

فصل(٢)
في هديه ﷺ في علاج حر المصيبة وحزنها

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابرين الذين إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيْبَةٌ قَالوا إِنَّا لله وإِنَّا إِليْهِ رَاجِعُون. أولئِك عَلَيْهِم صَلَوَاتٌ مِن رَّبِّهِمْ ورَحْمَةٌ. وأولئك هُم المُهْتَدون﴾.

[البقرة: ١٥٥، ١٥٧].

---

(١) أي: ابن تيمية.

(٢) ٢٦٤ زاد المعاد جـ٣.

وفي المسند وصحيح مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي: عن أم سلمة، عنه ﷺ أنه قال: «**ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلُف لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها**». وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته. فإنها تتضمن أصلين عظيمين. وإذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته:

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك الله عز وجل حقيقة. وقد جعله عند العبد عارية. فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير.

وأيضًا: فإنه محفوف بعدمين: عدم قبله، وعدم بعده. وملك العبد له نعمة معارة في زمن يسير.

وأيضًا: فإنه ليس هو الذي أوجده من عدمه، حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يُبقي عليه وجوده، فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقي.

وأيضًا: فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهي لا تصرُّف الملَّاك؛ ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق. ولابد أن يخلِّف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فردًا، كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة. ولكن بالحسنات والسيئات. فإذا كانت هذه بداية العبد وما خُوِّله ونهايته فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود؟ ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء.

ومن علاجه: أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه. وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُم إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذلك على الله يَسير. لِكَيلا تَأسَوا على مافَاتَكُم، ولا تَفْرَحوا بِمَا آتَاكُمْ. والله لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾. [الحديد: ٢٢، ٢٣].

ومن علاجه: أن ينظر إلى ما أصيب به. فيجد ربه قد أبقى عليه مثله أو أفضل منه، وادخر له - إن صبر ورضي - ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

ومن علاجه: أن يطفىء نار مصيبته ببرد التأسِّي بأهل المصائب.

[(١)] **وقد** وعد الصابرين بثلاثة أشياء، كل واحد خير من الدنيا وما عليها وهي: صلواته تعالى عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى: ﴿**أولئك عَلَيْهِم صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِم وَرَحِمَةٌ وأولئك هُمُ الْمُهْتَدُون**﴾. [البقرة: ١٥٧] وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم.

وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه.

وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولي العزم من الرسل وقد تقدم ذكر ذلك.

[(٢)] **وقال** عبدالله بن المبارك: أخبرنا عبدالله بن لهيعة، عن عطاء بن دينار: أن سعيد بن جبير قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر.

فقوله: اعتراف العبد لله بما أصاب منه كأنه تفسير لقوله: ﴿**إنَّا لله**﴾ فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد.

وقوله: راجيًا به ما عند الله كأنه تفسير لقوله: ﴿**وإنَّا إليه راجعون**﴾ أي: نرد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة.

وقوله: وقد يجزع الرجل وهو يتجلد، أي: ليس الصبر بالتجلد، وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور، ورد اللسان عن الشكوى، فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر، فليس بصابر.

وقال يونس بن يزيد: سألت ربيعة بن أبي عبدالرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه.

وقال قيس بن الحجاج في قول الله: ﴿**فَاصْبِرِ صَبْرًا جَمِيلاً**﴾[المعارج: ٥]. قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو.

وكان شمر إذا عزى مصابًا قال: اصبر لما حكم ربُّك.

وقال أبو عقيل: رأيت سالم بن عبدالله بن عمر بيده سوط، وعليه إزار في موت واقد بن عبدالله بن عمر، لا يسمع صارخة ينالها بالسوط إلا ضربها.

---

(١) ١١٨ عدة الصابرين. (٢) ١٠١ عدة الصابرين.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن جعفر بن مهران قال: قالت امرأة من قريش: أما والذي لا خلد إلا لوجهه، ومن ليس في العز المنيع له كفوًا، لئن كان بدء الصبر مرًّا مذاقه، لقد يجني من غبه الثمر الحلو، قال: وانشدني عمرو بن بكير:

صبرت فكان الصبر خيرُ مغبة	وهل جزع يجدي علي فأجزع
ملكت دموع العين حتى رددتها	إلى ناظري فالعين في القلب تدمع

(١)فائدة

قولهم: الصلاة من الله بمعنى الرحمة؛ باطل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الله تعالى غاير بينهما في قوله: ﴿عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ﴾.

[البقرة: ١٥٧]

الثاني: أن سؤال الرحمة تشرع لكل مسلم، والصلاة تختص بالنبي ﷺ، وهي حق له ولآله، ولهذا منع كثير من العلماء من الصلاة على معين غيره، ولم يمنع أحد من الترحم على معين.

الثالث: أن رحمة الله عامة وسعت كل شيء، وصلاته خاصة بخواص عباده.

وقولهم: الصلاة من العباد بمعنى الدعاء مشكل من وجوه:

أحدها: أن الدعاء يكون بالخير والشر، والصلاة لا تكون إلا في الخير.

الثاني: أن دعوت تعدى باللام وصليت لا تعدى إلا بعلى، ودعا المعدى بعلى ليس بمعنى صلى، وهذا يدل على أن الصلاة ليست بمعنى الدعاء.

الثالث: أن فعل الدعاء يقتضي مدعوًا ومدعوًا له، تقول: دعوت الله لك بخير، وفعل الصلاة لا يقتضي ذلك، لا تقول: صليت الله عليك ولا لك؛ فدل على أنه ليس بمعناه. فأي تباين أظهر من هذا؟ ولكن التقليد يعمي عن إدراك الحقائق فإياك والإخلاد إلى أرضه.

ورأيت لأبي القاسم السهيلي كلامًا حسنًا في اشتقاق الصلاة، وهذا لفظه قال:

---

(١) ٢٦ بدائع جـ١.

(**معنى** الصلاة) اللفظة حيث تصرفت ترجع إلى الحنو والعطف؛ إلا أن الحنو والعطف يكون محسوسًا ومعقولاً، فيضاف إلى الله منه ما يليق بجلاله وينفي عنه ما يتقدس عنه. كما أن العلو محسوس ومعقول.

فالمحسوس منه صفات الأجسام.

والمعقول منه صفة ذي الجلال والإكرام. وهذا المعنى كثير موجود في الصفات، والكثير يكون صفة للمحسوسات وصفة للمعقولات وهو من أسماء الرب تعالى، وقد تقدس عن مشابهة الأجسام ومضاهاة الأنام، فالمضاف إليه من هذه المعاني معقولة غير محسوسة.

وإذا ثبت هذا فالصلاة كما تسمى عطفًا وحنوًا تقول: اللهم اعطف علينا، أي: ارحمنا. قال الشاعر:

ومازلت في ليني له وتعطفي عليه كما تحنو على الولد الأم

ورحمة العباد رقة في القلب إذا وجدها الراحم من نفسه؛ انعطف على المرحوم وانثنى عليه.

ورحمة الله للعباد جود وفضل، فإذا صلى عليه فقد أفضل عليه وأنعم، وهذه الأفعال إذا كانت من الله أو من العبد؛ فهي متعدية بعلى مخصوصة بالخير لا تخرج عنه إلى غيره، فقد رجعت كلها إلى معنى واحد؛ إلا أنها في معنى الدعاء. والرحمة صلاة معقولة أي انحناء معقول غير محسوس ثمرته من العبد الدعاء؛ لأنه لا يقدر على أكثر منه، وثمرته من الله الإحسان والإنعام فلم تختلف الصلاة في معناها، إنما اختلفت ثمرتها الصادرة عنها.

والصلاة التي هي الركوع والسجود انحناء محسوس، فلم يختلف المعنى فيها إلا من جهة المعقول والمحسوس، وليس ذلك باختلاف في الحقيقة، ولذلك تعدت كلها بعلى واتفقت في اللفظ المشتق من الصلاة، ولم يجز صليتُ على العدو، أي: دعوت عليه، فقد صار معنى الصلاة أرق وأبلغ من معنى الرحمة، وإن كان راجعًا إليه إذ ليس كل راحم ينحني على المرحوم ولا ينعطف عليه.

الله(١) سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما تولد منها؛ ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة؛ فعليه

---

(١) ٧١ عدة الصابرين.

من الوزر مثل أوزار من اتبعه؛ لأن اتباعهم له تولد عن فعله؛ ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُم كَامِلَةً يومَ القِيامَةِ ومِنْ أَوْزارِ الذين يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. [النحل: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُم وأثقالاً مع أَثْقَالِهِم﴾. [العنكبوت: ١٣].

فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله، والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره؟.

قيل: التوبة منه بالندم عليه، وعدم إجابة دواعيه وموجباته، وحبس النفس عن ذلك.

فإن كان المتولد متعلقًا بالغير فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان؛ ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى؛ ليضلوا الناس بذلك؛ أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه فقال:

﴿إنَّ الذين يَكْتُمُون ما أنزَلْنا من البيِّنَاتِ والهُدى مِن بَعْدِ ما بَيَّنَّاه للنَّاس في الكِتَابِ أولئك يَلْعَنُهُمُ الله ويَلْعَنُهُمُ اللاعِنُون إلا الذين تَابُوا وأَصْلَحُوا وبَيَّنُوا فأولئك أَتُوبُ عَلَيْهِم وأنَا التَّوَّابُ الرحيمُ﴾. [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم؛ إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم، واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة؛ أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكفار والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم له رياءً وسمعة. فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها والله المستعان.

(١)**قال** تعالى: ﴿وَمِن النَّاسِ مَنْ يَتخِذُ من دونِ الله أَنْدادًا يُحِبُّونهم كَحُبِّ الله والذين آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾. [البقرة: ١٦٥].

وأصح القولين أن المعنى: يحبونهم كما يحبون الله. وسووا بين الله وبين أندادهم في الحب.

ثم نفى ذلك عن المؤمنين فقال: ﴿والذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله﴾. فإن الذين آمنوا أخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره، وأما المشركون فلم يخلصوه لله.

(١) ٢٦٦ طريق الهجرتين.

والمقصود من الخلق والأمر إنما هو هذه المحبة، وهي أول دعوة الرسل. وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة؛ اعترافه وإقراره بهذه المحبة وإفراد الرب بها، فهو أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الله وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها، وجميع المقامات وسائل إليها، وأسباب لتحصيلها وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل؛ فهي قطب رحى السعادة، وروح الإيمان، وساق شجرة الإسلام؛ ولأجلها أنزل الله الكتاب والحديد: فالكتاب هاد إليها ودال عليها ومفصل لها، والحديد لمن خرج عنها وأشرك فيها مع الله غيره؛ ولأجلها خلقت الجنة والنار: فالجنة دار أهلها الذين أخلصوها لله وحده فأخلصهم لها، والنار دار من أشرك فيها مع الله غيره وسوى بينه وبين الله فيها، كما أخبر تعالى عن أهلها أنهم يقولون في النار لآلهتهم ﴿**تالله إنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، إذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِين**﴾. [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات؛ بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه هو تصحيح شهادة: أن لا إله إلا الله.

فحقيق لمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها؛ أن يتيقظ لهذه المسألة علمًا وعملًا وحالًا وتكون أهم الأشياء عنده، وأجل علومه وأعماله، فإن الشأن كله فيها والمدار عليها والسؤال يوم القيامة عنها...

(١)**فإذا** عُرف ذلك، فالمحبة هي التي تحرك المحبَّ في طلب محبوبه الذي يكمل بحصوله له. فتحرك محبَّ الرحمن، ومُحبَّ القرآن، ومحبَّ العلم والإيمان، ومحبَّ المتاع والأثمان، ومحبَّ الأوثان والصُّلبان، ومحبَّ النِّسوان والمردان، ومحبَّ الأوطان، ومحبَّ الإخوان. فتثير من كل قلب حركة إلى محبوبه من هذه الأشياء. فيتحرك عند ذكر محبوبه منها دون غيره. ولهذا تجدُ محبَّ النِّسوان والصبيان، ومحبَّ قُرآن الشيطان بالأصوات والألحان، لا يتحرك عند سماع العلم وشواهد الإيمان، ولا عند تلاوة القرآن، حتى إذا ذُكر له محبوبه اهتزَّ له وربَا، وتحرَّك باطنه وظاهره شوقًا إليه وطربًا لذكره.

فكل هذه المحابِّ باطلة مُضْمَحِلَّة سوى محبة الله وما والاها: من محبة رسوله،

---

(١) ١٣٢ إغاثة جـ٢.

وكتابه، ودينه، وأوليائه. فهذه المحبة تدوم، وتدوم ثمرتها ونعيمها بدوام من تعلَّقت به، وفضلُها على سائر المحابِّ كفضل من تعلقت به على ما سواه. وإذا انقطعت علائق المحبين، وأسباب توادهم وتحابهم؛ لم تنقطع أسبابها. قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الذين أُتبِعُوا مِن الذين اتَّبَعُوا وَرَأَوا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾. [البقرة: ١٦٦].

قال عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «المودَّة». وقال مجاهد: «تواصُلُهم في الدنيا» وقال الضحاك: «يعني تقطعت بهم الأرحام، وتفرقت بهم المنازل في النار». وقال أبو صالح: «الأعمال».

والكل حق. فإن الأسباب؛ هي الوُصَل التي كانت بينهم في الدنيا، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها.

وأما أسباب الموحدين المخلصين لله؛ فاتصلت بهم ودام اتصالها بدوام معبودهم ومحبوبهم. فإنَّ السبب تبعٌ لغايته في البقاء والانقطاع.

(١)**قال** تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتُّبِعُوا مِنْ الذين اتَّبَعُوا ورَأَوا العَذَابَ وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾. [البقرة: ١٦٦]. فالأسباب التي تقطعت بهم هي العلائق التي بغير الله ولغير الله، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها. وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت؛ اضمحلت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تبطل ببطلان غاياتها وتضمحل باضمحلالها.

وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه، وكل سعي لغيره باطل ومضمحل.

وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا: من اضمحلال السعي والعلم والكد والخدمة، التي يفعلها العبد: لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال، فإذا زال ذلك الذي عمل له؛ عدم ذلك العمل وبطل ذلك السعي ولم يبق في يده سوى الحرمان؛ ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة: «أليس عدلاً مني أني أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في الدنيا» فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم فتتساقط بهم في النار، ويتولى عابدو الشمس والقمر والنجوم آلهتهم، فإذا كورت الشمس وانتثرت النجوم؛ اضمحلت تلك العبادة وبطلت وصارت حسرة عليهم

(١) ١٢ طريق الهجرتين.

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أعمَالَهم حَسَرَاتٍ عَلَيْهِم وَمَا هُمْ بِخَارِجِين من النار﴾، [البقرة: ١٦٧]. ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقة وأغبنهم يوم معاده؛ فإنه يحال على مفلس كل الإفلاس بل على عدم، والموحد حوالته على المليء الكريم، فيابُعد ما بين الحوالتين.

(١)**والله** سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك به، التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل. وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيم إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ الآية. [البقرة: ١٣٠]. ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك. والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وأصل الشرك بالله الإشراك مع الله في المحبة كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاس مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ الله والذين آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾. [البقرة: ١٦٥].

فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به من دونه؛ فيتخذ الأنداد من دونه. يحبهم كحب الله.

وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم.

وقيل: بل المعنى أنهم أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لله، فإنهم وإن أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين أندادهم في المحبة؛ ضعفت محبتهم لله، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له؛ كانت أشد من محبة أولئك. والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة.

ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له؛ أنكر على من اتخذ من دونه وليًّا أو شفيعًا غاية الإنكار، وجمع ذلك تارة، وأفرد أحدهما عن الآخر تارة، بالإنكار فقال تعالى: ﴿إنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَق السَّمَوٰاتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُم اسْتَوى على العَرْشِ يُدَبِرُ الأَمْرَ ما من شفيعٍ إلا من بَعْد إذْنِهِ﴾. [يونس: ٣].

وقال تعالى: ﴿الله الذي خلق السموات والأرْضَ وَمَا بَيْنَهُما في سِتَة أيام ثم استوى على العرش مَالكم من دُونِهِ من وَلي ولا شَفِيع أفَلا تَتَذَكَّرُون﴾. [السجدة: ٤].

---

(١) ٢٥٤ الجواب الكافي.

وقال تعالى: ﴿وأنْذِرْ بهِ الذينَ يَخَافُون أنْ يُحْشَروا إلى رَبِّهِم ليْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ ولا شَفِيعٌ لعَلهُم يَتقُونَ﴾. [الأنعام: ٥١].

وقال في الإفراد: ﴿أم اتخذُوا مِنْ دُونِ الله شُفَعَاءَ قُل أولَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُون شَيئًا ولا يَعْقِلُون؟ قُل لله الشَّفاعةُ جميعًا﴾. [الزمر: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِم جَهَنمُ ولا يُغني عَنْهُم ما كسبوا شيئًا ولا ما اتَّخَذُوا مِن دونِ الله أوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾. [الجاثية: ١٠].

فإذا والى العبد ربه وحده واتخذه له وليًّا من دون أن يتخذ أولئك الذين يسمون شفعاء، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله؛ بخلاف من اتخذ المخلوقين أولياء من دون الله؛ فهذا لون وذاك لون. والشفاعة الشركية الباطلة لون. والشفاعة الحق الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون. وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والمقصود أن حقيقة العبودية وموجباتها لا تخلص مع الإشراك بالله في المحبة؛ بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية وموجباتها. فإن محبة رسول الله ﷺ بل تقديمه في الحب على الأنفس وعلى الآباء والأبناء؛ لا يتم الإيمان إلا بها؛ إذ محبته من محبة الله. وكذلك كل حُب في الله ولله.

كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**».

وفي لفظ في الصحيحين: «**لا يجد عبد طعم الإيمان إلا من كان في قلبه ثلاث خصال: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**».

وفي الحديث الذي في السنن: «**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان**».

وفي حديث آخر: «**ما تحابَّ رجلان في الله؛ إلا كان أفضلهما أشدَّهما حبًّا لصاحبه**». فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها؛ وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك.

فصـــل

وههنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينها. وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها:

أحدها: محبة الله. ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه. فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحب الله. وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر. وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحب الله، ولا يستقيم محبة ما يحب الله إلا بالحب فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئًا مع الله: لا لله، ولا من أجله؛ ولا فيه؛ فقد اتخذه ندًّا من دون الله، وهذه محبة المشركين.

وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه وهي المحبة الطبيعية. وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه: كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد، فتلك لا تُذَم إلا إن ألهت عن ذكر الله وشغلته عن محبته، كما قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا لا تُلْهِكُم أمْوَالُكُمْ ولا أوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله﴾**. [المنافقون: ٩].

وقال تعالى: **﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِم تِجَارةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله﴾**. [النور: ٣٧].

(١)**ثم** الخُلَّة وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها؛ بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه، وهذا المنصب خاصة للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما: إبراهيم ومحمد كما قال ﷺ: **«إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»**.

وفي الصحيح عنه ﷺ: **«لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ولكن صاحبكم خليل الله»**.

وفي حديث آخر: **«إني أبرأ إلى كل خليل من خلته»**.

ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه فتعلق حبه بقلبه فأخذ منه شعبة؛ غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه، وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحانًا، ولم يكن المقصود ذبح الولد،

---

(١) الخُلَّة: بضم الخاء المحبة، والصداقة التي تخللت القلب.

ولكن المقصود ذبحه من قلبه؛ ليخلص القلب للرب. فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال، وقدم محبة الله على محبة ولده؛ حصل المقصود فرفع الذبح وفدي بذبح عظيم، فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأسًا، بل لابد أن يبقي بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء. وكما أبقى استحباب الصدقة عند المناجاة(١). وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها، وقال: «**لا يبدل القول لدي خمس في الفعل وخمسون في الأجر**».

(٢) **المحبة** ثلاثة أقسام: محبة الله، والمحبة له وفيه، والمحبة معه. فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لا من قواطعها، فإن محبة الحبيب تقتضي محبة ما يحب ومحبة ما يعين على حبه، ويوصل إلى رضاه وقربه، وكيف لا يحب المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه ويتوصل به إلى حبه وقربه؟

وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشركية، وهي كمحبة أهل الأنداد لأندادهم كما قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أَنْدَادًا يُحِبونَهُم كَحُبِّ الله والذين آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله**﴾. [البقرة: ١٦٥].

وأصل الشرك الذي لا يغفره الله؛ هو الشرك في هذه المحبة، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الربَّ سبحانه في خلق السموات والأرض، وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله، فوالوا عليها وعادوا عليها وتألَّهوها وقالوا: هذه آلهةٌ صغارٌ تقربنا إلى الإله الأعظم. ففرقٌ بين محبة الله أصلاً والمحبة له تبعًا والمحبة [معه] شركًا. وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنه مَفْرَق الطُّرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك.

ويُحكى أن الفُضيل دخل على ابنته في مرضها، فقالت له: يا أبت هل تحبني؟ قال: نعم. قالت: لا إله إلاَّ الله! والله ما كنتُ أظنُّ فيك هذا، ولم أكن أظنك تحب مع الله أحدًا، ولكن أفرد الله بالمحبة واجعل لي منك الرحمة، أي: يكون حبك لي حبَّ رحمةٍ جعلها الله في قلب الوالد لولده لا محبة مع الله. فلله حقٌّ من المحبة لا يشْركه

(١) التي كان مأموراً بها في قوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا إذا ناجيتُم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة..**﴾ الآية [المجادلة: ١٢].

(٢) ٣١٤ روضة.

فيه غيره، وأظلم الظلم وضعُ تلك المحبة في غير موضعها، والتشريك بين الله وغيره فيها. فليتدبر اللبيب هذا الباب؛ فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالى.

(١)**قال** الله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ من دونِ الله أندادًا يحبونهم كحبِّ الله**﴾. [البقرة: ١٦٥]. فأخبر أن من أحب من دون الله شيئًا، كما يحب الله تعالى؛ فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا، فهذا ندٌّ في المحبة، لا في الخلق والربوبية؛ فإن أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم. ثم قال: ﴿**والذين آمنوا أشدُّ حُبًّا لله**﴾. [البقرة: ١٦٥]. وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: ﴿**والذين آمنوا أشدُّ حُبًّا لله**﴾ من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثاني: ﴿**والذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله**﴾ من محبة المشركين بالأنداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة: أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿**يحبونهم كحب الله**﴾. [البقرة: ١٦٥]. فإن فيها قولين:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله؛ ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادًا.

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذُمُّوا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة. ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم. وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهي مُحضرة معهم في العذاب: ﴿**تالله إنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إذْ نُسَوِيكم بِرَبِّ العَالَمِين**﴾. [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية؛ وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم.

وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ الذين كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ**

---

(١) ٢٠ مدارج جـ٣.

يَعْدِلُونَ﴾. [الأنعام: ١]. أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم. وهذا أصح القولين.

وقيل: الباء. بمعنى «عن» والمعنى: ثم الذين كفروا عن ربّهم يعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره. وهذا ليس بقوي. إذ لا تقول العرب: عدلت بكذا، أي: عدلت عنه. وإنما جاء هذا في فعل السؤال. نحو: سألت بكذا، أي: عنه. كأنهم ضمنوه: اعتنيت به واهتممت. ونحو ذلك.

فصل(١)

في خاتمة لهذا الباب، هي الغاية المطلوبة، وجميع ما تقدم كالوسيلة إليها.

وهي: أن محبة الله سبحانه والأنس به، والشوق إلى لقائه، والرضى به وعنه؛ أصل الدين وأصلُ أعماله وإراداته.

كما أنّ معـرفته، والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أجلُّ علوم الدين كلها، فمعرفته أجلُّ المعارف.

وإرادة وجهـه أجـلُّ المقاصد، وعبادته أشرفُ الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته، ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال، وذلك أساس الحنيفية ملَّة إبراهيم.

وقد قال تعالى لرسوله: **﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِع مِلَّةَ إِبْرَاهِيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ من الْمُشْرِكِين﴾**. [النحل: ١٢٣].

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُوصي أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: **«أصبحنـا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملَّة أبينا إبراهيم، حنيفًا مسلمًا، وما كان المشركين»**.

وذلك هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وعليها قام دينُ الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين. وليس لله دينٌ سواه. ولا يقبلُ من أحد دينًا غيره.

﴿وَمَنْ يَبْتَـغِ غَيْرَ الإِسْـلامِ دِينًـا فَلَنْ يُقْبَـلَ مِنْـهُ وهُـو فِي الآخِـرَة مِنَ الخَاسِرِينَ﴾. [آل عمران: ٨٥].

فمحبته تعالى، بل كونُه أحب إلى العبد من كل ما سواه على الإطلاق، من أعظم واجبات الدين، وأكبر أصوله، وأجلِّ قواعده، ومن أحبَّ معه مخلوقًا مثل

---

(١) ١٩٥ إغاثة جـ٢.

ما يحبه فهو من الشرك الذي لا يغفر لصاحبه، ولا يُقبل معه عمل.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ الله، والذين آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾. [البقرة: ١٦٥].

وإذا كان العبد لا يكون من أهل الإيمان؛ حتى يكون عبد الله ورسوله أحبَّ إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين، ومحبته تبعٌ لمحبة الله، فما الظنُّ بمحبته سبحانه؟ وهو سبحانه لم يخلق الجنّ والإنس إلا لعبادته، التي تتضمن كمال محبته، وكمال تعظيمه والذل له، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزلَ كتبه، وشرع شرائعه. وعلى ذلك وضعَ الثوابَ والعقاب، وأسست الجنةُ والنار، وانقسم الناسُ إلى شقي وسعيد، وكما أنه سبحانه ليس كمثله شيء، فليس كمحبته وإجلاله وخوفه محبة وإجلالٌ ومخافة.

فالمخلوق كلما خفته استوحشت منه، وهربت منه. والله سبحانه كلما خفته أنست به وفررت إليه. والمخلوق يخاف ظلمهُ وعدوانه، والرب سبحانه إنما يُخاف عدله وقِسْطه.

وكذلك المحبة. فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله؛ فهي عذاب للمحب ووبال عليه.

وما يحصل له بها من التألم؛ أعظم مما يحصل له من اللذة. وكلما كانت أبعدَ عن الله؛ كان ألمها وعذابها أعظم.

هذا إلى ما في محبته من الإعراض عنك، والتجني عليك، وعدم الوفاء لك، إما لمزاحمة غيرك من المحبين له، وإما لكراهته ومعاداته لك، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه وما هو أحب إليه منك. وإما لغير ذلك من الآفات.

وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن، فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربُّها ومدبرها ورازقها، ومميتها ومحييها. فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن. فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبته والأنس به، والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك؛ فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك؛ أتمُّ من كل نعيم، واللذة التي تناله؛ أعلى من كل لذة.

كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: «إنه ليمرُّ بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب».

وقال آخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات يهتزُّ فيها طربًا بأُنسه بالله وحبه له».

وقال آخر: «مساكينُ أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها».

وقال آخر: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

وَوُجدانُ هذه الأمور وذوقها؛ هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه. وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتمّ، والقرب منه أوفر؛ كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته؛ أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب؛ وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه...

(١)قوله تعالى: ﴿**وإذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا ما أنزَل الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما ألفَيْنا عَلَيْه آبَاءنا أوَلَو كان آباؤُهم لا يَعْقِلُون شيئًا ولا يَهْتَدُون**﴾. [البقرة: ١٧٠]. فهذه مناظرة حكاها الله بين المسلمين والكفار، فإن الكفار لجؤوا إلى تقليد الآباء وظنوا أنه منجيهم، لإحسانهم ظنهم بهم فحكم الله بينهم بقوله: ﴿**أوَلَوْ كَانَ آباؤُهم لا يعقلون شيئًا ولا يَهْتدون**﴾. [البقرة: ١٧٠].

وفي موضع آخر: ﴿**أوَ لَو كان الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السَّعير**﴾. [لقمان: ٢١].

وفي موضع آخر: ﴿**قال أوَ لَو جِئْتُكُم بِأهْدَى مِمَّا وَجَدْتُم عَلَيْهِ آباءكُمْ**﴾. [الزخرف: ٢٤].

فأخبر عن بطلان هذه الحجة وأنها لا تنجي من عذاب الله؛ لأن تقليد من ليس عنده علم ولا هدى من الله ضلالة وسفه.

والمعنى ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير يقلدونهم، ولو كانوا لا علم عندهم ولا هدى يقلدونهم أيضًا. وهذا شأن من لا غرض له في الهدى ولا في اتباع الحق، إنْ غرضُه بالتقليد إلا دفع الحق والحجة إذا لزمته؛ لأنه لو كان مقصوده الحق لاتبعه إذا ظهر له، وقد جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، فلو

---

(١) ١٧٣ بدائع جـ٤.

كنتم ممن يتبع الحق لاتبعتم ما جئتكم به. فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم على حق فقد جئتكم بأهدى مما وجدتموهم عليه، وإنما جعلتم تقليدهم جُنَّة لكم تدفعون بها الحق الذي جئتكم به.

[1]**قوله** تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الذين كَفَرُوا كَمِثْلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلا دعاءً ونِدَاءً، صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُون**﴾. [البقرة: ١٧١]. فتضمن هذا المثل ناعقًا، أي: مُصَوِّتًا بالغنم وغيرها، ومنعوقًا به وهو الدواب، فقيل: الناعق: العابد، وهو الداعي للصنم، والصنم هو المنعوق به المدعوُّ، وإن حال الكافر في دعائه، كحال من ينعق بما لا يسمعه، هذا قول طائفة منهم عبدالرحمن بن زيد وغيره.

واستشكل صاحبُ الكشاف وجماعة معه هذا القول، وقالوا: قوله: ﴿**إلَّا دعاءً ونداءً**﴾ لا يساعد عليه؛ لأن الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداء.

وقد أجيب عن هذا الاستشكال بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن «إلا» زائدة، والمعنى:بما لا يسمع دُعاء ونداء؛ قالوا: وقد ذكر ذلك الأصمعي في قول الشاعر:

* حَرَاجِيحُ مَا تنفكُّ إلَّا مُناخَةً[2] *

أي ما تنفك مُنَاخة، وهذا جواب فاسد، فإن «إلا» لا تزاد في الكلام.

الجواب الثاني: أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء لا في خصوصيات المدعو.

الجواب الثالث: أن المعنى أن مثل هؤلاء في دعائهم آلهتهم التي لا تَفْقه دعـاءهم كمثل الناعق بغنمه، فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنه هو في دعاء ونداء، وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلا العناء.

وقيل: المعنى ومثَلُ الذين كفروا كالبهائم التي لا تَفْقه مما يقول الراعي أكثر من الصوت؛ فالراعي هو داعي الكفار، والكفار هم البهائم المَنْعُوق بها.

قال سيبـويه: المعنى ومثلك يامحمـد ومَثْـلُ الـذين كفـروا كمثل الناعق والمنعوق به؛ وعلى قوله فيكون المعنى: ومثلُ الذين كفروا وداعيهم كمثل الغنم والناعق بها.

ولك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، وأن تجعله من التشبيه المفرق، فإن

---

(١) ١٨٢ أعلام جـ١.

(٢) هذا صدر بيت لذي الرُّمَّة يصف إبلًا، وعجزه قوله: * على الخسف أو نرمي بها بلدًا قفراً *.

جعلته من المركب كان تشبيها للكفار في عدم فقههم وانتفاعهم بالغنم التي يَنْعِقُ بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئًا غير الصوت المجرد الذي هو الدعاء والنداء، وإن جعلته من التشبيه المفرَّق فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النَعْق، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق، والله أعلم.

(١)**وقال** تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الذين كَفَرُوا كَمِثْلِ الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون**﴾ وسواء كان المعنى ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتا مجردة أو كان المعنى، ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينعق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء فالقولان متلازمان بل هما واحد وإن كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في المعنى فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان.

(٢)**قد** جمع الله خصال البر في قوله تعالى: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**﴾. إلى قوله ـ ﴿**وأولئك هم المتقون**﴾.

فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمسة التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنها الشرائع الظاهرة: من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنفقات الواجبة وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه: من الصبر والوفاء بالعهد، فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين حقائقه وشرائعه، والأعمال المتعلقة بالجوارح، والقلب، وأصول الإيمان الخمسة.

ثم أخبر سبحانه عن هذه إنما هي خصال التقوى بعينها فقال ﴿**أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾.

(٣)**قوله**: «**كيف تَرْدَعُون عن سفك الدم بسفكه، وإن ذلك كازالة النجاسة بالنجاسة**» سؤال في غاية الوَهْن والفساد، وأول مايقال لسائله: هل ترى رَدْع المفسدين والجناة عن فسادهم وجناياتهم وكفَّ عُدْوانهم مُسْتَحْسَنًا في العقول موافقًا لمصالح العباد أو لا تراه كذلك؟.

فإن قال «لا أراه كذلك» كفانا مؤنة جوابه بإقراره على نفسه بمخالفة جميع

---

(١) ٧٩ مفتاح جـ١ (٢) ٥ التبوكية (٣) ١٠٢ أعلام جـ٢

طوائف بني آدم على اختلاف مللهم ونحلهم ودياناتهم وآرائهم، ولولا عقوبة الجناة والمفسدين لأهلك الناس بعضُهم بعضا، وفسد نظام العالم، وصارت حالُ الدوابِّ والأنعام والوحُوش أحْسَن من حال بني آدم.

وإن قال: «بل لا تتم المصلحة إلا بذلك».

قيل له: من المعلوم أن عقوبة الجناة والمفسدين لا تتم إلا بمُؤلم يَرْدعهم، ويجعل الجاني نَكالاً وعظة لمن يريد أن يفعل مثل فعله، وعند هذا فلا بدَّ من إفساد شيء منه بحسب جريمته: في الكبر والصغر، والقلة والكثرة.

ومن المعلوم ببدَائهِ العقول: أن التسوية في العقوبات مع تفاوت الجرائم غير مستحسن؛ بل منافٍ للحكمة والمصلحة؛ فإنه إن ساوى بينهم في أدنى العقوبات لم تحصل مصلحة الزجر. وإن ساوى بينها في أعظمها كان خلافَ الرحمة والحكمة؛ إذ لا يليق أن يُقتَلَ بالنظرة والقبلة ويُقْطَعَ بسرقة الحبة والدينار.

وكذلك التفاوت بين العقوبات مع استواء الجرائم قبيح في الفطر والعقول، وكلاهما تأباه حِكمة الرب تعالى وعدْله وإحسانه إلى خلقه، فأوقع العقوبة تارة بإتلاف النفس إذا انتهت الجناية في عظمها إلى غاية القبح: كالجناية على النفس أو الدين، أو الجناية التي ضررها عام؛ فالمفسدة التي في هذه العقوبة خاصة، والمصلحة الحاصلة بها أضعاف أضعاف تلك المفسدة، كما قال تعالى: ﴿**ولكمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أولي الألبابِ لَعلكُم تتقونَ**﴾ [البقرة: ١٧٩].

فلولا القصاص لفسدَ العالم، وأهلك الناس بعضهم بعضًا ابتداء واستيفاء، فكأن في القصاص دفعًا لمفسدة التَّجَرِّي على الدماء بالجناية وبالاستيفاء. وقد قالت العرب في جاهليتها:

«القتلُ أنفى للقتل» «وبسفك الدماءِ تُحْقَنُ الدماءُ».

أفلم تغسل النجاسة بالنجاسة، بل الجناية نجاسة والقصاص طُهْرة، وإذا لم يكنْ بد من موت القاتل ومن استحق القتل، فموته بالسيف أنفع له في عاجلته وآجلته، والموت به أسرع الموتات وأوحاها وأقلها ألمًا، فموته به مصلحة له ولأولياء القتيل ولعموم الناس، وجَرَى ذلك مجرى إتلاف الحيوان بذبْحه لمصلحة الآدمي، فإنه حسن، وإن كان في ذبحه إضرار بالحيوان؛ فالمصالح المرتبة على ذبحه أضعاف

أضعاف مفسدة إتلافه.

ثم هذا السؤال الفاسد؛ يَظْهر فسادُه وبطلانه بالموت الذي حتمه الله على عباده وساوى فيه بين جميعهم، ولولاهُ لما هَنَأ العيش، ولا وَسِعتهم الأرزاق، ولضاقت عليهم المساكن والمدن والأسواق والطرقات، وفي مفارقة البغيض من اللذة والراحة ما في مُواصلة الحبيب ، والموت مخلص للحي، والموت مريح لكل منهما من صاحبه، ومخرج من دار الابتلاء والامتحان [و] بابٌ للدخول في دار الحيوان(١)

جزى الله عنا الموت خيرًا فإنه ... أبر بنا من كل بر وأعطف

يعجل تخليص النفوس من الأذى ... ويدني إلى الدار التي هي أشرف

فكم لله سبحانه على عباده الأحياء والأموات في الموت من نعمة لا تحصى، فكيف إذا كان فيه طُهرة للمقتول، وحياة للنوع الإنساني، وتَشَفٍّ للمظلوم، وعدل بين القاتل والمقتول؛ فسبحان من تنزهت شريعته عن خلاف ما شرعها عليه من اقتراح العقول الفاسدة والآراء الضالة الجائرة.

وأما قوله: «لو كان ذلك مستحسنًا في العقول؛ لاستحسن في تحريق ثوبه وتخريب داره وذبح حيوانه مقابلته بمثله».

فالجواب عن هذا أن مفسدة تلك الجنايات تندفع بتغريمه نظير ما أتلفه عليه؛ فإن المِثلَ يسدُّ مسد المثل من كل وجه؛ فتصير المقابلة مفسدة محضة، كما ليس له أن يقتل ابنه أو غلامه مقابلة لقتله هو ابنه أو غلامه، فإن هذا شرعُ الظالمين المعتدين الذي تنزه عنه شريعة أحكم الحاكمين.

على أن للمقابلة في إتلاف المال بمثل فعله مساغًا في الاجتهاد.

وقد ذهب إليه بعضُ أهل العلم كما تقدم الإشارة إليه في عقوبة الكفار بإفساد أموالهم؛ إذا كانوا يفعلون ذلك بنا، أو كان يَغِيظُهم، وهذا بخلاف قتل عبده إذا قتل عبده أو قتل فرسه أو عَقَر فرسه، فإن ذلك ظلم لغير مستحق.

ولكن السُّنة اقتضت التضمين بالمثل، لا إتلاف النظير، كما غرم النبي ﷺ إحدى زوجتيه التي كَسَرَت إناء صاحبتها إناءً بدله، وقال: «**إناء بإناء**» ولا ريب أن هذا أقل فسادًا، وأصلح للجهتين؛ لأن المتلفـ اله إذا أخذ نظيره صار كمن

---

(١) الحيوان هنا: الحياة. ومنه قوله: ﴿وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت: ٦٤].

لم يَفُتْ عليه شيء، وانتفع بما أخذه عوض ماله، فإذا مكناه من إتلافه كان زيادة في إضاعة المال، وما يراد من التّشفي وإذاقة الجاني ألم الإتلاف فحاصل بالغُرْم غالبًا، ولا التفات إلى الصور النادرة التي لا يتضرر الجاني فيها بالغرم، ولا شك أن هذا أليق بالعقل، وأبلغ في الصلاح، وأوفق للحكمة.

وأيضًا فإنه لو شرع القصاص في الأموال ردعًا للجاني؛ لبقي جانب المجنى عليه غير مراعى، بل يبقى متألمًا موتورًا غير مجبور، والشريعة إنما جاءت بجَبْر هذا وردع هذا.

فإن قيل: فخيِّروا المجني عليه بين أن يغرم الجاني أو يتلف عليه نظير ما أتلفه هو، كما خيرتُموه في الجناية على طرفه، وخيرتُم أولياء القتيل بين إتلاف الجاني النظير وبين أخذ الدية.

قيل: لا مصلحة في ذلك للجاني ولا للمجني عليه ولا لسائر الناس، وإنما هو زيادة فساد، لا مصلحة فيه بمجرد التشفي، ويكفي تغريمه وتعزيره في التشفي، والفرق بين الأموال والدماء في ذلك ظاهر.

فإن الجناية على النفوس والأعضاء؛ تُدْخِل من الغيظ والحنق والعداوة على المجني عليه وأوليائه ما لا تدخله جناية المال، ويدخل عليهم من الغضاضة والعار واحتمال الضيم والحمية والتحرق لأخذ الثأر؛ ما لا يجبره المال أبدًا.

حتى إن أولادهم وأعقابهم ليعيّرون بذلك، ولأولياء القتيل من القصد في القصاص وإذاقة الجاني وأوليائه ما أذاقه للمجني عليه وأوليائه؛ ما ليس لمن حرق ثوبه أو عُقرت فرسه، والمجني عليه موتور هو وأولياؤه، فإن لم يوتر الجاني وأولياؤه ويجرعوا من الألم والغيظ ما تجرعه الأول لم يكن عدلاً.

وقد كانت العرب في جاهليتها؛ تعيب على مَنْ يأخذ الدية ويرضى بها من دَرْك ثأره وشفاء غيظه، كقول قائلهم يهجو من أخذ الدية من الإبل:

وإن الـذي أصبَحْتُمُ تحلبونه ... دمٌ، غَيْرَ أن اللَّوْنَ ليس بأشقرا

وقال جرير يعير من أخذ الدية فاشترى بها نخلاً:

ألا أبـلغ بني حجـر بن وهـب ... بأن الـتـمـر حُلوٌ في الـشـتـاء

وقال آخر:

إذا صُبَّ ما في الـوَطب فاعلم بأنه ... دَمُ الشيخ فاشرب من دم الشيخ أودَعِ

وقال آخر:

خليلان مختلفٌ شَكْلنا أريدُ العلاء ويبغي السمن
أريد دماء بني مالك ورأيُ المعلى بياضُ اللبن

وهذا وإن كانت الشريعة قد أبطلته وجاءت بما هو خير منه وأصلح في المعاش والمعاد: من تخيير الأولياء بين إدراك الثأر ونيل التشفي، وبين أخذ الدية؛ فإن القصد به أن العرب لم تكن تعير مَنْ أخذ بدل ماله، ولم تعده ضعفًا ولا عجزًا ألبتة، بخلاف مَنْ أخذ بدل دم وليه، فما سَوَّى الله بين الأمرين في طبع ولا عقل ولا شرع، والإنسان قد يخرق ثوبه عند الغيظ، ويذبح ماشيته، ويتلف ماله، فلا يلحقهُ في ذلك من المشقة والغيظ والازدراء به؛ ما يلحق من قتل نفسه أو جَدَع أنفه أو قَلَع عينه.

(١)**الوجه** الرابع والخمسون: أن قولكم إذا قتل إنسان إنسانًا عرض للعقل هاهنا آراء متعارضة مختلفة إلى آخره.

فيقال: إن أردتم أن العقل يسوِّي بين ما شرعه الله من القصاص وبين تركه لمصلحة الجاني، فبهتٌ للعقل وكذب عليه؛ فإنه لا يستوي عند عاقل قط حسن الاقتصاص من الجاني بمثل ما فعل، وحسن تركه والإعراض عنه، ولا يعلم عقل صحيح يسوى بين الأمرين، وكيف يستوي أمران:

أحدهما: يستلزم فساد النوع وخراب العالم، وترك الانتصار للمظلوم، وتمكين الجناة من البغي والعدوان.

والثاني: يستلزم صلاح النوع وعمارة العالم، والانتصار للمظلوم، وردع الجناة والبغاة والمعتدين؟!

فكان في القصاص حياة العالم وصلاح الوجود. وقد نبه تعالى على ذلك بقوله: **﴿ولَكُمْ في القصَاصِ حَيَاةٌ يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾**. [البقرة: ١٧٩].

وفي ضمن هذا الخطاب ما هو كالجواب لسؤال مقدر: إن إعدام هذه البنية الشريفة وإيلام هذه النفس وإعدامها في مقابلة إعدام المقتول؛ تكثير لمفسدة القتل، فلأية حكمة صدر هذا ممن وسعت رحمته كل شيء، وبهرت حكمته

---

(١) ٩٦ مفتاح جـ٢.

العقول؟ فتضمن الخطاب جواب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾. وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يقتل قصاصًا بمن قتله؛ كف عن القتل وارتدع وآثر حب حياته ونفسه، فكان فيه حياة له ولمن أراد قتله.

ومن وجه آخر: وهو أنهم كانوا إذا قتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم، قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحيه وقبيلته، وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره وتشتد مؤنته.

فشرع الله تعالى القصاص، وأن لا يقتل بالمقتول غير قاتله؛ ففي ذلك حياة عشيرته وحيه وأقاربه، ولم تكن الحياة في القصاص من حيث إنه قتل؛ بل من حيث كونه قصاصًا يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غير، فتضمن القصاص الحياة في الوجهين.

وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز والبلاغة والفصاحة والمعنى العظيم.

فصدر الآية بقوله: ﴿لكم﴾ المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم عائدة إليكم، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحسانًا إليكم، فمنفعته ومصلحته لكم لا لمن لا يبلغ العباد ضره ونفعه.

ثم عقبه بقوله: ﴿في القصاص﴾ إيذانًا بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل، وهو أن يفعل به كما فعل.

والقصاص في اللغة: المماثلة. وحقيقته راجعة إلى الاتباع.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾. [القصص: ١١]. أي: اتبعي أثره.

ومنه قوله: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾. [الكهف: ٦٤]. أي: يقصان الأثر ويتبعانه.

ومنه قص الحديث واقتصاصه لأنه يتبع بعضه بعضًا في الذكر، فسمي جزاء الجاني قصاصًا؛ لأنه يتبع أثره فيفعل به كما فعل، وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل، فيُقتل بمثل ما قتل به لتحقيق معنى القصاص.

وقد ذكرنا أدلة المسألة من الطرفين، وترجيح القول الراجح بالنص والأثر والمعقول في كتاب تهذيب السنن.

ونكر سبحانه الحياة تعظيمًا وتفخيمًا لشأنها، وليس المراد حياة ما؛ بل المعنى:

أن في القصاص؛ حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس المؤثرة عندها المستحسنة في كل عقل، والتنكير كثيراً ما يجيء للتعظيم والتفخيم كقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وجَنَّةٍ﴾. [آل عمران: ١٣٣]. وقوله: ﴿ورضوانٌ من الله أكبرُ﴾. [التوبة: ٧٢]. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾. [النجم: ٤].

ثم خص أولى الألباب وهم: أولو العقول التي عقلت عن الله أمره ونهيه وحكمته، إذ هم المنتفعون بالخطاب، ووازن بين هذه الكلمات وبين قولهم: «القتل أنفى للقتل» ليتبين مقدار التفاوت وعظمة القرآن وجلالته.

الوجه الخامس والخمسون: قولكم: إن القصاص إتلاف، بإزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان، ولا يحيا الأول بقتل الثاني؛ ففيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين، وأما مصلحة الردع والزجر واستبقاء النوع فأمر متوهم، وفي القصاص استهلاك محقق.

فيقال: هذا الكلام من أفسد الكلام وأبينه بطلاناً؛ فإنه يتضمن التسوية بين القبيح والحسن، ونفي حسن القصاص الذي اتفقت العقول والديانات على حسنه وصلاح الوجود به، وهل يستوي في عقل أو دين أو فطرة القتل ظلماً وعدواناً بغير حق، والقتل قصاصًا وجزاء بحق؟!.

ونظير هذه التسوية تسوية المشركين بين الربا والبيع؛ لاستوائهما في صورة العقد، ومعلوم أن استواء الفعلين في الصورة لا يوجب استواءهما في الحقيقة، ومدعي ذلك في غاية المكابرة.

وهل يدل استواء السجود لله، والسجود للصنم في الصورة الظاهرة وهو وضع الجبهة على الأرض؛ على أنهما سواء في الحقيقة حتى يتحير العقل بينهما ويتعارضان فيه؟! ويكفي في فساد هذا إطباق العقلاء قاطبة على قبح القتل الذي هو ظلم وبغي وعدوان، وحسن القتل الذي هو جزاء وقصاص وردع وزجر.

والفرق بين هذين؛ مثل الفرق بين الزنا والنكاح بل أعظم وأطهر، بل الفرق بينهما من جنس الفرق بين الإصلاح في الأرض والإفساد فيها. فما تعارض في عقل صحيح قط هذان الأمران حتى يتحير بينهما أيهما يؤثره ويختاره؟

وقولكم: إنه إتلاف بإزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان فكذلك هو، لكن إتلاف حسن هو مصلحة وحكمة وصلاح للعالم، في مقابلة إتلاف هو فساد وسفه

وخراب للعالم فأنَّى يستويان؟! أم كيف يعتدلان حتى يتحير العقل بين الإتلاف الحسن وتركه؟!

وقولكم: «لا يحيا الأول بقتل الثاني» قلنا: يحيا به عدد كثير من الناس؛ إذ لو ترك ولم يؤخذ على يديه لأهلك الناس بعضهم بعضًا، فإن لم يكن في قتل الثاني حياة للأول ففيه حياة العالم كما قال تعالى: ﴿**ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب**﴾. [البقرة: ١٧٩]

لكن هذا المعنى لا يدركه حق الإدراك إلا أولو الألباب.

فأين هذه الشريعة، وهذه الحكمة وهذه المصلحة؛ من هذا الهذيان الفاسد وأن يقال: قتل الجاني إتلاف بأزاء إتلاف، وعدوان في مقابلة عدوان فيكون قبيحًا، لولا الشرع؟! فوازن بين هذا وبين ما شرعه الله وجعل مصالح عباده منوطة به.

وقولكم: فيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين.

فيقال: لو أعطيتم رتب المصالح والمفاسد حقها؛ لم ترضوا بهذا الكلام الفاسد، فإن الشرائع والفطر والعقول متفقة على تقديم المصلحة الراجحة، وعلى ذلك قام العالم وما نحن فيه كذلك فإنه احتمال لمفسدة إتلاف الجاني إلى هذه المفسدة العامة، فمن تحير عقله بين هذين المفسدتين فلفساد فيه.

والعقلاء قاطبة متفقون على أنه يحسن إتلاف جزء لسلامة كل: كقطع الأصبع أو اليد المتآكلة لسلامة سائر البدن، ولذلك يحسن الإيلام لدفع إيلام أعظم منه، كقطع العروق وبط الخراج ونحوه.

فلو طرد العقلاء قياسكم هذا الفاسد وقالوا: هذا إيلام محقق لدفع إيلام متوهم، لفسد الجسد جملة، ولا فرق عند العقول بين هذا وبين قياسكم في الفساد.

الوجه السادس والخمسون: قولكم: إن مصلحة الردع والزجر وإحياء النوع أمر متوهم، كلام بيِّن فساده؛ بل هو أمر متحقق وقوعه عادة، ويدل عليه ما نشاهده من الفساد العام عند ترك الجناة والمفسدين وإهمالهم وعدم الأخذ على أيديهم، والمتوهم من زعم أن ذلك موهوم وهو بمثابة من دهمه العدو فقال: لا نعرض أنفسنا لمشقة قتالهم: إنه مفسدة متحققة وأما استيلاؤهم على بلادنا وسبيهم

ذرارينا وقتل مقاتلتنا فموهوم. فياليت شعري من الواهم المخطىء في وَهْمه؟!

ونظيره أيضًا: أن الرجل إذا تبيغ به الدم وتضرر إلى إخراجه، لا يتعرض لشق جلده وقطع عروقه؛ لأنه ألم محقق لا موهوم، ولو اطرد هذا القياس الفاسد لخرب العالم وتعطلت الشرائع. والاعتماد في طلب مصالح الدارين ودفع مفاسدهما مبني على هذا الذي سميتموه أنتم موهومًا، فالعمال في الدنيا إنما يتصرفون بناء على الغالب المعتاد الذي اطردت به العادة، وإن لم يجزموا به فإن الغالب صدق العادة واطرادها عند قيام أسبابها، فالتاجر يتحمل مشقة السفر في البر والبحر بناء على أنه يسلم ويغنم، فلو اطرد هذا القياس الفاسد وقال: السفر مشقة متحققة والكسب أمر موهوم؛ لتعطلت أسفار الناس بالكلية.

وكذلك عمال الآخرة لو قالوا: تعب العمل ومشقته أمر متحقق، وحسن الخاتمة أمر موهوم؛ لعطلوا الأعمال جملة، وكذلك الأجراء والصناع والملوك والجند وكل طالب أمر من الأمور الدنيوية والأخروية، لولا بناؤه على الغالب وما جرت به العادة؛ لما احتمل المشقة المتيقنة لأمر منتظر.

ومن ها هنا قيل: إن إنكار هذه المسألة يستلزم تعطيل الدنيا والآخرة من وجوه متعددة.

الوجه السابع والخمسون: قولكم: ويعارضه معنى ثالث وراءهما، فيفكر العقل في أنواع وشروط أخرى وراء مجرد الإنسانية: من العقل والبلوغ، والعلم والجهل، والكمال والنقص، والقرابة والأجنبية فيتحير العقل كل التحير. فلا بد إذًا من شارع: يفصل هذه الخطة، ويعين قانونًا يطرد عليه أمر الأمة، ويستقيم عليه مصالحهم.

فيقال: لا ريب أن الشرائع تأتي بما لا تستقل العقول بإدراكه، فإذا جاءت به الشريعة اهتدى العقل حينئذ إلى وجه حسن مأموره وقبح منهيه؛ فسرته الشريعة على وجه الحكمة والمصلحة الباعثين لشرعه، فهذا مما لا ينكر، وهذا الذي قلنا فيه: «إن الشرائع تأتي بمجارات العقول لا بمحالات العقول».

ونحن لم ندع ولا عاقل قط: أن العقل يستقل بجميع تفاصيل ما جاءت به الشريعة؛ بحيث لو ترك وحده لاهتدى إلى كل ما جاءت به.

إذا عرف هذا فغاية ما ذكرتم: أن الشريعة الكاملة اشترطت في وجوب

القصاص شروطًا لا يهتدي العقل إليها، وأي شيء يلزم من هذا، وماذا يقبح لكم ومنازعوكم يسلمونه لكم؟.

وقولكم: إن هذا معارض للوصف المقتضي لثبوت القصاص من قيام مصلحة العالم: إما غفلة عن الشروط المعارضة، وإما اصطلاح طارٍ سيم فيه ما لا يهتدي العقل إليه من شروط اقتضاء الوصف لموجبه معارضة.

فيا لله العجب! أي معارضة ها هنا إذا كان العقل والفطرة قد شهدا بحسن القتل قصاصًا، وانتظامه للعالم؟ وتوقفًا في اقتضاء هذا الوصف هل يضم إليه شرط آخر غيره، أم يكفي بمجرده؟ وفي تعيين تلك الشروط فأدرك العقل ما استقل بإدراكه، وتوقف عما لا يستقل بإدراكه حتى اهتدى إليه بنور الشريعة...

فصل(١)

وأما معاقبة السارق بقطع يده وترك معاقبة الزاني بقطع فرجه؛ ففي غاية الحكمة والمصلحة، وليس في حكمة الله ومصلحة خلقه وعنايته ورحمته بهم أن يتلف على كل جانٍ كلَّ عضو عَصَاه به، فيشرع: قَلْعَ عين مَنْ نَظَر إلى المحرم، وقطع أذن من استمع إليه، ولسان من تكلم به، ويَدِ من لَطَم غيره عُدْوانًا. ولا خفاء بما في هذا من الإسراف والتجاوز في العقوبة وقلب مراتبها.

وأسماء الرب الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحميدة؛ تأبى ذلك. وليس مقصود الشارع مجرد الأمن من المعاودة ليس إلا، ولو أريد هذا لكان قتلُ صاحب الجريمة فقط، وإنما المقصود الزجر والنكال والعقوبة على الجريمة، وأن يكون إلى كَفِّ عدوانه أقرب، وأن يعتبر به غيره، وأن يُحْدِثَ له ما يذوقه من الألم توبةً نَصُوحًا، وأن يذكره ذلك بعقوبة الآخرة، إلى غير ذلك من الحكم والمصالح.

ثم إن في حدِّ السرقة معنى آخر، وهو: أن السرقة إنما تقع من فاعلها سرًّا كما يقتضيه اسمها، ولهذا يقولون: «فلان ينظر إلى فلان مُسَارقة» إذا كان ينظر إليه نظرًا خفيًا لا يريد أن يفطن له، والعازم على السرقة مُخْتَفٍ كاتم خائف أن يشعر بمكانه فيؤخذ به، ثم هو مستعد للهَرَب والخلاص بنفسه إذا أخذ الشيء، واليَدَان للإنسان كالجناحين للطائر في إعانته على الطيران، ولهذا يقال: «وَصَلْتُ جَنَاحَ فلان»، إذا رأيته يسير منفردًا فانضممت إليه لتصحبه، فعوقب السارق بقطع اليد؛ قَصًّا لجناحه، وتسهيلاً لأخذه إن عاود السرقة، فإذا فعل به هذا في أول مرة؛ بقي مقصوص أحدِ الجناحين ضعيفًا في العَدْو، ثم يقطع في الثانية رجله؛ فيزداد ضعفًا في عدوه فلا يكاد يفوت الطالب، ثم تقطع يده الأخرى في الثالثة ورجله الأخرى في الرابعة، فيبقى لحمًا على وَضَمٍ؛ فيستريح ويريح.

وأما الزاني فإنه يزني بجميع بدنه، والتلذذ بقضاء شهوته يعم البدن، والغالب من فعله وقوعه برضا المزني بها، فهو غير خائف ما يخافه السارق من الطلب،

---

(١) ١٠٦ أعلام جـ٢.

فعوقب بما يعم بدنه: من الجلد مرةً، والقتل بالحجارة مرة.

ولما كان الزنا من أمهات الجرائم وكبائر المعاصي؛ لما فيه من اختلاط الأنساب الذي يَبْطُل معه التعارف والتناصر على إحياء الدين، وفي هذا هلاك الحرثِ والنَّسل، فشاكل في معانيه أو في أكثرها القتل الذي فيه هلاك ذلك؛ فزجرعنه بالقصاص ليرتَدعَ عن مثل فعله مَنْ يَهُمُّ به؛ فيعود ذلك بعمارة الدنيا وصلاح العالم الموصل إلى إقامة العبادات الموصلة إلى نعيم الآخرة.

ثم إن للزاني حالتين:

إحداهما: أن يكون مُحصنًا قد تزوج، فعلم ما يقع به من العفاف عن الفروج المحرمة، واستغنى به عنها، وأحرز نفسه عن التعرض لحد الزنى، فزال عذره من جميع الوجوه في تخطي ذلك إلى مُواقعة الحرام.

الثانية: أن يكون بكرًا، لم يعلم ما علمه المُحْصَنُ ولا عمل ما عمله؛ فحصل له من العذر بعضُ ما أوجب له التخفيف؛ فحقن دمه، وزجر بإيلام جميع بدنه بأعلى أنواع الجلد؛ ردْعًا عن المعاودة للاستمتاع بالحرام، وبعثًا له على القنع بما رزقه الله من الحلال. وهذا في غاية الحكمة والمصلحة، جامع للتخفيف في موضعه والتغليظ في موضعه. وأين هذا مع قَطْع لسان الشاتم والقاذف وما فيه من الإسراف والعدوان؟

ثم إن قطع فرج الزاني فيه من تعطيل النَّسل وقطعه؛ عكس مقصود الرب تعالى من تكثير الذرية وذريتهم فيما جعل لهم من أزواجهم، وفيه من المفاسد أضعاف ما يتوهم فيه من مصلحة الزجر، وفيه إخلاء جميع البدن من العقوبة، وقد حصلت جريمة الزنا بجميع أجزائه؛ فكان من العدل أن تعمه العقوبة، ثم إنه غير متصور في حق المرأة، وكلاهما زان؛ فلا بد أن يستويا في العقوبة، فكان شرع الله سبحانه أكمل من اقتراح المقترحين.

وتأمل كيف جاء إتلاف النفوس؛ في مقابلة أكبر الكبائر وأعظمها ضررًا وأشدها فسادًا للعالم، وهي: الكفر الأصلي والطارىء، والقتل، وزنى المحصن.

وإذا تأمل العاقل فساد الوجود رآه من هذه الجهات الثلاث، وهذه هي الثلاث التي أجاب النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود بها حيث قال له: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نِدًا وهو خَلَقَكَ**»، قال: قلت: ثم أيٌّ؟ قال:

«أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك» فأنزل الله عز وجل تصديق ذلك: ﴿والذين لا يَدْعُون مع الله إلهًا آخَرَ، ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلَّا بِالحَقِّ، ولا يَزْنُونَ﴾ الآية. [الفرقان: ٦٨].

ثم لما كان سرقة الأموال تلى ذلك في الضرر وهو دونه، جعل عقوبته قطع الطرف.

ثم لما كان القذف دون سرقة المال في المفسدة، جعل عقوبته دون ذلك وهو الجلد.

ثم لما كان شرب المسكر أقل مفسدة من ذلك، جعل حده دون حد هذه الجنايات كلها.

ثم لما كانت مفاسد الجرائم بعدُ متفاوتة غير منضبطة: في الشدة والضعف، والقلة والكثرة، وهي ما بين النظرة والخلوة والمعانقة؛ جعلت عقوباتها راجعة إلى اجتهاد الأئمة وولاة الأمور، بحسب المصلحة في كل زمان ومكان، وبحسب أرباب الجرائم في أنفسهم؛ فمن سَوَّى بين الناس في ذلك وبين الأزمنة والأمكنة والأحوال؛ لم يفقه حكمة الشرع، واختلفت عليه أقوال الصحابة وسيرة الخلفاء الراشدين وكثير من النصوص، ورأى عمر قد زاد في حد الخمر على أربعين، والنبي ﷺ إنما جلد أربعين، وعَزَّر بأمور لم يعزر بها النبي ﷺ، وأنفذ على الناس أشياء عفا عنها النبي ﷺ؛ فيظن ذلك تعارضًا وتناقضًا، وإنما أتى من قصور علمه وفهمه، وبالله التوفيق.

وأما قوله: «وجعل حد الرقيق على النصف من حد الحر، وحاجتهما إلى الزجر واحدة» فلا رَيْبَ أن الشارع فَرَقَ بين الحُرِّ والعبد في أحكام، وسَوَّى بينهما في أحكام فسوَّى بينهما في الإيمان والإسلام ووجوب العبادات البدنية: كالطهارة والصلاة والصوم لاستوائهما في سببهما، وفرق بينهما في العبادات المالية: كالحج والزكاة والتكفير بالمال؛ لافتراقهما في سببهما، وأما الحدود فلما كان وقوع المعصية من الحر أقبحَ من وقوعها من العبد من جهة كمال نعمة الله تعالى عليه بالحرية، وأن جعله مالكًا لا مملوكًا، ولم يجعله تحت قهر غيره وتصرفه فيه، ومن جهة تمكنه بأسباب القدرة من الاستغناء عن المعصية بما عوّض الله عنها من المباحات، فقابل

النعمة التامة بضدها، واستعمل القدرة في المعصية؛ فاستحق من العقوبة أكثر مما يستحقه مَنْ هو أخفض منه رتبة وأنقص منزلة؛ فإن الرجل كلما كانت نعمة الله عليه أتم كانت عقوبته إذا ارتكب الجرائم أتم؛ ولهذا قال تعالى في حق من أتم نعمته عليهن من النساء: ﴿يا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً، وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾. [الأحزاب: ٣٠، ٣١].

وهذا على وفق قضايا العقول ومستحسناتها؛ فإن العبد كلما كملت نعمة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، وشكره له أتم، ومعصيته له أقبح، وشدة العقوبة تابعة لقبح المعصية؛ ولهذا كان أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالمًا لم ينفعه الله بعلمه، فإن نعمة الله عليه بالعلم أعظم من نعمته على الجاهل، وصدور المعصية منه أقبح من صدورها من الجاهل، ولا يستوي عند الملوك والرؤساء مَنْ عَصَاهم من خواصِّهم وحَشَمِهم ومن هو قريب منهم، ومن عصاهم من الأطراف والبعداء؛ فجعل حد العبد أخف من حد الحر، جمعًا بين حكمة الزجر وحكمة نقصه، ولهذا كان على النصف منه في النكاح والطلاق والعدة، إظهارًا لشرف الحرية وخطرها، وإعطاء لكل مرتبة حقها من الأمر كما أعطاها حقها من القدر، ولا تنتقض هذه الحكمة بإعطاء العبد في الآخرة أجرين، بل هذا محض الحكمة؛ فإن العبد كان عليه في الدنيا حقان: حق لله، وحق لسيده فأعطي بإزاء قيامه بكل حق أجرًا، فاتفقت حكمة الشرع والقدر والجزاء، والحمد لله رب العالمين.

...[1]**ومن** ذلك المماثلة في القصاص في الجنايات الثلاث: على النفوس والأموال والأعراض؛ فهذه ثلاث مسائل:

الأولى: هل يفعل بالجاني كما فعل بالمجني عليه؟

فإن كان الفعل محرمًا لحق الله: كاللواط وتجريعه الخمر لم يفعل به كما فعل اتفاقًا.

وإن كان غير ذلك: كتحريقه بالنار وإلقائه في الماء، ورَضِّ رأسه بالحجر، ومنعه من الطعام والشراب؛ حتى يموت، فمالك والشافعي وأحمد في إحدى

(١) ٣٢٧ أعلام جـ١.

الروايات عنه؛ يفعلون به كما فعل، ولا فرق بين الجرح المزهق وغيره.

وأبو حنيفة وأحمد في رواية عنه يقولان: لا يقتل إلا بالسيف في العنق خاصة.

وأحمد في رواية ثالثة يقول: إن كان الجرح مزهقًا فعل به كما فعل، وإلاَّ قتل بالسيف.

وفي رواية رابعة يقول: إن كان مُزْهقًا أو مُوجبًا للقَوَد بنفسه لو انفرد فعل به كما فعل، وإن كان غير ذلك قتل بالسيف.

والكتابُ والميزان مع القول الأول، وبه جاءت السنة، فإن النبي ﷺ، رَضَّ رأس اليهودي بين حجرين كما فعل بالجارية، وليس هذا قتلاً لنقضه العهدَ، لأن ناقض العهد إنما يقتل بالسيف في العنق.

وفي أثر مرفوع: **«مَنْ حَرَّق حرقناه، ومن غرق غرقنا»**.

وحديثُ: «لا قَوَدَ إلا بالسيف» قال الإمام أحمد: ليس إسناده بجيد، والثابت عن الصحابة أنه يفعل به كما فعل، فقد اتفق على ذلك: الكتاب والسنة والقياس وآثار الصحابة، واسمُ القصاص يقتضيه لأنه يستلزم المماثلة.

المسألة الثانية: إتلاف المال؛ فإن كان مماله حرمة كالحيوان وَالعبيد؛ فليس له أن يتلف ماله كما أتلف ماله، وَإن لم تكن له حرمة كالثوب يشقه والإناء يكسره؛ فالمشهور أنه ليس له أن يُتْلف عليه نظير ما أتلفه، بل له القيمة أو المثل كما تقدم.

وَالقياس يقتضي أن له أن يفعل بنظير ما أتلفه عليه كما فعله الجاني به؛ فيشق ثوبه كما شق ثوبه، وَيكسر عصاه كما كسر عصاه إذا كانا متساويين، وهذا من العدل، وليس مع من مَنَعَه نص قياس وَلا إجماع! فإن هذا ليس بحرام لحق الله، وليست حرمة المال أعظم من حرمة النفوس والأطراف، وإذا مَكَّنه الشارعُ أن يُتْلف طرفه بطرفه فتمكينه من إتلاف ماله في مقابلة ماله؛ هو أولى وأحرى، وإن حكمة القصاص من التشفي ودرك الغَيْظ؛ لا تحصل إلا بذلك، ولأنه قد يكون له غرض في أذَاه وإتلاف ثيابه ويعطيه قيمتها، ولا يشق ذلك عليه؛ لكثرة ماله فيشفي نفسه منه بذلك، ويبقى المجني عليه بغبنه وغيظه، فكيف يقع إعطاؤه القيمة من شفاء غيظه ودرك ثأره وبرد قلبه وإذاقة الجاني من الأذى ما ذاق هو؟ فحكمة هذه الشريعة الكاملة الباهرة وقياسها معًا يأبى ذلك وقوله: ﴿**فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾، [البقرة: ١٩٤]. وقوله: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ**

مِثْلُهَا﴾. [الشورى: ٤٠]. وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُم فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم بِهِ﴾. [النحل: ١٢٦]. يقتضي جواز ذلك، وقد صرح الفقهاء بجواز إحراق زروع الكفار وقطع أشجارهم؛ إذا كانوا يفعلون ذلك بنا، وهذا عين المسألة، وقد أقر الله سبحانه الصحابة على قَطْع نخل اليهود؛ لما فيه من خزيهم، وهذا يدل على أنه سبحانه يحبُّ خزي الجاني الظالم ويشرعه.

وإذا جاز تحريق متاع الغالِّ لكونه تعدَّى على المسلمين في خيانتهم في شيء من الغنيمة؛ فلأن يحرق ماله إذا حرق مال المسلم المعصوم؛ أولى وأحرى.

وإذا شرعت العقوبة المالية في حق الله الذي مسامحته به أكثر من استيفائه؛ فلأن تشرع في حق العبد الشحيح؛ أولى وأحرى.

ولأن الله سبحانه شرع القصاص؛ زَجرًا للنفوس عن العدوان، وكان من الممكن أن يوجب الدية استدراكًا لظلامة المجني عليه بالمال، ولكن ما شرَعَه أكمل وأصلح للعباد، وأشفى لغيظ المجني عليه، وأحفظ للنفوس والأطراف، وإلا فمَنْ كان في نفسه مِن الآخر مِن قتلِهِ أو قطعِ طرفِهِ؛ قَتَلَه أو قَطَع طَرَفَه وأعطى ديته، والحكمة والرحمة والمصلحة تأبى ذلك، وهذا بعينه موجود في العدوان على المال.

فإن قيل: فهذا ينجبر بأن يعطيه نظير ما أتلفه عليه.

قيل: إذا رضي المجنى عليه بذلك فهو كما لو رضي بدية طرفه، فهذا هو مَحضُ القياس، وبه قال الأحمدان: أحمد بن حنبل، وأحمد ابن تيمية، قال في رواية موسى بن سعيد: وصاحب الشيء يخير، إن شاء شق الثوب، وإن شاء أخذ مثله.

المسألة الثالثة: الجناية على العرض، فإن كان حرامًا في نفسه كالكذب عليه وقذفه وسَبِّ والديه؛ فليس له أن يفعل به كما فعل به اتفاقًا.

وإن سَبّه في نفسه أو سَخِر به أو هزأ به أو بال عليه أو بَصَقَ عليه أو دعا عليه؛ فله أن يفعل به نظيرَ ما فعل به متحرّيًا للعدل.

وكذلك إذا كسعه أو صفعه؛ فله أن يستوفي منه نظير ما فعل به سواء، وهذا أقرب إلى الكتاب والميزان وآثار الصحابة؛ من التعزير المخالف للجناية جنسًا ونوعًا وقدرًا وصفة، وقد دلت السنة الصحيحة الصريحة على ذلك، فلا عِبْرَة بخلاف مَنْ خالفها.

ففي صحيح البخاري: أن نساء النبي ﷺ، أرسلنَ زينبَ بنت جَحْش إلى

رسول الله ﷺ تكلمه في شأن عائشة، فأتته فأغلظت، وقالت: إن نساءك ينشدنك العدل في بنت ابن أبي قُحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة، فَسَبَّتها، حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة هل تتكلم، فتكلمت عائشة تَرُدُّ على زينب حتى أسكتتها، قالت: فنظر النبي ﷺ إلى عائشة وقال: «**إنها بنتُ أبي بكر**».

وفي الصحيحين هذه القصة: قالت عائشة: فأرسل أزواج النبي ﷺ، زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ - وهي التي كانت تساميني في المنزلة عند رسول الله ﷺ - فذكرت الحديث، وقالت: ثم وقعت فيَّ، فاستطالت عليَّ، وأنا أرقُبُ رسول الله ﷺ، وأرقب طَرفه: هل يأذن لي فيها؟ قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفتُ أن رسول الله ﷺ، لا يكره أن أنتصر، فلما وقعت بها لم أنشبها حتى أثخنت عليها، قالت: فقال رسول الله ﷺ، وتبسم: «**إنها ابنة أبي بكر**».

وفي لفظ فيهما: «لم أنشبها أن أثخنتها غلبة».

وقد حكى الله سبحانه عن يوسف الصديق أنه قال لإخوته: ﴿**أنتم شرٌّ مكانًا، والله أعلمُ بما تصفُون**﴾. لما قالوا: ﴿**إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ، فأسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ**﴾. [يوسف: ٧٧]. ذلك للمصلحة التي اقتضت كتمان الحال.

ومن تأمل الأحاديث رأى ذلك فيها كثيراً جدًا، وبالله التوفيق.

(١)**وقد** سمى الله سبحانه المال خيراً في غير موضع من كتابه كقوله تعالى ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُم إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُم المَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيراً الوصيةُ**﴾ [البقرة: ١٨٠]. وقوله: ﴿**إِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيْدٌ**﴾ [العاديات: ٨].

وأخبرَ رسول الله ﷺ، أن الخير لا يأتي إلا بالخير كما تقدم، وإنما يأتي بالشر معصية الله في الخير لانفسه.

وأعلم الله سبحانه أنه جعل المال قوامًا للأنفس وأمر بحفظها، ونهى أن يؤتىٰ السفهاء من النساء والأولاد وغيرهم، ومدحه النبي ﷺ، بقوله: «**نعم المال الصالح مع المرء الصالح**».

---

(١) ٢٨٤ عدة الصابرين.

وقال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله؛ يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه ويعطي حقه.

وقال أبو إسحاق السبيعي: كانوا يرون السعة عونًا على الدين.

وقال محمد بن المنكدر: نعم العون على التقى الغنى.

وقال سفيان الثوري: المال في زماننا هذا سلاح المؤمن.

وقال يوسف بن أسباط: ما كان المال في زمان منذ خلقت الدنيا؛ أنفع منه في هذا الزمان، والخير كالخيل: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر.

قالوا: وقد جعل الله سبحانه المال سببًا لحفظ البدن، وحفظه سبب لحفظ النفس، التي هي محل معرفة الله والإيمان به وتصديق رسله ومحبته والإنابة إليه، فهو سبب عمارة الدنيا والآخرة؛ وإنما يذم منه ما استخرج من غير وجهه وصرف في غير حقه، واستعبد صاحبه وملك قلبه وشغله عن الله والدار الآخرة؛ فيذم منه ما يتوسل به صاحبه إلى المقاصد الفاسدة، أو شغله عن المقاصد المحمودة، فالذم للجاعل لا للمجعول قال النبي ﷺ: «**تَعِس عبد الدينار تعس عبد الدرهم**» فذم عبدهما دونهما.

(1)**وقاعدة** الشريعة التي لا يجوز هدمها: أن المقاصد والاعتقادات معتبرة في التصرفات والعبارات، كما هي معتبرة في التقربات والعبادات.

فالقصد والنية والاعتقاد؛ يجعل الشيء: حلالاً أو حرامًا، وصحيحًا أو فاسدًا، وطاعة أو معصية.

كما أن القصد في العبادة؛ يجعلها: واجبة أو مستحبة أو محرمة، أو صحيحة أو فاسدة. ودلائل هذه القاعدة تفوت الحصر.

فمنها قوله تعالى في حق الأزواج إذا طلقوا أزواجهم طلاقًا رجعيًا: ﴿**وبُعُولَتُهُنَّ أحقُّ بردِّهنَّ في ذَلِك إنْ أرَادُوا إصْلاحًا**﴾. [البقرة:٢٢٨].

وقوله: ﴿**وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا**﴾. [البقرة: ٢٣١]. وذلك نص في أن الرجعة؛ إنما ملكها الله تعالى لمن قصد الصلاح دون قصد الضرار.

وقوله في الخلع: ﴿**فَإِن خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ**

---

(١) ١٠٨ أعلام جـ٣.

به﴾. [البقرة: ٢٢٩].

وقوله: ﴿فإنْ طَلَّقها فَلاَ جُناحَ عليهما أن يتراجعَا إن ظنَّا أن يُقِيما حدودَ الله﴾. [البقرة: ٢٣٠].

فبين تعالى أن الخلع المأذون فيه والنكاح المأذون فيه، إنما يباح إذا ظنا أن يقيما حدود الله.

وقال تعالى: ﴿مِنْ بعدِ وصيةٍ يُوصَى بها أو دينٍ غَيْرَ مضارٍّ﴾. [النساء: ١٢]. فإنما قدم الله الوصية على الميراث إذا لم يقصد بها الموصي الضرار؛ فإن قَصَده فللورثة إبطالها وعدم تنفيذها.

وكذلك قوله: ﴿فَمن خافَ من مُوصٍ جَنَفًا أو إثمًا فأصلحَ بينهم فَلاَ إثمَ عليه﴾. [البقرة: ١٨٢]. فرفع الإثم عمن أبطل الجنف والإثم من وصية الموصي، ولم يجعلها بمنزلة نص الشارع الذي تحرم مخالفته.

وكذلك الإثم مرفوع عمن أبطل من شروط الواقفين ما لم يكن إصلاحًا، وما كان فيه جنَف أو إثم، ولا يحل لأحد أن يجعل هذا الشرط الباطل المخالف لكتاب الله بمنزلة نص الشارع، ولم يقل هذا أحد من أئمة الإسلام، بل قد قال إمام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله: «**كُلُّ شرطٍ ليس في كتابِ الله فهو باطلٌ وإن كان مائةَ شرطٍ، كتابُ الله أحقُّ، وشَرْطُ الله أوثقُ**» فإنما ينفذ مَن شروط الواقفين ما كان لله طاعة، وللمكلف مصلحة.

وأما ما كان بضد ذلك فلا حرمة له: كشرط التعزب والترهُّب المضاد لشرع الله ودينه؛ فإنه تعالى فتح للأمة باب النكاح بكل طريق، وسد عنهم باب السفاح بكل طريق، وهذا الشرط باطلٌ مضاد لذلك؛ فإنه يسدُّ على من التزمه باب النكاح، ويفتح له باب الفجور، فإن لوازم البشرية تتقاضاها الطباع أتمَّ تقاضٍ، فإذا سد عنها مشروعها فتحت له ممنوعها ولابد.

والمقصود: أن الله تعالى رفع الإثم عمن أبطل الوصية الجانفة الآثمة.

وكذلك هو مرفوع عمن أبطل شروط الواقفين التي هي كذلك، فإذا شَرَط الواقف القراءة على القبر، كانت القراءة في المسجد؛ أولى وأحب إلى الله ورسوله وأنفع للميت، فلا يجوز تعطيل الأحب إلى الله الأنفع لعبده واعتبار ضده.

وقد رَامَ بعضُهم الانفصال عن هذا بأنه قد يكون قصد الواقف حصول الأجر

له باستماعه للقرآن في قبره، وهذا غلط؛ فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة فإنه عمل اختياري وقد انقطع بموته.

ومن ذلك اشتراطه أن يصلي الصلوات الخمس في المسجد الذي بناه على قبره، فإنه شرط باطل لا يجب بل لا يحل الوفاء به، وصلاته في المسجد الذي لم يوضع على قبره أحب إلى الله ورسـوله، فكيف يفتي أو يقضي بتعطيل الأحب إلى الله والقيام بالأكره إليه؛ اتباعًا لشرط الواقف الجانف الآثم؟

ومن ذلك أن يشرط عليه إيقاد قنديل على قبره أو بناء مسجد عليه؛ فإنه لا يحل تنفيذ هذا الشرط ولا العمل به، فكيف ينفذ شرط لعن رسول الله ﷺ فاعله؟

وبالجملة فشروط الواقفين أربعة أقسام:

شروط محرمة في الشرع.

وشروط مكروهة لله تعالى ورسوله ﷺ.

وشروط تتضمن ترك ما هو أحب إلى الله ورسوله.

وشروط تتضمن فعل ما هو أحب إلى الله تعالى ورسوله.

فالأقسام الثلاثة الأول لا حرمة لها ولا اعتبار، والقسم الرابع هو الشرط المتبع الواجب الاعتبار، وبالله التوفيق.

وقد أبطل النبي ﷺ، هذه الشروط كلها بقوله: «**مَنْ عَمِلَ عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**». وما رده رسول الله ﷺ لم يجز لأحد اعتباره ولا الإلزام به وتنفيذه. ومن تفطن لتفاصيل هذه الجملة التي هي من لوازم الإيمان تخلص بها من آصار وأغلال في الدنيا، وإثم وعقوبة ونقص ثواب في الآخرة. وبالله التوفيق.

...[1]**والضرار** نوعان: جنف، وإثم. فإنه قد يقصد الضرار وهو الإثم، وقد يضار من غير قصد، وهو الجنف، فمن أوصى بزيادة على الثلث فهو مضار، قصد أو لم يقصد، فللوارث رد هذه الوصية. وإن أوصى بالثلث فما دون، ولم يعلم أنه قصد الضرار، وجب إمضاؤها.

فإن علم الموصَى له أنَّ الموصي إنما أوصى ضرارًا؛ لم يحلَّ له الأخذ، ولو اعترف

---

(١) ٣٧٧ إغاثة جـ١.

الموصي أنه إنما أوصى ضرارًا؛ لم تجز إعانته على إمضاء هذه الوصية.

وقد جوَّز سبحانه وتعالى إبطال وصية الجَنَف والإثم، وأن يُصلح الوصي أو غيره بين الورثة والموصى له، فقال تعالى: ﴿**فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنفًا أو إثمًا فأصلحَ بينهم فلاَ إثم عَليه**﴾. [البقرة: ١٨٢].

وكذلك إذا ظهر للحاكم أو الوَصيِّ الجَنَفُ أو الإثم في الوقف ومصرفه، أو بعض شروطه، فأبطل ذلك؛ كان مُصلحًا، لا مفسدًا. وليس له أن يُعينَ الواقف على إمضاء الجنف والإثم، ولا يصحح هذا الشرط، ولا يحكم به، فإن الشارع قد رَدَّه، وأبطله، فليس له أن يصحح ما رَدَّه الشارع وحَرَّمه، فإن ذلك مضادة له ومناقضة.

(١)**والذي** يقضي منه العجب؛ التحيل على مخالفة شرط الواقف وقصده، الذي يقطع بأنه قصده مع ظهور المفسدة. والوقوف مع ظاهر شرطه ولفظه المخالف لقصده والكتاب والسنة ومصلحة الموقوف عليه، بحيث يكون مرضاة الله ورسوله ومصلحة الواقف وزيادة أجره، ومصلحة الموقوف عليه وحصول الرفق به مع كون العمل أحبَّ إلى الله ورسوله، لا يغير شرط الواقف، ويجري مع ظاهر لفظه، وإن ظهر قصده بخلافه، وهل هذا إلا من قلة الفقه؟ بل من عدمه، فإذا تحيلتم على إبطال مقصود الواقف؛ حيث يتضمن المفاسد العظيمة، فهلاّ تحيلتم على مقصوده ومقصود الشارع؛ حيث يتضمن المصالح الراجحة: بتخصيص لفظه، أو تقييده، أو تقديم شرط الله عليه؟ فإن شرط الله أحق وأوثق.

بل يقولون ههنا: نصوص الواقف كنصوص الشارع.

وهذه جملة من أبطل الكلام، وليس لنصوص الشارع نظير من كلام غيره أبدًا؛ بل نصوص الواقف يتطرق إليها التناقض والاختلاف، ويجب إبطالها إذا خالفت نصوص الشارع وإلغاؤها، ولا حرمة لها حينئذ ألبتة، ويجوز - بل يترجح - مخالفتها إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله منها وأنفع للواقف والموقوف عليه، ويجوز اعتبارها والعدول عنها مع تساوي الأمرين، ولا يتعين الوقوف معها، وسنذكر إن شاء الله فيما بعد، ونبين ما يحل الإفتاء به وما لا يحل من شروط الواقفين؛ إذ القصد

---

(١) ٣٠٤ أعلام جـ٣.

بيان بطلان هذه الحيلة شرعًا وعرفًا ولغة.

(١)**والله تعالى** إنما أمر بالتعاون على البر والتقوى، وهو ما شرعه على لسان رسول الله ﷺ، دون ما لم يشرعه، فكيف بما شرع خلافه، والوقف إنما يصح على القُرَب والطاعات، ولا فرق في ذلك بين مصرفه وجهته وشرطه؛ فإن الشرط صفة وحال في الجهة والمصرف، فإذا اشترط أن يكون المصرف قربة وطاعة فالشرط كذلك، ولا يقتضي الفقه إلا هذا، ولا يمكن أحدًا أن ينقل عن أئمة الإسلام الذين لهم في الأمة لسانُ صدقٍ ما يخالف ذلك ألبتة.

بل نشهد بالله والله أن الأئمة لا تخالف ما ذكرناه، وأن هذا نفس قولهم، وقد أعاذهم الله من غيره، وإنما يقع الغلط من كثير من المنتسبين إليهم في فهم أقوالهم.

كما وقع لبعض مَنْ نصب نفسه للفتوى من أهل عصرنا: ما تقول السادة الفقهاء في رجل وقفَ وقفًا على أهل الذمة، هل يصح ويتقيد الاستحقاق بكونه منهم؟.

فأجاب بصحة الوقف، وتقييد الاستحقاق بذلك الوصف، وقال: هكذا قال أصحابنا، ويصح الوقف على أهل الذمة.

فأنكر ذلك شيخنا عليه غاية الإنكار، وقال: مقصود الفقهاء بذلك: أن كونه من أهل الذمة ليس مانعًا من صحة الوقف عليه بالقرابة أو بالتعيين، وليس مقصودهم: أن الكفر بالله ورسوله أو عبادة الصليب وقولهم: إن المسيح ابن الله؛ شرطٌ لاستحقاق الوقف، حتى إن من آمن بالله ورسوله واتبع دين الإسلام لم يحل له أن يتناول بعد ذلك من الوقف، فيكون حِلّ تناوله مشروطًا بتكذيب الله ورسوله والكفر بدين الإسلام، ففرق بين كون وصف الذمة مانعًا من صحة الوقف، وبين كونه مقتضيًا؛ فغلظ طبع هذا المفتي وكثف فهمه، وغَلُظ حجابه عن ذلك ولم يميز.

ونظيرُ هذا أن يقف على الأغنياء، فهذا يصح إذا كان الموقوف عليه غنيًّا، أو ذا قرابة فلا يكون الغِنَى مانعًا، ولا يصح أن يكون جهة الاستحقاق هو الغِنَى فيستحق مادام غنيًّا، فإذا افتقر واضطر إلى ما يقيم أَوَدَه حرم عليه تناول الوقف، فهذا لا يقوله إلا من حُرم التوفيق وصحبه الخذلان، ولو رأى رسول الله ﷺ، أحدًا من الأئمة يفعل ذلك، لاشتد إنكاره وغضبه عليه، ولما أقره ألبتة.

(١) ١٨٤ أعلام جـ٤.

وكذلك لو رأى رجلاً من أمته قد وقف على من يكون من الرجال عَزبًا غير متأهل، فإذا تأهل حرم عليه تناول الوقف؛ لاشتد غضبه ونكيره عليه، بل دينه يخالف هذا، فإنه كان إذا جاءه مال أعطى العَزبَ حظًّا، وأعطى الآهل حظين، وأخبر أن ثلاثة حق على الله عَوْنُهم، فذكر منهم: «**الناكح يريد العفاف**» وملتزم هذا الشرط حق عليه عدم إعانة الناكح.

ومن هذا أن يشترط أنه لا يستحق الوقف إلا من ترك الواجب عليه من طلب النصوص ومعرفتها، والتفقه في متونها، والتمسك بها، إلى الأخذ بقول فقيه معين يترك لقوله قول من سواه، بل يترك النصوص لقوله، فهذا شرط من أبطل الشروط.

وقد صرح أصحاب الشافعي وأحمد رحمهما الله تعالى، بأن الإمام إذا شرط على القاضي أن لا يقضي إلا بمذهب معين؛ بطل الشرط ولم يجز له التزامه.

وفي بطلان التولية قولان مبنيان على بطلان ا لعقود بالشروط الفاسدة.

وطَرْد هذا أن المفتي متى شرط عليه ألا يفتي إلا بمذهب معين؛ بَطَل الشرط.

وطَرْدُه أيضًا أن الواقف متى شَرَطَ على الفقيه أن لا ينظر ولا يشتغل إلا بمذهب معين؛ بحيث يهجر له كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفتاوى الصحابة ومذاهب العلماء؛ لم يصح هذا الشرط قطعًا، ولا يجب التزامه، بل ولا يسوغ.

وعقد هذا الباب وضابطه، أن المقصود: إنما هو التعاون على البر والتقوى، وأن يطاع الله ورسوله بحسب الإمكان، وأن يقدم مَنْ قدمه الله ورسوله، ويؤخر مَنْ أخره الله ورسوله، ويعتبر ما اعتبره الله ورسوله، ويلغي ما ألغاه الله ورسوله.

وشروط الواقفين لا تزيد على نذر الناذرين، فكما أنه لا يوفى من النذور إلا بما كان طاعة لله ورسوله، فلا يلزم من شروط الواقفين إلا ما كان طاعة لله ورسوله.

فإن قيل: الواقف إنما نقل ماله لمن قام بهذه الصفة، فهو الذي رضي بنقل ماله إليه، ولم يرض بنقله إلى غيره، وإن كان أفضل منه، فالوقف يجري مجرى الجعالة، فإذا بذل الجاعل ماله لمن يعمل عملاً؛ لم يستحقه مَنْ عمل غيره، وإن كان بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض.

قيل: هذا منشأ الوهم والإيهام في هذه المسألة، وهو الذي قام بقلوب ضَعَفَة المتفقهين، فالتزموا وألزموا من الشروط؛ بما غيره أحبُّ إلى الله وأرضى له منه بإجماع

الأمة بالضرورة المعلومة من الدين.

وجواب هذا الوهم: أن الجاعل يبذل ماله في غرضه الذي يريده، إما: مُحرمًا أو مكروهًا، أو مُباحًا أو مستحبًّا أو واجبًا؛ لينال غرضه الذي بذل فيه ماله.

وأما الواقف فإنما يبذل ماله فيما يقربه إلى الله وثوابه، فهو لما علم أنه لم يبق له تمكن من بذل ماله في أغراضه؛ أَحَبَّ أن يبذله فيما يقربه إلى الله وما هو أنفع له في الدار الآخرة، ولا يشك عاقل أن هذا غرض الواقفين، بل ولا يشك واقف أن هذا غرضه.

والله سبحانه وتعالى مَلكه المالَ لينتفع به في حياته، وأذن له أن يحبسه لينتفع به بعد وفاته، فلم يملكه أن يفعل به بعد موته ما كان يفعل به في حياته.

بل حَجَر عليه فيه وملكه ثلثه يوصي به بما يجوز ويسوغ أن يوصي به، حتى إن حاف أو جار أو أثم في وصيته؛ جاز؛ بل وجب على الوصي والورثة ردُّ ذلك الجور والحيف والإثم، ورفع سبحانه الإثم عمن يرد ذلك الحيف والإثم، من الورثة والأوصياء، فهو سبحانه لم يملكه أن يتصرف في تحبيس ماله بعده؛ إلا على وجه يقربه إليه ويُدنيه من رضاه، لا على أي وجه أراد.

ولم يأذن الله ولا رسوله للمكلف أن يتصرف في تحبيس ماله بعده على أي وجه أراده أبدًا، فأين في كلام الله ورسوله أو أحد من الصحابة؛ ما يدل على أن لصاحب المال أن يقف ما أراد على من أراد، ويشرط ما أراد، ويجب على الحكام والمفتين أن ينفذوا وقفه ويُلزموا بشروطه؟.

وأما ما قد لهِجَ به بعضهم من قوله: «شروط الواقف كنصوص الشارع» فهذا يُراد به معنى صحيح ومعنى باطل، فإن أريد أنها كنصوص الشارع: في الفهم والدلالة، وتقييد مطلقها بمقيدها، وتقديم خاصِّها على عامها، والأخذ فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فهذا حق من حيث الجملة.

وإن أريد أنها كنصوص الشارع: في وجوب مراعاتها والتزامها وتنفيذها؛ فهذا من أبطل الباطل، بل يبطل منها ما لم يكن طاعة لله ورسوله، وما غيرهُ أحبُّ إلى الله وأرضى له ولرسوله منه، وينفذ منها ما كان قربة وطاعة كما تقدم.

ولما نذر أبو إسرائيل أن يصوم ويقوم في الشمس، ولا يجلس، ولا يتكلم؛ أمَرَه النبي ﷺ، أن يجلس في الظل ويتكلم ويتم صومه، فألزمه بالوفاء بالطاعة، ونهاه

عن الوفاء بما ليس بطاعة.

وهكذا أخت عقبة بن عامر لما نَذَرَت الحج ماشية مكشوفة الرأس؛ أمَرَها أن تختمر وتركب وتحج وتُهدي بَدَنة.

فهكذا الواجب على أتباع الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أن يعتمدوا في شروط الواقفين، وبالله التوفيق.

فصل(١)

في هديه ﷺ في الصيام

لما كان المقصود من الصيام: حبس النفس عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية؛ لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين، وتضيق مجاري الشيطان من العبد؛ بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها مع حكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، وليسكن كل عضو منها وكل قوة عن جماحه، وتلجم بلجامه؛ فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين. وهو لرب العالمين من سائر الأعمال. فإن الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها؛ إيثارًا لمحبة الله ومرضاته.

وهو سر بين العبد وربه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة. وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده؛ فهو أمر لا يطلع عليه بشر. وذلك حقيقة الصوم.

وللصوم تأثير عظيم في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة، التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها. فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات. فهو من أكبر العون على التقوى، كما

(١) ٣١٩ زاد المعاد جـ١.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُم الصيَامُ كَمَا كُتِبَ على الذين مِنْ قَبلِكُم لَعلَّكُم تَتَّقُونَ﴾. [البقرة: ١٨٣].

وقال النبي ﷺ: «**الصوم جُنَّة**»، وأمر من اشتدت به شهوة النكاح ولا قدرة له عليه بالصيام، وجعله وجاء هذه الشهوة.

والمقصود: أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة، والفطر المستقيمة؛ شرعه الله لعباده: رحمة بهم وإحساناً إليهم، وحمية لهم وجُنة. وكان هدي رسول الله ﷺ، فيه أكمل الهدى. وأعظم تحصيلاً للمقصود. وأسهله على النفوس.

ولما كان فَطْم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها؛ تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة؛ لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن. فنقلت إليه بالتدريج.

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفِّي رسول الله ﷺ، وقد صام تسع رمضانات.

وفرض أولاً على وجه التخيير: بينه، وبين أن يطعم عن كل يوم مسكيناً، ثم نقل من ذلك التخيير إلى تحتيم الصوم. وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطيقا الصيام؛ فإنهما يفطران، ويطعمان عن كل يوم مسكيناً. ورخص للمريض والمسافر؛ أن يفطرا ويقضيا، وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك. فإن خافتا على ولديهما زادتا مع القضاء إطعام مسكين لكل يوم؛ فإن فطرهما لم يكن لخوف مرض، وإنما كان مع الصحة؛ فجبر بإطعام المسكين كفطر الصحيح في أول الإسلام.

وكان للصوم رتب ثلاث: إحداها: إيجابه بوصف التخيير.

والثانية: تحتيمه؛ لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يَطْعَم؛ حرم عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة. فنسخ ذلك.

بالرتبة الثالثة: وهي التي استقر عليها الشرع إلى يوم القيامة.

فصل

وكان من هديه ﷺ، في شهر رمضان؛ الإكثار من أنواع العبادات. فكان

جبريل عليه السلام يدارسه القرآن في رمضان. وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة.

وكان أجود الناس. وأجود ما يكون في رمضان؛ لما يكثر فيه من الصدقة والإحسان، وتلاوة القرآن والصلاة والذكر والاعتكاف.

وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره به من الشهور، حتى إنه كان ليواصل فيه أحيانًا؛ ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة. وكان ينهى أصحابه عن الوصال. فيقولون له: إنك تواصل فيقول: «**لستُ كهيئتكم إني أبيتُ - وفي رواية: إني أظلُّ - عند ربي يُطعمني ويَسقيني**».

وقد اختلف الناس في هذا الطعام والشراب المذكورين على قولين:

أحدهما: أنه طعام وشراب حسي للفم. قالوا: وهذه حقيقة اللفظ. ولا موجب للعدول عنها.

الثاني: أن المراد به: ما يغذيه الله به من معارفه، وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته وقرة عينه بقربه، وتنعمه بحبه والشوق إليه، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب ونعيم الأرواح.وقرة العين، وبهجة النفوس والروح والقلب؛ بما هو أعظم غذاء وأجوده وأنفعه . . .

(١)**الصوم** جُنَّة من أدواء الروح والقلب والبدن. منافعه تفوت الإحصاء. وله تأثير عجيب في حفظ الصحة، وإذابة الفضلات، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها؛ ولاسيما إذا كان باعتدال وقصد في أفضل أوقاته شرعًا، وحاجة البدن إليه طبعًا. ثم إن فيه من إراحة القوى والأعضاء؛ ما يحفظ عليها قواها.

وفيه خاصية تقتضي إيثاره. وهي: تفريحه للقلب عاجلاً وآجلا. وهو أنفع شيء لأصحاب الأمزجة الباردة والرطبة. وله تأثير عظيم في حفظ صحتهم. وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية. وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعًا وشرعًا عظم انتفاع قلبه وبدنه به، وحبس عنه المواد الغريبة الفاسدة التي هو مستعد لها. وأزال المواد الرديئة الحاصلة بحسب كماله ونقصانه، ويحفظ الصائم مما ينبغي أن يتحفظ منه. وقيامه بمقصود الصوم. وسره وعلته الغائية. فإن القصد

---

١) ٣٦٤ زاد المعاد جـ٣.

منه؛ أمر آخر، وراء ترك الطعام والشراب. وباعتبار ذلك الأمر اختص من بين الأعمال بأنه لله سبحانه.

ولما كان وقاية وجُنَّة بين العبد، وبين ما يؤذي قلبه وبدنه عاجلاً وآجلا؛ قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كُتبَ عَلَيكُم الصيامُ كما كُتبَ على الذين منْ قَبلكُم لعلَّكُم تتقُونَ﴾. [البقرة:١٨٣].

فأحد مقصودي الصيام؛ الجُنة والوقاية. وهي حمية عظيمة النفع، والمقصود الآخر: اجتماع القلب والهم على الله تعالى، وتوفير قوى النفس على محابه وطاعته.

وقد تقدم الكلام في بعض أسرار الصوم عند ذكر هديه ﷺ فيه.

...[1]قال النبي ﷺ: لمن سأله عن أفضل الأعمال: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له» ولما كان الصبر: حبس النفس عن إجابة داعي الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم؛ فإنه حبس النفس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجماع؛ فسر الصبر في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعينُوا بِالصَّبرِ والصَّلاَةِ﴾. [البقرة:٤٥]. أنه الصوم، وسمى رمضان شهر الصبر.

وقال بعض السلف: الصوم نصف الصبر، وذلك أن الصبر: حبس النفس عن إجابة داعي الشهوة والغضب، فإن النفس تشتهي الشيء لحصول اللذة بإدراكه وتغضب لنفرتها من المؤلم لها.

والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعي الأمرين، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ، في الحديث الصحيح وهو قوله: «إذا كان يومُ صوم أحدِكم فلا يجهلْ ولا يصخبْ فإن أحدٌ سابَّه أو شاتمه فليقلْ إني صائمٌ» فأرْشدَ ﷺ إلى تعديل قوى الشهوة والغضب، وأن الصائم ينبغي له أن يحتمي من إفسادهما لصومه: فهذه تفسد صومه وهذه تحبط أجره، كما قال في الحديث الآخر: «من لم يَدَعْ قولَ الزورِ والعملَ به فليس للهِ حاجةٌ في أن يدعَ طعامَه وشرابَه».

قالوا: ويكفي في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى: ﴿إني جَزَيْتُهُمُ اليَوْم بِمَا صَبَرُوا أنَّهم هُمُ الفَائِزُون﴾. [المؤمنون:١١١]. فجعل فوزهم جزاء صبرهم.

---

(١) ١١٧ - ١١٨ عدة الصابرين.

وقال تعالى: ﴿**والله مع الصابرين**﴾. [البقرة: ٢٤٩].

لا شيء يعدل معيته لعبده كما قال بعض العارفين: ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة لأنهم نالوا معية الله.

وقال تعالى: ﴿**واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا**﴾. [الطور: ٤٨]. وهذا يتضمن الحراسة والكلاية والحفظ للصابر لحكمه.

(١)**شهد** في لسانهم لها معانٍ: أحدها: الحضور، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهرَ فَلْيَصُمه**﴾. [البقرة: ١٨٥]. وفيه قولان: أحدهما: من شهد المصر في الشهر. والثاني: من شهد الشهر في المصر وهما متلازمان.

والثاني: الخبر، ومنه: «شهد عندي رجال مرضيون وأرضاهم عندي عمر أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح».

والثالث: الاطلاع على الشيء، ومنه: ﴿**والله على كُلِّ شيءٍ شَهيدٌ**﴾. [البروج: ٩]. وإذا كان كل خبر شهادة؛ فليس مع من اشترط لفظ الشهادة فيها دليل: من كتاب ولا سنة، ولا إجماع ولا قياس صحيح.

وعن أحمد فيها ثلاث روايات:

إحداهن: اشتراط لفظ الشهادة.

والثانية: الاكتفاء بمجرد الإخبار، اختارها شيخنا.

والثالثة: الفرق بين الشهادة على الأقوال وبين الشهادة على الأفعال، فالشهادة على الأقوال لا يشترط فيها لفظ الشهادة، وعلى الأفعال يشترط؛ لأنه إذا قال: سمعته يقول؛ فهو بمنزلة الشاهد على رسول الله ﷺ، فيما يخبر عنه.

فصل(٢)

وأما مرض الأبدان فقال تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الأعمَى حَرَجٌ، وَلا عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ، وَلا عَلَى المريضِ حَرَجٌ**﴾. [النور: ٦١، الفتح: ١٧]. وذكر مرض البدن في الحج والصوم والوضوء؛ لسر بديع يبين لك عظمة القرآن، والاستغناء به ـ لمن فهمه وعقله ـ عن سواه.

---

(١) ٨ بدائع جـ١.

(٢) ١٣٥ زاد المعاد جـ٣.

وذلك: أن قواعد طِبِّ الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحِمْيَة عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة. فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة، فقال في آية الصوم: **﴿فَمَنْ كَانَ مِنكُم مَرِيضًا أو عَلَى سَفرٍ: فَعِدَّةٌ مِنْ أيَام أُخَرَ﴾**. [البقرة: ١٨٤].

فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر طلبًا لحفظ صحته وقوته، لئلا يذهبها الصوم في السفر، لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه الصوم من التحليل، وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فَتَخُور القوة وتضعف. فأباح للمسافر الفطر حفظًا لصحته وقوته عما يضعفها.

وقال في آية الحج: **﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُم مريضًا أو بِهِ أذى مِن رأسِهِ: فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَام أو صَدَقَةٍ أو نُسُكٍ﴾**. [البقرة: ١٩٦]. فأباح للمريض ومَنْ به أذى من رأسه من قمل أو حِكَّة أو غيرهما؛ أن يحلق رأسه في الإحرام؛ استفراغًا لمادة الأبخرة الرديئة، التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر. فإذا حلق رأسه تَفَتَّحَتِ المَسامُّ، فخرجت تلك الأبخرة منها. فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذي انحباسُه.

والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشرة: الدم إذا هاج، والمني إذا اجتمع، والبول، والغائط، والريح، والْقَيء، والعُطَاس، والنوم، والجوع، والعطش.

وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء بحسبه.

وقد نَبَّه سبحانه باستفراغ أدناها ـ وهو البخار المحتقن في الرأس ـ على استفراغ ما هو أصعب منه، كما هي طريقة القرآن: التنبيه بالأدنى على الأعلى.

وأما الحِمْيَة: فقال تعالى في آية الوضوء: **﴿وَإن كُنتُم مَرضَى أو عَلَى سَفرٍ، أَوجَاءَ أحدٌ مِنكم مِنَ الغائِطِ، أو لاَمَسْتُم النساءَ، فَلَم تجدوا ماءً: فَتَيَمَّمُوا صعيدًا طيبًا﴾**. [المائدة: ٦]. فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب؛ حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه. وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له من داخل أو خارج.

فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب الثلاثة ومجامع قواعده.. .(١)

---

(١) بحث المؤلف هنا طب القلوب، وطب الأبدان بتوسع مفيد جدًا اهـ ج.

[1] **وأصول** الطب ثلاثة: الحمية، وحفظ الصحة، واستفراغ المادة المضرة. وقد جمعها الله تعالى له ولأمته في ثلاثة مواضع من كتابه، فحمى المريض من استعمال الماء؛ خشية من الضرر.

فقال تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتم مَرضَى أو عَلَى سَفرٍ أو جاءَ أحَدٌ مِنكُم مِنَ الغائِطِ أوْ لَامَستُم النّساءَ فَلَم تَجدُواَ ماءً فَتَيمموا صَعْيدًا طَيبًا**﴾. [المائدة: ٦]. فأباح التيمم للمريض حمية له، كما أباحه للعادم.

وقال في حفظ الصحة: ﴿**فَمنْ كَانَ مِنْكُم مَرِيضًا أو عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِن أيامٍ أُخَرَ**﴾. [البقرة: ١٨٤]. فأباح للمسافر الفطر في رمضان حفظًا لصحته؛ لئلا يجتمع على قوته الصوم ومشقة السفر، فيضعف القوة والصحة.

وقال في الاستفراغ في حلق الرأس للمحرم: ﴿**فَمنْ كَانَ مُنكم مَرِيضًا أو بِهِ أذى مِن رأسِهِ فَفِديَةٌ مِنْ صيامٍ أو صَدَقةٍ أو نسُكٍ**﴾. [البقرة: ١٩٦]. فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه وهو محرم؛ أن يحلق رأسه، ويستفرغ المواد الفاسدة، والأبخرة الرديئة التي تولد عليه القمل، كما حصل لكعب بن عُجرة، أو تولد عليه المرض.

وهذه الثلاثة هي قواعد الطب وأصوله، فذكر من كل جنس منها شيئًا وصورة؛ تنبيهًا بها على نعمته على عباده في أمثالها من حميتهم، وحفظ صحتهم، واستفراغ مواد أذاهم: رحمة لعباده ولطفًا بهم ورأفة بهم، وهو الرءوف الرحيم.

[2] **وأما** مَنْ أكل في صومه ناسيًا فمن قال: «عدمُ فطره ومضيه في صومه على خلاف القياس» ظن أنه من باب ترك المأمور ناسيًا، والقياس أنه يلزمه الإتيان بها تركه، كما لو أحدث ونسي حتى صلى.

والذين قالوا: «بل هو على وفق القياس» حُجَّتُهم أقوى؛ لأن قاعدة الشريعة: أن مَنْ فَعلَ محظورًا ناسيًا فلا إثم عليه، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿**رَبَّنا لَا تُؤَاخِذْنا إن نَسينَا أو أخطَأنَا**﴾. [البقرة: ٢٨٦].

وثبت عن النبي ﷺ أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء، وقال: قد فعلت.

---

(١) ٨٥ زاد المعاد جـ١.　(٢) ٣١ أعلام جـ٢.

وإذا ثبت أنه غيرُ آثم فلم يفعل في صَوْمه محرمًا فلم يبطل صومه، وهذا مَحْض القياس؛ فإن العبادة إنما تَبْطُل بفعل محظور أو ترك مأمور.

وطَرْدُ هذا القياس أن مَنْ تكلَّم في صلاته ناسيًا؛ لم تبطل صلاته.

وطَرده أيضًا أن مَنْ جامع في إحرامه أو صيامه ناسيًا؛ لم يبطل صيامه ولا إحرامه. وكذلك مَنْ تطيَّبَ أو لبس أو غَطَّى رأسَه أو حلق رأسه أو قلم ظفره ناسيًا فلا فِدْيَةَ عليه، بخلاف قَتل الصيد، فإنه من باب ضَمان المتلفات فهو كدية القتيل. وأما اللباس والطيب فمن باب الترفُّه، وكذلك الحَلق والتقليم ليس من باب الإتلاف؛ فإنه لا قيمة له في الشرع ولا في العرف.

وطَرْدُ هذا القياس أن من فعل المحلوف عليه ناسيًا لم يحنث، سواء حلف بالله أو بالطلاق أو بالعتاق أو غير ذلك؛ لأن القاعدة أن مَنْ فعل المنهيَّ عنه ناسيًا؛ لم يُعَدَّ عاصيًا، والحنث في الأيمان كالمعصية في الإيمان. فلا يعد حانثا من فعل المحلوف عليه ناسيًا.

(1)**وذكر** أحمد أن شابًّا سأله فقال: أقَبِّلُ وأنا صائم؟ قال: «**لا**» وسأله شيخ: أقبل وأنا صائم؟ قال: «**نعم**» ثم قال: «**إن الشيخ يملك نفسَه**».

وسأله ﷺ، رجل فقال: يا رسول الله أكَلْتُ وشربت ناسيًا وأنا صائم، فقال: «**أطعمك الله وسقاك**» ذكره أبوداود، وعند الدارقطني فيه بإسناد صحيح: «**أتمّ صومك، فإن الله أطعمك وسقاك، ولا قضاء عليك**» وكان أول يوم من رمضان.

وسألته ﷺ عن ذلك امرأة أكَلَتْ معه فأمسكت، فقال: «**مَالَكِ؟**» فقالت: كنت صائمة فنسيت، فقال ذو اليدين: الآن بعد ما شبعتِ؟ فقال ﷺ: «**أتمي صومَكِ؛ فإنما هو رزق ساقه الله إليك**» ذكره أحمد.

وسئل ﷺ، عن الخيط الأبيض والخيط الأسود، فقال: «**هو بَياضُ النهار وسواد الليل**» ذكره النسائي.

ونهاهم عن الوِصال ووَاصَل، فسألوه عن ذلك، فقال: «**إني لَسْتُ كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني**» متفق عليه.

---

(١) ٢٩٤ أعلام جـ٤.

وسأله ﷺ، رجل فقال: يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جُنُب أفأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وأنا تُدْرِكني الصلاة وأنا جنب فأصوم**» فقال: لَسْتَ مثلَنا يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «**والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلَمَكم بما أتّقي**» ذكره مسلم.

وسئل ﷺ عن الصوم في السفر، فقال: «**إن شئت صمت وإن شئت أفطرت**» وسأله ﷺ، حمزة بن عمرو فقال: إني أجد فيَّ قوة على الصيام في السفر، فهل على جناح؟ فقال: «**هي رخصة الله، فمن أخذ بها فحسن، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه**» ذكرهما مسلم.

فصل[1]

وكان ﷺ يفطر قبل أن يصلي، وكان فطره على رطبات؛ إن وجدها، فإن لم يجدها فعلى تمرات، فإن لم يجد فعلى حسوات من ماء.

ويذكر عنه ﷺ أنه كان يقول عند فطره: «**اللهم لك صمتُ وعلى رزقك أفطرت، فتقبل منا إنك أنت السميعُ العليمُ**» ولا يثبت.

وروي عنه أيضًا أنه كان يقول: «**اللهم لك صمتُ، وعلى رزقك أفطرتُ**» ذكره أبو داود: عن معاذ بن زهرة، أنه بلغه: أن النبي ﷺ، كان يقول ذلك.

وروي عنه، أنه كان يقول إذا أفطر: «**ذهب الظمأُ، وابتلّت العروقُ، وثبت الأجرُ إن شاء الله تعالى**». ذكره أبوداود، من حديث الحسين بن واقد، عن مروان بن سالم المقنع، عن ابن عمر.

ويذكر عنه ﷺ: «**إن للصائم عند فطره دعوة لا ترد**» رواه ابن ماجه.

وصح عنه أنه قال: «**إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا؛ فقد أفطر الصائم**» وفسر بأنه قد أفطر حُكمًا وإن لم ينوه، وبأنه قد دخل وقت فطره، كأصبح وأمسى.

ونهى الصائم عن الرَّفَث والصَّخَب والسِّبَاب، وجواب السباب.

(١) ٣٣٣ زاد المعاد جـ١.

وأمره أن يقول لمن سابَّهُ: «إني صائم» فقيل: يقوله بلسانه. وهو أظهر. وقيل: بقلبه، تذكيراً لنفسه بالصوم. وقيل: يقوله في الفرض بلسانه، وفي التطوع في نفسه، لأنه أبعد عن الرياء.

فصل

وسافر رسول الله ﷺ في رمضان، فصام وأفطر، وخير الصحابة بين الأمرين. وكان يأمرهم بالفطر إذا دَنَوْا من عدوهم ليتقووا على قتاله.

فلو اتفق مثل هذا في الحضر، وكان في الفطر قوة لهم على لقاء عدوهم، فهل لهم الفطر؟ فيه قولان: أصحهما دليلاً: أن لهم ذلك. وهو اختيار ابن تيمية، وبه أفتى العساكر الإسلامية لما لقوا العدُوَّ بظاهر دمشق.

ولا ريب أن الفطر لذلك أولى من الفطر لمجرد السفر، بل إباحة الفطر للمسافر تنبيه على إباحته في هذه الحالة، فإنها أحق بجوازه:

لأن القوة هناك تختص بالمسافر، والقوة هنا: له وللمسلمين.

ولأن مشقة الجهاد أعظم من مشقة السفر.

ولأن المصلحة الحاصلة بالفطر للمجاهد، أعظم من المصلحة بفطر المسافر.

ولأن الله تعالى قال: **﴿وأعدُّوا لَهُم مَا استَطَعتُم من قوَّةٍ﴾**. [الأنفال: ٦٠]

والفطر عند اللقاء من أعظم أسباب القوة، والنبي ﷺ قد فسر القوة بالرمي. وهو لا يتم ولا يحصل به مقصوده إلا بما يقوي ويعين عليه: من الفطر، والغذاء.

ولأن النبي ﷺ، قال للصحابة لما دنوا من عدوهم: **«إنكم قد دَنَوْتم من عدوكم والفطر أقوى لكم»** وكانت رخصة. ثم نزلوا منزلاً آخر فقال: **«إنكم مُصَبِّحُو عدوكم، والفطر أقوى لكم فأفطروا»**. فكانت عزمة. فعلل بدُنُوِّهم من عدوهم، واحتياجهم إلى القوة التي يلقون بها العدو. وهذا سبب آخر غير السفر، والسفر مستقل بنفسه، ولم يذكره في تعليله، ولا أشار إليه، فالتعليل به اعتبارًا لما ألغاه الشارع في هذا الفطر الخاص، وإلغاء وصف القوة التي يقاوم بها العدو، واعتبار السفر المجرد إلغاء لما اعتبره الشارع وعلل به.

وبالجملة: فتنبيه الشارع وحكمته؛ يقتضي أن الفطر لأجل الجهاد أولى منه لمجرد السفر. فكيف وقد أشار إلى العلة ونبه عليها. وصرح بحكمها. وعزم عليهم بأن يفطروا لأجلها؟

ويدل عليه؛ ما رواه عيسى بن يونس، عن شعبة، عن عمرو بن دينار قال: سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه يوم فتح مكة: «**إنه يوم قتال فأفطروا**» تابعه سعيد بن الربيع، عن شعبة. فعلل بالقتال. ورتب عليه الأمر بالفطر بحرف الفاء.

وكل أحد يفهم من هذا اللفظ، أن الفطر لأجل القتال.

وأما إذا تجرد السفر عن الجهاد: فكان رسول الله ﷺ يقول في الفطر: «**هي رخصة من الله. فمن أخذ بها فحسن ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه**».

(١)**إذا** رأى إنسانًا يغرق فلا يمكنه تخليصه إلا بأن يفطر هل يجوز له الفطر؟

أجاب أبو الخطاب: يجوز له الفطر إذا تيقن تخليصه من الغرق، ولم يمكنه الصوم من التخليص.

وأجاب ابن الزاغوني عنها: إذا كان يقدر على تخليصه وغلب على ظنه ذلك لزمه الإفطار وتخليصه.

ولا فرق بين أن يفطر بدخول الماء في حلقه وقت السباحة، أو كان يجد من نفسه ضعفًا عن تخليصه لأجل الجوع حتى يأكل لأنه يفطر للسفر المباح؛ فلأن يفطر للواجب أولى.

قلت: أسباب الفطر أربعة: السفر، والمرض، والحيض، والخوف على هلاك من يخشى عليه بصوم: كالمرضع والحامل إذا خافتا على ولديهما، ومثله مسألة الغريق.

وأجاز شيخنا ابن تيمية الفطر للتقوِّي على الجهاد وفعله، وأفتى به لما نازل العدو دمشق في رمضان، فأنكر عليه بعض المتفقهين وقال: ليس هذا سفر طويل. فقال الشيخ: هذا فطر للتقوِّي على جهاد العدو، وهو أولى من الفطر للسفر يومين: سفرًا مباحًا أو معصية، والمسلمون إذا قاتلوا عدوهم وهم صيام لم يمكنهم النكاية فيهم، وربما أضعفهم الصوم عن القتال؛ فاستباح العدو بيضة

---

(١) ٤٥ بدائع جـ٤

الإسلام، وهل يشك فقيه أن الفطر هٰهنا أولى من فطر المسافر؟ وقد أمرهم النبي ﷺ، في غزوة الفتح بالإفطار ليتقووا على عدوهم، فعلل ذلك للقوة على العدو لا للسفر. والله أعلم.

قلت: إذا جاز فطر الحامل والمرضع لخوفهما على ولديهما، وفطر من يخلص الغريق؛ ففطر المقاتلين أولى بالجواز، ومن جعل هذا من المصالح المرسلة فقد غلط؛ بل هذا أمر من: باب قياس الأولى، ومن باب دلالة النص وإيمائه.

فصل(١)

تنازع الناس في كثير من الأحكام، ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة والتابعون على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها. وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بيانًا وأن العناية ببيانها أهم؛ لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد. فبينها الله سبحانه وتعالى ورسوله بيانًا شافيًا لا يقع فيه لبس يوقع الراسخين في العلم(٢).

وآيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس.

وأما آيات الصفات؛ فيشترك في فهم معناها الخاص والعام، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية. ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله تعالى: ﴿**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ**﴾. حتى بين لهم بقوله: ﴿**مِنَ الْفَجرِ**﴾. [البقرة:١٨٧]. ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله: ﴿**وإذا سألَكَ عبادي عَنِّي فإني قريبٌ**﴾ الآية [البقرة:١٨٦]. وغيرها من آيات الصفات.

وأيضًا فإن آيات الأحكام؛ مجملة عرف بيانها بالسنة كقوله تعالى: ﴿**فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أو صدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾. [البقرة:١٩٦]. فهذا مجمل في قدر الصيام والإطعام، فبينته السنة بأنه: صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة. ونظائره كثيرة: كآية السرقة وآية الصلاة والزكاة والحج. وليس في آيات الصفات وأحاديثها

---

(١) ٢١ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) كذا بالأصل، ولعله: (يقع للراسخين في العلم) أو نحوه فتأمل

مجمل لا يحتاج إلى بيان من خارج؛ بل بيانها فيها وإن جاءت السنة بزيادة في البيان والتفصيل.

[1]**قال** الله تعالى: ﴿**فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم**﴾. [البقرة: ١٨٧].

فروى شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، قال: هو الولد، وقاله الحكم وعكرمة والحسن البصري والسدي والضحاك. وأرفع ما فيه ما رواه محمد بن سعد، عن أبيه: حدثني عمي، عن أبيه: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: هو الولد.

وقال ابن زيد: هو الجماع، وقال قتادة: ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم.

وعن ابن عباس رواية أخرى، قال: ليلة القدر.

والتحقيق أن يقال: لما خفف الله عن الأمة بإباحة الجماع ليلة الصوم إلى طلوع الفجر، وكان المجامع يغلب عليه حكم الشهوة وقضاء الوطر حتى لا يخطر بقلبه غير ذلك؛ أرشدهم سبحانه إلى أن يطلبوا رضاه في مثل هذه اللذة، ولا يباشروها بحكم مجرد الشهوة، بل يبتغوا بها ما كتب الله لهم من الأجر.

والولد الذي يخرج من أصلابهم يعبد الله لا يشرك به شيئًا، ويبتغون ما أباح الله لهم من الرخصة بحكم محبته لقبول رخصه، فإن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.

ومما كتب لهم ليلة القدر فأمروا أن يبتغوها.

لكن يبقى أن يقال: فما تعلق ذلك بإباحة مباشرة أزواجهم؟

فيقال: فيه إرشاد إلى أن لا يشغلهم ما أبيح لهم من المباشرة؛ عن طلب هذه الليلة التي هي خير من ألف شهر، فكأنه سبحانه يقول: اقضوا وطركم من نسائكم ليلة الصيام، ولا يشغلكم ذلك عن ابتغاء ما كتب لكم من هذه الليلة التي فضلكم بها. والله أعلم.

(١) ٥ تحفة المودود.

فصــل في هديه ﷺ في الاعتكاف[1]

لما كان صلاح القلب واستقـامته على طريق سيره إلى الله تعالى؛ متوقفًا على جمعيته على الله، وَلَمِّ شَعَثِه بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإن شَعَثَ القلب لا يَلُمُّه إلا الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام، وفضول المنام؛ مما يزيده شعثًا، ويُشَتِّتُه في كل وَادٍ ويقطعه عن سيره إلى الله تعـالى، ويضعفـه، أو يَعُوقُه ويوقفه؛ اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده؛ أن شرع لهم من الصوم ما يُذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوِّقة عن سيره إلى الله تعالى.

وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضره، ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة.

وشرع لهم الاعتكاف، الذي مقصوده وروحه عُكُوف القلب على الله تعالى، وجمعيته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكرُه وحبُّه والإقبالُ عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهَمُّ كله به والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أُنْسُه بالله بدلاً عن أُنْسِه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور، حين لا أنيس له ولا ما يفرح به سواه. فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم.

ولما كان هذا المقصـود إنـما يتم مع الصوم؛ شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم، وهو العشر الأخير من رمضان.

ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه اعتكف مفطرًا قط، بل قالت عائشة: «لا اعتكاف إلا بصوم[2]» ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم، ولا فعله النبي ﷺ إلا مع الصوم. فالقول الراجح الدليل، الذي عليه جمهور السلف؛ أن الصوم شرط في الاعتكاف، وهو الذي كان يرجحه شيخ الإسلام أبوالعباس ابن تيمية قدس الله روحه.

---

(١) ٣٥٥ زاد المعاد جـ١.

(٢) هو طرف من حديث رواه أبوداود، عن عائشة. وانظر الكلام على علته، وعلى اشتراط الصوم في الاعتكاف وعدمه في تهذيب السنن للشيخ ابن القيم (جـ٣ ص ٣٤٣ - ٣٤٤ - حديث ٢٢٦٣).

وأما الكلام: فإنه شرع للأمة حبس اللسان عن كل ما لا ينفع في الآخرة.

وأما فضول المنام: فإنه شرع لهم من قيام الليل؛ ما هو من أفضل السهر وأحمده عاقبة، وهو السهر المتوسط الذي ينفع القلب والبدن، ولا يَعُوق عن مصلحة العبد. ومدار رياضة أرباب الرياضات والسلوك؛ على هذه الأركان الأربعة، وأسعدهم بها؛ من سلك فيها المنهاج النبوي المحمدي، ولم ينحرف انحراف الغالين، ولا قصر تقصير المفرطين.

وقد ذكرنا هديه ﷺ، في صيامه وقيامه وكلامه. فلنذكر هديه في اعتكافه.

كان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل، وتركه مرة فقضاه في شوال. واعتكف مرة في العشر الأول، ثم الأوسط، ثم العشر الآخر؛ يلتمس ليلة القدر، ثم تبين له أنها في العشر الأخير؛ فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه عز وجل.

وكان يأمر بخباء فيُضْرَب له في المسجد؛ يخْلُو فيه بربه عز وجل.

وكان إذا أراد الاعتكاف صلى الفجر ثم دخله، فأمر به مرة فضرب، فأمر أزواجه بأخْبيَتِهنَّ فضربِت، فلما صلى الفجر نظر فرأى تلك الأخبية، فأمر بخبائه فقُوِّض.

وترك الاعتكاف في شهر رمضان حتى اعتكف في العشر الأول من شوال(١).

وكان ﷺ، يعتكف كل سنة عشرة أيام، فلما كان في العام الذي قُبِض فيه: اعتكف عشرين يومًا.

وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين.

وكان يعرض عليه القرآن أيضًا في كل سنة مرة، فعرض عليه تلك السنة مرتين. وكان إذا اعتكف دخل قبته وحده.

وكان لا يدخل بيته في حال اعتكافه إلا لحاجة الإنسان.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن عائشة.

وكان يخرج رأسه من المسجد إلى بيت عائشة، فترجِّله وتغسله وهو في المسجد، وهي حائض.

وكان بعض أزواجه يزوره وهو معتكف، فإذا قامت تذهب: قام معها يقَلبِهُا - وكان ذلك ليلاً(١).

ولم يباشر امرأة من نسائه وهو معتكف، لا بقبلة ولا غيرها.

وكان إذا اعتكف طرح له فراشه، ووضع له سريره في معتكَفه.

وكان إذا خرج لحاجته مرَّ بالمريض وهو على طريقه، فلا يُعرِّج عليه، ولا يسأل عنه.

واعتكف مرة في قبة تركية، وجعل على سُدَّتها حصيراً.

كل هذا تحصيلاً لمقصود الاعتكاف وروحه، عكس ما يفعله الجهال: من اتخاذ المعتكف موضع عشرة، ومجلبة للزائرين، وأخذهم بأطراف الأحاديث بينهم. فهذا لون، والاعتكاف النبوي لون. والله الموفق.

(٢)﴿**ولا تأكُلوا أموالَكم بينكم بالباطلِ، وتُدلُوا بها إلى الحكامِ**﴾ [البقرة: ١٨٨] أي: تضيفوا ذلك إلى الحكام، وتتوصلوا بحكمهم إلى أكلها.

فإن قيل: لو أراد هذا المعنى لقيل: «وتُدْلُوا بالحكام إليها» وأما الإدلاء بها إلى الحكام فهو: التوصُّل بالبرطيل بها إليهم؛ فَتَرْشُوا الحاكم؛ لتتوصلوا برشوتِهِ إلى الأكل بالباطل.

قيل: الآية تتناول النوعين: فكل منهما إدلاء إلى الحكام بسببها، فالنهي عنهما معاً. ا. هـ.

وقد: ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه:

أحدها قوله: ﴿**يسألونك عن الأهلةِ قُل هي مواقيتُ للناسِ والحجِّ**﴾ [البقرة: ١٨٩].

والثانية قوله: ﴿**هو الذي جعلَ الشمسَ ضياءً والقمرَ نورًا وقدَّره منازلَ لتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ ما خلق الله ذلك إلا بالحقِّ يفصلُ الآياتِ لقومٍ يعلمون**﴾ [يونس: ٥].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن صفية أنها زارته وهو معتكف.. الحديث.

(٢) ٨٨ أعلام جـ١.

والثالثة قوله: ﴿وجعلنا الليلَ والنهارَ آيتين فمحونا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهارِ مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربِّكم ولتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ وكلَّ شيءٍ فصَّلناه تفصيلاً﴾ [الإسراء:١٢]. فلولا ما يحدثه الله سبحانه في آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه؛ لم يعلم ميقات الحج، والصوم والعدد، ومدة الرضاع، ومدة الحمل، ومدة الإجارة، ومدة آجال الحاملات.

فإن قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وإفطارهم بعد غروب الشمس.

قيل: هذا وإن كان ممكنا إلا أنه يعسر ضبطه ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس.

ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها بالقمر؛ أمر يشترك فيه الناس، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس، وأقل اضطرابًا واختلافًا ولا يحتاج إلى تكلف حساب، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه، فالحكمة البالغة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر، وأنفع، وأصلح، وأقل اختلافًا من تقديرها بسير الشمس.

فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه، في مصالح دينهم ودنياهم.

مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب، وكمال حكمته، وعلمه وتدبيره. فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها. فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير، ولا يمكن عدمها

(١)**قوله** تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حتَّى لا تَكُونَ فِتنةٌ ويكُونَ الدينُ لله، فَإن انتهوا فَلا عدوان إلا عَلَى الظَّالمينَ﴾. [البقرة:١٩٣]. فمدّ قتالهم إلى أن ينتهوا عن أسباب الفتنة، وهي الشرك، وأخبر أنه لا عدوان إلا على الظالمين؛ والمجاهر بالسب

---

(١) ٨٢٩ أحكام أهل الذمة جـ٢.

والعدوان على الإسلام غير منتهٍ، فقتاله واجب إذا كان غير مقدور عليه، وقتله مع القدرة حَتمٌ، وهو ظالم فعليه العدوان الذي نفاه عمن انتهى، وهو القتل والقتال. وهذا بحمد الله في غاية الوضوح.

(١)**وقد** فهم من قوله تعالى: ﴿**ولا تُلْقُوا بَأيْدِيكُم إلى التَهْلُكَةِ**﴾. [البقرة: ١٩٥]. انغماس الرجل في العدو؛ حتى بين له أبو أيوب الأنصاري أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكة، بل هو من بيع الرجل نفسَه ابتغاء مرضاة الله، وأن الإلقاء بيده إلى التهلكة هو: ترك الجهاد والإقبالُ على الدنيا وعمارتها.

وقال الصديق رضي الله عنه: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتَضَعُونها على غير مواضعها ﴿**يَا أيُّها الذين آمَنُوا عليكم أنفسَكم لاَ يضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إذا اهتَدَيْتُم**﴾. [المائدة: ١٠٥]. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمهم الله بالعقاب من عنده**» فأخبرهم أنهم يضعونها على غير مواضعها؛ في فهمهم منها خلاف ما أريد بها.

(٢)**وذكر** أحمد عنه: أن رجلاً قال له: أوصني. فقال: «**أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء. وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام. وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن؛ فإنه روحك في السماء وذكر لك في الأرض**».

وقال: «**ذِرْوَةُ سنام الإسلام: الجهاد**»(٣) وقال: «**ثلاثة حقٌّ على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله. والمكاتب الذي يريد الأداء. والناكح الذي يريد العفاف**»(٤).

وقال: «**من مات ولم يَغزُ ولم يحدث نفسه بغزو؛ مات على شُعبة من نفاق**»(٥).

وذكر أبو داود عنه: «**من لم يَغْزُ، أو يجهز غازيًا، أو يخلف غازيًا في أهله بخير؛ أصابه الله بقارعةٍ قبل يوم القيامة**».(٦)

وقال: «**إذا ضَنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب**

---

(١) ٢٢٣ أعلام جـ١. (٢) ١٦٠ زاد المعاد جـ٢.

(٣) رواه بهذا اللفظ الطبراني من حديث أبي أمامة، وزاد «لا يناله إلا أفضلهم» ورواه أحمد والنسائي والترمذي ـ وقال: حسن صحيح ـ وابن ماجة من حديث معاذ بن جبل ـ الطويل «كنت في سفر مع رسول الله، فأصبحت يوما قريبا منه ـ الحديث». (٤) رواه أحمد والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة. (٥) رواه مسلم وأبوداود والنسائي من حديث أبي هريرة. (٦) رواه أبوداود وابن ماجة عن القاسم عن أبي أمامة. قال المنذري في مختصر السنن: والقاسم أبو عبدالرحمن فيه مقال.

البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله؛ أنزل الله بهم بلاءً فلم يرفعه عنهم حتى يُراجعوا دينهم»[(١)].

وذكر ابن ماجة عنه: «**من لقي الله عز وجل، وليس له أثر في سبيل الله؛ لقي الله وفيه ثلمة**»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿**ولا تُلْقُوا بأيديكم إلى التهلكةِ**﴾. [البقرة: ١٩٥]. وفسر أبو أيوب الأنصاري «الإلقاء باليد إلى التهلكة: **بترك الجهاد**»[(٣)].

وصح عنه ﷺ «**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**»[(٤)].

وصح عنه «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[(٥)].

[(٦)]**ولما** نزل فرض الحج بادر رسول الله ﷺ، إلى الحج من غير تأخير. فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَأَتِمُّوا الحَجَّ والعمرَةَ لله**﴾. [البقرة: ١٩٦]. فإنها - وإن نزلت سنة ست، عام الحديبية - فليس فيها فرضية الحج، وإنما فيها الأمر بإتمامه، وإتمام العمرة، بعد الشروع فيهما، وذلك لا يقتضي وجوب الابتداء.

فإن قيل: فمن أين لكم تأخير نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة؟

قيل: لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ، وصالحهم على أداء الجزية، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع، وفيها نزل صدر سورة آل عمران، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة.

---

(١) رواه أبو داود وغيره من طريق إسحاق بن أسيد - نزيل مصر - عن ابن عمر.

(٢) رواه الترمذي. وقال: حديث غريب وابن ماجة وهو من رواية إسماعيل بن رافع عن سمى عن أبي صالح عن أبي هريرة.

(٣) رواه الترمذي في حديث طويل في غزو المسلمين القسطنطينية، ومعهم أبو أيوب الأنصاري قال «وكانت التهلكة: الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الغزو. فما زال أبو أيوب شاخصًا في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم».

(٤) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي موسى.

(٥) رواه البخاري ومسلم وأبوداود والترمذي من حديث أبي موسى.

(٦) ٣٦٥ زاد المعاد جـ١.

ويدل عليه: أن أهـل مكة وجدوا في نفوسهم على ما فاتهم من التجارة من المشركـين، لما أنـزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا إِنَّمَا الْمُشركُونَ نَجَسٌ، فَلَا يَقْرَبوا المَسْجدَ الحرامَ بَعد عَامهم هذا﴾. [التوبة:٢٨] . فأعاضهم الله تعالى من ذلـك بالجزية. ونزول هذه الآيات والمناداة بها؛ إنما كان في سنة تسع، وبعث الصديق رضى الله عنه بذلك في مكة في موسم الحج، وأردفه بعلي رضي الله عنه، وهذا الذي ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف. والله أعلم.

فصـــل(١)

في هديه ﷺ، في حجه وعمره

اعتمر ﷺ، بعد الهجرة أربع عمر، كلهن في ذي القعدة:

الأولى: عمـرة الحـديبية، وهي أولاهن: سنـة ست، فصَـدَّه المشركون عن البيت، فنحر البُدْن حيث صُدَّ بالحديبية، وحلق هو وأصحابه رءوسهم، وحَلُّوا من إحرامهم، ورجع من عامه إلى المدينة.

الثانية: عمرة القَضِيَّة في العام المقبل، دخل مكة فأقام بها ثلاثًا، ثم خرج بعد إكمال عمرته.

واختلف هل كانت قضاء للعمرة التي صُدَّ عنها في العام الماضي، أم عمرة مستأنفة؟ على قولين للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد:

إحداهما: أنها قضاء. وهو مذهب أبي حنيفة.

والثانية: ليست بقضاء. وهو قول مالك.

والذين قالوا: كانت قضاء احتجوا بأنها سميت عمرة القضاء. وهذا الاسم تابع للحكم.

قال آخرون: القضاء هنا من المقاضاة، لأنه قاضى أهل مكة عليها، لا أنه مِنْ قَضَى يَقْضِي قَضَاءً. قالوا: ولهذا سميت عمرة القضية. قالوا: والذين صُدُّوا عن البيت كانوا ألفًا وأربعمائة، وهؤلاء كلهم لم يكونوا معه في عمرة القضية، ولو كانت قضاء لم يتخلف منهم أحد. وهذا القول أصح؛ لأن رسول الله ﷺ لم يأمر من كان معه بالقضاء.

---

(١) ٣٥٧ زاد المعاد جـ١.

فصل(١)

واختُلف في تسمية هذه العمرة بعُمرة القضاء: هل هو لكونها قضاء للعمرة التي صُدُّوا عنها، أو من المقاضاة؟ على قولين تقدما.

قال الواقدي: حدثني عبدالله بن نافع، عن أبيه، عن ابن عمر قال: «لم تكن هذه العمرة قضاءً، ولكن كان شرطًا على المسلمين أن يَعْتَمِرُوا في الشهر الذي حَاصَرَهم فيه المشركون».

واختلف الفقهاء في ذلك على أربعة أقوال:

أحدها: أَنَّ مَنْ أُحْصِرَ عن العمرة: يلزمه الهدي والقضاء، وهذا إحدى الروايات عن أحمد، بل أشهرها عنه.

والثاني: لا قضاء عليه، وعليه الهدي، وهو قول الشافعي، ومالك في ظاهر مذهبه، ورواية أبي طالب عن أحمد.

والثالث: يلزمه القضاء، ولا هدي عليه. وهو قول أبي حنيفة.

والرابع: لا قضاء عليه ولا هدي، وهو إحدى الروايات عن أحمد.

فمن أوجب عليه القضاء والهدي؛ احتجَّ بأن النبي ﷺ، وأصحابه نَحَرُوا الهدي حين صُدُّوا، ثم قَضَوْا من قابل. قالوا: والعمرة تلزم بالشروع فيها، ولا يسقط الوجوب إلا بفعلها، ونَحْرُ الهدي لأجل التحلل قبل تمامها.

قالوا: وظاهر الآية يوجب الهدي، لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾. [البقرة: ١٩٦].

ومَن لم يوجبهما؛ قالوا: لم يأمر النبي ﷺ، الذين أُحصروا معه بالقضاء، ولا أحدًا منهم، ولا وَقَفَ الحلُّ على نحرهم الهدي؛ بل أمرهم أن يَحْلقُوا رءوسهم، وأمر من كان معه هدى أن ينحر هديه.

ومن أوجب الهدي دون القضاء؛ احتج بقوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُم فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾. [البقرة: ١٩٦].

ومن أوجب القضاء دون الهدي؛ احتج بأن العمرة تلزم بالشروع، فإذا أُحْصِر

(١) ٣٧١ زاد المعاد جـ٢.

جاز له تأخيرها لعذر الإحصار، فإذا زال الحصر أتى بها بالوجوب السابق، ولا يوجب تخلل التحلل بين الإحرام بها أولاً، وبين فعلها في وقت الإمكان شيئًا.

وظاهر القرآن يرد هذا القول، ويوجب الهدي دون القضاء؛ لأنه جعل الهدي هو جميع ما على المُحْصَرْ، فدل على أنه يكتفي به منه. والله أعلم.

فصل

وفي نحره ﷺ - لما أُحصر بالحديبية - دليل على أن المُحْصَر ينحر هديه وقت حصره، وهذا لا خلاف فيه إذا كان مُحرِمًا بعمرة، وإن كان مُفْرِدًا أو قارنًا ففيه قولان:

أحدهما: أن الأمر كذلك. وهو الصحيح؛ لأنه أحد النسكين، فجاز الحلُّ منه، ونَحْرُ هديه وقت حصره كالعمرة. لأن العمرة لا تفوت، وجميع الزمان وَقْتٌ لها. فإذا جاز الحل منها ونحر هديها من غير خشيةِ فواتها، فالحج الذي يُخشى فواته أولى. وقد قال أحمد في رواية حنبل: إنه لا يُحلّ ولا ينحر الهدي إلى يوم النحر.

ووجه هذا: أن للهدي محل زمان ومحل مكان، فإذا عجز عن محل المكان؛ لم يسقط عنه محل الزمان؛ لتمكنه من الإتيان بالواجب في محله الزماني.

وعلى هذا القول لا يجوز له التحلل قبل يوم النحر؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تَحْلِقُوا رُءُوسَكم حتى يبلُغَ الهدىُ مَحِلَّه**﴾. [البقرة: ١٩٦].

فصل

وفي نحره ﷺ وحِلّه: دليل على أن المحصَر بالعمرة يتحلل. وهذا قول الجمهور. وقد روي عن مالك: أن المعتمر لا يتحلل؛ لأنه لا يخاف الفَوْتَ، وهذا تبعد صحته عن مالك؛ لأن الآية إنما نزلت في الحديبية. وكان النبي ﷺ، وأصحابه كلهم محرمين بعمرة، وحَلُّوا كلهم. وهذا مما لا يشك فيه أحد من أهل العلم.

فصل

وفي ذبحه ﷺ بالحديبية - وهي من الحل بالاتفاق - دليل على أن المحصَر ينحر هديه حيث أحصِر من حِلٍّ أو حرم. وهذا قول الجمهور وأحمد. . .

(١)**الثالثة**(٢): عمرته التي قرنها مع حجته، فإنه كان قارنًا لبضعة عشر دليلاً، سنذكرها عن قريب، إن شاء الله.

الرابعة: عمرته من الجِعِرَّانة، لما خرج إلى حُنين، ثم رجع إلى مكة، فاعتمر من الجعرانة داخلاً إليها.

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمُرٍ، كلهن في ذي القعدة ـ إلا التي كانت مع حجته ـ: عمرة من الحديبية ـ أو زمن الحديبية ـ في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة؛ وعمرة من الجعرانة، حيث قَسَم غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجته».

ولم يناقض هذا ما في الصحيحين عن البراء بن عازب قال: «اعتمر رسول الله ﷺ في ذي القعدة قبل أن يحج مرتين»؛ لأنه أراد العمر المفردة المستقلة التي تمت. ولا ريب أنهما اثنتان. فإن عمرة القران لم تكن مستقلة، وعمرة الحديبية: صُد عنها، وحيلَ بينه وبين إتمامها. ولذلك قال ابن عباس: «اعتمر النبي ﷺ، أربع عمر: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء من قابل، والثالثة من الجعرانة، والرابعة: مع حجته» ذكره الإمام أحمد.

ولا تناقض بين حديث أنس: «أنهن في ذي القعدة، إلا التي مع حجته» وبين قول عائشة وابن عباس: «لم يعتمر رسول الله ﷺ إلا في ذي القعدة»؛ لأن مبدأ عمرة القران؛ كان في ذي القعدة، ونهايتها؛ كانت في ذي الحجة. مع انقضاء الحج. فعائشة وابن عباس أخبرا عن ابتدائها. وأنس أخبر عن انقضائها.

وأما قول عبدالله بن عمر: «إن النبي ﷺ اعتمر أربعًا. إحداهن في رجب» فوهَمٌ منه رضي الله عنه. قالت عائشة ـ: لما بلغها ذلك عنه ـ «يرحم الله أبا عبدالرحمن. ما اعتمر رسول الله ﷺ عمرة قط إلا وهو شاهد. وما اعتمر في رجب قط».

وأما ما رواه الدار قطني، عن عائشة قالت: «خرجت مع رسول الله ﷺ في عمرة في رمضان، فأفطر وصمتُ. وقصر وأتممت. فقلت: بأبي وأمي، أفطرتَ

---

(١) ٣٥٨ زاد المعاد جـ١.

(٢) سبق الكلام عن العمرة الأولى والثانية ص٣٤٩ أي قبل الصفحة السابقة.

وصمتُ. وقصرت وأتممت؟ فقال: أَحْسَنْتِ يا عائشة» فهذا الحديث غلط؛ فإن رسول الله ﷺ، لم يعتمر في رمضان قط. وعُمَرُه مضبوطة العدد والزمان. ونحن نقول: يرحم الله أمَّ المؤمنين، ما اعتمر رسول الله ﷺ في رمضان قط.

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «لم يعتمر رسول الله ﷺ إلا في ذي القعدة» رواه ابن ماجة وغيره.

ولا خلاف أن عُمَره لم تزد على أربع، فلو كان قد اعتمر في رجب لكانت خمسًا، ولو كان قد اعتمر في رمضان لكانت ستًّا، إلا أن يقال: بعضهن في رجب، وبعضهن في رمضان، وبعضهن في ذي القعدة. وهذا لم يقع. وإنما الواقع اعتماره في ذي القعدة، كما قال أنس وابن عباس وعائشة.

وقد روى أبو داود في سننه، عن عائشة «أن النبي ﷺ اعتمر في شوال» وهذا ـ إن كان محفوظًا ـ فلعله في عمرة الجِعِرَّانة، حيث خرج في شوال، ولكن إنما أحرم في ذي القعدة.

فصل(١)

ولم يكن في عُمره عمرة واحدة خارجًا من مكة، كما يفعل كثير من الناس اليوم. وإنما كانت عمره كلها داخلاً إلى مكة.

وقد أقام بعد الوحي بمكة ثلاث عشرة سنة، لم ينقل عنه: أنه اعتمر خارجًا من مكة في تلك المدة أصلاً.

فالعمرة التي فعلها رسول الله ﷺ، وشرعها؛ عمرة الداخل إلى مكة، لا عمرة من كان بها فيخرج إلى الحِلِّ ليعتمر.

ولم يفعل هذا على عهده أحد قط إلا عائشة وحدها، من بين سائر من كان معه؛ لأنها كانت قد أَهَلَّت بالعمرة؛ فحاضت، فأمرها فأدخلت الحج على العمرة، وصارت قارنة، وأخبرها: أن «طوافها بالبيت وبين الصفا والمروة قد وقع عن حجتها وعمرتها» فوجدت في نفسها أن يرجع صواحباتها بحج وعمرة مستقلين. فإنهن كنَّ متمتعات. ولم يَحِضْنَ ولم يَقْرِنَّ. وترجع هي بعمرة في ضمن حجتها. فأمر أخاها أن يُعْمِرها من التنعيم. تطييبًا لقلبها.

---

(١) ٣٦٠ زاد المعاد جـ١.

ولم يعتمر هو من التنعيم في تلك الحجة. ولا أحد ممن كان معه وسيأتي مزيد تقرير لهذا وبسط عن قريب. إن شاء الله تعالى.

فصل

دخل رسول الله ﷺ مكة بعد الهجرة خمس مرات، سوى المرة الأولى؛ فإنه وصل إلى الحديبية وصُدَّ عن الدخول إليها، أحرم في أربع منهن من الميقات لا قبله، فأحرم عام الحديبية من ذي الحليفة.

ثم دخلها المرة الثانية، فقضى عمرته وأقام بها ثلاثًا. ثم خرج.

ثم دخلها في المرة الثالثة عام الفتح في رمضان بغير إحرام.

ثم خرج منها إلى حنين، ثم دخلها بعمرة من الجعرانة، ودخلها في هذه العمرة ليلاً، وخرج ليلاً، فلم يخرج من مكة إلى الجعرانة ليعتمر، كما يفعل أهل مكة اليوم؛ وإنما أحرم منها في حال دخوله إلى مكة. ولما قضى عمرته ليلاً رجع من فَوْرِه إلى الجعرانة، فبات بها. فلما أصبح وزالت الشمس خرج من بطن سَرِف، حتى جامع الطريق؛ ولهذا خفيت هذه العمرة على كثير من الناس.

والمقصود: أن عمره كلها كانت في أشهر الحج، مخالفة لهدي المشركين، فإنهم كانوا يكرهون العمرة في أشهر الحج، ويقولون: هي من أفجر الفجور. وهذا دليل على أن الاعتمار في أشهر الحج؛ أفضل منه في رجب بلا شك.

وأما المفاضلة بينه وبين الاعتمار في رمضان؛ فموضع نظر، فقد صح عنه؛ أنه أمر أمَّ مَعْقِل ـ لما فاتها الحج معه ـ أن تعتمر في رمضان، وأخبرها: أن «**عمرة في رمضان تعدل حجة**».

وأيضًا: فقد اجتمع في عمرة رمضان أفضل الزمان، وأفضل البقاع، ولكن لم يكن الله ليختار لنبيه ﷺ، في عمره إلا أولى الأوقات، وأحقها بها، فكانت العمرة في أشهر الحج نظير وقوع الحج في أشهره. وهذه الأشهر قد خصَّها الله تعالى بهذه العبادة وجعلها وقتًا لها، والعمرة حج أصغر، فأولى الأزمنة بها؛ أشهر الحج، وذو القعدة؛ أوسطها. وهذا مما نستخير الله فيه، فمن كان عنده فضل علم فليرشد إليه.

وقد يقال: إن رسول الله ﷺ، كان يشتغل في رمضان من العبادات؛ بما هو أهَمُّ من العمرة، ولم يكن يمكنه الجمع بين تلك العبادات وبين العمرة، فأخَّر

العمرة إلى أشهر الحج، ووفَّر نفسه على تلك العبادات في رمضان، مع ما في ترك ذلك من الرحمة بأمته، والرأفة بهم. فإنه لو اعتمر في رمضان؛ لبادرت الأمة إلى ذلك، وكان يشق عليها الجمع بين العمرة والصوم، وربما لا تسمح أكثر النفوس بالفِطْرِ في هذه العبادة؛ حرصًا على تحصيل العمرة وصوم رمضان، فتحصل المشقة. فأخَّرها إلى أشهر الحج. وقد كان يترك كثيرًا من العمل ـ وهو يحب أن يعمله ـ خشية المشقة عليهم.

ولما دخل الكعبة خرج حزينًا، فقالت له عائشة في ذلك، فقال: «**إني أخاف أن أكون قد شَقَقتُ على أمتي**»، وهَمَّ أن ينزل يستقي مع سُقاة زمزم للحجاج، فخاف أن يُغلبَ أهلها على سقايتهم بعده. والله أعلم.

...[1]**وحلق** الرأس ثلاثة أنواع:

أحدها: نُسُك وقربة.

والثاني: بدعة وشرك.

والثالث: حاجة ودواء.

فالأول: الحلق في أحد النسكين: الحج، أو العمرة.

والثاني: حلق الرأس لغير الله سبحانه. كما يحلقها المريدون لشيوخهم الأحياء والموتى. فيقول أحدهم: أنا حلقت رأسي لفلان، وأنت حلقته لفلان. وهذا بمنزلة أن يقول: سجدت لفلان. فإن حلق الرأس: خضوع، وعبودية، وذل؛ ولهذا كان من تمام الحج؛ حتى إنه عند الشافعي ركنٌ من أركانه. لا يتم إلا به. فإنه وضع النواصي بين يدي ربها؛ خضوعًا لعظمته، وتذللاً لعزته، وهو من أبلغ أنواع العبودية.

ولهذا كانت العرب إذا رأت إذلال الأسير منهم وعتقه: حلقوا رأسه، وأطلقوه. فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية، الذين أساس مشيختهم على الشرك والبدعة، فشرعوا لمريديهم أن يتعبدوا لهم، فزينوا لهم حلق رءوسهم لهم، كما زينوا السجود لهم، وسموه بغير اسمه، وقالوا: هو وضع الرأس بين يدي الشيخ، ولعمر الله، إن السجود لله: هو وضع الرأس بين يديه سبحانه. وزينوا لهم أن ينذروا لهم، وينوبوا لهم، ويحلفوا بأسمائهم، وهذا هو اتخاذهم أربابًا وآلهة من دون الله.

قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُؤْتِيهُ الله الكتابَ والحُكْمَ والنبوةَ، ثُمَّ يقولَ**

(١) ٢٤٢ زاد المعاد جـ٣.

لِلنَّاسِ : كُونُوا عِبادًا لِي مِنْ دُونِ الله . وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانيين بِمَا كُنتم تُعلمونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنُتم تَدرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تتخُذوا المَلائِكَةَ وَالنَّبيينَ أَرْبَابًا . أَيأمُرُكُم بِالكُفرِ بَعْدَ إذ أنتمُ مُسلِمُونَ؟﴾ . [آل عمران: ٧٩، ٨٠] .

وأشرف العبودية: عبودية الصلاة. وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة.

فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها، وهو السجود.

وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع. فإذا لقي بعضهم بعضًا ركع له، كما يركع المصلي لربه سواء.

وأخذ الجبابرة منها: القيام فيقوم الأحرار والعبيد على رءوسهم عبودية لهم؛ وهم جلوس.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل. فتعاطيها مخالفة صريحة له. فنهى عن السجود لغير الله. وقال: «**لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد**».

وأنكر على معاذ بن جبل لما سجد له وقال: «مَهْ» وتحريم هذا معلوم من دينه بالضرورة.

وتجويز من جوَّزه لغير الله مُراغمة لله ورسوله، وهو من أبلغ أنواع العبودية. فإذا جَوَّز هذا المشرك هذا النوع للبشر: فقد جوز العبودية لغير الله. وقد صح أنه قيل لرسول الله: الرجل يلقى أخاه. أينحني له؟ قال: «**لا**». قيل: أيلتزمه ويقبله؟ قال: «**لا**». قيل: أيصافحه؟ قال: «**نعم**».

وأيضًا: فالانحناء عند التحية سجود. ومنه قوله تعالى: ﴿**وادخلوا البابَ سُجَّدًا**﴾. [البقرة: ٥٨]. أي: منحنين. وإلا فلا يمكن الدخول على الجباه. وصح عنه النهي عن القيام وهو جالس، كما تعظم الأعاجم بعضها بعضًا. حتى منع من ذلك في الصلاة وأمرهم «إذا صلى جالسًا: أن يصلوا جلوسًا» وهم أصحاء لا عذر لهم؛ لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس، مع أن قيامهم لله. فكيف إذا كان القيام: تعظيمًا، وعبودية لغيره سبحانه؟

والمقصود: أن النفوس الجاهلة الضالة: أسقطت عبودية الله سبحانه، وأشركت فيها من تعظمه من الخلق؛ فسجدت لغير الله، وركعت له، وقامت بين يديه قيامها في الصلاة، وحلفت بغير الله، ونذرت لغيره، وحلقت لغيره، وذبحت

لغيره، وطافت بغير بيته، وعظمته بالحب والخوف والرجاء والطاعة، كما يعظم الخالق؛ بل أشد، وسوَّت مَنْ تعبده من المخلوقين برب العالمين، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل، وهم الذين بربهم يعدلون. وهم الذين يقولون، وهم في النار مع آلهتهم يختصمون: ﴿تَاللهِ إنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إذ نُسَوِيكُمْ بَرَبِّ العالمين﴾. [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. وهم الذين قال فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتخذُ من دون الله أندادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ الله، والذين آمَنُوا أشدُّ حُبًّا لله﴾. [البقرة: ١٦٥]. وهذا كله من الشرك. والله لا يغفر أن يشرك به. فهذا فصل معترض في هديه في حلق الرأس، ولعله أهم مما قصدنا الكلام فيه. والله أعلم.

فصل(١)

في هدي رسول الله ﷺ في حلق الرأس، وتركه، وكيفية جعل شعره.

لم يكن هديه ﷺ حلق رأسه في غير نسك؛ بل لم يحفظ عنه أنه حلق رأسه إلا في حج أو عمرة.

وحلق الرأس أربعة أقسام: شرعي، وشِركي، وبدعي، ورخصة.

فالشرعي: الحلق في الحج والعمرة، والشوكي حلق الرأس للشيوخ فإنهم يحلقون رءوس المريدين للشيخ، ويقولون: احلق رأسك للشيخ فلان، وهذا من جنس السجود له، فإن حلق الرأس عبودية مذلة.

وكثير منهم يعمل المشيخة الوثنية، فترى المريد عاكفًا على السجود له، ويسميه: وضع رأس، وأدبًا، وعلى التوبة له، والتوبة لا تنبغي أن تكون لأحد إلا لله وحده، وعلى حلق الرأس له وحلق الرأس عبودية لا تصلح إلا لله وحده؛ وكانت العرب إذا منُّوا على الأسير؛ جزوا نواصيه وأطلقوه عبودية وإذلالاً له. ولهذا كان من تمام النسك؛ وضع النواصي لله عبودية وخصوعًا وذلاً. ويربونه على الحلف باسم الشيخ لإذلاله.

وقد صح عنه ﷺ، أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» فكيف من نذر لغير الله!

وأما الحلق البدعي فهو: كحلق كثير من المطَّوعة والفقراء، يجعلونه شرطًا في

---

(١) ٧٥٠ أحكام جـ٢.

الفقر وزيًّا يتميزون به عن أهل الشعور من الجند والفقهاء والقضاة وغيرهم.

وقد صح عن النبي ﷺ في الخوارج أنه قال: «**سيماهم التحليق**».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لصبيغ بن عسل وقد سأله عن مسائل فأمر بكشف رأسه وقال: «لو رأيتك محلوقًا لأخذت الذي فيه عيناك حتى أن تكون من الخوارج».

ومن حلق البدعة: الحلق عند المصائب بموت القريب ونحوه. فأما المرأة فيحرم عليها ذلك، وقد برىء رسول الله ﷺ من الحالقة والصالقة والشآقة.

فالحالقة التي تحلق شعرها عند المصيبة، والصالقة التي ترفع صوتها بالويل والثبور ونحوه، والشاقة التي تشق ثيابها، وأما الرجل فحلقه لذلك بدعة قبيحة يكرهها الله ورسوله.

وأما حلق الحاجة والرخصة: فهو كالحلق، لوجع، أو قمل، أو أذى في رأسه: من بثور ونحوها، فهذا لا بأس به.

وأما حلق بعضه وترك بعضه فهو مراتب: أشدها أن يحلق وسطه ويترك جوانبه، كما تفعل شمامسة النصارى، ويليه أن يحلق جوانبه ويدع وسطه كما يفعل كثير من السفلة وأسقاط الناس، ويليه أن يحلق مقدم رأسه ويترك مؤخره.

وهذه الصور الثلاثة داخلة في القزع[١] الذي نهى عنه رسول الله ﷺ، وبعضها أقبح من بعض؛ فإن دعت الحاجة إلى ذلك لضرر برأسه أو لاستخراج ضفيرة تؤذي[٢] عينيه؛ جاز حلق بعضه.

هذا والأولى في هذه الحال: أن يقتصر على ما تدفع به الحاجة أو حلق جميعه، وهذا فيه نظر.

[٣]**قوله** تعالى: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خيرَ الزَّادِ التَّقْوى**﴾. [البقرة: ١٩٧]. فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن. وهذا من زينة القرآن الباطنة، المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة.

ومنه قوله تعالى لآدم ﴿**إنَّ لك ألَّا تَجُوع فيها ولا تَعْرى. وأنَّك لا تَظْمَأُ فيها ولا**

(١) انظر في القَزَع البخاري ٧/ ١٦٣ وقارن بمسلم ١٤/ ١٠٠

(٢) في الأصل (الحرة يودى) بالمهملة.

(٣) ٢٥١ روضة المحبين.

تَضْحىٰ﴾ فقابل بين الجوع والعُرْي دون الجوع والظمإ، وبين الظمإ والضحى دون الظمإ والجوع، فإن الجوع عُرْي الباطن وذُلّه، والعُرْي جوعُ الظاهر وذُلّه. فقابل بين نفي ذلّ باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأُ حَرُّ الباطنُ، والضحى حرُّ الظاهر، فقابل بينهما.

(١)**قوله** تعالى: **﴿وتزوَّدُوا فَإنَّ خيرَ الزَّادِ التقوى﴾**. [البقرة: ١٩٧]. أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى. فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة؛ لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين.

ومنه قوله تعالى: **﴿يَا بَني آدم قَد أنزلْنَا عليكمْ لِبَاسًا يُواري سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِباسُ التَّقوى ذلك خيرٌ﴾**. [الأعراف: ٢٦].

فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن، وكمال الظاهر والباطن.

ومنه قوله تعالى: **﴿فَمَن اتَّبع هُداىَ فَلاَ يَضلُّ وَلاَ يَشقى﴾**. [طه: ١٢٣]. فنفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضًا، فهو منعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح.

ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام؛ لما أرتْهُ النسوة اللائمات لها في حبه: **﴿فذلكُنَّ الَّذي لُمتُنَّنى فيه﴾**. [يوسف: ٣٢]. فأرتهن جماله الظاهر. ثم قالت: **﴿ولقدْ رَاوَدتُهُ عن نفْسِهِ فَاستعصَمَ﴾** فأخبرت عن جماله الباطن بعفته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأرتهن جمال ظاهره...

(٢)فصل

وسألته ﷺ عائشة رضي الله عنها فقالت: نرى الجهاد أفضل الأعمال، أفلا نجاهد؟ قال: «**لكن أفضل الجهاد وأجمله حَجٌّ مبرور**» ذكره البخاري، وزاد أحمد «**لكن هو جهاد**».

وسألته ﷺ امرأة: ما يعدلُ حجةً معك، فقال: «**عمرة في رمضان**» ذكره أحمد، وأصله في الصحيح.

وسألته ﷺ أم معقل فقالت: يا رسول الله إن عَلَيَّ حجة وإن لأبي معقل بَكْرًا،

---

(١) ٥٨ إغاثة جـ١.	(٢) ٢٩٩ أعلام جـ٤.

فقال أبو معقل: صدقَتْ، قد جعلته في سبيل الله، فقال: «**أعطِها فلتحُجَّ عليه فإنه في سبيل الله**» فأعطاها البكر فقالت: يا رسول الله إني امرأة قد كبرت سني وسقمت، فهل من عمل يجزىء عني من حجتي؟ فقال: «**عمرة في رمضان تجزىء عن حجة**» ذكره أبو داود.

وسأله ﷺ رجل فقال: إني أكرى في هذه الوجه، وكان الناس يقولون: ليس لك حج، فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه حتى نزلت هذه الآية: ﴿**لَيْسَ عَلَيكُم جُنـاحٌ أن تبتغُوا فضلاً من رَبكُمُ**﴾. [البقرة:١٩٨]. فأرسل إليه رسول الله وقرأها عليه، وقال: «**لَكَ حج**» ذكره أبو داود.

وسئل ﷺ: أي الحج أفضل؟ قال: «**العَجُّ والثَّج**» فقيل: ما الحاج؟ قال: «**الشَّعِث التفِل**» قال: ما السبيل؟ قال: «**الزاد والراحلة**» ذكره الشافعي.

وسئل ﷺ عن العُمرة، أواجبة هي؟ فقال: «**لا، وأن تعمر فهو أفضل**» قال الترمذي: صحيح.

وعند أحمد: أن أعرابيًا قال: يا رسول الله أخبرني عن العمرة أواجبة هي؟ فقال: «**لا، وأن تعتمروا خير لكم**».

وسأله ﷺ رجل فقال: إن أبي أدركه الإسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع ركوب الرحل، والحج مكتوب علينا. أفأحج عنه؟ قال: «**أنت أكبر ولده؟**» قال: نعم. قال: «**أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه كان ذلك يجزيء عنه؟**» قال: نعم. قال: «**فحُج عنه**» ذكره أحمد.

[(١)]**وأما** المفصل: فهو الذي نحن بصدده، فإنا التزمنا أن الفسخ على وفق القياس، فلابد من الوفاء بهذا الالتزام.

وعلى هذا: فالوجه الأول جوابه: بأن التمتع ـ وإن تخلله التحلل ـ فهو أفضل من الإفراد الذي لا حل فيه، لأمر النبي، ﷺ، من لا هدي معه بالإحرام به، ولأمره أصحابه بفسخ الحج إليه، ولتمنيه أنه كان أحرم به؛ ولأنه النسك المنصوص عليه في كتاب الله. ولأن الأمة أجمعت على جوازه، بل على استحبابه، واختلفوا في غيره على قولين، فإن النبي، ﷺ، غضب حين أمرهم بالفسخ إليه بعد الإحرام بالحج فتوقفوا. **ولأنه من المحال قطعًا** أن يكون حجةٌ قط أفضل من حجة خير القرون. وأفضل العالمين مع نبيهم ﷺ. وقد أمرهم كلهم بأن يجعلوها متعة إلا

---

(١) ٤٥١ زاد المعاد

من ساق الهدي. فمن المحال أن يكون غير هذا الحج أفضل منه إلا حج من قرن وساق الهدي. كما اختاره الله سبحانه لنبيه. فهذا هو الذي اختاره الله لنبيه. واختار لأصحابه التمتع. فأي حج أفضل من هذين؟

ولأنه من المحال: أن ينقلهم من النسك الفاضل إلى المفضول المرجوح.

ولوجوه أخر كثيرة. ليس هذا موضعها. فرجحان هذا النسك أفضل من البقاء على الإحرام الذي يفوته بالفسخ. وقد تبين بهذا بطلان الوجه الثاني.

وأما قولكم: إنه نسك مجبور بالهدي. فكلام باطل من وجوه.

أحدها: أن الهدي في التمتع عبادة مقصودة. وهو من تمام النسك. وهو دم شكران لا دم جبران. وهو بمنزلة **الأضحية** للمقيم. وهو من تمام عبادة هذا اليوم. فالنسك المشتمل على الدم بمنزلة العيد المشتمل على الأضحية. فإنه ما تُقُرِّب إلى الله في ذلك اليوم بمثل إراقة دم سائل.

وقد روى الترمذي وغيره من حديث أبي بكر الصديق «أن النبي ﷺ سئل: أي **الأعمال أفضل؟ فقال: «العجُّ والثجّ»** والعج: رفع الصوت بالتلبية. والثجُّ: إراقة دم الهدى. فإن قيل: يمكن المفرد أن يحصل هذه الفضيلة.

قيل: مشروعيتها إنما جاءت في حق القارن والمتمتع. وعلى تقدير استحبابها في حقه: فأين ثوابها من ثواب **هدي** المتمتع والقارن؟

الوجه الثاني: أنه لو كان دم جبران لما جاز الأكل منه. **وقد ثبت** عن النبي ﷺ: أنه أكل من هديه. فإنه «أمر من كل بدنه ببضعة. فجعلت في قدر، فأكل من لحمها. وشرب من مرقها» وإن كان الواجب عليه سُبع بدنة. فإنه أكل من كل بدنة من المائة. والواجب فيها مشاع لم يتعين بقسمة.

وأيضا فإنه قد ثبت في الصحيحين: «أنه أطعم نساءه من الهدي الذي ذبحه عنهن. وكن متمتعات» احتج به الإمام أحمد. فثبت في الصحيحين عن عائشة «أنه أهدى عن نسائه. ثم أرسل إليهن من الهدي الذي ذبحه عنهن».

وأيضا، فإنه الله سبحانه وتعالى قال فيما يذبح بمنى من الهدي ﴿فَكُلُوا مِنها وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفقيرِ﴾ وهذا يتناول **هدي** التمتع والقرآن قطعا، إن لم يخص به. فإن المشروع هناك ذبح **هدي** المتعة والقرآن. ومن ههنا ـ والله أعلم ـ أمر النبي ﷺ، من كل بدنة ببضعة. فجعلت في قدر، امتثالاً لأمر ربه بالأكل، ليعم

به جميع هديه.

الوجه الثالث: أن سبب الجبران محظور في الأصل؛ فلا يجوز الإقدام عليه إلا لعذر، فإنه إما ترك واجب، أو فعل محظور، والتمتع مأمور به: إما أمر إيجاب عند طائفة، كابن عباس وغيره، أو أمر استحباب عند الأكثرين. فلو كان دمه دم جبران: لم يجز الإقدام على سببه بغير عذر. فبطل قولهم: إنه دم جبران. وعلم أنه دم نسك. وهذا وسع الله به على عباده، وأباح لهم بسببه التحلل في أثناء الإحرام، لما في استمرار الإحرام عليهم من المشقة. فهو بمنزلة القصر والفطر في السفر، وبمنزلة المسح على الخفين. وكان من هدي النبي ﷺ وهدى أصحابه فعل هذا وهذا، والله تعالى يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته، فمحبته لأخذ العبد بما يسَّره عليه وسهله له، مثل كراهته منه لارتكابه ما حرمه عليه، ومنعه منه. والهدي - وإن كان بدلاً عن ترفهه بسقوط أحد السفرين - فهو أفضل لمن قدم في أشهر الحج من أن يأتي بحج مفرد، ويعتمر عقيبه. والبدل قد يكون واجبا، كالجمعة عند من جعلها بدلا، وكالتيمم للعاجز عن استعمال الماء، فإنه واجب عليه وهو بدل. فإذا كان البدل قد يكون واجبا فكونه مستحبا أولى بالجواز. وتخلل التحلل لا يمنع أن يكون الجميع عبادة واحدة كطواف الإفاضة، فإنه ركن بالاتفاق، ولا يفعل إلا بعد التحلل الأول. وكذلك رمى الجمار أيام منى، وهو يفعل بعد الحل التام، وصوم رمضان يتخلله الفطر في لياليه، ولا يمنع ذلك أن يكون عبادة واحدة. ولهذا قال مالك وغيره: إنه يجزىء بنية واحدة للشهر كله، لأنه عبادة واحدة، والله أعلم.

(١)**وأفتى** ﷺ أصحابه بجواز فَسْخهم الحج إلى العمرة، ثم أفتاهم باستحبابه، ثم أفتاهم بفعله حتمًا، ولم ينسخه شيء بعده، وهو الذي نَدينُ الله به أن القول بوجوبه أقوى وأصح من القول بالمنع منه.

وقد صح عنه صحة لا شك فيها أنه قال: «**مَنْ لم يكن أهدى فليهلَّ بعمرة، ومن كان أهدى فليهل بحج مع عمرة**».

وأما ما فعله هو فإنه صح عنه أنه قَرَنَ بين الحج والعمرة من بضعة وعشرين وجهًا، رواه عنه ستة عشر نفسًا من أصحابه، ففعَل القِران، وأمر بفعله مَنْ ساق

(١) ٣٠٣ أعلام جـ٤.

الهدى، وأمر بفسخه إلى التمتع من لم يَسُقِ الهدى، وهذا من فعله وقوله كأنه رأى عين، وبالله التوفيق.

(١) **ويوضح** ذلك إيضاحًا بينًا ما روى مسلم في صحيحه، من حديث الزهري، عن عروة، عنها، قالت: «خرجنا مع رسول ﷺ في حجة الوداع فحضت، فلم أزل حائضًا حتى كان يوم عرفة، ولم أهل إلا بعمرة، فأمرني رسول الله ﷺ: أن أنقض رأسي، وأمتشط وأهل بالحج، وأترك العمرة، قالت: ففعلت ذلك، حتى إذا قضيت حجي بعث معي رسول الله ﷺ عبدالرحمن بن أبي بكر، وأمرني أن أعتمر من التنعيم، مكان عمرتي التي أدركني الحج ولم أحل منها».

فهذا حديث في غاية الصحة والصراحة: أنها لم تكن أحلت من عمرتها، وأنها بقيت محرمة بها؛ حتى أدخلت عليها الحج. فهذا خبرها عن نفسها، وذلك قول رسول الله ﷺ لها، كل منهما يوافق الآخر. وبالله التوفيق.

وفي قوله ﷺ: **«العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»** دليل على التفريق بين الحج والعمرة في التكرار، وتنبيه على ذلك؛ إذ لو كانت العمر كالحج لا تفعل في السنة إلا مرة؛ لسوّى بينهما ولم يفرق.

وروى الشافعي: عن علي رضي الله عنه أنه قال: «اعتمر في كل شهر مرة».

وروى وكيع: عن إسرائيل، عن سويد بن أبي ناجية، عن أبي جعفر، قال: قال لي علي: «اعتمر في الشهر - إن أطقت - مرارًا» وذكر سعيد بن منصور: عن سفيان بن أبي حسين، عن بعض ولد أنس؛ «أن أنسًا كان إذا كان بمكة فجمم رأسه: خرج إلى التنعيم فاعتمر».

(٢) **وكان** يدور بيني وبين المكيين كلام في الاعتمار من مكة في رمضان وغيره، فأقول لهم: كثرة الطواف أفضل منها، فيذكرون قوله ﷺ: **«عمرة في رمضان تعدل حجة»**، فقلت لهم في أثناء ذلك: محال أن يكون مراد صاحب الشرع: العمرة التي يخرج إليها من مكة إلى أدنى الحل، وأنها تعدل حجة، ثم لا يفعلها هو مدة مقامة بمكة أصلاً، لا قبل الفتح ولا بعده، ولا أحد من أصحابه، مع

---

(١) ٣٦٤ زاد المعاد جـ١.

(٢) ٢٨٨ تهذيب السنن جـ٢.

أنهم كانوا أحرص الأمة على الخير، وأعلمهم بمراد الرسول، وأقدرهم على العمل به. ثم مع ذلك يرغبون عن هذا العمل اليسير والأجر العظيم؟ يقدر أن يحج أحدهم في رمضان ثلاثين حجة أو أكثر، ثم لا يأتي منها بحجة واحدة، وتختصون أنتم عنهم بهذا الفضل والثواب؛ حتى يحصل لأحدكم ستون حجة أو أكثر؟ هذا مالا يظنه من له مسكة عقل. وإنما خرج كلام النبي ﷺ على العمرة المعتادة، التي فعلها هو وأصحابه، وهي التي أنشؤوا السفر لها من أوطانهم، وبها أمر أم معقل، وقال لها: «**عمرة في رمضان تعدل حجة**» ولم يقل لأهل مكة: اخرجوا إلى أدنى الحل فأكثروا من الاعتمار، فإن عمرة في رمضان تعدل حجة. ولا فهم هذا أحد منهم. وبالله التوفيق.

...(1)**ثبت** في الصحيحين: «أن رسول الله ﷺ قدم تلك الليلة ضعفة أهله، وكان ابن عباس فيمن قدم» وثبت: «أنه قدم سودة»، وثبت: «أنه حبس نساءه عنده؛ حتى دفعن بدفعه» وحديث أم حبيبة انفرد به مسلم. فإن كان محفوظًا، فهي إذًا من الضعفة التي قدمها.

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه الإمام أحمد، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ بعث به مع أهله إلى منى يوم النحر، فرموا الجمرة مع الفجر»

قيل: نُقَدم عليه حديثه الآخر، الذي رواه أيضًا الإمام أحمد، والترمذي وصححه: «أن النبي ﷺ قدم ضَعَفة أهله، وقال: «**لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس**» ولفظ أحمد فيه: قدمنا رسول الله ﷺ: أغَيْلِمةَ بني عبدالمطلب، عَلَى حُمُراتٍ لنا من جمع(2). فجعل يَلْطَحُ أفخاذنا(3) ويقول: «**أي بُنَيَّ، لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس**» لأنه أصح منه، وفيه: نهى النبيُّ، ﷺ، عن رمي الجمرة قبل طلوع الشمس. وهو محفوظ بذكر القصة فيه، والحديث الآخر إنما فيه: أنهم رموها مع الفجر.

ثم تأملنا. فإذا أنه لا تعارض بين هذه الأحاديث، فإنه أمر الصبيان أن لا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس، فإنه لا عذر لهم في تقديم الرمي. أما من قدمه من

---

(1) ٤٧١ زاد المعاد جـ١.

(2) جمع صحة لحمر، وحمر: جمع حمار.

(3) اللطح ـ بإسكان الطاء، وبالحاء المهملة ـ الضرب الخفيف بالكف كأنه للمداعبة والملاطفة.

النسـاء؛ فرمين قبل طلوع الشمس : للعذر، والخوف عليهن من مزاحمة الناس وحَـطْمهم. وهـذا الـذي دلت عليه السنة؛ جواز الرمي قبل طلوع الشمس، للعذر: بمرض، أو كبر يشق معه مزاحمة الناس لأجله، وأما القادر الصحيح ؛ فلا يجوز له ذلك.

وفي المسألة ثلاثة مذاهب:

أحدها: الجواز بعد نصف الليل مطلقًا للقادر والعاجز. كقول الشافعي وأحمد.

الثاني: لا يجوز إلا بعد طلوع الفجر، كقول أبي حنيفة.

الثالث: لا يجوز لأهل القدرة إلا بعد طلوع الشمس، كقول جماعة من أهل العلم.

والذي دلت عليه السنة؛ إنما هو التعجيل بعد غيبوبة القمر، لا نصف الليل. وليس مع من حَدَّهُ بالنصف دليل. والله أعلم.

فصل

فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت ـ لا قبله قطعًا ـ بأذان وإقامة، يوم النحر، وهو يوم العيد، وهو يوم الحج الأكبر، وهو يوم الأذان ببراءة الله ورسوله من كل مشرك.

ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشْعَر الحرام. فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والتضرع، والتكبير والتهليل، والذكر حتى أسفر جدًّا، وذلك قبل طلوع الشمس. وهنالك سأله عُروة بن مُضرِّس الطائي، فقال: يا رسول الله، إني جئت من جَبَلَيْ طَيِّء، أكْلَلْتُ راحلتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جَبَل إلا وقفت عليه. فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من شهد صلاتنا هذه ووقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهارًا: تَمّ حَجه. وقضى تَفَثَه**» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وبهذا احتج من ذهب إلى أن الوقوف بمزدلفة والمبيت بها: ركن كعرفة وهو مذهب اثنين من الصحابة: ابن عباس. وابن الزبير. وإليه ذهب إبراهيم النخعي، والشعبي وعلقمة والحسن البصري. وهو مذهب الأوزاعي، وحماد بن أبي سليمان، وداود بن علي الظاهري. وأبي عبيد القاسم بن سَلَّام. واختاره المحمدان: ابن جرير، وابن خزيمة. وهو أحد الوجوه للشافعية. ولهم ثلاث حجج، هذه إحداها.

والثانية: قوله تعالى: ﴿**فَاذكروُا الله عند المَشعَرِ الحَرَام**﴾. [البقرة: ١٩٨].

والثالثة: فعل رسول الله ﷺ الذي خرج مخرج البيان لهذا الذكر المأمور به.

واحتج من لم يره ركنًا بأمرين:

أحدهما: أن النبي ﷺ مَدَّ وقت الوقوف بعرفة إلى طلوع الفجر. وهذا يقتضي أن من وقف بعرفة قبل طلوع الفجر بأيسر زمان؛ صح حجه. ولو كان الوقوف بمزدلفة ركنًا؛ لم يصح حجه..

(١)**أرباب** العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا؛ عقيب الطاعات؛

---

(١) ١٧٥ مدارج جـ١.

لشهودهم: تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات. وهو أجل المواقف وأفضلها. فقال: ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُم مِنْ عَرفاتٍ فاذكروا الله عندَ المشعَرِ الحَرَام. وَاذْكُروهُ كما هَدَاكُم. وَإنْ كُنتُم مِنْ قبلهِ لمِن الضَّآلينَ. ثُم أفيضُوا مِنْ حيثُ أفاضَ النَّاسُ. واستغفروا الله، إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ**﴾. [البقرة: ١٩٨، ١٩٩]. وقال تعالى: ﴿**وَالمستغفرينَ بالأَسْحَارِ**﴾. [آل عمران: ١٧].

قال الحسن: مدوّا الصلاة إلى السحر. ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل.

وفي الصحيح: أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا. ثم قال: «**اللهم أنت السلام. ومنك السلام. تباركت ياذا الجلال والإكرام**».

وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله. فقال في آخر سورة أنزلت عليه: ﴿**إذَا جَاءَ نَصرُ الله والفتحُ. وَرَأيتَ النَّاسَ يَدْخُلونَ في دين الله أفواجًا* فَسَبحْ بحمد رَبِّكَ واستغفرهُ إنَّه كانَ توابًا**﴾. [النصر: ١-٣].

فصل[1]

ونحر رسول الله ﷺ بمنحره بمنى، وأعلمهم: أن منى كلها منحر، وأن فجاج مكة طريق ومنحر. وفي هذا دليل على أن النحر لا يختص بمنى، بل حيث نحر من فجاج مكة أجزأه، كما أنه لما وقف بعرفة قال: «**وقفت ههنا، وعرفة كلها موقف**» ووقف بمزدلفة وقال: «**وقفت ههنا، ومزدلفة كلها موقف**».

وسئل ﷺ أن يُبنى له بمنى بناء يظله من الحر؟ فقال: «**لا، مِنى مَناخ لمن سبق إليه**». وفي هذا دليل على اشتراك المسلمين فيها، وأن من سبق إلى مكان منها فهو أحق به، حتى يرتحل عنه، ولا يملكه بذلك.

[2]**قال** تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أمَّةً واحدةً فَبعثَ الله النَّبيِّينَ مُبَشرينَ ومُنذرينَ وأنزل معهُمُ الكتابَ بالحقِّ ليَحْكُمَ بين النَّاس فيما اختلفُوا فيهِ**﴾. [البقرة: ٢١٣].

---

(١) ٤٨١ زاد المعاد جـ١.

(٢) ٢٠٣ إغاثة جـ٢.

قال سعيد: عن قتادة: «ذُكر لنا: أنه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الهدى، وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله عز وجل نوحًا، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، وبعث عند الاختلاف بين الناس وترك الحق».

وقال ابن عباس: «كان الناسُ أمةً واحدة: كانوا على الإسلام كلهم».

وهذا هو القول الصحيح في الآية.

وقد روى عطية: عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا أمة واحدة، كانوا كفاراً».

وهذا قول الحسن وعطاء، قالا: «كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح عليهما السلام أمةً واحدة، على ملَّةٍ واحدة، وهي الكفر، كانوا كفارًا كلهم أمثال البهائم، فبعث الله نوحًا وإبراهيم والنبيين».

وهذا القول ضعيف جدًّا، وهو منقطع عن ابن عباس، والصحيح عنه خلافه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة: حدثنا شَيبان بن فَرُّوخ: حدثنا هَمَّامُ: حدثنا قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «كانوا على الإسلام كلهم».

وهذا هو الصواب قطعًا، فإن قراءة أبيٍّ بن كعب: «فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين».

ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً واحدةً فَاختلفُوا﴾. [يونس: ١٩].

والمقصود: أن العدوّ كادهم وتلاعبَ بهم حتى انقسَموا قسمين: كفارًا ومؤمنين، فكادهم بعبادة الأصنام، وإنكار البعث ...(١)

(٢)**قوله** تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيكُم القتالُ وهُوَ كُرهٌ لكم، وعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وهــو خَيرٌ لكُم، وعَسَى أن تُحبُّــوا شيئًــا وهــوَ شرٌّ لكُم، والله يعلَمُ وأنتُم لا تعلمُون﴾. [البقرة: ٢١٦].

---

(١) اختصرنا قرابة كراسة حول بدء عبادة الأوثان: أسبابها وأماكنها، فمن أراده فليرجع إليه اهـ.ج.

(٢) ٩٠ فوائـــد.

وقوله عز وجل: ﴿**فَإنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أن تكرهُوا شيئًا ويَجْعَلَ الله فيه خَيراً كثيراً**﴾. [النساء: ١٩].

فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية.

والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية.

فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمتاركة، وهذا المحبوب شر له في معاشه ومعـاده. وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويحب المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها شر كثير لا يعرفه.

فالانسان كما وصفه به خالقه: ظلوم جهول، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه.

فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه، وأضر الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصًا له، فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيراً له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له.

فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته، علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبـه، والمحن التي تنـزل به، فيهـا ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب. . .

(١)**قوله** تعالى: ﴿**وَعَسَى أن تكرهوا شيئًا وهوَ خيرٌ لكم. وعَسَى أن تُحبُّوا شيئًا وهو شرٌّ لكم. والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون**﴾. [البقرة: ٢١٦].

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذ علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب. فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد، أوجب له ذلك أمورًا:

---

(١) ١٣٥ فوائـد.

منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع.

وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه، لأن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب.

وخاصة العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبه من الألم العظيم والشر الطويل. فنظر الجاهل لا يجاوز المبادىء إلى غاياتها.

والعاقل الكيس دائمًا ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها.

فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة، فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم، ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله، أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق، لما يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر، تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره، هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه ـ وهو لا يعلم ـ فلا يختار على ربه شيئًا، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ر به ورضي بما يختاره له أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات؛ التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى.

ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو

محمود مشكور، ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم، غير ملطوف به فيه، لأنه مع اختياره لنفسه.

ومتى صح تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره. إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيله في رده، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر؛ طريحًا كالميتة، فإن السبع لا يرضى بأكل الجيف.

قاعدة(1)

إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن:

فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه؛ فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجلّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضًا، وللوقوف على أبواب غيره متعرضًا. وكانت البلية في حق هذا عين النعمة، وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببًا ما مثله سبب، وقوله تعالى في ذلك هو الشفاء والعصمة:

﴿وَعَسَى أن تكرَهُوا شيئًا وهُوَ خيرٌ لكمْ، وَعَسى أن تُحبُّوا شيئًا وهُوَ شرٌّ لكمْ، واللهُ يعلمُ وأنتمْ لاَ تَعلمُونَ﴾. [البقرة:٢١٦].

وإن لم يردَّه ذلك البلاء إليه، بل شرد قلبه عنه ورده إلى الخلق وأنساه ذكر ربه والضراعة إليه والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه؛ فهو علامة شقاوته وإرادة الشر به، فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلى حكم طبيعته وسلطان شهوته ومرحه وفرحه، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الأشر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء، كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء، فبلية هذا وبال عليه وعقوبة ونقص في حقه، وبلية الأول تطهير له ورحمة وتكميل. وبالله التوفيق.

---

(١) ١٦٣ طريق الهجرتين.

فصل(١)

المحبوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبوب لغيره، ولابد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه دفعًا للتسلسل المحال، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره، وليس شيء يُحَبُّ لنفسه إلا الله وحده، وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه فإنها تبع لمحبة الله سبحانه. وهي من لوازم محبته، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه.

وهذا موضع يجب الاعتناء به فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة والتي لا تنفع؛ بل قد تضر.

واعلم أنه لا يحب لذاته إلا من كماله من لوازم ذاته، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته، وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها، وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها: فما كان أشد منافاة لمحابه، كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها. فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته.

فإذا رأينا شخصًا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه؛ علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك.

وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثر عنده، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه؛ علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك.

فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك في نفسك وفي غيرك، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة.

والمحبوب لغيره قسمان أيضًا: أحدهما ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله.

والثاني ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه إلى المحبوب، كشرب الدواء، قال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيكُم القتالُ وَهُو كُرهٌ لكُمْ وَعَسَى أن تكرهُوا شَيئًا وهوَ خيرٌ لكم وعسَىَ أن تحبوا شيئًا وهو شرٌّ لكُم والله يعلمُ وأنتم لا تعلمونَ**﴾. [البقرة: ٢١٦].

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم؛ لإفضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه، والنفوس تحب الراحة والفراغ والرفاهية، وذلك شر لها؛ لإفضائه إلى فوات هذا المحبوب.

---

(١) ٢٦١ الجواب الكافي.

فالعاقل لا ينظر الى لذة المحبوب العاجلة فيؤثرها وألم المكروه العاجل فيرغب عنه؛ فإن ذلك قد يكون شرًا له، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبها من اللذة بعدها وإن كانت منقطعة، فالأمور أربعة: مكروه يوصل إلى مكروه، ومكروه يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى مكروه.

فالمحبوب الموصل إلى المحبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين، والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين.

بقي القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان. فالنفس تؤثر أقربهما جوارًا منها وهو العاجل، والعقل والإيمان يؤثران أنفعهما وأبقاهما، والقلب بين الداعيين وهو إلى هذا مرة. وإلى هذا مرة وههنا محل الابتلاء شرعًا وقدرًا. . .

...(1)**الفائدة** الثانية: يجوز للمفتي أن يَعْدِل عن جواب المستفتي عما سأله عنه إلى ما هو أنفع له منه، ولا سيما إذا تضمن ذلك بيان ما سأل عنه، وذلك من كمال علم المفتي وفقهه ونصحه، وقد قال تعالى: **﴿يَسْئلُونَكَ مَاذَا يُنفقُونَ، قُلْ: مَا أَنْفَقْتم مِنْ خير فللوالدين والأقربينَ واليَتَامَى والمسَاكين وابن السبيلِ، وَمَا تَفعلُوا مِنْ خيرٍ فَإنَ اللهَ به عليمٌ﴾**. [البقرة: ٢١٥]. فسألوه عن المُنْفَقِ فأجابهم بذكر المَصْرِف؛ إذ هو أهمُّ مما سألوه عنه، ونبههم عليه بالسياق، مع ذكره لهم في موضع آخر.

وهو قوله تعالى: **﴿قُلِ العَفو﴾**. [البقرة: ٢١٩]. وهو ما سهل عليهم إنفاقه ولا يضرهم إخراجه.

وقد ظن بعضهم أن من ذلك قوله تعالى: **﴿يَسْئلونَكَ عَنِ الأهِلَّة، قُل: هِيَ مَواقيتُ لِلَّناسِ وَالحج﴾**. [البقرة: ١٨٩]. فسألوه عن سبب ظُهور الهلال خفيًّا ثم لا يزال يتزايد فيه النور على التدريج حتى يكمل ثم يأخذ في النقصان، فأجابهم عن حكمة ذلك من ظهور مواقيت الناس التي بها تمامُ مصالحهم في أحوالهم ومَعَاشهم ومواقيت أكبر عباداتهم وهو الحج، وإن كانوا قد سألوا عن السبب فقد أجيبوا بما

---

(١) ١٥٨ أعلام جـ٤.

هو أنفع لهم مما سألوا عنه، وإن كانوا إنما سألوا عن حكمة ذلك فقد أجيبوا عن عين ماسألوا عنه. ولفظ سؤالهم محتمل؛ فإنهم قالوا: ما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يأخذ في الزيادة حتى يتم ثم يأخذ في النقص؟

فصل[1]

ثم بعث عبدالله بن جحش الأسدي إلى نخلة في رجب على رأس سبعة عشر شهرًا من الهجرة، في اثنى عشر رجلاً من المهاجرين. كل اثنين يعتقبان على بعير. فوصلوا إلى بطن نخلة، يرصدون عيرًا لقريش. وفي هذه السرية سمى عبدالله بن جحش أمير المؤمنين. وكان رسول الله ﷺ كتب له كتابًا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فلما فتح الكتاب وجد فيه: «**إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل بنخلة، بين مكة والطائف، فترصد بها قريشًا، وتعلم لنا من أخبارهم**» فقال: سمعًا وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك وبأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فمضوا كلهم. فلما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غَزْوان بعيرًا لهما، كانا يعتقبانه، فتخلفا في طلبه، وبعُدَ عبدالله بن جحش حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبدالله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة. فتشاور المسلمون، وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم. ثم اجتمعوا على ملاقاتهم، فرمى أحدُهم عمرو بن الحضرمي فقتله. وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل. ثم قدموا بالعير والأسيرين، وقد عزلوا من ذلك الخمس. وهو أول خُمس كان في الإسلام، وأول قتيل في الإسلام. وأنكر رسول الله ﷺ عليهم ما فعلوه. واشتد تعنت قريش وإنكارهم ذلك، وزعموا أنهم قد وجدوا مقالاً، فقالوا: قد أحل محمد الشهر الحرام. واشتد ذلك على المسلمين، حتى أنزل الله تعالى: ﴿**يَسْئلونَكَ عَنِ الشَّهرِ الحرامِ: قتالٍ فيه؟ قُل: قِتالٌ فيهِ كَبيرٌ، وَصدٌ عَنْ سَبيلِ الله، وَكُفرٌ بِهِ، وَالمسجدِ الحرامِ، وإخراجُ أهلِهِ منه: أكبر عند الله، والفتنةُ أكبرُ من القتلِ**﴾. [البقرة: ٢١٧].

(١) ٢١٣ زاد المعاد جـ٢.

يقول سبحانه: هذا الذي أنكرتموه عليهم - وإن كان كبيراً - فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله والصدِّ عن سبيله وعن بيته، وإخراج المسلمين - الذين هم أهله - منه، والشرك الذي أنتم عليه، والفتنة التي حصلت منكم به؛ أكبرُ عند الله من قتالهم في الشهر الحرام.

وأكثر السلف فسروا الفتنة هنا بالشرك، كقوله تعالى: **﴿وَقَاتِلُوهم حتَّى لا تكوُن فتنةٌ﴾**. [البقرة: ١٩٣]. ويدل عليه قوله: **﴿ثُمَّ لم تكن فِتنتُهم إلاَّ أن قالوا: والله رَبِّنا ما كُنا مُشركينَ﴾**. [الأنعام: ٢٣]. أي: لم يكن مآل شركهم وعاقبته، وآخر أمرهم؛ إلا أن تبرءوا منه وأنكروه.

وحقيقتها: أنها الشرك الذي يدعو صاحبه إليه ويقاتل عليه، ويعاقب من لم يفتتن به. ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها: **﴿ذُوقُوا فِتنتكُم﴾**. [الذاريات: ١٤]. قال ابن عباس: «تكذيبكم» وحقيقته: ذوقوا نهاية فتنتكم وغايتها، ومرَّ مَصيرِ أمرها، كقوله: **﴿ذُوقوا مَا كُنتم تكسبُونَ﴾**. [الزمر: ٢٤]. وكما فتنوا عباده على الشرك فتنوا على النار. وقيل لهم: **﴿ذوقوا فتنتكم﴾** ومنه قوله تعالى: **﴿إنَّ الَّذين فَتنُوا المُؤمِنِينَ والمؤُمنات ثُمَّ لم يَتوبُوا﴾**. [البروج: ١٠]. فُسرت الفتنة هاهنا بتعذيبهم المؤمنين، وإحراقهم إياهم بالنار(١). واللفظ أعم من ذلك. وحقيقته: عذبوا المؤمنين ليفتتنوهم عن دينهم. فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين.

وأما الفتنة التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه، أو يضيفها رسوله إليه، كقوله: **﴿وكَذلِكَ فَتَنَّا بعضهم ببعض﴾**[الأنعام: ٥٣]. وقول موسى: **﴿إن هي إلاَّ فِتنتُك تُضِلُّ بهَا مَن تَشاءُ، وتَهدي مَن تَشاءُ﴾**. [الأعراف: ١٥٥]. فتلك بمعنى آخر، وهي بمعنى الامتحان والاختبار والابتلاء من الله لعباده: بالخير والشر، بالنعم والمصائب، فهذه لون وفتنة المشركين لون، وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون آخر.

والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام - كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب علي ومعاوية، وبين أهل الجمل وصِفّين، وبين المسلمين، حتى يتقاتلوا ويتهاجروا -

---

(١) أصل الفتنة في اللغة: الامتحان والاختبار. ومن ذلك: الفتان، وهو المبرد ونحوه من آلة ونحوه يختبر بها الذهب وغيره من المعادن ليعلم صفاؤه، ومافيه من مادة أخرى غيره.

لون آخر، وهي الفتنة التي قال النبي ﷺ فيها: «**ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي**».

وأحاديث الفتنة التي أمر رسول الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين: هي هذه الفتنة.

وقد تأتي الفتنة مرادًا بها المعصية، كقوله تعالى: ﴿**وَمِنهُم مَن يقولُ: ائذَن لي ولا تَفْتِنِي**﴾. [التوبة: ٤٩]. يقوله الجَدُّ بن قيس، لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك، يقول: ائذن لي في القعود، ولا تفتنى بتعريضي لبنات بني الأصفر، فإني لا أصبر عنهن. قال تعالى: ﴿**ألا في الفِتْنَةِ سَقَطُوا**﴾. [التوبة: ٤٩]. أي وقعوا في فتنة النفاق، وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر.

والمقصود: أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، ولم يبرىء أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام. بل أخبر أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام. فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة، ولاسيما وأولياؤه كانوا متأولين في قتالهم ذلك، أو مُقصِّرين نوعَ تقصيرٍ، يغفره الله لهم في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات، والهجرة مع رسوله ﷺ وإيثار ما عند الله. فهم كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ		جاءتْ محاسِنُه بألف شفيع

فكيف يقاس ببغيض عدوٍّ جاء بكل قبيح، ولم يأت بشفيع واحد من المحاسن؟.

فصل(1)

في حكمه ﷺ في أول غنيمة كانت في الإسلام وأول قتيل.

لما بعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش، ومعه سرية إلى نخلة ترصد عيراً لقريش، وأعطاه كتابًا مختومًا، وأمره: أن لا يقرأه إلا بعد يومين. فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان بن عبدالله، والحكم بن كيسان، وكان ذلك في الشهر الحرام. فعنفهم المشركون، ووقف رسول الله ﷺ الغنيمة والأسيرين، حتى أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿**يسئلونك عن الشَّهرِ الحرَامِ: قِتالٍ فيه؟ قُلْ: قِتالٌ فيهِ كَبيرٌ، وَصَدٌّ عَن سَبيل الله وَكُفْرٌ بِهِ والمسجدِ الحرامِ، وإخرَاجُ أهلهِ منهُ أكبرُ عندَ**

(1) ٤٥٥ زاد المعاد جـ٣.

الله﴾. [البقرة:٢١٧]. فأخذ رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فدائهما. فقال: «**لا، حتى يقدَمَ صاحبانا** ـ يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ـ **فإنا نخشاكم عليهما. فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم**». فلما قدما فاداهما رسول الله ﷺ بعثمان والحكم، وقسم الغنيمة.

وذكر ابن وهب: «أن النبي ﷺ رد الغنيمة وودى القتيل» والمعروف في السِّيَر خلاف هذا....

فصــل (١)
في فقه هذه القصة

ففيها: جواز القتال في الشهر الحرام؛ إن كان ذِكْر التاريخ فيها برجب محفوظًا، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه وهم غير محفوظ؛ إذْ لم يحفظ عن النبي ﷺ، أنه غزا في الشهر الحرام، ولا أغَارَ فيه، ولا بعث فيه سرية. وقد عَيَّرَ المشركون المسلمين بقتالهم في أول رجب في قصة العلاء بن الحضرمي، فقالوا: استحل محمد الشهر الحرام، وأنزل الله في ذلك: ﴿**يسئلونَك عَن الشَّهْر الحَرَام: قِتال فيهِ؟ قُل: قِتالٌ فيه كبيرٌ**﴾ الآية. [البقرة:٢١٧]. ولم يثبت نسخ هذا بنصٍّ يجب المصير إليه، ولا أجمعت الأمة على نسخه. وقد استدل على تحريم القتال في الأشهر الحُرُم بقوله تعالى: ﴿**فإذا انْسَلَخ الأشهُرُ الحُرُم فاقتلوا المُشركين حيثُ وجدتموهم**﴾. [التوبة: ٥].

ولا حجة في هذا، لأن الأشهر الحرم هاهنا هي أشهر التسيير التي سيَّر الله فيها المشركين في الأرض يأمنون فيها. وكان أولها: يوم الحج الأكبر، عاشر ذي الحجة، وآخرها: عاشر ربيع الآخر. هذا هو الصحيح في الآية، لوجُوه عديدة ليس هذا موضعها.

وفيها: جواز أكل ورق الشجر عند المخمَصَة، وكذلك عشب الأرض.

وفيها: جواز نهى الإمام وأمير الجيش للغزاة عن نَحْر ظُهورهم، وإن احتاجوا إليه، خَشْيَة أن يحتاجوا إلى ظهرهم عند لقاء عدوهم. ويجب عليهم الطاعة إذا نهاهم.

(٢)**قوله** تعالى: ﴿**يَسْئلُونك عَنِ الشَّهرِ الحَرَام قَتالٍ فيه**﴾. [البقرة:٢١٧]. من

---

(١) ٣٨١ زاد المعاد جـ٢.
(٢) ٤٧ بدائع جـ٢.

باب بدل الاشتمال. . والسؤال إنما وقع عن القتال فيه، فَلِمَ قدم الشهر؟ وقد قلتم إنهم يقدمون ما هم ببيانه أهم وهم به أعنى.

قيل: السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر وتشنيع أعدائهم عليهم وانتهاك حرمته، فكان اعتناؤهم واهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال، فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر؛ فلذلك قدم في الذكر وكان تقديمه مطابقًا لما ذكرنا من القاعدة.

فإن قيل: فما الفائدة في إعادة ذكر القتال بلفظ الظاهر وهلا اكتفى بضميره فقال: قل هو كبير؟ وأنت إذا قلت: سألته عن زيد: أهو في الدار؟ كان أوجز من أن تقول: أزيد في الدار؟.

قيل في إعادته بلفظ الظاهر نكتة بديعة، وهي تعلق الحكم الخبري باسم القتال فيه عمومًا، ولو أتى بالمضمر وقال: هو كبير لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسئول عنه وليس الأمر كذلك، وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام.

ونظير هذه الفائدة قوله ﷺ وقد سئل عن الوضوء بماء البحر فقال: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**» فأعاد لفظ الماء ولم يقتصر على قوله: نعم توضؤوا به لئلا يتوهم اختصاص الحكم بالسائلين لضرب من ضروب الاختصاص، فعدل عن قوله: نعم توضؤوا إلى جواب عام يقتضي تعلق الحكم والطهورية بنفس مائه من حيث هو؛ فأفاد استمرار الحكم عل الدوام وتعلقه بعموم الآية، وبطل توهم قصره على السبب فتأمله فإنه بديع.

فكذلك في الآية لما قال: ﴿**قتال فيه كبير**﴾ فجعل الخبر بكبير واقعًا على قتال فيه، فيطلق الحكم به على العموم، ولفظ المضمر لا يقتضي ذلك.

وقريب من هذا قوله تعالى: ﴿**والذين يُمَسِّكُون بالكتاب وأقاموا الصَّلاةَ إنَّا لَا نضيعُ أجرَ المصلحين**﴾. [الأعراف: ١٧٠]. ولم يقل: أجرهم تعليقًا لهذا الحكم بالوصف، وهو كونهم مصلحين وليس في الضمير ما يدل على الوصف المذكور.

وقريب منه، وهو ألطف معنى، قوله تعالى: ﴿**يسئلُونَكَ عن المحيض قُلْ هو أذىً فَاعتزلوا النساءَ في المحيض**﴾. [البقرة: ٢٢٢]. ولم يقل: فيه تعليقًا لحكم الاعتزال بنفس الحيض وأنه هو سبب الاعتزال. وقال تعالى: ﴿**قُلْ هُو أذىً**﴾.

ولم يقل: الحيض؛ لأن الآية جارية على الأصل ولأنه لو كرره لثقل اللفظ لتكرره ثلاث مرات، وكان ذكره بلفظ الظاهر في الأمر بالاعتزال أحسن من ذكره مضمرًا ليفيد تعليق الحكم بكونه حيضًا بخلاف قوله: ﴿قُلْ هو أذى﴾. فإنه إخبار بالواقع والمخاطبون يعلمون أن جهة كونه أذى هو نفس كونه حيضًا، بخلاف تعليق الحكم به فإنه إنما يُعلم بالشرع. فتأمله.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**إنَّ الذين آمَنُوا والذين هَاجَرُوا وجَاهَدُوا في سَبِيْلِ الله أولئِك يَرْجُون رَحْمَة الله**﴾. [البقرة:٢١٨]. فتأمل كيف جعل رجاءهم بإتيانهم بهذه الطاعات.

وقال المغترون: إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره الباغين على عباده المتجرئين على محارمه؛ أولئك يرجون رحمة الله.

وسر المسألة أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه، ويصرف ما يعرضها للحبوط ويبطل أثرها.

فصل(٢)

ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان. والراجون رحمة الله: هم الذين قاموا بهذه الثلاثة، قال تعالى: ﴿**إنَّ الذين آمنوا والذين هَاجَرُوا وَجَاهدوا في سبيل الله، أولئك يرجون رحمة الله، والله غفورٌ رحيمٌ**﴾. [البقرة:٢١٨].

وكما أن الإيمان فرض على كل أحد، ففرض عليه هجرتان في كل وقت:

هجرة إلى الله عز وجل بالتوحيد والإخلاص، والإنابة والتوكل، والخوف والرجاء، والمحبة والتوبة.

وهجرة إلى رسوله بالمتابعة والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله: فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها: فهجرته إلى ما**

---

(١) ٤٧ الجواب الكافي.

(٢) ١٠٨ زاد المعاد جـ١.

هاجر إليه» وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه. فهذا كله فرض عين، لا ينوب فيه أحد عن أحد. وأما جهاد الكفار والمنافقين: فقد يكتفى فيه ببعض الأمّة إذا حصل منهم مقصود الجهاد.

فصل[1]

والفرق بين الرجاء والتمني:

أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز.

والتمني حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه قال تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمةَ الله**﴾. [البقرة:٢١٨]. فطوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء.

وقال المغترون: إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه واتبعوا ما أسخطه وتجنبوا ما يرضيه أولئك يرجون رحمته.

وليس هذا ببدع من غرور النفس والشيطان لهم، فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فمثل بين عينيه ما وعده الله تعالى من كرامته وجنته؛ فامتد القلب مائلاً إلى ذلك شوقًا إليه وحرصًا عليه فهو شبيه بالماد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه.

وعلامة الرجاء الصحيح: أن الراجي يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها. . .

[2]**وقد** تقدم أن الله سبحانه طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا. وقد فسر النبي ﷺ الإيمان بأنه ذو شعب وأعمال ظاهرة وباطنة.

وفسر الهجرة بأنها هَجْر ما نهى الله عنه، والجهاد بأنه جهاد النفس في ذات الله فقال: «**المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله**».

والمقصود أن الله سبحانه جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد وأخرج من سواهم من هذه الأمم.

---

(١) ٢٩٨ الروح.

(٢) ٣٠١ الروح.

وأما الأماني فإنها رءوس أموال المفاليس، أخرجوها في قالب الرجاء وتلك أمانيهم، وهي تصدر من قلب تزاحمت عليه وساوس النفس؛ فأظلم من دخانها فهو يستعمل قلبه في شهواتها، وكلما فعل ذلك منته حسن العاقبة والنجاة وأحالته على العفو والمغفرة والفضل، وأن الكريم لا يستوفي حقه ولا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، ويسمي ذلك رجاء وإنما هو وسواس وأماني باطلة تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل، فيستريح إليها. قال تعالى: **﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُم ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ولا يَجِدْ له مِن دُونِ الله وَلِيًّا ولا نَصِيراً﴾**. [النساء: ١٢٣]. فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته، ولم يجد له من دون الله وليًا ولا نصيرًا، وإذا ترك ولايته ونصرته؛ تولته نفسه والشيطان فصارا وليين له ووكل إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلاً من نصرة الله ورسوله، فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه، وبنصرته نصرة نفسه وهواه فلم يدع للرجاء موضعًا. فإذا قالت لك النفس: أنا في مقام الرجاء فطالبها بالبرهان، وقل: هذه أمنية فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، فالكيِّس يعمل أعمال البر على الطمع والرجاء، والأحمق العاجز يعطل أعمال البر ويتّكِل على الأماني التي يسميها رجاء. والله الموفق.

...[1]**وقوله: ﴿كذلك يُبَيِّنُ الله لكم الآياتِ لَعلَّكم تتفكرون. في الدنيا والآخرة﴾**. [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠]. فيتفكرون في الآيات التي بينها لهم. فيستدلون بها على توحيده، وصفات كماله، وصدق رسله، والعلم بلقائه. ويتفكرون في الدنيا وانقضائها، واضمحلالها وآفاتها، والآخرة ودوامها وبقائها وشرفها. وقوله **﴿وَمِنْ آياته: أن خَلَق لكم من أنفسكُم أزواجًا لِتَسكُنُوا إليها. وَجَعَل بَينكم مَوَدَّةً وَرَحمةً، إنَّ في ذلك لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**. [الروم: ٢١]. فالفكر الصحيح، المؤيد بحياة القلب ونور البصيرة: يدل على إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وأما فكرٌ مصحوب بموت القلب وعمى البصيرة؛ فإنما يعطي صاحبه نفيها وتعطيلها.

---

(١) ٣٥٧ مدارج السالكين جـ٣.

(١)**ولما** نزل التشديد في أكل مال اليتيم عَزَلُوا طعامهم عن طعام الأيتام وشرابهم من شرابهم، فذكروا ذلك لرسوله الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيسألونَك عَنِ اليَتامى، قُل: إصلاحٌ لَهُم خيرٌ، وإن تُخالِطُوهم فإخوانُكم﴾. [البقرة: ٢٢٠]. فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم.

...(٢)**أحكام** القرآن يرشد سبحانه فيها إلى مَداركها وعللها، كقوله: ﴿وَيَسألونَك عن المحيضِ، قُل: هُوَ أذى، فَاعتزلوا النّساءَ في المحيضِ﴾(٣) [البقرة: ٢٢٢]. فأمر سبحانه نبيه أن يذكر لهم علة الحكم قبل الحكم.

وكذلك قوله: ﴿مَا أفاءَ الله عَلى رَسُولِهِ مِن أَهلِ القُرى فللهِ وللرَّسولِ وَلِذي القُربى واليَتامى والمَساكين وابنِ السبيلِ، كَي لا يكونَ دُولَةً بينَ الأغنياءِ منكم﴾. [الحشر: ٧].

وكذلك قوله: ﴿والسَارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقطعُوا أَيديَهما، جَزاءً بِما كَسَبا، نَكَالاً من الله، والله عزيزٌ حكيمٌ﴾. [المائدة: ٣٨]. وقال في جزاء الصيد: ﴿لِيَذُوق وَبالَ أمره﴾. [المائدة: ٩٥].

(٤)**قوله** تعالى: ﴿يحبّ التوَّابين ويحبُّ المتطهرين﴾. [البقرة: ٢٢٢]. ففيه معنى آخر سوى ما ذكره(٥) وهو أن الطهر طهران: طهر بالماء من الأحداث والنجاسات، وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي، وهذا الطهور أصل لطهور الماء وطهور الماء لا ينفع بدونه؛ بل هو مكمل له معد مُهيِّء بحصوله فكان أولى بالتقديم لأن العبد أول ما يدخل في الإسلام فقد تطهر بالتوبة من الشرك ثم يتطهر بالماء من الحدث.

(٦)**قال** تعالى: ﴿فَائتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أمَرَكُم الله﴾. [البقرة: ٢٢٢].

قال مجاهد: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿فَائتُوهُنَّ من حيثُ أمركم الله﴾. [البقرة: ٢٢٢]. فقال: تأتيها من حيث أُمرت أن تعتزلها. يعني في الحيض.

وقال علي بن أبي طلحة عنه: يقول في الفرج، ولا تَعْدُه إلى غيره.

---

(١) ٤١٠ أعلام جـ٤.
(٢) ١٦٣ أعلام جـ٤.
(٣) تقدم بحث في هذه الآية ص (٣٧٨).
(٤) ٦٨ بدائع جـ١.
(٥) يشير إلى أن السهيلي ذكر أن التقديم للتوبة سبب الطهارة.
(٦) ٣١٥ زاد المعاد جـ٣.

وقد دلت الآية على تحريم الوطء في دبرها من وجهين:

أحدهما: أنه أباح إتيانها في الحرث، وهو موضع الولد، لا في الحُشِّ الذي هو موضع الأذى. وموضع الحرث: هو المراد من قوله: ﴿**من حيثُ أمركم الله**﴾ الآية، قال: ﴿**فَأْتُوا حَرْثَكُم أَنَّى شئتم**﴾. [البقرة:٢٢٣]. وإتيانها في قُبلها من دبرها: مستفاد من الآية أيضًا، لأنه قال: ﴿**أنى شئتم**﴾ أي: من حيث شئتم: من أمامٍ، أو من خلف. قال ابن عباس: فائتوا حرثكم: يعني الفرج.

وإذا كان الله حرم الوطء في الفرج لأجل الأذى العارض، فما الظن بالحشِّ الذي هو محل الأذى اللازم، مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل، والذريعة القريبة جدًّا من أدبار النساء إلى أدبار الصبيان؟

وأيضًا: فللمرأة حق على الزوج في الوطء، ووطؤها في دبرها يُفوِّتُ حقها، ولا يقضي وطَرَها، ولا يحصل مقصودها.

وأيضًا: فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل، ولم يخلق له. وإنما الذي هيىء له الفرج، فالعادلون عنه إلى الدبر خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعًا.

وأيضًا: فإن ذلك مضر للرجل، ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم. لأن للفرج خاصية في اجتذاب الماء المحتقن، وراحة الرجل منه، والوطء في الدبر لا يعين على اجتذاب جميع الماء، ولا يخرج كل المحتقن، لمخالفته للأمر الطبيعي.

وأيضًا: يضر من وجه آخر، وهو إحواجه إلى حركات متعبة جدًّا، لمخالفته للطبيعة. وأيضًا: فإنه محل القذر والنَّجْو، فيستقبله الرجل بوجهه ويلابسه.

وأيضًا: فإنه يضر بالمرأة جدًّا، لأنه وارد غريب، بعيد عن الطباع، منافر لها غاية المنافرة. وأيضًا: فإنه يُحدث الهمَّ والغم والنفرة من الفاعل والمفعول.

وأيضًا: فإنه يسود الوجه، ويُظلم الصدر، ويطمس نور القلب، ويكسو الوجه وحشة تكون عليه كالسيماء، يعرفها من له أدنى فراسة...

...(1)**كان** أهل الكتاب إنما يأتون النساء على جنوبهن على حرف. ويقولون: هو

---

(١) ٣١٢ زاد المعاد جـ٣.

أيسر للمرأة. وكانت قريش والأنصار تُشرِّح النساء على أقفائهن. فعابت اليهود عليهم ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿**نساؤكم حَرْثٌ لكم فَأتوا حَرْثَكُمْ أنَّى شِئتم**﴾. [البقرة: ٢٢٣].

وفي الصحيحين: عن جابر قال: «كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها: كان الولد أحول. فأنزل الله عز وجل: ﴿**نِسَاؤُكُم حَرثٌ لَكُم فَأتوا حرثكُم أنَّى شِئتم**﴾. [البقرة: ٢٢٣]. ».

وفي لفظ لمسلم: «إن شاءَ مُجبِية، وإن شاء غير مجبية؛ غير أن ذلك في صِمام واحد» «والمجبية» المنكَّبة على وجهها. و«الصمام الواحد» الفرج. وهو موضع الحرث والولد. وأما الدبر فلم يبح قط على لسان نبي من الأنبياء.

ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها فقد غلط عليه.

وفي سنن أبي داود: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ملعون من أتى المرأة في دبرها**».

وفي لفظ لأحمد وابن ماجة: «**لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها**».

وفي لفظ للترمذي وأحمد: «**من أتى حائضًا أو امرأة في دبرها أو كاهنًا فصدقه؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**».

وفي لفظ للبيهقي: «**من أتى شيئًا من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر**».

وفي مصنف وكيع: حدثني زمعة بن صالح، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن عمرو بن دينار، عن عبدالله بن يزيد قال: قال عمر بن الخطاب: قال رسول الله ﷺ: «**إن ا لله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أعجازهن**» وقال مرة: «**في أدبارهن**».

وفي الترمذي: عن طَلْق بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تأتوا النساء في أعجازهن. فإن الله لا يستحي من الحق**».

وفي الكامل لابن عدي من حديثه، عن المحاملي، عن سعيد بن يحيى الأموي قال: حدثنا محمد بن حمزة، عن زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة، عن عبدالله بن مسعود يرفعه: «**لا تأتوا النساء في أعجازهن**».

وروينا في حديث الحسن بن علي الجوهري، عن أبي ذر مرفوعًا: «**من أتى الرجال أو النساء في أدبارهن فقد كفر**».

(١)**قال** تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. [البقرة: ٢٢٥].

واللغو نوعان:

أحدهما: أن يحلف على الشيء، يظنه كما حلف عليه، فيتبين بخلافه.

والثاني: أن يجري اليمين على لسانه من غير قصد للحلف: ـ كلا، والله! وبلى، والله! ـ في أثناء كلامه. وكلاهما رفع الله المؤاخذة به لعدم قصد الحالف إلى عقد اليمين وحقيقتها، وهذا تشريع منه سبحانه لعباده: أن لا يرتبوا الأحكام على الألفاظ التي لم يقصد المتكلم بها حقائقها ومعانيها، وهذا غير الهازل حقيقة وحكمًا.

وقد أفتى أصحاب النبي ﷺ بعدم وقوع طلاق المكره، وإقراره.

فصح عن عمر أنه قال: «ليس الرجل بأمين على نفسه إذا أوجعته، أو ضربته، أو أوثقته».

وصح عنه: «أن رجلًا تدلَّى بحبل ليَشْتار عسلًا، فأتت امرأته، فقالت: لأقطعن الحبل، أو لتطلقني، فناشدها الله، فأبت، فطلقها، فأتى عمر، فذكر له ذلك، فقال له: ارجع إلى امرأتك، فإن ذلك ليس بطلاق».

وكان علي بن أبي طالب لا يجيز طلاق المكره، وقال ثابت الأعرج: سألت ابن عمر وابن الزبير عن طلاق المكره؟ فقالا جميعًا: «ليس بشيء».

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه الغار بن جبلة، عن صفوان بن عمرو الأصم عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: «أن رجلًا جلست امرأته على صدره، وجعلت السكين على حلقه، وقالت له: طلقني، أو لأذبحنك، فناشدها الله؛ فأبت، فطلقها ثلاثًا، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**لا قيلولة في الطلاق**» رواه سعيد بن منصور في سننه.

وروى عطاء بن عجلان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «**كل الطلاق جائز، إلا طلاق المعتوه، والمغلوب على عقله**».

وروى سعيد بن منصور: حدثنا فرج بن فضالة: حدثني عمرو بن شراحيل المعافري: «أن امرأة استلت سيفًا، فوضعته على بطن زوجها، وقالت: والله

(١) ٧٥ زاد المعاد جـ٤.

لأنفذنه، أو لتطلقني، فطلقها ثلاثًا. فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب، فأمضى طلاقها»

وقال عليّ: «كل الطلاق جائز إلا طلاق المعتوه».

قيل: أما خبر الغار بن جبلة: ففيه ثلاث علل:

إحداها: ضعف صفوان بن عمرو.

والثانية: لين الغار بن جبلة.

والثالثة: تدليس بقية بن الوليد الراوي عنه.

ومثل هذا لا يحتج به. قال أبو محمد بن حزم: وهذا خبر في غاية السقوط.

وأما حديث ابن عباس: «**كل الطلاق جائز**» فهو من رواية عطاء بن عجلان، وضعفه مشهور، وقد رُمي بالكذب، قال أبومحمد بن حزم: وهذا الخبر شر من الأول.

وأما أثر عمر: فالصحيح عنه خلافه، كما تقدم، ولا يعلم معاصرة المعافري لعمر، وفرج بن فضالة فيه ضعف.

وأما أثر علي: فالذي رواه عنه الناس: أنه كان لا يُجيز طلاق المكره.

وروى عبدالرحمن بن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن: أن علي بن أبي طالب كان لا يجيز طلاق المكره. فإن صح عنه ما ذكرتم: فهو عام مخصوص بهذا.

فصـــل

وأما طلاق السكران

فقال تعالى: **﴿يَا أيها الذين آمنوا لا تقربُوا الصَّلاةَ وأنتم سكارى حَتى تعلموا مَا تقُولون﴾**. [النساء:٤٣]. فجعل سبحانه قول السكران غير معتبر، لأنه لا يعلم ما يقول.

وصح عنه ﷺ أنه «أمر بالمقرِّ بالزنا أن يُسْتَنْكَهَ» ليعتبر قوله الذي أقرَّ به، أو يلغى.

وفي صحيح البخاري في قصة حمزة لما عقر بعيرَي علي: «فجاء النبي ﷺ، فوقف عليه يلومه، فصَعَّد فيه النظر وصوَّبه، وهو سكران، ثم قال: هل أنتم إلا

عبيد لأبي؟ فنكص النبي ﷺ على عقبيه» وهذا القول لو قاله غير سكران لكان ردة وكفرًا، ولم يؤاخذ بذلك حمزة.

وصح عن عثمان بن عفان أنه قال: «ليس لمجنون ولا سكران طلاق»

رواه ابن أبي شيبة، عن وكيع، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن أبان بن عثمان، عن أبيه.

وقال عطاء: «طلاق السكران لا يجوز» وقال ابن طاوس: «طلاق السكران لا يجوز» وقال القاسم بن محمد: «لا يجوز طلاقه».

وصح عن عمر بن عبدالعزيز «أنه أُتي بسكران طلق، فاستحلفه بالله الذي لا إله إلا هو، لقد طلقها وهو لا يعقل، فحلف، فرد إليه امرأته، وضربه الحد» وهو مذهب يحيى بن سعيد الأنصاري، وحميد بن عبدالرحمن، وربيعة الرأي، والليث بن سعد، وعبدالله بن الحسن، وإسحاق بن راهويه، وأبي ثور، والشافعي في أحد قوليه. واختاره المزني وغيره من الشافعية، ومذهب أحمد في إحدى الروايات عنه، وهي التي استقرَّ عليها مذهبه، وصرح برجوعه إليها، فقال في رواية: الذي لا يأمر بالطلاق: إنما أتى خصلة واحدة، والذي يأمر بالطلاق: قد أتى خصلتين: حرمها عليه، وأحلها لغيره، فهذا خير من هذا، وأنا أتقيهما جميعًا. وقال في رواية الميموني: وقد كنت أقول: إن طلاق السكران يجوز، حتى تبينته، فقلت: إنه لا يجوز طلاقه. لأنه لو أقر لم يلزمه، ولو باع لم يجز بيعه، قال: وألزمه الجناية. وما كان من غير ذلك فلا يلزمه، قال أبوبكر عبدالعزيز: وبهذا أقول. وهذا مذهب أهل الظاهر كلهم، واختاره من الحنفية أبو جعفر الطحاوي وأبو الحسن الكرخي..

والذين أوقعوه لهم سبعة مآخذ:

أحدها: أنه مكلف، ولهذا يؤخذ بجناياته.

والثاني: أن إيقاع الطلاق عقوبة له.

والثالث: أن ترتب الطلاق على التطليق من باب ربط الأحكام بأسبابها، فلا يؤثر فيه السكر.

والرابع: أن الصحابة أقاموه مقام الصاحي في كلامه، فإنهم قالوا: «إذا شرب سكر، وإذا سكر هذَى، وإذا هذى افترى، وحد المفتري ثمانون».

والخامس: حديث: «لا قيلولة في الطَّلاق» وقد تقدم.

والسادس: حديث: «كل طلاق جائز إلا طلاق المعتوه» وقد تقدم[١]. . .

[٢]**والكسب** قد وقع في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: عقد القلب وعزمه كقوله تعالى: ﴿لَا يُؤاخِذُكم الله باللغوِ في أيمانِكم ولكن يُؤاخِذُكم بما كسبتْ قُلوبُكم﴾. [البقرة: ٢٢٥]. أي: بما عزمتم عليه وقصدتموه.

وقال الزجاج: أي: يؤاخذكم بعزمكم على: أن لا تبروا، وأن لا تتقوا، وأن تعتلوا في ذلك بأنكم حلفتم، وكأنه التفت إلى لفظ المؤاخذة وأنها تقتضي تعذيبًا فجعل كسب قلوبهم عزمهم على ترك البر والتقوى لمكان اليمين.

والقول الأول أصح وهو قول جمهور أهل التفسير؛ فإنه قابل به لغو اليمين وهو أن لا يقصد اليمين، فكسب القلب المقابل للغو اليمين هو عقده وعزمه كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولكن يؤاخذُكم بما عقدتُم الأيمانَ﴾. [المائدة: ٨٩]. فتعقيد الأيمان هو كسب القلب.

الوجه الثاني من الكسب: كسب المال من التجارة قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا أنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ ومِمَّا أخْرَجْنَا لَكُم من الأرْضِ﴾. [البقرة: ٢٦٧]. فالأول للتجار، والثاني للزراع.

الوجه الثالث من الكسب: السعي والعمل كقوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إلا وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ﴾. [البقرة: ٢٨٦]. وقوله: ﴿بِمَا كُنْتُم تكْسِبُون﴾. [الأعراف: ٣٩]. ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أن تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ﴾. [الأنعام: ٧٠]. فهذا كله للعمل.

واختلف الناس في الكسب والاكتساب: هل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق؟

فقالت طائفة: معناهما واحد، قال أبوالحسن علي بن أحمد: وهو الصحيح عند أهل اللغة ولا فرق بينهما قال ذو الرمة:

ألفىَ أباه بذاك الكسب يكتسب

وقال الآخرون: الاكتساب أخص من الكسب؛ لأن الكسب ينقسم إلى كسبه

---

(١) تقدما قريباً ص (٣٨٥) بأنهما لا يحتج بهما. ج.

(٢) ١٢٠ شفاء العليل.

لنفسه ولغيره ولا يقال: يكتسب. قال الحطيئة:

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر هداك مليك الناس يا عمر

قلت: والاكتساب افتعال وهو يستدعي اهتمامًا وتعملاً واجتهادًا، وأما الكسب فيصح نسبته بأدنى شيء ففي جانب الفضل جعل لها ما لها فيه أدنى سعي، وفي جانب العدل لم يجعل عليها إلا ما لها فيه اجتهاد واهتمام.

(١)حكم رسول الله ﷺ في الإيلاء

ثبت في صحيح البخاري: عن أنس قال: آلى رسول الله ﷺ من نسائه. وكانت انفكّت رجله، فأقام في مَشْرُبة له تسعًا وعشرين ليلة. ثم نزل. فقالوا: يا رسول الله، آليت شهرًا، فقال: «**الشهر تسعٌ وعشرون**».

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**لِلَّذينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِم تَرَبُّصُ أربَعَةِ أشْهرٍ، فَإن فَاءُوا، فَإنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإنَّ الله سميعٌ عليمٌ**﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

الإيلاء لغة: الامتناع باليمين. وخُصّ في عرف الشرع بالامتناع باليمين من وطء الزوجة. ولهذا عُدِّي فعله بأداة «من» تضمينًا له معنى: يمتنعون من نسائهم. وهو أحسن من إقامة «من» مقام «علي».

وجعل سبحانه للأزواج مدة أربعة أشهر يمتنعون فيها من وطء نسائهم بالإيلاء. فإذا مضت: فإما أن يفيء وإما أن يطلق.

وقد اشتهر عن علي وابن عباس: «أن الإيلاء إنما يكون في حال الغضب دون الرضى» كما وقع لرسول الله ﷺ مع نسائه.

وظاهر القرآن؛ مع الجمهور. وقد تناظر في هذه المسألة محمد بن سيرين ورجل آخر. فاحتج الآخر على محمد بقول علي. فاحتج عليه محمد بالآية، فسكت.

وقد دلت الآية على أحكام، منها: هذا.

ومنها: أن من حلف على ترك الوطء أقل من أربعة أشهر لم يكن موليًا.

وهذا قول الجمهور. وفيه قول شاذ: أنه مُولٍ.

ومنها: أنه لا يثبت له حكم الإيلاء حتى يحلف على أكثر من أربعة أشهر؛ فإن

---

(١) ١٧٤ زاد المعاد جـ٤.

كانت مدة الامتناع أربعة أشهر؛ لم يثبت له حكم الإيلاء، لأن الله جعل لهم مدة أربعة أشهر، وبعد انقضائها: إما أن يطلقوا، وإما أن يفيئوا. وهذا قول الجمهور. منهم أحمد والشافعي ومالك، وجعله أبوحنيفة موليًا بأربعة أشهر سواء. وهذا بناء على أصله: أن المدة المضروبة أجل لوقوع الطلاق بانقضائها، والجمهور يجعلون المدة أجلًا لاستحقاق المطالبة.

وهذا موضع اختلف فيه السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

فقال الشافعي: حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار قال: «أدركت بضعة عشر رجلًا من الصحابة كلهم يوقف المولي، يعني بعد أربعة أشهر». وروى سهيل بن أبي صالح، عن أبيه قال: «سألت اثني عشر رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ عن المُولي؟ فقالوا: ليس عليه شيء حتى تمضي أربعة أشهر» وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم.

وقال ابن مسعود وزيد بن ثابت: «إذا مضت الأربعة الأشهر، ولم يفِئ فيها؛ طلقت منه بمضيها» وهذا قول جماعة من التابعين، وقول أبي حنيفة وأصحابه. فعند هؤلاء؛ يستحق المطالبة قبل مضي الأربعة الأشهر، فإن فاء، وإلا طلقت بمضيها.

وعند الجمهور؛ لا يستحق المطالبة، حتى تمضي الأربعة الأشهر، فحينئذ يقال: إما أن تفيء، وإما أن تطلق، وإن لم يفئ أخذ بإيقاع الطلاق: إما بالحاكم، وإما بحبسه حتى يطلق.

قال الموقعون للطلاق بمضي المدة: آية الإيلاء تدل على ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عبدالله بن مسعود قرأ: ﴿فَإِن فاءوا - فِيهِن - فإنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [البقرة: ٢٢٦]. فإضافة الفيئة إلى المدة تدل على استحقاق الفيئة فيها، وهذه القراءة: إما أن تجري مجرى خبر الواحد، فتوجب العمل، وإن لم توجب كونها من القرآن. وإما أن تكون قرآنًا نسخ لفظه، وبقي حكمه. لا يجوز فيها غير هذا ألبتة.

الثاني: أن الله سبحانه جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر، فلو كانت الفيئة بعدها لزادت على مدة النص، وذلك غير جائز.

الثالث: أنه لو وطئها في مدة الإيلاء لوقعت الفيئة موقعها، فدل على استحقاق الفيئة فيها.

قالوا: ولأن الله سبحانه وتعالى جعل لهم تربص أربعة أشهر ثم قال: ﴿**فَإِنْ فَاءُوا، فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ**﴾. [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

وظاهر هذا: أن التقسيم في المدة التي لهم فيها التربص، كما إذا قال لغريمه: أصبر عليك بديني أربعة أشهر، فإن وفيتني وإلا حبستك. ولا يفهم من هذا إلا إن وفيتني في المدة، ولا يفهم منه: إن وفيتني بعدها، وإلا كانت مدة الصبر أكثر من أربعة أشهر، وقراءة ابن مسعود صريحة في تفسير الفيئة بأنها في المدة، وأقل مراتبها؛ أن تكون تفسيرًا. . .(١)

(٢)**وقد** اختلف الفقهاء: هل يجب على الزوج مجامعة امرأته؟ فقالت طائفة: لا يجب عليه ذلك فإنه حقٌّ له، فإن شاء استوفاه، وإن شاء تركه، بمنزلة من استأجر دارًا إن شاء سكنها، وإن شاء تركها. وهذا من أضعف الأقوال، والقرآنُ والسنةُ والعرْفُ والقياس يرُدُّه، أما القرآن فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بالمعروفِ**﴾. [البقرة: ٢٢٨].

فأخبر أن للمرأة من الحق مثل الذي عليها، فإذا كان الجماع حقًّا للزوج عليها؛ فهو حقٌّ لها على الزوج بنص القرآن.

وأيضًا فإنه سبحانه وتعالى أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف.

ومن ضد المعروف أن يكون عنده شابَّة شهوتها تعدِل شهوة الرجل أو تزيد عليها بأضعافٍ مضاعفة، ولا يذيقها لذة الوطءِ مرةً واحدةً.

ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه ردًّا عليه.

والله سبحانه وتعالى إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه لا على غيره فقال تعالى: ﴿**فإمْسَاكٌ بمعروفٍ أوْ تَسريحٌ بإحسانٍ**﴾. [البقرة: ٢٢٩].

وقالت طائفةٌ: يجب عليه وَطْؤُها في العمر مرةً واحدةً ليستقر لها بذلك الصدَّاق. وهذا من جنس القول الأول، وهذا باطلٌ من وجه آخر؛ فإن المقصود

---

(١) ذكر المؤلف بعد هذا أدلة الجمهور وأوصلها إلى عشرة. اهـ ج.

(٢) ٢٣ روضة المحبين.

إنما هو المعاشرةُ بالمعروف، والصداقُ دخل في العقد تعظيمًا لحرمته وفرقًا بينه وبين السفاح، فوجوبُ المقصود بالنكاح أقوى من وجوب الصدَّاق.

وقالت طائفة ثالثة: يجب عليه أن يطأها في كل أربعة أشهر مرة واحتجوا على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى أباح للمولي تربصَ أربعة أشهر، وخير المرأة بعد ذلك، إن شاءت أن تقيم عنده، وإن شاءت أن تفارقه. فلو كان لها حقٌّ في الوطء أكثر من ذلك لم يجعل للزَّوج تركه في تلك المدة.

وهذا القول وإن كان أقرب من القولين اللذين قبله؛ فليس أيضًا بصحيح، فإنه غير المعروف الذي لها وعليها.

وأما جعلُ مدة الإيلاء أربعة أشهرٍ فنظرًا منه سبحانه للأزواج، فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وَطءِ امرأته مدة لعارضٍ من: سفرٍ، أو تأديب، أو راحة نفس، أو اشتغال بمهم، فجعل الله سبحانه وتعالى له أجلًا أربعة أشهر. ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطءُ موقتًا في كل أربعة أشهر مرَّة.

وقالت طائفة أخرى: بل يجب عليه أن يطأها بالمعروف، كما ينفق عليها ويكسوها ويعاشرها بالمعروف. بل هذا عمدة المُعاشرة ومقصودها، وقد أمر الله سبحانه وتعالى أن يعاشرها بالمعروف، فالوطءُ داخلٌ في هذه المعاشرة ولا بد.

قالوا: وعليه أن يُشبعها وَطئًا إذا أمكنه ذلك كما عليه أن يشبعها قوتًا. وكان شيخنا رحمه الله تعالى يرجح هذا القول ويختاره. وقد حضَّ النبي ﷺ عَلَى استعمال هذا الدواء ورغب فيه وعلق عليه الأجر وجعله صدقة لفاعله فقال: **«وفي بُضْعِ أحدكم صدقة»**.

ومن تراجم النسائي على هذا:

الترغيب في المباضعة

ثم ذكر هذا الحديث، ففي هذا كمال اللذة، وكمال الإحسان إلى الحبيبة، وحصول الأجر، وثواب الصدقة، وفرح النفس، وذهابُ أفكارها الرديئة عنها، وخفةُ الرُّوح، وذهابُ كثافتها وغِلَظها، وخفّة الجسم، واعتدالُ المزاج، وجلبُ الصحة، ودفع المواد الرديئة......

(١) **وقوله: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾** . [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

فختم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضى الزوجة، والإحسان إليها، بأنه غفور رحيم يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه والجزاء من جنس العمل، فكما رجع إلى التي هي أحسن رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة، **﴿وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾**. [البقرة: ٢٢٧]. فإن الطلاق لما كان لفظًا يسمع ومعنى يقصد، عقبه باسم «السميع» للنطق به «العليم» بمضمونه.

وكقوله تعالى: **﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرًا إلا أن تقولوا قولًا معروفًا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم﴾**. [البقرة: ٢٣٥].

فلما ذكر سبحانه التعريض بخطبة المرأة الدال على أن المعرض في قلبه رغبة فيها ومحبة لها، وأن ذلك يحمله على الكلام الذي يتوصل به إلى نكاحها؛ رفع الجناح عن التعريض وانطواء القلب على ما فيه من الميل والمحبة.

ونفي مواعدتهن سرًا ـ فقيل: هو النكاح والمعنى: لا تصرحوا لهن بالتزويج إلا أن تعرضوا تعريضًا وهو القول المعروف.

وقيل: هو أن يتزوجها في عدتها سرًا فإذا انقضت العدة أظهر العقد ويدل على هذا قوله: **﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾** وهو: انقضاء العدة.

ومن رجح القول الأول قال: دلت الآية على إباحة التعريض بنفي الجناح، وتحريم التصريح بنهي المواعدة سرًا، وتحريم عقد النكاح قبل انقضاء العدة، فلو كان معنى مواعدة السر هو إسرار العقد كان تكرارًا.

ثم عقب ذلك بقوله: **﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾**. [البقرة: ٢٣٥]. أن تتعدوا ما حد لكم فإنه مطلع على ما تسرون وما تعلنون، ثم قال: **﴿واعلموا أن الله غفور حليم﴾**. [البقرة: ٢٣٥]. لولا مغفرته وحلمه لعنتم غاية العنت، فإنه سبحانه مطلع عليكم يعلم ما في قلوبكم، ويعلم ما تعملون.

---

(١) ٩٣ جلاء الأفهام.

فإن وقعتم في شيء مما نهاكم عنه فبادروا إليه بالتوبة والاستغفار، فإنه الغفور الحليم.

وهذه طريقة القرآن يقرن بين أسماء الرجاء، وأسماء المخافة كقوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أن الله شَدِيْدُ العِقَابِ وَأنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾. [المائدة: ٩٨].

وقال أهل الجنة: ﴿**الحَمْدُ لله الذي أذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إنَّ رَبَّنَا لغَفُورٌ شَكُورٌ**﴾. [فاطر: ٣٤]. لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم وشكره إحسانهم؛ قالوا: ﴿**إنَّ رَبَّنَا لغَفُورٌ شكورٌ**﴾. [فاطر: ٣٤]. وفي هذا معنى التعليل أي: بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته، فإنه غفر لنا السيئات وشكر لنا الحسنات.

وقال تعالى: ﴿**ما يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُم إنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُم وكانَ الله شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾. [النساء: ١٤٧]. فهذا جزاء لشكرهم، أي: إن شكرتم ربكم شكركم وهو عليم بشكركم لا يخفى عليه من شكره ممن كفره. والقرآن مملوء من هذا، والمقصود التنبيه عليه.

وأيضًا فإنه سبحانه يستدل بأسمائه على توحيده ونفي الشريك عنه، ولو كانت أسماء لا معنى لها لم تدل على ذلك كقول هارون لعبدة العجل: ﴿**يا قَوْمِ إنَّما فُتِنْتُم بِهِ وإن رَبَّكُم الرَّحْمَنُ**﴾. [طه: ٩٠].

وقوله سبحانه في القصة: ﴿**إنَّما إلهُكُمُ الله الذي لا إلهَ إلا هُو وسِعَ كُلَّ شيءٍ عِلْمًا**﴾. [طه: ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿**وإلهُكُمْ إلهٌ واحِدٌ لا إلهَ إلا هُو الرَّحْمَنُ الرَحِيمُ**﴾. [البقرة: ١٦٣].

وقوله سبحانه في آخر سورة الحشر: ﴿**هُوَ الله الذي لا إلهَ إلَّا هُوَ عالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هو الله الذي لا إلهَ إلا هو المَلِكُ القُدُّوسُ السلامُ المؤمنُ المُهَيْمِنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ سبحانَ الله عَمَّا يُشرِكُون**﴾. [الحشر: ٢٢، ٢٣].

فسبح نفسه عن شرك المشركين به عقب تمدحه بأسمائه الحسنى المقتضية لتوحيده واستحالة إثبات شريك له.

ومن تدبر هذا المعنى في القرآن هبط به على رياض من العلم حماها الله عن كل أفاك معرض عن كتاب الله واقتباس الهدى منه. ولو لم يكن في كتابنا هذا إلا هذا الفصل وحده لكفى من له ذوق ومعرفة، والله الموفق للصواب.

وأيضًا فإن الله سبحانه يعلق بأسماء المعمولات من الظروف والجار والمجرور وغيرهما، ولو كانت أعلامًا محضة؛ لم يصح فيها ذلك كقوله: ﴿والله بِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ﴾. ﴿والله عليمٌ بالظالمين﴾. ﴿والله عَلِيمٌ بالمُفْسِدِين﴾. ﴿وكان بالمؤمنين رحيمًا﴾. ﴿إِنَّهُ بهم رءوفٌ رَحِيمٌ﴾. ﴿والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾. ﴿والله مُحيطٌ بالكافرين﴾. ﴿وكان الله بهم عليمًا﴾. ﴿وكَانَ الله عَلى كُلِّ شيءٍ مُقْتَدِرًا﴾. ﴿إنه بما يعملون خبيرٌ﴾. ﴿والله بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون﴾. ﴿إِنَّه بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾. ونظائره كثيرة.

وأيضًا فإنه سبحانه يجعل أسماءه دليلاً على ما ينكره الجاحدون من صفات كماله كقوله تعالى: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطِيفُ الخَبِيرُ﴾. [الملك: ١٤].

وقد اختلف النظار في هذه الأسماء: هل هي متباينة نظرًا إلى تباين معانيها وأن كل اسم يدل على معنى غير ما يدل عليه الآخر، أم هي مترادفة لأنها تدل على ذات واحدة، فمدلوها لا تعدد فيه وهذا شأن المترادفات؟ والنزاع لفظي في ذلك.

والتحقيق أن يقال: هي مترادفة بالنظر إلى الذات متباينة بالنظر إلى الصفات، وكل اسم منها يدل على الذات الموصوفة بتلك الصفة بالمطابقة وعلى أحدهما وحده بالتضمن، وعلى الصفة الأخرى بالالتزام.

...(١) **تقسيم** الألفاظ الى: صريح، وكناية، وإن كان تقسيمًا صحيحًا في أصل الوضع؛ لكن يختلف باختلاف الأشخاص والأزمنة والأمكنة. فليس حكمًا ثابتًا للفظ لذاته، فربَّ لفظ صريح عند قوم، كناية عند آخرين، أو صريح في زمان أو مكان، كناية في غير ذلك الزمان والمكان، والواقع شاهد بذلك. فهذا لفظ «السراح» لا يكاد أحد يستعمله في الطلاق، لا صريحًا ولا كناية، فلا يسوغ أن يقال: إن من تكلم به لزمه طلاق امرأته، نواه أو لم ينوه، ويدعي أنه ثبت له عرف الشرع والاستعمال، فإن هذه دعوى باطلة شرعًا واستعمالاً.

أما الاستعمال: فلا يكاد أحد يطلق به ألبتة.

وأما الشرع: فقد استعمله في غير الطلاق، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذين آمَنُوا إِذا نَكَحتم المُؤمناتِ، ثُمَّ طَلقتُمُوهُنَّ من قبل أن تَمَسُّوهُنَّ، فَمالَكُم عَلَيهِنَّ من عدَّةٍ

(١) ١٥٧ زاد المعاد جـ٤.

تعتدُّونَها. فمتعوهُنَّ وسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جميلاً﴾. [الأحزاب: ٤٩]. فهذا السراح غير الطلاق قطعًا.

وكذلك «الفراق» استعمله الشرع في غير الطلاق، كقوله تعالى: **﴿يَا أيُّها النَّبيُّ إذَا طَلقتم النسـاءَ فَطَلقُوهنَّ لعدَّتهنَّ - إلى قوله - فإذا بلغنَ أجلهنَّ فأمسكوهنَّ بمعـروفٍ أو فارقـوهنَّ بمعـروفٍ﴾**. [الطلاق: ١، ٢]. فالإمساك هنا: الرجعة. والمفارقة: ترك الرجعة، لا إنشاء طلقة ثانية، هذا مما لا خلاف فيه ألبتة، فلا يجوز أن يقـال: إن من تكلم به طلقت زوجته، فهم معناه أو لم يفهمه، وكلاهما في البطلان سواء، وبالله التوفيق.

...[1]**وفي** صحيح مسلم قول ابن عمر للمطلق ثلاثًا: «حرمت عليك حتى تُنكح زوجًا غيرك. وعصيت ربك فيما أمرك به من طلاق امرأتك» وهذا تفسير منه للطلاق المأمور به. وتفسير الصحابي حجة. وقال الحاكم: هو عندنا مرفوع.

ومن تأمل القرآن حق التأمل تبين له ذلك. وعرف أن الطلاق المشروع بعد الدخول: هو الطلاق الذي تملك به الرجعة.

ولم يشرع الله سبحانه إيقاع الثلاث جملة واحدة ألبتة. قال تعالى: **﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ﴾**. [البقرة: ٢٢٩]. **ولا** تعقل العرب في لغتها وقوع المرتين إلا متعاقبتين.

كما قال النبي ﷺ: **«من سبح الله دُبُرَ كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وحمده ثلاثًا وثلاثين، وكبره أربعًا وثلاثين»** ونظائره. فإنه لا يعقل من ذلك إلا تسبيح وتكبير وتحميد متوال، يتلو بعضه بعضًا. فلو قال: سبحان الله ثلاثًا وثلاثين. والحمد لله ثلاثًا وثلاثين. والله أكبر أربعًا وثلاثين - بهذا اللفظ - لكان ثلاث مرات فقط.

وأصرح من هذا؛ قوله سبحانه: **﴿وَالَّذين يَرمُونَ أزواجَهم. وَلَم يَكن لهم شُهداءُ إلَّا أنفسُهم، فَشَهَادةُ أحدِهِم: أربعُ شَهَادَات بالله﴾**. [النور: ٦]. فلو قال: أشهد بالله أربع شهادات إني لمن الصادقين؛ كانت مرة.

وكذلك قوله: **﴿وَيَدْرَأُ عَنْها العذابَ: أن تَشْهَدَ أربعَ شهاداتٍ بالله إنهُ لمنَ الكَاذبينَ﴾**. [النور: ٨]. فلو قالت: أشهد بالله أربع شهادات إنه لمن الكاذبين؛ كانت واحدة.

وأصرح من ذلك قوله تعالى: **﴿سَنُعَذِّبُهم مرتين﴾**. [التوبة: ١٠١]. فهذا مرة بعد مرة. ولا ينتقض هذا بقوله تعالى: **﴿نُؤتِها أجرَهَا مَرَّتين﴾**. [الأحزاب: ٣١].

(١) ١٠٢ زاد المعاد جـ٤.

وقوله ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين**» فإن المرتين هنا: هما الضعفان، وهما المثلان. وهما مثلان في القَدْر. كقوله تعالى: ﴿**يُضَاعفْ لها العَذَابُ ضِعْفَيْنْ**﴾. [الأحزاب: ٣٠]. وقوله: ﴿**فَآتتْ أُكُلَهَا ضعفينِ**﴾. [البقرة: ٢٦٥]. أي: ضعف ما يعذب به غيرها، وضعف ما كانت تؤتي.

ومن هذا قول أنس: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ مرتين» أي: شقتين وفرقتين، كما قال في اللفظ الآخر: «انشق القمر فِلْقتين» وهذا أمر معلوم قطعًا: أنه إنما انشق القمر مرة واحدة. والفرق معلوم بين ما يكون مرتين في الزمان، وبين ما يكون مثلين وجزءين ومرتين في المضاعفة. فالثاني: يتصور فيه اجتماع المرتين في آن واحد. والأول: لا يتصور فيه ذلك.

ومما يدل على أن الله لم يشرع الثلاث جملة: أنه قال: ﴿**وَالمطلقاتُ يَتَرَبَّصنَ بأنفسهنَّ ثَلاَثَةَ قروءٍ - إلى أن قال - وَبُعُولَتُهنَّ أَحقُّ بردهنَّ في ذلك إنْ أَرادوا**﴾. [البقرة: ٢٢٨]. فهذا يدل على أن كل طلاق بعد الدخول: فالمطلق أحق فيه بالرجعة، سوى الثالثة المذكورة بعد هذا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**يا أَيُّها النبيُّ إذا طَلَّقتُم النساءَ فَطَلقُوهن لِعِدَّتِهن - إلى قوله - فَإذا بَلغن أجلهُنَّ فَأمسكُوهُنَّ بمعروفٍ أو فَارقُوهنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾. [البقرة: ٢٣٢]. فهذا هو الطلاق المشروع.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أقسام الطلاق كلها في القرآن. وذكر أحكامها. فذكر الطلاق قبل الدخول، وأنه لا عدَّة فيه.

وذكر الطلقة الثالثة، وأنها تحرم الزوجة على المطلق، حتى تنكح زوجًا غيره. وذكر طلاق الفداء - الذي هو الخلع - وسماه فدية. ولم يحسبه من الثلاث كما تقدم.

وذكر الطلاق الرجعي الذي المطلقُ أحق فيه بالرجعة. وهو ما عدا هذه الأقسام الثلاثة. وبهذا احتج أحمد والشافعي وغيرهما على أنه ليس في الشرع طلقة واحدة بعد الدخول بغير عوض بائنة، وأنه إذا قال لها: أنت طالق طلقة بائنة؛ كانت رجعية. ويلغو وصفها بالبينونة. وأنه لا يملك إبانتها إلا بعوض.

وأما أبوحنيفة فقال: تبين بذلك. لأن الرجعة حق له. وقد أسقطها.

والجمهور يقولون: وإن كانت الرجعة حقًا له، لكن نفقة الرجعية وكسوتها حق عليه؛ فلا يملك إسقاطه إلا باختيارها، وبذلها العوض، وسؤالها أن تفتدي

نفسها منه بغير عوض في أحد القولين. وهو جواز الخلع بغير عوض. وأما إسقاط حقها من الكسوة والنفقة بغير سؤالها، ولا بذلها العوض؛ فخلاف النص والقياس.

قالوا: وأيضًا فالله سبحانه شرع الطلاق على أكمل الوجوه وأنفعها للرجل والمرأة. فإنهم كانوا يطلقون في الجاهلية بغير عدد، فيطلق أحدهم المرأة كلما شاء ويرجعها. وهذا ـ وإن كان فيه رفق بالرجل ـ ففيه إضرار بالمرأة. فنسخ سبحانه ذلك بثلاث. وقصر الزوج عليها. وجعله أحق بالرجعة، ما لم تنقض عدتها. فإذا استوفى العدد الذي ملكه حرمت عليه. فكان في هذا رفق بالرجل؛ إذ لم تحرم عليه بأول طلقة. وبالمرأة، حيث لم يجعل إليه أكثر من ثلاث. فهذا شرعه وحكمته وحدوده التي حدها لعباده. فلو حرمت عليه بأول طلقة يطلقها؛ كان خلاف شرعه وحكمته. وهو لم يملك إيقاع الثلاث جملة، بل إنما ملك واحدة. فالزائد عليها غير مأذون له فيه.

قالوا: وهذا كما أنه لم يملك إبانتها بطلقة واحدة، إذ هو خلاف ما شرعه، لم يملك إبانتها بثلاث مجموعة؛ إذ هو خلاف ما شرعه.

ونكتة المسألة؛ أن الله لم يجعل للأمَّة طلاقًا بائنًا قط، إلا في موضعين.

أحدهما: طلاق غير المدخول بها.

والثاني: الطلقة الثالثة. وما عداه من الطلاق؛ فقد جعل للزوج فيه الرجعة، هذا مقتضى الكتاب، كما تقدم تقريره وهذا قول الجمهور، منهم الإمام أحمد، والشافعي.

وأهل الظاهر قالوا: لا يملك إبانتها بدون الثلاث إلا في الخُلْع.

ولأصحاب مالك ثلاثة أقوال فيها إذا قال: أنت طالق طلقة لا رجعة فيها:

أحدها: أنها ثلاث. قال ابن الماجشون. لأنه قطع حقه من الرجعة؛ وهي لا تنقطع إلا بثلاث، فجاءت الثلاث ضرورة.

الثاني: أنها واحدة بائنة. كما قال، وهذا قول ابن القاسم. لأنه يملك إبانتها بطلقة بعوض، فملكها بدونه، والخلع عنده طلاق.

الثالث: أنها واحدة رجعية، وهذا قول ابن وهب، وهو الذي يقتضيه الكتاب والسنة والقياس. وعليه الأكثرون.

فصـــل

وأما المسألة الثانية، وهي وقوع الثلاث بكلمة واحدة فاختلف الناس فيها على أربعة مذاهب:

أحدها: أنه يقع. وهذا قول الأئمة الأربعة. وجمهور التابعين، وكثير من الصحابة.

الثاني: أنها لا تقع، بل ترد. لأنها بدعة محرمة. والبدعة مردودة. لقوله ﷺ «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» وهذا المذهب حكاه أبومحمد بن حزم. وحُكي للإمام أحمد فأنكره. وقال: هو قول الرافضة.

الثالث: أنه يقع به واحدة رجعية. وهذا ثابت عن ابن عباس. ذكره أبوداود عنه. قال الإمام أحمد: وهذا مذهب ابن إسحاق، يقول: خالفَ السنة. فيرد إلى السنة. انتهى.

وهو قول طاوس وعكرمة. وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

الرابع: أنه يفرق بين المدخول بها وغيرها. فتقع الثلاث بالمدخول بها. وتقع بغيرها واحدة. وهذا قول جماعة من أصحاب ابن عباس. وهو مذهب إسحاق بن راهويه، فيما حكاه عنه محمد بن نصر المروزي في كتاب اختلاف العلماء.

فأما من لم يوقعها جملة؛ فاحتجوا بأنه طلاق بدعة محرم. والبدعة مردودة. وقد اعترف أبومحمد بن حزم بأنها لو كانت بدعة محرمة لوجب أن ترد وتبطل. ولكنه اختار مذهب الشافعي: أن جمع الثلاث جائز غير محرم. وستأتي حجة هذا القول.

وأما من جعلها واحدة. فاحتج بالنص والقياس.

فأما النص: فما رواه معمر وابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه: «أن أبا الصهباء قال لابن عباس: ألم تعلم أن الثلاث كانت تجعل واحدة على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرًا من إمارة عمر؟ قال: نعم» رواه مسلم في صحيحه.

وفي لفظ: «ألم تعلم أن الثلاث كانت على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرًا من خلافة عمر ترد إلى واحدة؟ قال: نعم».

وقال أبوداود: حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا عبدالرزاق؛ أن ابن جريج قال: أخبرني بعض بني أبي رافع ـ مولى رسول الله ﷺ ـ عن عكرمة، عن ابن عباس قال: طلق عبد يزيد أبوركانة وإخوته أم ركانة. ونكح امرأة من مُزينة، فجاءت

النبي ﷺ. فقالت: ما يغني عني إلا كما تغني هذه الشعرة ـ لشعرة أخذتها من رأسها ـ ففرق بيني وبينه. فأخذت النبي ﷺ حمية؛ فدعا بركانة وإخوته؛ ثم قال لجلسائه: «**ألا ترون أن فلانًا يشبه منه كذا وكذا** ـ من عبد يزيد ـ **وفلانًا يشبه كذا وكذا؟**» قالوا: نعم. قال النبي ﷺ، لعبد يزيد: «**طلقها**». ففعل. ثم قال: «**راجع امرأتك أمَّ ركانة وإخوته**». فقال: إني طلقتها ثلاثًا يا رسول الله. قال: «**قد علمت. راجعها**». وتلا ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**﴾. [الطلاق: ١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سعد بن إبراهيم قال: حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق قال: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن عبدالله بن عباس قال: طلق ركانة بن عبد يزيد ـ أخو بني المطلب ـ امرأته ثلاثًا في مجلس واحد. فحزن عليها حزنًا شديدًا. قال: فسأله رسول الله ﷺ: «**كيف طلقتها؟**» فقال: طلقتها ثلاثًا. فقال: «**في مجلس واحد؟**» قال: نعم. قال: «**فإنما تلك واحدة. فأرجعها إن شئت**». قال: فراجعتها. وكان ابن عباس يرى: إنما الطلاق عند كل طهر.

قالوا: وأما القياس؛ فقد تقدم أن جمع الثلاث محرم وبدعة. والبدعة مردودة، لأنها ليست على أمر رسول الله ﷺ.

قالوا: وسائر ما تقدم في بيان التحريم يدل على عدم وقوعها جملة.

قالوا: ولو لم يكن معنا إلا قوله تعالى: ﴿**فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ**﴾. [النور: ٦]. وقوله: ﴿**وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ**﴾. [النور: ٨]. لكفى.

قالوا: وكذلك كل ما يعتبر له التكرار: من حلف، أو إقرار، أو شهادة. وقد قال النبي ﷺ، «**تحلفون خمسين يمينًا وتستحقون دم صاحبكم**» فلو قالوا: نحلف بالله خمسين يمينًا أن فلانًا قتله. كانت يمينًا واحدة.

قالوا: وكذلك الإقرار بالزنى، كما في الحديث: إن بعض الصحابة قال لماعز: إن أقررت أربعًا رجمك رسول الله ﷺ فهذا لا يعقل أن يكون الأربع فيه مجموعة بفم واحد.

وأما الذين فرقوا بين المدخول بها وغيرها؛ فلهم حجتان:

إحداهما: ما رواه أبو داود بإسناد صحيح: عن طاوس: أن رجلاً يقال له: أبوالصهباء كان كثير السؤال لابن عباس.. قال له: «أما علمت أن الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثًا قبل أن يدخل بها؛ جعلوها واحدة على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر وصدرًا من إمارة عمر؟ فلما رأى عمر الناس قد تتايعوا فيها[1] قال: أجيزهن عليهم».

الحجة الثانية: أنها تبين بقوله: أنت طالق، فيصادفها ذكر الثلاث وهي بائن؛ فيلغو. ورأى هؤلاء أن إلزام عمر بالثلاث هو في حق المدخول بها. وحديث أبي الصهباء في غير المدخول بها.

قالوا: ففي هذا التفريق موافقة المنقول من الجانبين، وموافقة القياس.

وقال بكل قول من هذه الأقوال جماعة من أهل الفتوى، كما حكاه أبومحمد بن حزم وغيره. ولكن عدم الوقوع جملة؛ هو مذهب الإمامية. وحكوه عن جماعة من أهل البيت.

قال الموقعون للثلاث: الكلام معكم في مقامين:

أحدهما: تحريم جمع الثلاث.

والثاني: وقوعها جملة. ولو كانت محرمة. ونحن نتكلم معكم في المقامين.

فأما الأول: فقد قال الشافعي، وأبوثور، وأحمد بن حنبل في إحدى الروايات عنه، وجماعة من أهل الظاهر: إن جمع الثلاث سنة.

واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ له مِنْ بَعْدُ حتى تنكِحَ زَوجًا غيرهُ﴾. [البقرة: ٢٣٠]. ولم يفرق بين أن تكون الثلاث مجموعة أو مفرقة. ولا يجوز أن نفرق بين ما جمع الله بينه، كما لا يجمع بين ما فرق الله بينه.

وقال تعالى: ﴿وإنْ طَلَّقتُمُوهُنَّ من قَبلِ أن تَمَسُّوهُنَّ﴾. [البقرة: ٢٣٧]. ولم يفرق.

وقال: ﴿لاَ جُناحَ عَلَيكُم إن طَلَّقْتُم النِّساءَ مَالَم تَمَسُّوهُنَّ﴾ الآية. [البقرة: ٢٣٦]. ولم يفرّق.

وقال: ﴿وَلِلمُطلقاتِ مَتاعٌ بِالمَعْرُوف﴾. [البقرة: ٢٤١]. وقال: ﴿يَا أَيُّها الذين آمنوا إذا نَكَحْتُم المُؤمِناتِ ثُم طَلقتُمُوهنَّ من قبلِ أن تمَسُّوهُنَّ﴾. [الأحزاب: ٤٩].

---

(١) التتايع ـ بالياء المثناة قبل العين ـ الوقوع والسقوط بجهالة.

ولم يفرق.

قالوا: وفي الصحيحين، من حديث أبي هريرة: «أن عويمرًا العجلاني طلق امرأته ثلاثًا ـ بعد أن لاعنها ـ بحضرة رسول الله ﷺ، قبل أن يأمره بطلاقها».

قالوا: فلو كان جمع الطلاق الثلاث معصية لما أقره عليه رسول الله ﷺ. ولا يخلو طلاقها أن يكون قد وقع وهي امرأته، أو حين حرمت عليه باللعان. فإن كان الأول؛ فالحجة عليه ظاهرة، وإن كان الثاني؛ فلا شك أنه طلقها وهو يظنها امرأته، فلو كان حرامًا لبين له رسول الله ﷺ وإن كانت قد حرمت عليه. . .

...(١)**قال** تعالى: **﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُم أن تأخذوا مما آتيتُمُوهنَّ شيئًا إلَّا أن يَخَافَا أن لا يُقِيمَا حُدُودَ الله، فَإِنْ خِفتُم أن لَا يُقيمَا حُدودَ الله فَلَا جُنَاحَ عَلَيهما فِيمَا افتَدَتْ بِهِ﴾**. [البقرة: ٢٢٩].

ومنع الخلع طائفة شاذة من الناس، خالفت النص والإجماع، وفي الآية دليل على جوازه مطلقًا بإذن السلطان وغيره.

ومنعه طائفة بدون إذنه. والأئمة الأربعة، والجمهور؛ على خلافه.

وفي الآية دليل على حصول البينونة به، لأنه سبحانه سماه «فدية» ولو كان رجعيًا ـ كما قال بعض الناس ـ لم يحصل للمرأة الافتداء من الزوج بما بذلته له.

ودل قوله سبحانه: **﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيهِمَا فيما افتدتْ به﴾**. على جوازه بما قل وكثر، وأن له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها.

وقد ذكر عبدالرزاق: عن معمر، عن عبدالله بن محمد بن عقيل؛ أن الرُّبيِّع بنت معوِّذ بن عَفراء حدثته: «أنها اختلعت من زوجها بكل شيء تملكه. فخوصم في ذلك إلى عثمان بن عفان فأجازه. وأمره أن يأخذ عقاص رأسها فما دونه».

وذكر أيضًا: عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن نافع؛ أن ابن عمر «جاءته مولاة لامرأته اختلعت من كل شيء لها، وكل ثوب لها، حتى نُقْبَتِها».

ورفعت إلى عمر بن الخطاب امرأة نَشزت عن زوجها فقال: «اخلعها ولو من قرطها». ذكره حماد بن سلمة، عن أيوب، عن كثير بن أبي كثير، عنه.

وذكر عبدالرزاق: عن معمر، عن ليث، عن الحكم بن عتيبة، عن علي بن أبي طالب: «لا يأخذ منها فوق ما أعطاها».

---

(١) ٦٦ زاد المعاد جـ٤.

وقال طاوس: «لا يحل له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها».

وقال عطاء: «إن أخذ زيادة على صداقها فالزيادة مردودة إليها».

وقال الزهري: «لا يحل له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها».

وقال ميمون بن مهران: «إن أخذ منها أكثر مما أعطاها لم يُسَرِّح بإحسان».

وقال الأوزاعي: «كانت القضاة لا تجيز أن يأخذ منها شيئًا إلا ما ساق إليها».

والذين جوزوه؛ احتجوا بظاهر القرآن وآثار الصحابة.

والذين منعوه؛ احتجوا بحديث أبي الزبير؛ أن ثابت بن قيس بن شماس لما أراد خلع امرأته. قال النبي ﷺ: **«أتردين عليه حديقته؟»** قالت: نعم، وزيادة. فقال النبي ﷺ: **«أما الزيادة فلا»** قال الدارقطني: سمعه أبوالزبير من غير واحد. وإسناده صحيح.

قالوا: والآثار من الصحابة مختلفة. فمنهم من رُويَ عنه تحريم الزيادة.

ومنهم من رُويَ عنه إباحتها. ومنهم من رُويَ عنه كراهتها.

كما رُويَ عن وكيع، عن أبي حنيفة، عن عمار بن عمران الهمداني، عن أبيه، عن علي؛ «أنه كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها» والإمام أحمد أخذ بهذا القول، ونص على الكراهة. وأبوبكر من أصحابه حرم الزيادة. وقال: تُرَدُّ عليها.

وقد ذكر عبدالرزاق: عن ابن جريج قال: قال لي عطاء: أتت امرأة رسول الله ﷺ. فقالت: يا رسول الله، إني أبغض زوجي، وأحب فراقه. قال: **«فتردين عليه حديقته التي أصدقك؟»** قالت: نعم، وزيادة من مالي. فقال رسول الله ﷺ: **«أما الزيادة من مالك فلا. ولكن الحديقة»**. قالت: نعم. فقضي بذلك على الزوج. وهذا ـ وإن كان مرسلاً ـ فحديث أبي الزبير مُقَوٍّ له. وقد رواه ابن جريج عنهما.

فصـــل

وفي تسميته الخلع فدية دليل على أن فيه معنى المعاوضة

ولهذا اعتبر فيه رضى الزوجين. فإذا تقايلا الخلع، ورد عليها ما أخذ منها، وارتجعها في العدة: فهل لهما ذلك؟ منعه الأئمة الأربعة وغيرهم. وقالوا: قد بانت منه بنفس الخلع.

وذكر عبدالرزاق: عن معمر، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب؛ أنه قال في

المختلعة: «إن شاء أن يراجعها فليرد عليها ما أخذ منها في العدة، وليشهد على رجعتها».

قال معمر: وكان الزهري يقول ذلك. قال قتادة: وكان الحسن يقول: لا يراجعها إلا بخطبة. ولقول سعيد بن المسيب والزهري وجه دقيق من الفقه، لطيف المأخذ، تتلقاه قواعد الفقه وأصوله بالقبول، ولا نكارة فيه؛ غير أن العمل على خلافه؛ فإن المرأة مادامت في العدة فهي في حبسه، ويلحقها صريح طلاقه المنجز عند طائفة من العلماء، فإذا تقايلا عقد الخلع، وتراجعا إلى ما كانا عليه بتراضيهما؛ لم تمنع قواعد الشرع ذلك. وهو بخلاف ما بعد العدة. فإنها قد صارت عنه أجنبيّة محضة، فهو خاطب من الخطاب ويدل على هذا؛ أن له أن يتزوجها في عدتها منه بخلاف غيره اهـ.

(1)**وقد** ثَبُتَ بالنص والإجماع؛ أنه لا رجعة في الخلع، وثبت بالسنة وأقوال الصحابة؛ أن العدة فيه حيضة واحدة. وثبت بالنص جوازه بعد طلقتين، ووقوع ثالثة بعده. وهذا ظاهر جدًّا في كونه ليس بطلاق فإنه سبحانه قال: **﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ. فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ. وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾**. [البقرة: ٢٢٩]. وهذا ـ وإن لم يختص بالمطلقة تطليقتين ـ فإنه يتناولها وغيرها. ولا يجوز أن يعود الضمير إلى من لم يذكر، ويخلى منه المذكور، بل إما أن يختص بالسابق، أو يتناوله وغيره.

ثم قال: **﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾**. [البقرة: ٢٣٠]. وهذا يتناول من طُلِّقت بعد فدية وطلقتين قطعًا؛ لأنها هي المذكورة، فلا بد من دخولها تحت اللفظ. فهذا فهم ترجمان القرآن الذي دعا له رسول الله ﷺ أن يعلمه الله تأويل القرآن، وهي دعوة مستجابة بلا شك.

وإذا كانت أحكام الفدية غير أحكام الطلاق؛ دل على أنها من غير جنسه. فهذا مقتضى النص والقياس، وأقوال الصحابة.

ثم من نظر إلى حقائق العقود ومقاصدها دون ألفاظها؛ يعد الخلع فسخًا، بأي لفظ كان، حتى بلفظ الطلاق. وهذا أحد الوجهين لأصحاب أحمد، وهو اختيار

---

(١) ٦٩ زاد المعاد جـ٤.

شيخنا. قال: وهذا ظاهر كلام أحمد، وكلام ابن عباس وأصحابه.

قال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار؛ أنه سمع عكرمة مولى ابن عباس يقول: «ما أجازه المال فليس بطلاق».

قال عبدالله بن أحمد: رأيت أبي كان يذهب إلى قول ابن عباس.

وقال عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس: «الخلع تفريق وليس بطلاق».

وقال ابن جريج، عن ابن طاوس: «كان أبي لا يرى الفداء طلاقاً، ويخيره».

ومن اعتبر الألفاظ، ووقف معها، واعتبرها في أحكام العقود؛ جعله بلفظ الطلاق طلاقًا، وقواعد الفقه وأصوله؛ تشهد أن المَرْعِيَّ في العقود حقائقها ومعانيها، لا صورها وألفاظها. وبالله التوفيق.

ومما يدل على هذا؛ أن النبي ﷺ «أمر ثابت بن قيس أن يطلق امرأته في الخلع تطليقة، ومع هذا؛ أمرها أن تعتد بحيضة» وهذا صريح في أنه فسخ، ولو وقع بلفظ الطلاق.

وأيضًا: فإنه سبحانه علق عليه أحكام الفدية بكونه فدية، ومعلوم أن الفدية لا تختص بلفظ، ولم يعين الله سبحانه لها لفظًا معينًا، وطلاق الفداء طلاق مقيد، ولا يدخل تحت أحكام الطلاق المطلق، كما لا يدخل تحتها في ثبوت الرجعة، والاعتداد بثلاثة قروء بالسنة الثابتة. وبالله التوفيق.

... [1]**ومن** ذلك لفظ الفدية، أدخل فيه طائفة خلع الحيلة على فعل المحلوف عليه مما هو ضد الفدية؛ إذ المراد بقاء النكاح بالخلاص من الحنث، وهي إنما شرعت لزوال النكاح عند الحاجة إلى زواله، وأخرجت منه طائفة ما فيه حقيقة الفدية ومعناها، واشترطت له لفظًا معينًا، وزعمت أنه لا يكون فدية وخلعًا إلا به، وأولئك تجاوزوا به، وهؤلاء قصروا به.

والصوابُ أن كل ما دخله المال فهو فدية بأي لفظ كان، والألفاظ لم ترد لذواتها ولا تعبدنا بها، وإنما هي وسائل إلى المعاني؛ فلا فرق قَطُّ بين أن تقول: «اخلعني بألف» أو: «فَادِنِي بألف» لا حقيقةً ولا شرعًا، ولا لغة ولا عرفًا؛ وكلامُ ابن عباس والإمام أحمد عام في ذلك، لم يقيده أحدهما بلفظ، ولا استثنى لفظًا دون لفظ، بل قال ابن عباس: عامة طلاق أهل اليمن الفداء.

---

(١) ٢٢٣ أعلام جـ١.

وقال الإمام أحمد: الخلع فرقة، وليس بطلاق، وقال: الخلع ما كان من جهة النساء، وقال: ما أجازه المال فليس بطلاق، وقال: إذا خالَعَهَا بعد تطليقتين فإن شاء راجَعَهَا فتكون معه على واحدة.

وقال في رواية أبي طالب: الخلعُ مثلُ حديث سهلة: إذا كرهت المرأة الرجل وقالت: لا أبرُّ لَكَ قَسَمًا، ولا أطيع لك أمرًا، ولا أغتسل لك من جنابة، فقد حل له أن يأخذ منها ما أعطاها؛ لأن النبي ﷺ، قال: «**أتَرُدِينَ عليه حَدِيقتَهُ؟**».

قلت: وقد قال في الحديث: «**اقْبَلِ الحَدِيقَة وطلقها تطليقةً**» وجعل أحمدُ ذلك فداء.

وقال ابن هانىء: سُئل أبوعبدالله عن الخلع: أفَسْخٌ أم طلاق هو أم تذهب إلى حديث ابن عباس، كان يقول فرقة وليس بطلاق؟ فقال أبوعبدالله: كان ابن عباس يتأول هذه الآية: ﴿**الطَّلاقُ مرَّتَانِ فإمِسَاكٌ بمَعروفٍ أو تَسريحٌ بإحْسَانٍ، وَلَا يَحِلُّ لَكُم أَن تَأخُذُوا مِمَّا آتيتُمُوهُنَّ شَيئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقيِمَا حُدُودَ الله، فَإِنْ خِفْتُم أَلَّا يُقِيمَا حُدودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**﴾. [البقرة: ٢٢٩]. وكان ابن عباس يقول: هو فداء، قال ابن عباس: ذكر الله الطلاق في أول الآية، والفداء في وسطها، وذكر الطلاق بعد؛ فالفداء ليس هو بطلاق، وإنما هو فداء، فجعل ابن عباس وأحمد الفداء فداء لمعناه لا للفظه، وهذا هو الصواب؛ فإن الحقائق لا تتغير بتغيير الألفاظ، وهذا باب يطول تتبعه.

فصـــل(1)

ومن العجائب معارضة هذه الأحاديث والآثار بقوله تعالى: ﴿**فإنْ طلّقها فلا تحلُّ له من بَعْدُ حتى تنكحَ زوْجًا غيره**﴾. [البقرة: ٢٣٠]. والذي أنزلت عليه هذه الآية هو الذي لعن المحلِّل والمحلَّل له، وأصحابه أعلم الناس بكتاب الله تعالى، فلم يجعلوه زوجًا، وأبطلوا نكاحه، ولعنوه.

وأعجب من هذا قول بعضهم: نحن نحتجُّ بكونه سَمَّاه «محلِّلا» فلولا أنه أثبت الحلَّ لم يكن محللاً.

فيقال: هذه من العظائم، فإن هذا يتضمن أنَّ رسول الله ﷺ لعن من فعل السُّنَّة التي جاء بها، وفعلَ ما هو جائز صحيح في شريعته؛ وإنما سمَّاه محللاً لأنه

---

(1) ٢٧٥ إغاثة جـ١.

أحلّ ما حرَّم الله، فاستحقَّ اللعنة. فإن الله سبحانه حرمها على المطلِّق، حتى تنكح زوجًا غيره، والنكاح اسم في كتاب الله وسُنة رسوله للنكاح الذي يتعارفه الناس بينهم نكاحًا، وهو الذي شُرِع إعلانه، والضَّربُ عليه بالدُّفوف، والوليمة فيه، وجُعل للإيواء والسكن، وجعله الله مودَّة ورحمة، وجرت العادة فيه بضد ما جرت به في نكاح المحلل. فإن المحلل لم يدخل على نفقة، ولا كسوة، ولا سُكْنَى، ولا إعطاء مهر، ولا يحصل به نسب ولا صهر، ولا قصد المقام مع الزوجة، وإنما دخـل عاريةً، كالتيس المستعار للضِّراب، ولهذا شبهه به النبي ﷺ، ثم لعنه، فعُلم قطعًا لاشك فيه أنه ليس هو الزوج المذكور في القرآن، ولا نكاحُه هو النكاح المذكور في القرآن.

وقد فَطَر الله سبحانه قلوب الناس على أن هذا ليس بنكاح، ولا المحلل بزوج، وأن هذا منكر قبيح، تُعيَّر به المرأة والزوج، والمحلل والوَلِيُّ، فكيف يدخل هذا في النكاح الذي شرعه الله ورسوله، وأحبَّه، وأخبر أنه سنته، ومن رغب عنه فليس منه؟.

وتأمل قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا﴾ [البقرة: ٢٣٠]. أي: فإن طلقها هذا الثاني، فلا جناح عليها وعلى الأول أن يتراجعا، أي: ترجع إليه بعقد جديد، فأتى بحرف «إن» الدالة على أنه يمكنه أن يطلق وأن يُقيم، والتحليل الذي يفعله هؤلاء لا يتمكَّن الزوج فيه من الأمرين، بل يَشْرِطون عليه أنه متى وَطئها فهي طالق، ثم لما علموا أنه قد لا يُخبر بوطئها ولا يُقبلُ قولها في وقوع الطلاق، انتقلوا إلى أن جعلوا الشرط إخبار المرأة بأنه دخل بها. فبمجرد إخبارها بذلك تطلق عليه. والله سبحانه شرع النكاح للوصلة الدائمة وللاستمتاع، وهذا النكاح جعله أصحابه سببًا لانقطاعه، ولوقوع الطلاق فيه، فإنه متى وطىء، كان وطؤه سببًا لانقطاع النكاح وهذا ضد شرع الله...

...[1]**ولا** ريب أن من تدبَّر القرآن والسنة، ومقاصد الشارع؛ جَزم بتحريم الحيل وبطلانها. فإن القرآن دلّ على أن المقاصد والنيَّاتِ معتبرةٌ في التصرُّف والعادات، كما هي معتبرة في القُرُبات والعبادات، فيجعلُ الفعل حلالاً أو حرامًا، وصحيحًا

(١) ٣٧٧ إغاثة جـ١.

أو فاسدًا، وصحيحًا من وجه، فاسدًا من وجه، كما أن القصد والنية في العبادات تجعلها كذلك.

وشواهد هذه القاعدة كثيرة جدًّا في الكتاب والسنة.

وقد سمى الله سبحانه ابتداء النكاح للمطلق ثلاثًا بعد الزوج الثاني مراجعة؛ فقال: ﴿**فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا**﴾. [البقرة: ٢٣٠]. أي: إن طلقها الثاني فلا جناح عليها وعلى الأول؛ أن يتراجعا نكاحًا مستأنفًا.

فمنها: قوله تعالى في آية الرجعة: ﴿**وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا**﴾. [البقرة: ٢٣١]. وذلك نصٌّ في أن الرجْعَة إنما تثبت لمن قَصَدَ الصلاح، دون الضِّرارِ، فإذا قصد الضرار لم يُمَلِّكه الله تعالى الرَّجعية.

...(١)**اسم** «المراجعة» في لسان الشارع؛ قد يكون مع زوال عقد النكاح بالكلية، فيكون ابتداء عقد، وقد يكون مع تشعثه، فيكون إمساكًا.

(٢)**قوله** تعالى: ﴿**وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ**﴾. [النساء: ١٩]. فهذا دليل على أنه إذا عَضَلها لتفتدي نفسها منه، وهو ظالم لها بذلك، لم يحلَّ له أخذ ما بَذلته له ولا يملكه بذلك.

ومنها: قوله تعالى في آية الخُلع: ﴿**وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**﴾. [البقرة: ٢٢٩]. وهذا دليل على أن الخلع المأذون فيه؛ إنما هو إذا خافَ الزوجان أن لا يُقيما حدود الله، وأن النكاح الثاني إنما يُباح إذا ظَنَّا أن يُقيما حدود الله، فإنه شرط في الخلع عدم خوف إقامة حدوده، وشرط في العودِ. ظَنَّ إقامة حدوده.

(٣)**وقد** نهى الله تعالى عن تعدي حدوده وقربانها(٤). فقال: ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾. [البقرة: ١٨٧].

---

(١) ٥٤ زاد المعاد جـ٤.

(٢) ٣٧٨ إغاثة جـ١.

(٣) ٢٦ مدارج جـ٢.

(٤) بالنسخة (قربانه) والصواب ما أثبتناه. المراجع.

وقال: ﴿تلك حدودُ الله فلا تعتدوها﴾. [البقرة: ٢٢٩]. فإن الحدود يراد بها أواخر الحلال. وحيث نهى عن القربان فالحدود هناك؛ أوائل الحرام.

يقول سبحانه: لا تتعدوا ما أبحت لكم. ولا تقربوا ما حرمت عليكم. فالورع يخلص العبد من قربان هذه وتعدي هذه. وهو اقتحام الحدود.

فصل(١)

وأما تفريقه في العدة بين الموت والطلاق وعدة الحرة وعدة الأمة وبين الاستبراء والعدَّة، مع أن المقصود العلم ببراءة الرحم في ذلك كله، فهذا إنما يتبين وجهه إذا عُرِفَت الحكمة التي لأجلها شرعت العدة وعرف أجناس العدد وأنواعها.

فأما المقام الأول ففي شرع العدة عدَّةُ حِكَم:

منها: العلم ببراءة الرحم، وأن لا يجتمع ماء الواطئين فأكثر في رحم واحد، فتختلط الأنساب وتفسد، وفي ذلك من الفساد ما تمنعه الشريعة والحكمة.

ومنها: تعظيم خَطَر هذا العقد، ورفع قدره، وإظهار شرفه.

ومنها: تطويل زمان الرَّجعة للمطلق؛ إذ لعله أن يندم ويفيء فيصادف زمنًا يتمكن فيه من الرجعة.

ومنها: قضاء حق الزوج، وإظهار تأثير فقده في المنع من التزين والتجمل، ولذلك شُرع الإحداد عليه أكثر من الإحداد على الوالد والولد.

ومنها: الاحتياط لحق الزوج، ومصلحة الزوجة، وحق الولد، والقيام بحق الله الذي أوجبه؛ ففي العدة أربعة حقوق.

وقد أقام الشارع الموتَ مقام الدخول في استيفاء المعقود عليه؛ فإن النكاح مدته العمر، ولهذا أقيم مقام الدخول في تكميل الصداق، وفي تحريم الربيبة عند جماعة من الصحابة ومَنْ بعدهم، كما هو مذهب زيد بن ثابت وأحمد في إحدى الروايتين عنه؛ فليس المقصود من العدَّة مجرد براءة الرحِمِ، بل ذلك من بعض مقاصدها وحكمها.

---

(١) ٦٥ أعلام جـ٢.

المقام الثاني في أجناسها، وهي أربعة في كتاب الله، وخامس بسنة رسول الله ﷺ:

الجنس الأول: أمُّ بابِ العِدَّةِ **﴿وَأُولاتُ الأحمالِ أجلُهنَّ أن يَضعنَ حَملَهُنَّ﴾**. [الطلاق: ٤].

الثاني: ﴿والذين يُتَوَفَّون منكم ويَذَرُون أزواجًا يَتَربَّصْنَ بأنفسهنَّ أربعةَ أشهرٍ وَعَشرًا﴾. [البقرة: ٢٣٤].

الثالث: ﴿وَالمطلَّقاتُ يَتَربَّصْنَ بأنفسهنَّ ثَلاثَةَ قُروءٍ﴾. [البقرة: ٢٢٨].

الرابع: ﴿واللَّائي يَئِسْنَ من المحيضِ مِنْ نِسائِكُم إن ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أشهرٍ﴾. [الطلاق: ٤].

الخامس: قول النبي ﷺ: «**لا تُوطأ حاملٌ حتى تَضع، ولا حائل حتى تستبرىء بحيضة**».

ومقدّمُ هذه الأجناس كلها الحاكم عليها كلها وضعُ الحملِ، فإذا وجد فالحكم له، ولا التفات إلى غيره، وقد كان بين السلف نزاع في المتوفى عنها أنها تتربص أبْعَدَ الأجلين، ثم حصل الاتفاق على انقضائها بوضع الحمل.

وأما عدة الوفاة فتجب بالموت، سواء دخل بها أو لم يدخل، كما دل عليه عموم القرآن والسنة الصحيحة واتفاق الناس؛ فإن الموت لما كان انتهاء العقد وانقضاءه؛ استقرت به الأحكام: من التوارث، واستحقاق المهر.

وليس المقصود بالعدة هاهنا مجرد استبراء الرحم كما ظنه بعض الفقهاء؛ لوجوبها قبل الدخول، ولحصول الاستبراء بحيْضَة واحدة، ولاستواء الصغيرة والآيسة وذوات القُرُوء في مدتها، فلما كان الأمر كذلك قالت طائفة: هي تعبدٌ محضٌ لا يعقل معناه، وهذا باطل لوجوه:

منها: أنه ليس في الشريعة حكم واحد إلا وله معنى وحكمة يعقله مَنْ عَقَله ويخفى على من خفي عليه.

ومنها: أن العِدَدَ ليست من باب العبادات المحضة؛ فإنها تجب في حق الصغيرة والكبيرة والعاقلة والمجنونة والمسلمة والذمية، ولا تفتقر إلى نية.

ومنها: أن رعاية حق الزوجين والولد والزوج الثاني ظاهر فيها؛ فالصواب أن يقال: هي حريم لانقضاء النكاح لما كمل، ولهذا تجد فيها رعاية لحق الزوج وحرمة له.

ألا ترى أن النبي ﷺ كان من احترامه ورعاية حقوقه تحريم نسائه بعده.

ولما كانت نساؤه في الدنيا هن نسائه في الآخرة قطعًا، لم يحلَّ لأحد أن يتزوج بهن بعده، بخلاف غيره؛ فإن هذا ليس معلومًا في حقه، فلو حرمت المرأة على غيره لتضررت ضررًا محققًا بغير نفع معلوم، ولكن لو تأيَّمَتْ على أولادها كانت محمودة على ذلك.

وقد كانوا في الجاهلية يبالغون في احترام حق الزوج، وتعظيم حريم هذا العقد غاية المبالغة: من تربُّص سنة في شر ثيابها وحفش بيتها، فخفف الله عنهم ذلك بشريعته التي جعلها رَحمة وحكمة ومصلحة ونعمة، بل هي من أجلِّ نعمه عليهم على الإطلاق، فله الحمد كما هو أهله.

وكانت أربعة أشهر وعشرًا على وفق الحكمة والمصلحة؛ إذ لا بدَّ من مدة مضروبة لها، وأولى المدد بذلك المدة التي يعلم فيها بوجود الولد وعدمه؛ فإنه يكون أربعين يومًا نُطفة، ثم أربعين عَلَقة، ثم أربعين مُضغة، فهذه أربعة أشهر، ثم ينفخ فيه الروح في الطور الرابع، فقدِّر بعشرة أيام لتظهر حياته بالحركة إن كان ثم حملٌ.

فصل

وأما عدة الطلاق فلا يمكن تعليلها بذلك؛ لأنها إنما تجب بعد المسيس بالاتفاق، ولا ببراءة الرحم؛ لأنه يحصل بحيضة كالاستبراء، وإن كان براءة الرحم بعض مقاصدها. ولا يقال: «هي تعبد» لما تقدم، وإنما يتبين حكمها إذا عرف ما فيها من الحقوق؛ ففيها حق الله، وهو امتثال أمره وطَلَب مرضاته، وحق للزوج المطِّلقِ وهو اتساع زمن الرَّجعة له، وحق للزوجة، وهو استحقاقها للنفقة والسكنى مادامت في العدة، وحق للولد، وهو الاحتياط في ثبوت نسبه وأن لا يختلط بغيره، وحق للزوج الثاني، وهو أن لا يَسْقي ماءه زرع غيره.

ورتب الشارع على كل واحد من هذه الحقوق ما يناسبه من الأحكام؛ فرتب على رعاية حقه هو: لزوم المَنْزِلِ، وأنها لا تَخْرُجُ ولا تُخْرَجُ، هذا مُوجَبُ القرآن ومنصوص إمام أهل الحديث وإمام أهل الرأي.

ورتب على حق المطلق تمكينه من الرجعة مادامت في العدة، وعلى حقها

استحقاق النفقة والسكنى، وعلى حق الولد ثبوت نسبه وإلحاقه بأبيه دون غيره، وعلى حق الزوج الثاني دخوله على بصيرة ورحم بريء غير مشغول بولد لغيره؛ فكان في جعلها ثلاثة قروء رعاية لهذه الحقوق، وتكميلاً لها، وقد دل القرآن على أن العدَّة حق للزوج عليها بقوله: ﴿يَا أَيُّها الذينَ آمنوا إذا نَكَحتُم المُؤمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقتُمُوهُن من قبل أن تمسُّوهُنَّ فَمَا لكُم عَلَيهنَّ من عدةٍ تعتدُّونها﴾. [الأحزاب: ٤٩].

فهذا دليل على أن العدة للرجل على المرأة بعد المسيس، وقال تعالى: ﴿وبُعولتُهنَّ أحقُّ بردهنَّ في ذلك، إن أرادوا إصلاحًا﴾. [البقرة: ٢٢٨]. فجعل الزوج أحق بردها في العدة؛ فإذا كانت العدة ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر طالت مدة التربُّص لينظر في أمرها هل يمسكها بمعروف أو يُسرحها بإحسان.

كما جعل الله سبحانه للمولي تربُّصَ أربعة أشهر لينظر في أمره هل يفيء أو يطلق.

وكما جعل مدة تسيير الكفار أربعة أشهر لينظروا في أمرهم ويختاروا لأنفسهم.

فإن قيل: هذه العلة باطلة؛ فإن المختلعةَ والمفسوخ نكاحُها بسبب من الأسباب، والمطلقة ثلاثًا، والموطوءة بشبهة، والمزنيُّ بها تعتدُّ بثلاثة أقراء، ولا رجعة هناك، فقد وُجد الحكم بدون علته، وهذا يبطل كونها علة.

قيل: شرطُ النقض أن يكون الحكم في صورة ثابتًا بنص أو إجماع، وأما كونه قولاً لبعض العلماء فلا يكفي في النقض به.

وقد اختلف الناس في عدة المختلعة؛ فذهب إسحاق وأحمد في أصح الروايتين عنه دليلاً: أنها تعتد بحيضة واحدة، وهو مذهب عثمان بن عفان وعبدالله بن عباس، وقد حكي إجماع الصحابة ولا يعلم لهما مخالف، وقد دلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة دلالة صريحة، وعُذْرُ مَنْ خالفها أنها لم تبلغه، أو لم تصح عنده، أو ظن الإجماع على خلاف موجبها، وهذا القول هو الراجح في الأثر والنظر:

أما رجحانه أثرًا فإن النبي ﷺ لم يأمر المختلعة قط أن تعتد بثلاث حيض، بل قد رَوَى أهلُ السنن عنه، من حديث الربيع بنت معوذٍ؛ أن ثابت بن قيس ضَرَب امرأته فكسر يدها، وهي جميلة بنت عبدالله بن أبيّ، فأتى أخوها يشتكي إلى رسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت، فقال: «**خذ الذي لها عليك**

وخلِّ سبيلها» قال: نعم، فأمرها رسول الله ﷺ أن تتربص حيضة واحدة وتلحق بأهلها.

وذكر أبوداود، والنسائي: من حديث ابن عباس؛ أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها، فأمرها النبي ﷺ أو أُمِرَتْ أن تعتد بحيضة، قال الترمذي: الصحيحُ أنها أمرت أن تعتد بحيضة، وهذه الأحاديث لها طرق يصدق بعضها بعضًا.

وأُعِلّ الحديث بعلتين: أحدهما: إرساله، والثانية: أن الصحيح فيه «أُمِرَتْ» بحذف الفاعل، والعلتان غير مؤثرتين؛ فإنه قد روي من وجوه متصلة، ولا تعارض بين أمرت وأمَرَهَا رسول الله ﷺ؛ إذ من المحال أن يكون الآمر لها بذلك غير رسول الله ﷺ في حياته، وإذا كان الحديث قد روي بلفظ محتمل ولفظ صريح يفسر المحتمل ويبينه، فكيف يجعل المحتمل معارضًا للمفسر بل مقدمًا عليه؟ ثم يكفي في ذلك فتاوى أصحاب رسول الله ﷺ.

قال أبو جعفر النحاس في كتاب الناسخ والمنسوخ: هو إجماع من الصحابة.

وأما اقتضاء النظر له فإن المختلعة لم تَبْقَ لزوجها عليها عدة، وقد ملكت نفسها وصارت أحَقَّ ببُضْعها، فلها أن تتزوج بعد براءة رحمها، فصارت العدة في حقها بمجرد براءة الرحم، وقد رأينا الشريعة جاءت في هذا النوع بحيضة واحدة، كما جاءت بذلك في المَسْبِيَّة والمملوكة بعقد معاوضة أو تبرع والمهاجرة من دار الحرب، ولا ريب أنها جاءت بثلاثة أقراء في الرجعية، والمختلعةُ فرعٌ متردد بين هذين الأصلين؛ فينبغي إلحاقها بأشبهها بها؛ فنظرنا فإذا هي بذوات الحيضة أشبَهُ.

ومما يبين حكمة الشريعة في ذلك؛ أن الشارع قسم النساء إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: المفارقة قبل الدخول؛ فلا عدة عليها ولا رجعة لزوجها فيها.

الثاني: المفارقة بعد الدخول إذا كان لزوجها عليها رجعة، فجعل عدتها ثلاثة قروء، ولم يذكر سبحانه العدة بثلاثة قروء إلا في هذا القسم، كما هو مصرح به في القرآن في قوله تعالى: ﴿**وَالمطلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأنفُسهنَّ ثَلاَثَة قرُوءٍ، وَلاَ يَحِلُّ لهنَّ أن يكتُمْنَ مَا خَلَق الله في أرْحَامهنَّ، إن كُنَّ يُؤمنَّ بالله واليوم الآخِرِ، وَبُعُولَتُهنَّ أحقُّ بردهنَّ في ذلك، إن أرادوا إصْلاَحًا**﴾. [البقرة: ٢٢٨]. وكذا في سورة الطلاق لَمَّا ذكر الاعتداد بالأشهر الثلاثة في حق مَنْ إذا بلغت أجلها خُيِّرَ زوجها بين إمساك بمعروف أو مفارقتها بإحسان، وهي الرجعية قطعًا، فلم يذكر الأقراء أو بَدَلها في حق بائن ألبتة.

القسم الثالث: مَنْ بانت عن زوجها وانقطع حقه عنها بسَبْي أو هِجْرة أو خُلْع؛ فجعل عدتها حيضة للاستبراء، ولم يجعلها ثلاثًا؛ إذ لا رجعة للزوج، وهذا في غاية الظهور والمناسبة.

وأما الزانية والموطوءة بشبهة فموجبُ الدليل أنها تُستبرأ بحيضة فقط، ونص عليه أحمد في الزانية، واختاره شيخنا في الموطوءة بشبهة، وهو الراجح، وقياسهما على المطلقة الرجعية من أبعد القياس وأفسده.

فإن قيل: فهبْ أن هذا قد سلم لكم فيما ذكرتم من الصور، فإنه لا يُسَلَّم معكم في المطلقة ثلاثًا؛ فإن الإجماع منعقد على اعتدادها بثلاثة قروء مع انقطاع حق زوجها من الرجعة، والقصد مجرد استبراء رحمها.

قيل: نعم هذا سؤال وارد، وجوابه من وجهين:

أحدهما: أنه قد اختلف في عدتها: هل هي بثلاثة قروء أو بقُرْءٍ واحد؟ فالجمهور ـ بل الذي لا يعرف الناس سواه ـ أنها ثلاثة قروء.

وعلى هذا فيكون وَجهه أن الطَّلقة الثالثة لما كانت من جنس الأوليين أعطيت حكمهما؛ ليكون باب الطلاق كله بابًا واحدًا، فلا يختلف حكمه؛ والشارعُ إذا عَلَّق الحكم بوصف لمصلحة عامة لم يكن تخلفُ تلك المصلحة والحكمة في بعض الصور مانعًا من ترتب الحكم، بل هذه قاعدة الشريعة وتصرفها في مصادرها ومواردها.

الوجه الثاني: أن الشارع حرَّمها عليه حتى تنكح زوجًا غيره، عقوبة له، ولعن المحلِّل والمُحَلَّل له؛ لمناقضتهما ما قصده الله سبحانه من عقوبته؛ وكان من تمام هذه العقوبة أن طَوَّل مدة تحريمها عليه؛ فكان ذلك أبلغ فيما قصده الشارع من العقوبة، فإنه إذا علم أنها لا تحل له حتى تعتد بثلاثة قروء، ثم يتزوجها آخر بنكاح رغبة مقصودٍ لا تحليلٍ مُوجِبٍ للَّعْنَةِ، ويفارقها، وتعتد من فراقه ثلاثة قروء أخر، طال عليه الانتظار، وعِيلَ صبره، فأمسك عن الطلاق الثلاث، وهذا واقع على وفق الحكمة والمصلحة والزجر؛ فكان التربص بثلاثة قروء في الرجعية نظرًا للزوج ومراعاة لمصلحته لما لم يوقع الثالثة المحرمة لها، وههنا كان تربصها عقوبة له وزجرًا لما أوقع الطلاق المحرم لما أحل الله له، وأكدت هذه العقوبة بتحريمها عليه إلا بعد زوج وإصابة وتربص ثان.

وقيل: بل عدتها حيضة واحدة، وهي اختيار أبي الحسين بن اللبان؛ فإن كان مسبوقًا بالإجماع فالصواب اتباع الإجماع، وأن لا يلتفت إلى قوله، وإن لم يكن في المسألة إجماع فقوله قوي ظاهر، والله أعلم.

فإن قيل: فقد جاءت السنة بأن المخيرة تعتد ثلاث حِيَضٍ، كما رواه ابن ماجه من حديث عائشة قالت: أُمِرَتْ بَرِيْرَةُ أن تعتد ثلاث حِيَضٍ.

قيل: ما أصْرَحَه من حديث لو ثبت! لكنه حديث منكر بإسناد مشهور، وكيف يكون عند أم المؤمنين هذا الحديث وهي تقول: الأقراء الأطهار؟ فإن صح الحديث وجب القول به، ولم تسع مخالفته، ويكون حكمه حكم المطلقة ثلاثًا في اعتدادها بثلاثة قروء ولا رجعة لزوجها عليها؛ فإن الشارع يخصص بعض الأعيان والأفعال والأزمان والأماكن ببعض الأحكام، وإن لم يظهر لنا موجَبُ التخصيص، فكيف وهو ظاهر في مسألة المخيرة، فإنها لو جعلت عدتها حيضة واحدة لبادرت إلى التزوج بعدها، وأيس منها زوجها؟ فإذا جعلت ثلاث حيض طال زمن انتظارها وحَبْسِها عن الأزواج، ولعلها تتذكر زوجها فيها وترغب في رجعته، ويزول ما عندها من الوَحْشة، ولو قيل: إن اعتداد المختلعة بثلاث حِيَضٍ لهذا المعنى بعينه؛ لكان حسنًا على وفق حكمة الشارع، ولكن هذا مفقود في المسبية والمهاجرة والزانية والموطوءة بشبهة.

فإن قيل: فهَبْ أن هذا كله قد سلم لكم، فكيف يسلم لكم في الآيسة والصغيرة التي لا يوطأ مثلها؟

قيل: هذا إنما يرد على مَنْ جعل علة العدة مجرد براءة الرحم فقط، ولهذا أجابوا عن هذا السؤال بأن العدة ههنا شُرِعَتْ تعبدًا محضًا غير معقول المعنى، وأما مَنْ جعل هذا بعض مقاصد العدة وأن لها مقاصد أُخر من تكميل شأن هذا العقد واحترامه وإظهار خَطَره وشرفه فجعل لهم حريم بعد انقطاعه بموت أو فرقة، فلا فرق في ذلك بين الآيسة وغيرها، ولا بين الصغيرة والكبيرة، مع أن المعنى الذي طُوِّلَتْ له العدة في الحائض في الرجعية والمطلقة ثلاثًا؛ موجودٌ بعينه في حق الآيسة والصغيرة، وكان مقتضى الحكمة التي تضمنت النظر في مصلحة الزوج في الطلاق الرجعي، وعقوبته وزجره في الطلاق المحرم؛ التسوية بين النساء في ذلك، وهذا ظاهر جدًّا، وبالله التوفيق.

فصل

وأما تحريم المرأة على الزوج بعد الطلاق الثلاث، وإباحتها له بعد نكاحها للثاني؛ فلا يَعْرِف حكمته إلا مَن له معرفة بأسرار الشريعة، وما اشتملت عليه من الحكم والمصالح الكلية فنقول وبالله التوفيق:

لما كان إباحة فَرْج المرأة للرجل بعد تحريمه عليه ومنعه منه؛ من أعظم نعم الله عليه، وإحسانه إليه؛ كان جديرًا بشكر هذه النعمة، ومراعاتها، والقيام بحقوقها، وعدم تعريضها للزوال، وتنوعت الشرائع في ذلك بحسب المصالح التي علمها الله في كل زمان ولكل أمة.

فجاءت شريعة التوراة بإباحتها له بعد الطلاق ما لم تتزوج، فإذا تزوجت حرمت عليه، ولم يبق له سبيل إليها؛ وفي ذلك من الحكمة والمصلحة ما لا يخفى؛ فإن الزوج إذا علم أنه إذا طلق المرأة وصار أمرُها بيدها، وأن لها أن تنكح غيره، وأنها إذا نكحت غيره حرمت عليه أبدًا، كان تمسكه بها أشدَّ، وحَذَره من مفارقتها أعظم، وشريعة التوراة جاءت بحسب الأمة الموسوية فيها من الشدة والإصْرِ ما يناسب حالها.

ثم جاءت شريعة الإنجيل بالمنع من الطلاق بعد التزوج ألبتة، فإذا تزوج بامرأة فليس له أن يطلقها.

ثم جاءت الشريعة الكاملة الفاضلة المحمديَّة، التي هي أكمل شريعةٍ نزلت من السماء على الإطلاق، وأجلُّها وأعلاها وأقْوَمُها بمصالح العباد في المعاش والمعاد؛ بأحسن من ذلك كله وأكمله وأوفقه للعقل والمصلحة.

فإن الله سبحانه أكمل لهذه الأمة دينها، وأتم عليها نعمته، وأباح لها من الطيبات ما لم يُبِحهُ لأمة غيرها.

فأباح للرجل أن ينكح من أطايب النساء أربعًا، وأن يَتَسَرَّى من الإماء بما شاء، وليس التسرى في شريعة أخرى غيرها.

ثم أكمل لعبده شَرْعَه، وأتم عليه نعمته، بأن ملكه أن يفارق امرأته ويأخذ غيرها؛ إذ لعل الأولى لا تصلح له ولا توافقه، فلم يجعلها غلًّا في عُنُقه، وقيدًا في رجله، وإصرًا على ظَهْره، وشرع له فراقها على أكمل الوجوه لها وله، بأن يفارقها

واحدة ثم تتربص ثلاثة قروء، والغالب أنها في ثلاثة أشهر، فإن تاقَتْ نفسه إليها، وكان له فيها رغبة، وصرَّفَ مُقلِّب القلوب قلبه إلى محبتها، وجَدَ السبيلَ إلى ردها ممكنًا، والباب مفتوحًا، فراجع حبيبته، واستقبل أمره، وعاد إلى يده ما أخرجته يد الغضب ونزغات الشيطان منها.

ثم لا يؤمن غلبات الطباع ونزغات الشيطان من المعاودة، فمكن من ذلك أيضًا مرة ثانية، ولعلها أن تذوق من مرارة الطلاق وخراب البيت ما يمنعها من معاودة ما يغضبه، ويذوق هو من ألم فراقها ما يمنعه من التسرع إلى الطلاق، فإذا جاءت الثالثة جاء مالا مَرَدَّ له من أمر الله، وقيل له: قد اندفعت حاجتك بالمرة الأولى والثانية، ولم يبق لك عليها بعد الثالثة سبيل، فإذا علم أن الثالثة فراقُ بينِه وبينها وأنها القاضية أمسك عن إيقاعها، فإنه إذا علم أنها بعد الثالثة لا تحلُّ له إلا بعد تربص ثلاثة قروء وتزوج بزوج راغب في نكاحها وإمساكها، وأن الأول لا سبيل له إليها حتى يدخل بها الثاني دخولاً كاملاً يذوق فيه كل واحد منهما عُسَيْلَةَ صاحبه؛ بحيث يمنعهما ذلك من تعجيل الفراق ثم يفارقها: بموت أو طلاق أو خُلع ثم تعتدُّ من ذلك عدةً كاملة؛ تبين له حينئذ يأسُه بهذا الطلاق الذي هو من أبغض الحلال إلى الله، وعلم كل واحد منهما أنه لا سبيل له إلى العوْد بعد الثالثة، لا باختياره ولا باختيارها، وأكد هذا المقصود بأن لَعَنَ الزوج الثاني إذا لم ينكح نكاح رغبة يقصد فيه الإمساك، بل نكح نكاح تحليل، ولعن الزوج الأول إذا ردَّها بهذا النكاح، بل ينكحها الثاني كما نكحها الأول، ويطلقها كما طلقها الأول، وحينئذ فتباح للأول كما تباح لغيره من الأزواج.

وأنت إذا وازنت بين هذا وبين الشريعتين المنسوختين، ووازنت بينه وبين الشريعة المبدلة المبيحة ما لعن الله ورسوله فاعله، تبين لك عظمة هذه الشريعة، وجَلالتها، وهيمنتها على سائر الشرائع، وأنها جاءت على أكمل الوجوه وأتمها وأحسنها وأنفعها للخلق، وأن الشريعتين المنسوختين خير من الشريعة المبَدَّلة، فإن الله سبحانه شرعهما في وقت، ولم يشرع المبدلة أصلاً.

وهذه الدقائق ونحوها مما يختص الله سبحانه بفهمه من يشاء؛ فمن وصل إليها فليحمد الله، ومن لم يصل إليها فليسلم لأحكم الحاكمين وأعلم العالمين، وليعلم أن شريعته فوق عقول العقلاء وَفَوْقَ فِطَر الألبَّاء:

وقل للعُيون الرُّمْد لا تتقدَّمي ... إلى الشمس، واستغشى ظَلَامَ اللياليا
وَسامح، ولا تنكر عليها، وخلِّها ... وإن أنكرت حقًّا فقل خَلِّ ذاليا

وقال غيره:

عاب التفُّقَه قومٌ لا عُقُول لهم ... وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضرَّ شَمْسَ الضحى والشمسُ طَالعة ... أن لا يَرى ضَوءَها مَنْ ليس ذا بَصَرِ

(1)ذكر حكمه ﷺ في العِدَد

هذا الباب قد تولى الله سبحانه بيانه في كتابه أتم بيان، وأوضحه وأجمعه؛ بحيث لا تشذ عنه معتدة. فذكر أربعة أنواع من العدد. وهي جملة أنواعها:

النوع الأول: عدة الحامل: بوضع الحمل مطلقًا؛ بائنة كانت أو رجعية، مفارقة في الحياة، أو متوفى عنها. فقال: ﴿**وأولاتُ الأحمالِ أجلُهنَّ أن يَضَعْنَ حملهنَّ**﴾. [الطلاق: ٤]. وهذا فيه عموم من ثلاث جهات:

أحدها: عموم المخبر عنه. وهو ﴿**أُولَاتُ الأَحْمَالِ**﴾ فإنه يتناول جميعهن.

الثاني: عموم الأجل. فإنه إضافة إليهن، وإضافة اسم الجمع إلى المعرفة يعم. فجعل وضع الحمل جميع أجلهن. فلو كان لبعضهن أجل غيره لم يكن جميع أجلهن.

الثالث: أن المبتدأ والخبر معرفتان. أما المبتدأ: فظاهر. وأما الخبر ـ وهو قوله تعالى: ﴿**أن يضعن حملهن**﴾ ـ ففي تأويل مصدر مضاف: أي أجلهن وضع حملهن، والمبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين؛ اقتضى ذلك حصر الثاني في الأول. كقوله: ﴿**يا أيُّها النَّاسُ أنْتم الفُقَرَاءُ إلى الله. والله هُو الغنيُّ الحَمِيدُ**﴾. [فاطر: ١٥].

وبهذا احتج جمهور الصحابة على أن الحامل المتوفى عنها: عدتها وضع حملها. ولو وضعته والزوج على المغتسل، كما أفتى به النبي ﷺ سُبيعة الأسلمية. وكان هذا الحكم والفتوى منه مشتقًا من كتاب الله مطابقًا له.

النوع الثاني: عدة المطلقة التي تحيض وهي ثلاثة قروء. كما قال الله تعالى: ﴿**والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**﴾. [البقرة: ٢٢٨].

النوع الثالث: عدة التي لا حيض لها. وهي نوعان: صغيرة لا تحيض، وكبيرة

---

(١) ٣٥٥ زاد المعاد جـ٤.

قد يئست من الحيض. فبين سبحانه عدة النوعين بقوله: ﴿واللائي يَئِسْنَ مِنْ المَحِيضِ مِن نِسَائِكُمْ إنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَتُهُنَّ ثلاثَةُ أَشْهُرٍ، واللائي لم يَحِضْنَ﴾. [الطلاق: ٤]. أي: فعدتهن كذلك.

النوع الرابع: المتوفَّى عنها زوجها. فبين عدتها بقوله سبحانه: ﴿والذين يُتوفَّون منكم ويَذَرون أزواجًا: يتربصن بأنفسهن أربعةَ أشهرٍ وعشرًا﴾. [البقرة: ٢٣٤]. فهذا يتناول المدخول بها وغيرها، والصغيرة والكبيرة.

ولا يدخل فيه الحامل؛ لأنها خرجت بقوله: ﴿وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. [الطلاق: ٤]. فجعل وضع حملهن جميع أجلهن، وحصره فيه. بخلاف قوله في المتوفَّى عنهن: ﴿يتربصن﴾ فإنه فعل مطلق لا عموم له.

وأيضًا فإن قوله: ﴿أجلُهُنَّ أن يضعْنَ حملَهن﴾. [الطلاق: ٤]. متأخر في النزول عن قوله: ﴿يتربصْنَ﴾. [البقرة: ٢٣٤].

وأيضًا فإن قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَة أَشْهرٍ وعَشْرًا﴾. في غير الحامل بالاتفاق. فإنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته. فعمومها مخصوص اتفاقًا. وقوله: ﴿أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. غير مخصوص بالاتفاق. هذا لو لم تأت السنة الصحيحة بذلك. ووقعت الحوالة على القرآن. فكيف والسنة الصحيحة موافقة لذلك مقررة له؟

فهذه أصول العدد في كتاب الله، مفصلة مبينة.

ولكن اختلف في فهم المراد من القرآن ودلالته في مواضع من ذلك.

وقد دلت السنة ـ بحمد الله ـ على مراد الله منها.

ونحن نذكرها، ونذكر أولى المعاني وأشبهها، ودلالة السنة عليها.

فمن ذلك: اختلاف السلف في المتوفى عنها إذا كانت حاملاً.

فقال علي وابن عباس وجماعة من الصحابة: «أبعد الأجلين: من وضع الحمل، أو أربعة أشهر وعشرًا» وهذا أحد القولين في مذهب مالك. اختاره سُحْنون.

قال أحمد في رواية أبي طالب عنه: إن علي بن أبي طالب وابن عباس يقولان في المعتدة الحامل: «أبعد الأجلين».

وكان ابن مسعود يقول: «من شاء بَاهَلْتُه: إن سورة النساء القُصري نزلت بعدُ».

وحديث سُبيعة يقضي بينهم: «إذا وضعت: فقد حَلَّت».

وابن مسعود يتأول القرآن: ﴿أجلهُنَّ أن يَضَعْنَ حملَهن﴾ [الطلاق: ٤] هي في المتوفى عنها. والمطلقة مثلها، إذا وضعت: فقد حلت وانقضت عدتها.

ولا تنقضي عدة الحامل إذا أُسقطت حتى يتبين خَلقه. فإذا بان له يد أو رجل عتقت به الأمة، وتنقضي به العدة. وإذا ولدت ولدًا وفي بطنها آخر: لم تنقض العدة حتى تلد الآخر، ولا تغيب عن منزلها الذي أصيب فيه زوجها أربعة أشهر وعشرًا، إذا لم تكن حاملاً. والعدة من يوم يموت أو يطلق. هذا كلام أحمد.

وقد تناظر في هذه المسألة ابن عباس وأبوهريرة، فقال أبوهريرة: «عدتها وضع الحمل».

وقال ابن عباس: «عدتها أقصى الأجلين» فحكَّما أم سلمة. فحكمت لأبي هريرة. واحتجت بحديث سُبيعة. وقد قيل: إن ابن عباس رجع.

وقال جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم، والأئمة الأربعة: إن عدتها وضع الحمل. ولو كان الزوج على مغتسله، فوضعت؛ حلت.

قال أصحاب الأجلين: هذه قد تناولها عمومان. وقد أمكن دخولها في كليهما. فلا تخرج من عدتها بيقين حتى يأتي عليها أقصى الأجلين.

قالوا: ولا يمكن تخصيص عموم إحداهما بخصوص الأخرى. لأن كل آية منهما عامة من وجه، خاصة من وجه.

قالوا: فإذا أمكن دخول بعض الصور في عموم الآيتين، يعني إعمالاً للعموم في مقتضاه. فإذا اعتدَّت أقصى الأجلين: دخل أدناهما في أقصاهما.

والجمهور أجابوا عن هذا بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن صريح السنة يدل على اعتبار الحمل فقط، كما في الصحيحين: أن سبيعة الأسلمية تُوفِّي عنها زوجها، وهي حبلى، فوضعت، فأرادت أن تنكح، فقال لها أبوالسنابل: ما أنت بناكحة حتى تعتدي آخر الأجلين. فسألت النبي ﷺ؟ فقال: «**كذب أبو السنابل قد حللت، فانكحي من شئت**».

الثاني: أن قوله: ﴿وأولاتُ الأحمالِ أجلُهن أن يضعْنَ حملَهنُ﴾ [الطلاق: ٤]. نزلت بعد قوله: ﴿والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويذَرُون أزواجًا يتربَّصْنَ بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشرًا﴾. [البقرة: ٢٣٤]. وهذا جواب عبدالله بن مسعود. كما في صحيح

البخاري عنه: «أيجعلون عليها التغليظ، ولا يجعلون لها الرخصة؟ أشهدُ لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى: ﴿وأولاتُ الأحمالِ أجلهن أن يَضَعْنَ حملَهُن﴾. [الطلاق: ٤].».

وهذا الجواب يحتاج إلى تقرير. فإن ظاهره؛ أن آية سورة الطلاق مقدمة على آية البقرة. لتأخرها عنها فكانت ناسخة لها. ولكن النسخ عند الصحابة والسلف: أعم منه عند المتأخرين. فإنهم يريدون به ثلاثة معان:

أحدها: رفع الحكم الثابت بخطاب.

الثاني: رفع دلالة الظاهر: إما بتخصيص، وإما بتقييد وهو أعم مما قبله.

الثالث: بيان المراد باللفظ الذي بيانه من خارج. وهذا أعم من المعنيين الأولين. فابن مسعود أشار بتأخر نزول سورة الطلاق إلى أن آية الاعتداد بوضع الحمل ناسخة لآية البقرة، إن كان عمومها مرادًا، أو مخصصة لها إن لم يكن عمومها مرادًا، أو مبينة للمراد منها، أو مقيدة لإطلاقها. وعلى التقديرات الثلاث؛ فيتعين تقديمها على عموم تلك وإطلاقها. وهذا من كمال فقهه ورسوخه في العلم، ومما يبين أن أصول الفقه، التي هي أصول الفقه؛ سَجِيّة للقوم وطبيعة لهم، لا يتكلفونها، كما أن العربية والمعاني والبيان وتوابعها لهم كذلك. فمن بعدهم إنما يجهد نفسه ليتعلق بغبارهم، وأنَّى له؟.

(١)**الثالث:** أنه لو لم تأت السنة الصريحة باعتبار الحمل، ولم تكن آية الطلاق متأخرة؛ لكان تقديمها هو الواجب، لما قررناه أولاً من جهات العموم الثلاثة فيها، وإطلاق قوله: ﴿يتربَصْنَ﴾ وقد كانت الحوالة على هذا الفهم ممكنة. ولكن لغموضه ودقته على كثير من الناس؛ أحيل في ذلك الحكم على بيان السنة. وبالله التوفيق.

فصل

ودل قوله سبحانه: ﴿أجلهن أن يضعن حملهن﴾ [الطلاق: ٤]. على أنها إذا كانت حاملاً بتوءمين؛ لم تنقض العدة حتى تضعهما جميعًا.

ودلت على أن من عليها الاستبراء، فعدتها؛ وضع الحمل أيضًا.

ودلت على أن العدة تنقضي بوضعه على أي صفة كان: حيًا أو ميتًا، تام

---

(١) المقصود به الجواب الثالث الذي أجاب به الجمهور عن رأي أصحاب الأجلين وقد سبق الجوابان الأول والثاني. المراجع.

الخلقة أو ناقصها، نفخ فيه الروح أو لم ينفخ.

ودل قوله: ﴿**يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**﴾ [البقرة: ٢٣٤]. على الاكتفاء بذلك. وإن لم تحض. وهذا قول الجمهور. وقال مالك: إذا كانت عادتها أن تحيض في كل سنة مرة. فتوفي عنها زوجها؛ لم تنقض عدتها حتى تحيض حيضتها، فتبرأ من عدتها. فإن لم تحض انتظرت تمام تسعة أشهر من يوم وفاته. وعنه رواية ثانية كقول الجمهور: أنها تعتد أربعة أشهر وعشرًا. ولا تنتظر حيضها. . .[1]

...[2]**الدليل** الثاني: أن لفظ (القرء) لم يستعمل في كلام الشارع إلا للحيض، ولم يجيء عنه في موضع واحد استعماله للطهر، فحمله في الآية على المعهود المعروف من خطاب الشارع؛ أولى، بل متعين. فإنه ﷺ قال للمستحاضة: «**دعي الصلاة أيام أقرائك**» وهو ﷺ المعبر عن الله تعالى. وبلغة قومه نزل القرآن. فإذا ورد المشترك في كلامه على أحد معنييه؛ وجب حمله في سائر كلامه عليه، إذ لم تثبت إرادة الآخر في شيء من كلامه ألبتة. ويصير هو لغة القرآن التي خوطبنا بها. وإن كان له معنى آخر في كلام غيره. ويصير هذا المعنى؛ الحقيقة الشرعية في تخصيص المشترك بأحد معنييه، كما يخص المتواطىء بأحد أفراده. بل هذا أولى؛ لأن أغلب أسباب الاشتراك تسمية أحد القبيلتين الشيء باسم، وتسمية الأخرى بذلك الاسم مسمى آخر. ثم تتسع الاستعمالات. بل قال المبرد وغيره: لا يقع الاشتراك في اللغة إلا بهذا الوجه خاصة. والواضع لم يضع لفظًا مشتركًا ألبتة، فإذا ثبت استعمال الشارع لفظ «القرء» في الحيض؛ علم أن هذه لغته، فيتعين حمله عليها في كلامه.

يوضح ذلك: ما في سياق الآية من قوله: ﴿**لَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ**﴾. [البقرة: ٢٢٨]. وهذا هو الحيض. والحمل، عند عامة المفسرين. والمخلوق في الرحم؛ إنما هو الحيض الوجودي، ولهذا قال السلف والخلف: هو الحمل والحيض. وقال بعضهم: الحمل، وبعضهم: الحيض. ولم يقل أحد قط: إنه الطهر؛ ولهذا لم ينقله من عُني بجمع أقوال أهل التفسير، كابن الجوزي وغيره.

---

(١) ذكر الشيخ ابن القيِّم هنا مانصه باختصار: فصل: ومن ذلك اختلافهم في الأقراء: هل هي الحيض أو الأطهار؟ فقال أكابر الصحابة: إنها الحيض. . وقالت طائفة: الأقراء الأطهار. . وذكر البحث في عدة صفحات لمن أراده اهـ.ج.

(٢) ٣٦٥ زاد المعاد جـ٤.

وأيضًا: فقد قال سبحانه: ﴿**وَاللَّائي يَئِسْنَ من المحيضِ من نِسَائِكم إنِ ارْتَبْتُم فَعِدَّتُهنَّ ثَلاثَةُ أشهرٍ، واللَّائي لَم يَحضنَ**﴾. [الطلاق: ٤]. فجعل كل شهر بإزاء حيضة. وعلق الحكم بعدم الحيض، لا بعدم الطهر من الحيض.

وأيضًا: فحديث عائشة، عن النبي ﷺ: «**طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان**» رواه أبو داود، وابن ماجه، والترمذي. وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث مظاهر بن أسلم. ومظاهر؛ لا يعرف له في العلم غير هذا الحديث.

وفي لفظ للدارقطني: «**طلاق العبد ثنتان**»، وروى ابن ماجه: من حديث عطية العوفي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**طلاق الأمة اثنتان، وعدتها حيضتان**».

وأيضًا قال ابن ماجه في سننه: حدثنا علي بن محمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: «أمرت بَريرة أن تعتد بثلاث حيض».

وفي المسند: عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ خَيَّر بريرة. فاختارت. وأمرها أن تعتد عدة الحرة» وقد فسر «عدة الحرة» بثلاث حيض في حديث عائشة.

فإن قيل: فمذهب عائشة: أن الأقراء الأطهار؟

قيل: ليس هذا بأول حديث خالفه راويه، فأخذنا بروايته دون رأيه.

وأيضًا: ففي حديث الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذ؛ «أن النبي ﷺ أمر امرأة ثابت بن قيس بن شمّاس ـ لما اختلعت من زوجها ـ أن تتربص حيضة واحدة، وتلحق بأهلها» رواه النسائي.

وفي سنن أبي داود: عن ابن عباس؛ «أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها؛ فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة».

وفي الترمذي؛ «أن الربيع بنت معوذ اختلعت على عهد رسول الله ﷺ فأمرها رسول الله ـ أو أمرت ـ أن تعتد بحيضة» قال الترمذي: حديث الربيع الصحيح: «أنها أُمِرَتْ أن تعتد بحيضة».

وأيضًا: فإن الاستبراء هو عدة الأمة، وقد ثبت عن أبي سعيد؛ أن النبي ﷺ، قال في سبايا أوطاس: «**لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة**» رواه أحمد وأبوداود.

فإن قيل: لا نسلم أن استبراء الأمة بالحيضة، وإنما هو بالطهر الذي هو قبل الحيضة. كذلك قال ابن عبد البر، وقال: قولهم: «إن استبراء الأمة حيضة بإجماع» ليس كما ظنوا. بل جائز لها عندنا؛ أن تنكح إذا دخلت في الحيضة، واستيقنت أن دمها دم حيض. كذلك قال إسماعيل بن إسحاق ليحيى بن أكثم حين أدخل عليه في مناظرته إياه؟

قلنا: هذا يرده قوله ﷺ: «**لا توطأ حامل حتى تضع، ولا حائل حتى تستبرأ بحيضة**».

وأيضًا: فالمقصود الأصلي من العدة؛ إنما هو استبراء الرحم. وإن كان لها فوائد أخر. ولشرف الحرة المنكوحة وخطرها؛ جعل العلم الدال على براءة رحمها: ثلاثة أقراء. فلو كان القرء هو الطهر؛ لم تحصل بالقرء الأول دلالة. فإنه لو جامعها في الطهر، ثم طلقها ثم حاضت؛ كان ذلك قرءًا محسوبًا من الأقراء عند من يقول: الأقراء الأطهار، ومعلوم أن هذا لم يدل على شيء؛ وإنما الذي يدل على البراءة الحيض الحاصل بعد الطلاق، لو طلقها في طهر لم يصبها فيها؛ فإنما يعلم هنا براءة الرحم بالحيض الموجود قبل الطلاق. والعدة لا تكون قبل الطلاق؛ لأنها حكمة. والحكم لا يسبق سببه فإذا كان الطهر الموجود بعد الطلاق لا دلالة له على البراءة أصلاً؛ لم يجز إدخاله في العدة الدالة على براءة الرحم. وكان مثله كمثل شاهد غير مقبول. ولا يجوز تعليق الحكم بشهادة شاهد لا شهادة له. . .

...[1]**فإن** قيل: فإذا جعلنا الأقراء الأطهار استقبلت عدتها بعد الطلاق بلا فصل، ومن جعلها الحيض لم تستقبلها على قوله حتى ينقضي الطهر.

قيل: كلام الرب تبارك وتعالى لابد أن يحمل على فائدة مستقلة. وحمل الآية على معنى: فطلقوهن طلاقًا، تكون العدة بعده؛ لا فائدة فيه. وهذا بخلاف ما إذا كان المعنى: فطلقوهن طلاقًا، يستقبلن فيه العدة، لا يستقبلن فيه طهرًا لا تعتد به. فإنها إذا طلقت حائضًا استقبلت طهرًا لا تعتد به. فلم تطلق لاستقبال العدة. ويوضحه قراءة من قرأ: [فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ]. وقُبُل العدة هو الوقت الذي يكون بين يدي العدة تستقبل به، كقبل الحائض.

يوضحه: أنه لو أريد ما ذكروه لقيل: في أول عدتهن. فالفرق بَيِّنٌ بين قُبل

(١) ٣٨٣ زاد المعاد جـ٤ .

الشيء وأوله.

وأما قولكم: لو كانت القروء هي الحيضة؛ لكان قد طلقها قبل العدة.

فنقول: أجل. وهذا هو الواجب عقلاً وشرعًا: فإن العدة لا تفارق الطلاق ولا تسبقه.. بل يجب تأخرها عنه.

وقولكم: وكان ذلك تطويلاً عليها كما لو طلقها في الحيض.

قيل: هذا مبني على أن العلة في تحريم طلاق الحائض خشية التطويل عليها، وكثير من الفقهاء لا يرضون هذا التعليل، ويفسدونه بأنها لو رضيت بالطلاق فيه، واختارت التطويل؛ لم تُبَحْ له. ولو كان ذلك لأجل التطويل، لم تُبَحْ له برضاها، كما يباح إسقاط الرجعة الذي هو حق المطلق بتراضيهما بإسقاطها بالعوض اتفاقًا، ويدونه في أحد القولين. وهذا مذهب أبي حنيفة وإحدى الروايتين عن أحمد ومالك. ويقولون: إنما حرم طلاقها في الحيض لأنه طلقها في وقت رغبته عنها. ولو سلمنا أن التحريم لأجل التطويل عليها فالتطويل المضر؛ أن يطلقها حائضًا، فتنتظر مضي الحيضة والطهر الذي يليها، ثم تأخذ في العدة. فلا تكون مستقبلة لعدتها بالطلاق. وأما إذا طلقت طاهرًا؛ فإنها تستقبل العدة عقب انقضاء الطهر. فلا يتحقق التطويل.

وقولكم: «إن القرء مشتق من الجمع؛ وإنما يجمع الحيض في زمن الطهر» عنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن هذا ممنوع. والذي هو مشتق من الجمع؛ إنما هو من باب اليائي من المعتل. من قَرَى يقري كقضى يقضي. والقرء من المهموز من باب الهمز. من قرأ يقرأ كنحر ينحر. وهما أصلان مختلفان. فإنهم يقولون: قريت الماء في الحوض أقريه: أي: جمعته. ومنه سميت القرية. ومنه قرية النمل: للبيت الذي تجتمع فيه؛ لأنه يقريها أي: يضمها ويجمعها.

وأما المهموز: فإنه من الظهور والخروج على وجه التوقيت والتحديد. ومنه قراءة القرآن. لأن قارئه يظهره ويخرجه مقدرًا محددًا، لا يزيد ولا ينقص.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ علينا جمعَه وقرآنَهُ**﴾ [القيامة: ١٧].

ففرق سبحانه بين الجمع والقرآن. ولو كانا واحدًا لكان تكريرًا محضًا. ولهذا قال ابن عباس: ﴿**فَإذا قرأناهُ فاتبع قُرآنَهُ**﴾. [القيامة: ١٨]. «فإذا بيناه» فجعل

قرآنه. نفس إظهاره وبيانه. لا كما زعم أبوعبيدة: أن القرآن مشتق من الجمع.

ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سلًى قط، وما قرأت جنينًا. هو من هذا الباب، أي: ما ولدته وأخرجته وأظهرته. ومنه فلان يقرئك ويقرأ عليك السلام، هو من الظهور والبيان. ومنه قولهم: قرأت المرأة حيضة أو حيضتين: أي حاضتهما؛ لأن الحيض ظهور ما كان كامنًا كظهور الجنين.

ومنه قَرْء الثريا وقَرْء الريح وهو الوقت الذي يظهر فيه المطر والريح. فإنهما يظهران في وقت مخصوص.

وقد ذكر هذا الاشتقاق المصنفون في كتب الاشتقاق. وذكره أبو عمرو وغيره. ولا ريب أن هذا المعنى في الحيض أظهر منه في الطهر.

وقولكم: إن عائشة قالت: «القروء الأطهار» والنساء أعلم بهذا من الرجال.

فالجواب: أن يقال: جعل النساء أعلم بمراد الله من كتابه وأفهم لمعناه من أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود، وأبي الدرداء وأكابر أصحاب النبي ﷺ؟ فنزول ذلك في شأنهن لا يدل على أنهن أعلم به من الرجال؛ وإلا كانت كل آية نزلت في النساء؛ تكون النساء أعلم بها من الرجال، ويجب على الرجال تقليدهن في معناها وحكمها. فيكنّ أعلم من الرجال بآية الرضاع، وآية الحيض، وتحريم وطء الحائض، وآية عدة المتوفى عنها، وآية الحمل والفصال، ومدتهما، وآية تحريم إبداء الزينة إلا لمن ذكر فيها. وغير ذلك من الآيات التي تتعلق بهن، وفي شأنهن نزلت. ويجب على الرجال تقليدهن في حكم هذه الآيات ومعناها. وهذا لا سبيل إليه ألبتة.

وكيف؟ ومدار العلم بالوحي على الفهم والمعرفة ووفور العقل. والرجال أحق بهذا من النساء، وأوفر نصيبًا منهن، بل لا يكاد يختلف الرجال والنساء في مسألة إلا والصواب في جانب الرجال.

وكيف يقال: إذا اختلفت عائشة، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود في مسألة؛ أن الأخذ بقول عائشة أولى؟ وهل الأولى إلا قول فيه خليفتان راشدان، وإن كان الصديق معهما كما حكي عنه؟ فذلك القول مما لا يعدوه الصواب ألبتة. فإن النقل عن عمر وعلي ثابت. وأما عن الصديق؛ ففيه غرابة. ويكفينا قول جماعة من الصحابة، فيهم مثل عمر وعلي وابن مسعود وأبي

الدرداء وأبي موسى. فكيف نقدم قول أم المؤمنين وفهمها على أمثال هؤلاء؟

ثم يقال: فهذه عائشة ترى رضاع الكبير ينشر الحرمة، ويثبت المحرمية، ومعها جماعة من الصحابة، وقد خالفها غيرها من الصحابة. وهي روت فيه حديث التحريم به. فهلا قلتم: النساء أعلم بهذا من الرجال، ورجحتم قولها على قول من خالفها؟ ونقول لأصحاب مالك: وهذه عائشة لا ترى التحريم إلا بخمس رضعات ومعها جماعة من الصحابة، وروت منه حديثين، فهلا قلتم: النساء أعلم بهذا من الرجال، وقدمتم قولها على قول من خالفها؟

فإن قلتم: هذا حكم يتعدى إلى الرجال فيستوي النساء معهم فيه؟

قيل: ويتعدى حكم العدة مثله إلى الرجال. فيجب أن يستوي النساء معهم فيه. وهذا لاخفاء به. ثم يرجح قول الرجال في هذه المسألة بأن رسول الله ﷺ شهد لواحد من هذا الحزب بأن الله ضرب الحق على لسانه وقلبه. وقد وافق ربه تبارك وتعالى في عدة مواضع، قال فيها قولاً فنزل القرآن بمثل ما قال: وأعطاه النبي ﷺ فضل إنائه في النوم وأوَّله بالعلم، وشهد له بأنه محدَّث مُلْهَم فإذا لم يكن بد من التقليد؛ فتقليده أولى. وإن كانت الحجة هي التي تفصل بين المتنازعين فتحكيمها هو الواجب...

ذكر حكمه ﷺ في النفقة على الزوجات[1]

وأنه لم يقدرها. ولا ورد عنه ما يدل على تقديرها. وإنما ردّ الأزواج فيها إلى العرف.

ثبت عنه في صحيح مسلم: أنه قال في خطبة حجة الوداع بمحضر الجمع العظيم قبل وفاته ببضعة وثمانين يومًا: «**واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**».

وثبت عنه ﷺ في الصحيحين: أن هندًا امرأة أبي سفيان قالت له: إن أبا سفيان رجل شحيح، ليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم. فقال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**».

---

(١) ٢٨٢زاد المعاد جـ٤.

وفي سنن أبي داود: من حديث حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما تقول في نسائنا؟ قال: «**أطعموهن مما تأكلون، واكسوهنَّ مما تلبسون، ولا تضربوهن ولا تُقَبِّحوهنَّ**» وهذا الحكم من رسول الله ﷺ مطابق لكتاب الله تعالى حيث يقول تعالى: ﴿**وَالوالِدَاتُ يُرضِعْنَ أولاَدَهُنَّ حَولَينِ كَامِلَينِ لِمَن أَرادَ أن يتمَّ الرَّضاعَةَ، وعَلَى المولُودِ لَهُ رِزقُهنَّ وكسوتُهنَّ بالمعروفِ**﴾. [البقرة:٢٣٣].

والنبي ﷺ جعل نفقة المرأة مثل نفقة الخادم وسوَّى بينهما في عدم التقدير، وردهما إلى المعروف. فقال: «**للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف**» فجعل نفقتهما بالمعروف. ولا ريب أن نفقة الخادم غير مقدرة. ولم يقل أحد بتقديرها.

(١)**وقال** ابن جريج: قلت لعطاء: ﴿**وعلى الوارث مثل ذلك**﴾. [البقرة:٢٣٣]. قال: «على ورثة اليتيم أن ينفقوا عليه كما يرثونه. قلت له: أيحبس وارث المولود إن لم يكن للمولود مال؟ قال: أفيدعه يموت؟»

وقال الحسن: ﴿**وعلَى الوارث مثلُ ذلك**﴾ قال: «على الرجل الذي يرث أن ينفق عليه حتى يستغني» وبهذا فسر الآية جمهور السلف. منهم: قتادة، ومجاهد، والضحاك، وزيد بن أسلم، وشريح القاضي، وقبيصة بن ذؤيب، وعبدالله بن عتبة بن مسعود. وإبراهيم النخعي، والشعبي، وأصحاب ابن مسعود، ومن بعدهم: سفيان الثوري، وعبدالرزاق، وأبوحنيفة، وأصحابه، ومن بعدهم: أحمد وإسحاق وداود وأصحابهم.

وقد اختلف الفقهاء في حكم هذه المسألة على عدة أقوال:

أحدها: أنه لا يجبر أحد على نفقة أحد من أقاربه. وإنما ذلك برٌّ وَصِلَة. وهذا مذهب يعزى إلى الشعبي.

قال عبد بن حميد الكشي: حدثنا قبيصة، عن سفيان الثوري، عن أشعث، عن الشعبي قال: «ما رأيت أحدًا أجبر أحدًا على أحد. يعني: على نفقته».

وفي إثبات هذا المذهب بهذا الكلام نظر. والشعبي أفقه من هذا. والظاهر أنه أراد: أن الناس كانوا أتقى لله من أن يحتاج الغنى أن يجبره الحاكم على الإنفاق على قريبه المحتاج. فكان الناس يكتفون بإيجاب الشرع عن إيجاب الحاكم أو إجباره.

(١) ٣٢١ زاد المعاد جـ٤.

المذهب الثاني: أنه يجب عليه النفقة على أبيه الأدنى وأمه التي ولدته خاصة. فهذان الأبوان يجبر الذكر والأنثى من الولد على النفقة عليهما إذا كانا فقيرين. فأما نفقة الأولاد: فإن الرجل يجبر على نفقه ابنه الأدنى، حتى يبلغ فقط. وعلى نفقة بنته الدنيا حتى تزوج. ولا يجبر على نفقة ابن ابنه ولا بنت ابنه وإن سفلا. . .(١)

فصل(٢)

فإن قيل: فما تقولون في وجوب الإنفاق على الأقارب مع اختلاف الدين؟ لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى الوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾. [البقرة: ٢٣٣]. واختلاف الدين يمنع الميراث.

قيل: أما الأقارب مطلقًا فلا تجب نفقتهم مع اختلاف الدين.

وأما عمود النسب ففيهم روايتان: إحداهما: لا تجب نفقتهم لذلك.

والثانية: يجب، لتأكد قرابتهم بالعصبة. وحكى بعض الأصحاب في وجوب نفقة الأقارب مطلقًا ـ مع اختلاف الدين ـ أنه إنْ منع وجوب الإنفاق منَعَ في سائر الأقارب، وإن لم يكن مانعًا لم يمنع في حق قرابة الكلالة، كالرق والغنى. فأما أن يكون مانعًا في قرابة دون قرابة فلا وجه له؛ ولا يصح التعليل بتأكد: القرابة، لأن الأخ والأخت أقرب من أولاد البنات. والذي يقوم عليه الدليل وجوب الإنفاق وإن اختلف الدينان، لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسانَ بوالديهِ حُسنًا﴾. [العنكبوت: ٨]. ﴿وإن جَاهَدَاكَ على أن تُشرِكَ بي مَا ليس لَكَ به علمٌ فلا تُطعْهُما، وصَاحِبهُما في الدُّنيا معروفًا﴾. [لقمان: ١٥].

وليس من الإحسان ولا من المعروف ترك أبيه وأمه في غاية الضرورة والفاقة، وهو في غاية الغنى.

وقد ذم الله تبارك وتعالى قاطعي الرحم، وعظم قطيعتها وأوجب حقها وإن كانت كافرة. قال تعالى: ﴿وَاتقوا اللهَ الذي تساءلونَ بِهِ وَالأرحامَ﴾. [النساء: ١]. وقال تعالى: ﴿والذينَ ينقضُونَ عَهْدَ الله من بعدِ ميثاقِهِ ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصَلَ﴾. [الرعد: ٢٥].

وفي الحديث(٣): «لا يدخل الجنة قاطع رحم»، «والرحم معلقة بساق العرش

---

(١) يأتي في سورة النساء ـ إن شاء الله ـ بحث مفصل بأدلة واضحة حول هذا الموضع اهـ.ج.

(٢) ٤١٧ أحكام جـ٢.

(٣) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم وليس فيه كلمة (رحم) وإنما هي من تفسير أحد رواته وهو سفيان. فقد قال في روايته: يعني: قاطع رحم. راجع الفتح (٣٤٧/١٠) وصحيح مسلم: (١٩/١١/٤) رقم (٢٥٥٦)، المراجع.

تقول: **يارب صل من وصلني، واقطع من قطعني**»، وليس من صلة الرحم ترك القرابة تهلك جوعًا وعطشًا وعريًا، وقريبه من أعظم الناس مالاً. وصلة الرحم واجبة وإن كانت لكافر، فله دينه وللواصل دينه. وقياس النفقة على الميراث قياس فاسد؛ فإن الميراث مبناه على النصرة والموالاة بخلاف النفقة، فإنها صلة ومواساة من حقوق القرابة. وقد جعل الله للقرابة حقًا ـ وإن كانت كافرة ـ فالكفر لا يسقط حقوقها في الدنيا: قال الله تعالى: ﴿**وَاعبدُوا الله وَلا تُشركُوا به شَيئًا وبالوالدين إحسانًا، وبذي القُرْبَى واليتَامى والمساكين والجارِ ذي القُربى والجارِ الجُنُبِ، والصَّاحِبِ بالجَنْبِ وابن السبيل وَمَا مَلَكتْ أيمانكُم**﴾. [النساء: ٣٦].

وكل مَن ذكر في هذه الآية فحقه واجب وإن كان كافرًا، فما بالُ ذي القربى وحده يخرج من جملة من وصى الله بالإحسان إليه؟ ورأس الإحسان الذي لا يجوز إخراجه من الآية هو الإنفاق عليه عند ضرورته وحاجته، وإلا فكيف يوصي بالإحسان إليه في الحالة التي لا يحتاج إلى الإحسان، ولا يجب [له الإحسان] أحوج ما كان إليه؟.

والله سبحانه وتعالى حرّم قطيعة الرحم وإن كانت كافرة. وتركُ رحمه يموت جوعًا وعطشًا وهو من أغنى الناس وأقدرهم على دفع ضرورته أعظم قطيعة.

...(1)**ولو** افتداه من الأسر كان له مطالبته بالفداء، وليس ذلك دينًا عليه، والقرآن يدل على هذا القول، فإن الله تعالى قال: ﴿**فَإنْ أرضَعْنَ لَكُم فآتوهنَّ أجورهُنَّ**﴾. [الطلاق: ٦]. فأمر بإيتاء الأجر بمجرد الإرضاع، ولم يشترط عقدًا ولا إذن الأب. وكذلك قوله: ﴿**وَالوَالدات يُرضعنَ أولادهُنَّ حَوْلين كاملين لِمَن أَرادَ أن يتمَّ الرَّضَاعة، وَعَلَى المَوْلُودِ لَه رزقُهُنَّ وكسوتُهُنَّ بالمعروفِ**﴾. [البقرة: ٢٣٣]. فأوجب ذلك عليه، ولم يشترط عقدًا ولا إذنًا، ونفقةُ الحيوانِ واجبة على مالكه، والمستأجر والمرتهن له فيه حق، فإذا أنفق عليه النفقة الواجبة على ربه كان أحقَّ بالرجوع من الإنفاق على ولده، فإن قال الراهن: أنا لم آذنْ لك في النفقة، قال: هي واجبة عليك، وأنا أستحق أن أطالبك بها لحفظ المرهون والمستأجر، فإذا رضي المنفقُ بأن يعتاض بمنفعة الرهن وكان نظير النفقة؛ كان قد أحسن إلى صاحبه، وذلك خير مَحْض، فلو لم يأتِ به النصُّ لكان القياس يقتضيه.

---

(١) ٢٤ أعلام جـ٢.

وطَرْدُ هذا القياس أن المودَعَ والشريكَ والوكيل إذا أنفق على الحيوان واعتاض عن النفقة بالركوب والحلب؛ جاز ذلك كالمرتهن.

(١)**قال الله تعالى: ﴿والوالِداتُ يُرْضِعْنَ أولادَهن حَولَين﴾** الآية. [البقرة: ٢٣٣].

إلى قوله تعالى: **﴿إذَا سَلَّمْتُم مَا آتَيتُم بِالمعروفِ﴾** فدلت الآية على عدة أحكام:

أحدها: أن تمام الرضاع حولان(٢)، وذلك حق للولد إذا احتاج إليه وأكد بكاملين؛ لئلا يحمل اللفظ على حول وأكثر.

وثانيها: أن الأبوين إذا أرادا فطامه قبل ذلك، بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل؛ فلهما ذلك.

وثالثها: أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك، وإن كرهت الأم إلا أن يكون مضارًّا بها وبولدها فلا يجاب إلى ذلك، ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث أو أكثر، وأحمد أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلاً في الحر والبرد . . .

(٣-٤)**اختلف** الناس في القيام والسجود: أيهما أفضل؟ فرجحت طائفة القيام لوجوه:

أحدها: أن ذكره أفضل الأذكار. فكان ركنه أفضل الأركان.

والثاني: قوله تعالى: **﴿وقُوموا لله قانتين﴾**. [البقرة: ٢٣٨].

الثالث: قوله ﷺ **«أفضل الصلاة طول القنوت»**.

وقالت طائفة: السجود أفضل.

واحتجت بقوله ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد(٥)»**.

وبحديث معدان بن أبي طلحة قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ، فقلت: حدثني بحديث عسى الله أن ينفعني به، فقال: عليك بالسجود، فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: **«ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفع الله له بها درجة، وحَطَّ عنه بها خطيئة»**. قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء، فسألته؟ فقال

---

(١) ١٣٩ تحفة المودود.
(٢) بالنسخة (حولين) وهو خطأ، لأنه خبر (أن) وخبرها مرفوع، وعلامة رفعه هنا الألف، لأنه مثنى. المراجع.　　(٣) ١٢٢ زاد المعاد جـ١.
(٤) سبق الكلام على قوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء. . .﴾ [البقرة: ٢٣٥].
(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة.

لي مثل ذلك(١).

وقال رسول الله ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي ـ وقد سأله مرافقته في الجنة ـ: «**أعني على نفسك بكثرة السجود**».

وأول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ سورة ﴿**اقرأ**﴾ [العلق: ١] على الأصح، وختمها بقوله: ﴿**وَاسجُدْ واقترب**﴾. [العلق: ١٩].

وبأن السجود لله يقع من المخلوقات كلها، علويها وسفليها.

وبأن الساجد أذل ما يكون لربه وأخضع له. وذلك أشرف حالات العبد. فلهذا كان أقرب ما يكون من ربه في هذه الحالة.

وبأن السجود هو سر العبودية، فإن العبودية هي الذل والخضوع. يقال: طريق معبد: أي ذَلَّلته الأقدام ووَطَّأته: وأذل ما يكون العبد وأخضع: إذا كان ساجدًا.

وقالت طائفة: طول القيام بالليل أفضل، وكثرة الركوع والسجود بالنهار أفضل.

واحتجت هذه الطائفة بأن صلاة الليل قد خُصَّت باسم القيام لقوله تعالى: ﴿**قُم الليلَ**﴾ [المزمل: ٢] وقوله ﷺ: «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا**» ولهذا يقال: قيام الليل، ولا يقال: قيام النهار.

قالوا: وهذا كان هدى النبي ﷺ. فإنه ما زاد في الليل على إحدى عشرة ركعة، أو ثلاث عشر ركعة.

وكان يصلي الركعة في بعض الليالي بالبقرة وآل عمران والنساء، وأما بالنهار فلم يحفظ عنه شيء من ذلك، بل كان يخفف السنن.

وقال شيخنا رضي الله عنه: الصواب: أنهما سواء، والقيام أفضل بذكره وهو القراءة والسجود أفضل بهيأته. فهيئة السجود أفضل من هيئة القيام، وذكر القيام أفضل من ذكر السجود.

وهكذا كان هدي رسول الله ﷺ. فإنه كان إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود، كما فعل في صلاة الكسوف وفي صلاة الليل، وكان إذا خفف القيام خفف الركوع والسجود. وكذلك كان يفعل في الفرض كما قاله البراء بن عازب:

---

(١) رواه مسلم والترمذي والنسائي.

«كان قيامه وركوعه وسجوده واعتداله قريبًا من السواء» والله أعلم.

...[1]**عن** أبي هريرة أنه قال: «والله لأنا أقربكم صلاةً برسول الله ﷺ» فكان أبوهريرة يقنت في الركعة الأخيرة من صلاة الصبح بعدما يقول: سمع الله لمن حمده فيدعو للمؤمنين ويلعن الكفار، ولا ريب أن رسول الله ﷺ فعل ذلك ثم تركه، فأحب أبوهريرة أن يعلمهم أن مثل هذا القنوت سنة. وأن رسول الله ﷺ فعله.

وهذا رد على أهل الكوفة الذين يكرهون القنوت في الفجر مطلقًا، عند النوازل وغيرها، ويقولون: هو منسوخ، وفعله بدعة.

فأهل الحديث؛ متوسطون: بين هؤلاء، وبين من استحبه عند النوازل وغيرها. وهم أسعد بالحديث من الطائفتين. فإنهم يقنتون حيث قنت رسول الله ﷺ، ويتركونه حيث تركه، فيقتدون به في فعله وتركه، ويقولون: فعله سنة، وتركه سنة.

ومع هذا فلا ينكرون على من داوم عليه، ولا يكرهون فعله، ولا يرونه بدعة، ولا فاعله مخالفًا للسنة، بل من قنت فقد أحسن، ومن تركه فقد أحسن، وركن الاعتدال محل للدعاء والثناء. وقد جمعهما النبي ﷺ فيه. ودعاء القنوت ثناء ودعاء، فهو أولى بهذا المحل.

وإذا جهر به الإمام أحيانًا ليعلم المأمومين فلا بأس بذلك. فقد جهر عمر بالاستفتاح ليعلم المؤمنين، وجهر ابن عباس بقراءة الفاتحة في صلاة الجنازة ليعلمهم أنها سنة.

ومن هذا أيضًا جهر الإمام بالتأمين، وهذا من الاختلاف المباح الذي لا يعنف فيه من فعله ولا من تركه. وهذا كرفع اليدين في الصلاة وتركه، وكالخلاف في أنواع التشهدات وأنواع الأذان والإقامة، وأنواع النسك: من الإفراد، والقران، والتمتع. وليس مقصدنا إلا ذكر هديه ﷺ الذي كان يفعله هو. فإنه قبلة القصد، وإليه التوجه في هذا الكتاب، وعليه مدار التفتيش والطلب. وهذا شيء والجائز الذي لا ينكر فعله وتركه شيء.

فنحن لم نتعرض في هذا الكتاب لما يجوز ولما لا يجوز، وإنما مقصودنا فيه هدي النبي ﷺ، الذي كان يختاره لنفسه، فإنه أكمل الهدي وأفضله. فإذا قلنا: لم يكن

(١) ١٤٣ زاد المعاد جـ١.

من هديه المداومة على القنوت في الفجر، ولا الجهر بالبسملة؛ لم يدل ذلك على كراهية غيره، ولا أنه بدعة، ولكن هديه ﷺ أكمل الهدي وأفضله. والله المستعان.

...(١) **العزة** يراد بها ثلاثة معان: عزة القوة. وعزة الامتناع. وعزة القهر. والرب تبارك وتعالى له العزة التامة بالاعتبارات الثلاث.

ويقال من الأول: عزَّ يَعَزُّ ـ بفتح العين ـ في المستقبل.

ومن الثاني: عَزَّ يَعِزُّ ـ بكسرها ـ

ومن الثالث: عَزَّ يعُزُّ ـ بضمها ـ أعطوا أقوى الحركات لأقوى المعاني، وأخفها لأخفها، وأوسطها لأوسطها.

وهذه «العزة» مستلزمة للوحدانية؛ إذ الشركة تنقص العزة. ومستلزمة لصفات الكمال؛ لأن الشركة تنافي كمال العزة. ومستلزمة لنفي أضدادها، ومستلزمة لنفي مماثلة غيره له في شيء منها.

فالروح تعاين ـ بقوة معرفتها وإيمانها ـ بهاء العزة وجلالها وعظمتها. وهذه المعاينة هي نتيجة العقيدة الصحيحة المطابقة للحق في نفس الأمر، المتلقاة من مشكاة الوحي. فلا يطمع فيها واقف مع أقيسة المتفلسفين، وجدل المتكلمين، وخيالات المتصوفين.

(٢)فصل

ومن منازل ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾، منزلة «السكينة» هذه المنزلة من منازل المواهب. لا من منازل المكاسب.

وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» في كتابه في ستة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ لهم نَبِيُّهُم: إنَّ آيَةَ مُلكِهِ: أَن يَأتِيكُمُ التَّابُوتُ فيهِ سكينةٌ مِن رَّبِّكُم**﴾. [البقرة: ٢٤٨].

الثاني: قوله تعالى: ﴿**أَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رسولِهِ وَعَلَى المُؤمنِينَ**﴾ [التوبة: ٢٦].

الثالث: قوله تعالى: ﴿**إِذْ يقولُ لِصَاحِبه: لا تحزنْ إنَّ الله مَعَنَا. فَأنزلَ الله سَكِينَتَهُ عليه. وأَيَّدَه بجنُودٍ لَم تَرَوهَا**﴾. [التوبة: ٤٠].

الرابع: قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذي أنزلَ السَّكِينَةَ في قُلُوبِ المُؤمنينَ لِيزدادُوا إيمانًا**

---

(١) ٢٥٧ مدارج جـ٣.
(٢) ٥٠٢ مدارج جـ٢.

مع إيمانهم. ولله جُنُودُ السَّموات والأرض وكانَ الله عليمًا حكيمًا﴾. [الفتح: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ الله عن المُؤمنِينَ إذْ يُبَايعُونَكَ تحت الشَّجرةِ. فَعلِمَ مَا في قُلُوبِهم، فأنزلَ السكينةَ عَلَيهم. وَأثابهم فتحًا قريبًا﴾. [الفتح: ١٨].

السادس: قوله تعالى: ﴿إذ جَعَلَ الذينَ كَفَروا في قُلُوبِهِمُ الحَمِيةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ. فَأنزلَ الله سكينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلى المُؤمنينَ﴾. [الفتح: ٢٦]. الآية.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إذا اشتدت عليه الأمور: قرأ آيات السكينة.

وسمعته يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه، تعجز العقول عن حملها ـ من محاربة أرواح شيطانية، ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة ـ قال: فلما اشتد عليَّ الأمر، قلت لأقاربي ومن حولي: اقرءوا آيات السكينة، قال: ثم أقلع عني ذلك الحال، وجلست وما بي قَلَبة.

وقد جربت أنا أيضًا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه. فرأيت لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطمأنينته.

وأصل «السكينة» هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف. فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه. ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب. كيوم الهجرة، إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رءوسهم. لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما.

وكيوم حُنين، حين وَلَّوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يَلْوي أحد منهم على أحد.

وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكُّم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس.

وحسبك بضعف عمر رضي الله عنه عن حملها ـ وهو عمر ـ حتى ثبته الله بالصديق رضي الله عنه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة، إلا التي في سورة البقرة.

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق، حتى وارى التراب جلدة بطنه. وهو يرتجز بكلمة عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

لا هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا»

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: «إني باعث نبيًّا أميًّا، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صَخَّاب في الأسواق، ولا مُتَزَيِّن بالفحش، ولا قَوّال للخنا. أُسدِّده لكل جميل. وأهَبُ له كل خُلُقٍ كريم. ثم أجعل السكينة لباسه، والبِرَّ شِعاره، والتقوى ضميره. والحكمة مقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته. والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه».

قال صاحب المنازل:

«**السكينة:** اسم لثلاثة أشياء. أولها: سكينة بني إسرائيل التي أعطوها في التابوت. قال أهل التفسير: هي ريح هفافة. وذكروا صفتها».

قلت: اختلفوا: هل هي عين قائمة بنفسها، أو معنى؟ على قولين:

أحدهما: أنها عين. ثم اختلف أصحاب هذا القول في صفتها: فروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنها ريح هفافة. لها رأسان ووجه كوجه الإنسان».

ويروى عن مجاهد: إنها صورة هِرَّة لها جناحان، وعينان لهما شعاع. وجناحان من زمرد وزبرجد، فإذا سمعوا صوتها أيقنوا بالنصر.

وعن ابن عباس: هي طست من ذهب من الجنة. كان يغسل فيه قلوب الأنبياء.

وعن وهب بن مُنَبِّه: هي روح من روح الله تتكلم. إذا اختلفوا في شيء أخبرتهم ببيان ما يريدون.

والثاني: أنها معنى. ويكون معنى قوله: ﴿وَسَكِينَةٌ من رَبِّكُم﴾ [البقرة:٢٤٨] أي: ومجيئه إليكم: سكينة لكم وطمأنينة.

وعلى الأول: يكون المعنى: إن السكينة في نفس التابوت. ويؤيده عطف قولـه: ﴿**وبقيـةٌ مما ترك آلُ موسى وآلُ هٰرونَ**﴾ قال عطاء بن أبي رباح: ﴿**فيه سكينة**﴾ هي ما تعرفون من الآيات فتسكنون إليها. وقال قتادة، والكلبي: هي من السكون، أي طمأنينة من ربكم. ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا. . . (١)

(٢)**قوله** تعالى: ﴿**واصبْر وما صبرُكَ إلَّا باللهِ**﴾ [النحل: ١٢٧]، وقول هود: ﴿**وما توفيقي إلا بالله**﴾ [هود: ٨٨]. ومعلوم أن الصبر والتوفيق فعل اختياري للعبد، وقد أخبر أنه به لا بالعبد، وهذا لاينبغي أن يكون فعلاً للعبد حقيقة، ولهذا أمر به، وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه، وإنما يؤمر العبد بفعله هو، ومع هذا فليس فعله واقعاً، به وإنما هو بالخالق لكل شيء الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالتصبير منه سبحانه وهو فعله، والصبر هو القائم بالعبد وهو فعل العبد.

ولهذا أثنىٰ على من يسأله أن يصبره فقال تعالى: ﴿**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالوتَ وجنودِهِ قالَوا رَبَّنا أَفْرِغْ علينا صبْراً وثَبِّتْ أَقْدَامنا وانصرنا على القومِ الكافرين فهزموهم بإذن الله**﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١]. ففي الآية أربعة أدلة:

أحدها: قولهم: ﴿**أفرغ علينا صبراً**﴾.

والصبر فعلهم الاختياري فسألـوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنـه، إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.

الثاني: قولهم: ﴿**وثبت أقدامنا**﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم: ﴿**وانصرنا على القومِ الكافرين**﴾ فسألوه النصر، وذلك بأن يقـوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب؛ فيحصل النصر.

---

(١) استمر المؤلف في بحث السكينة لمن أراده. وخلاصته أن السكينة الثانية: للمحدثين، والثالثة: التي نزلت على قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين. ج.

(٢) ٦٣ شفاء.

وأيضاً: فإن كون الإنسان منصوراً على غيره: إما أن يكون بأفعال الجوارح وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم، وذلك أيضًا فعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده وأثنى على من طلبه منه.

وعند القدرية لا يدخل تحت مقدور الرب.

الرابع قوله: ﴿**فهزموهم بإذن الله**﴾ وإذنه ها هنا هو الإذن الكوني القدري أي: بمشيئته وقضائه وقدره، ليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر؛ فإن ذلك لايستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، فإن المأمور المكون لايتخلف عنه ألبتة.

(١)**وفي** صحيح البخاري: عن أبي هريرة؛ أنه أتاه آتٍ يحثو من الصدقة، وكان قد جعله النبي ﷺ عليها ليلة بعد ليلة، فلما كان في الليلة الثالثة قال: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ـ وكانوا أحرص شيءٍ على الخير ـ فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسيّ: ﴿**الله إلـهَ إلا هو الحيُّ القَيُّوم**﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتى تختمها؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي، ﷺ: «**صدقك وهو كذوب**».

وقد روى الإمام أحمد نحو هذه القصة في «مسنده»؛ أنها جرت لأبي الدرداء، ورواها الطبراني في معجمه أنها جرت لأُبي بن كعب.

(٢) **لما** بعث الله رسول الله ﷺ؛ استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعاً واختياراً، ولم يكره أحداً قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه؛ فلم يقاتله، ولم يكرهه على الدخول في دينه؛ امتثالاً لأمر ربه سبحانه حيث يقول: ﴿**لا إكْرَاهَ في الدِّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ**﴾، [البقرة: ٢٥٦]. وهذا نفي في معنى النهي، أي: لا تكرهوا أحداً على الدِّين.

نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة؛ كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه

---

(١) ٢٠٦ الوابل الصيب.

(٢) ١١ هداية.

عن ذلك؛ حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام.

والصحيح: أن الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين؛ بل: إما أن يدخلوا في الدين، وإما أن يعطوا الجزية كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ؛ تبيَّن له أنه لم يكره أحداً على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه؛ فلم يقاتله ما دام مقيمًا على هدنته لم ينقض عهده؛ بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿**فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٧].

ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدءوه بالقتال؛ قاتلهم: فمن على بعضهم، وأجلىٰ بعضهم، وقتل بعضهم.

وكذلك لما هادن قريشًا عشر سنين؛ لم يبدءهم بقتال؛ حتى بدءوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضًا هم جاءوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه؛ لم يقاتلهم.

والمقصود: أنه ﷺ لم يكره أحداً على الدخول في دينه ألبتة، وإنما دخل الناس في دينه اختياراً وطوعاً، فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته؛ لما تبين لهم الهدى وأنه رسول الله حقًّا.

فهؤلاء أهل اليمن كانوا على دين اليهودية أو أكثرهم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «**إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**...» وذكر الحديث، ثم دخلوا في الإسلام من غير رغبة ولا رهبة، وكذلك من أسلم من يهود المدينة، وهم جماعة كثيرون غير عبدالله بن سلام مذكورون في كتب السير والمغازي...

...[1] **الوجه** الرابع عشر: أن النور صفة كمال، وضده صفة نقص؛ ولهذا:

---

(١) ٢٠٢ مختصر الصواعق جـ٢.

سمى الله نفسه نوراً، وسمى كتابه نوراً، وجعل لأوليائه النور ولأعدائه الظلمة؛ فقال: ﴿اللهُ وليُّ الَّذين آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذين كَفروا أولياؤهم الطاغُوتُ يخرجونَهُم من النورِ إلى الظلماتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويجيء الأنبياء يوم القيامة وأممهم؛ لكل نبي نوران، ولكل واحد من أتباعهم نور، وتجيء هذه الأمة؛ لكل منهم نوران، ولنبيهم ﷺ في كل شعرة نور.

ولما كانت مادة الملائكة التي خلقوا منها نوراً؛ كانوا بالمحل الذي أحلهم الله به، وكانوا خيراً محضاً.

والنور ظاهر وباطن فمتى حل ظاهره بجسم كساه؛ من: الجمال والجلال، والمهابة والضياء، والحسن والبهجة والسناء؛ بحسب ما كسي من النور، وزالت عنه الوحشة والثقل وكان: مفرحاً لرائيه، سارًّا لناظريه. وإذا حل باطنه بالباطن؛ اكتسى من الخير والعلم، والرحمة والهداية، والعفو والجود، والصبر والحلم، والتواضع والنصيحة؛ بحسب ذلك النور. فالنور في الحقيقة هو كمال العبد في الظاهر والباطن.

ولما كان ليوسف الصديق من هذا النور النصيب الوافر؛ ظهر في جماله الظاهر والباطن؛ فكان على الصفة التي ذكرها الله في كتابه.

وكذلك رسول الله ﷺ لما كان نصيبه؛ من هذا النور أكمل نصيب؛ كان أجمل الخلق ظاهراً وباطناً؛ فكان وجهه يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر، وكان كلامه كله نوراً، وعمله نوراً، ومدخله ومخرجه نوراً؛ فإذا تكلَّم رؤي النور يخرج من بين ثناياه. فكان أكمل الخلق في نور الظاهر والباطن، وكان نوره من أكبر آيات نبوته.

قال عبدالله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه؛ فجئت حتى رأيته، فلما وقع بصري عليه؛ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «**يأيها الناس: أفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»، فاستدل على نبوته: بنور وجهه، ونور كلامه؛ بنوره المرئي، ونوره المسموع كما قال حسان بن ثابت:

لو لم تكن فيه آيات مبينة		لكانت بداهته تأتيك بالخبر

أي: ما يبدهك من وجهه ومنظره ونوره وبهائه، وأخذه الصرصري فقال:

لو لم يقل إني رسول أما		شاهده في وجهه ينطق

فإذا كان هذا نور عبده، فكيف بنوره سبحانه؟!

. . .(١) **وقد** سمى الله سبحانه وتعالى «العلم» الذي بعث به رسوله: نوراً، وهدى، وحياة. وسمى ضده: ظلمة، وموتاً، وضلالاً. قال الله تعالى: **﴿اللهُ وليُّ الذين آمنوا، يخرجُهُم من الظلمات إلىٰ النورِ، والَّذينَ كفروا أَولياَؤُهُم الطَّاغُوتُ، يُخرِجُونَهُم منَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ﴾** [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: **﴿أوَ مَن كَانَ ميتاً فأحييناهُ وجعلنا لَهُ نوراً يمشي به في النَّاسِ، كَمَنْ مَثَلُه في الظُّلُمَاتِ لَيسَ بِخارجٍ مِنها﴾** [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: **﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مُّبين يهدي به اللهُ مَنِ اتَّبع رضوانَهُ سُبُلَ السلامِ. ويُخرجهُمْ من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذنِهِ. ويهديهم إلى صِراطٍ مُّستقيم﴾** [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: **﴿يَاأَيُّها الناسُ، قد جاءَكُم بُرهانٌ من رَّبِّكُم. وأنزلْنَا إليكم نورًا مُّبيناً﴾** [النساء: ١٧٤].

وقال تعالى: **﴿فالذين آمنوا بِه وعَزَّرُوهُ ونصروهُ، واتَّبعُوا النُّورَ الذي أُنزِلَ معهُ، أولئِك هُمُ المفلحونَ﴾** [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: **﴿وكذلك أوحينا إليكَ رُوحاً من أَمْرِنَا، ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ. ولكِنْ جَعلْناهُ نورًا نهدي به من نشاءُ من عِبَادِنَا﴾** [الشورى: ٥٢].

فجعله «روحاً» لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. و «نوراً» لما يحصل به من الهدى والرشاد.

ومثل هذا النور في قلب المؤمن: **﴿كمشكاةٍ فيها مصباحٌ. المِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كأنَّها كَوْكَبٌ دُرِيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبارَكةٍ زَيْتُونَةٍ لا شرقِيَةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ. يكادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَو لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ. نورٌ على نُورٍ. يهدي اللهُ لِنُورِهِ من يَشَاءُ﴾** [النور: ٣٥].

---

(١) ١٦٢ مدارج جـ٣.

ومثل حال من فقد هذا النور؛ بمن هو في ﴿أو كظلمات[1] في بحرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوجٌ، مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ، مِنْ فوقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فوقَ بَعْضٍ إذا أخرجَ يدهُ لم يَكَدْ يَرَاهَا. ومَن لَم يجعل اللهُ لَهُ نوراً فما لَهُ مِن نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

. . .[2]**قوله** تعالى: ﴿أَلم تَرَ إلى الذي حاجَّ إبراهيم في رَبِّه أَنْ آتاهُ اللهُ المُلْكَ إذْ قَالَ إبراهيمُ رَبِّيَ الَّـذي يُحْيِي وَيُمِيتُ. قَالَ أَنـا أُحْيِي وَأُمِيتُ. قال إبـراهيمُ فإنَّ اللهَ يأتي بالشمسِ من المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا من المَغْرِبِ. فَبُهِتَ الَّذي كَفَر واللهُ لاَيَهْدِي القومَ الظَّالِمِين﴾ [البقرة: ٢٥٨].

لما أجاب إبراهيم ﷺ المحاج له في الله: بأن الذي يحيي ويميت هو الله؛ أخذ عدو الله في المغالطة والمعارضة؛ بأنه يحيي ويميت: بأنه يقتل من يريد، ويستبقي من يريد، فقد أحيا هذا وأمات هذا، فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس، من غير الجهة التي يأتي الله بها منها بزعمه، فإنه ادَّعىٰ أنه يساوي الله في الإحياء والإماتة، فإن كان صادقاً؛ فليتصرف في الشمس تصرفاً تصح به دعواه، وليس هذا انتقالاً من حجة إلى حجة أوضح منها، كما زعم بعض النظار، وإنما هو إلزام للمدعي في طرد حجته إن كانت صحيحة.

... **طلب** إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه. إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِني: كيفَ تحيي المـوتىٰ؟ قال: أَوَ لم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئنَّ قَلْبي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فطلب إبراهيم: أن يكون اليقين عياناً، والمعلوم مشاهداً. وهذا هو المعنى الذي عبَّر عنه النبي ﷺ بالشك في قوله: «**نحن أحق بالشك من إبـراهيم**»، حيث قال: ﴿رَبِّ أَرني كيفَ تحيي الموتىٰ؟﴾ وهو ﷺ لم يشك ولا إبراهيم حاشاهما من ذلك، وإنما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة.

هذا أحد الأقوال في الحديث.

وفيه قول ثان: أنه على وجه النفي أي: لم يشك إبراهيم؛ حيث قال ما قال لم نشك نحن. وهذا القول صحيح أيضًا. أي: لو كان ما طلبه للشك لكنا نحن أحق به منه. لكن لم يطلب ما طلب شكًا وإنما طلب ماطلبه طمأنينة. . . .

---

(١) في المطبوعة: ظلمات فأثبتناالصواب من الآية.

(٢) ١٠٩ مختصر الصواعق جـ١.

(٣) ٤٧١ مدارج جـ١.

...(١) **إبراهيم** - ﷺ - طلب الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى؛ إلى رؤية تحقيقه عيانًا. فطلب - بعد حصول العلم الذهني - تحقيق الوجود الخارجي؛ فإن ذلك أبلغ في طمأنينة القلب.

ولما كان بين «العلم» و «العيان» منزلة أخرى؛ قال النبي ﷺ: «**نحن أحق بالشكّ من إبراهيم**» إذ قال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كيف تحيي الموتى**﴾ وإبراهيم لم يَشُكَّ ﷺ، ورسول الله ﷺ لم يشك؛ ولكن أوقع اسم «الشك» على المرتبة العلمية باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مرتبة العيان في الخارج، وباعتبار هذه المرتبة سمي العلم اليقيني - قبل مشاهدة معلومه - ظنًّا. قال تعالى: ﴿**الَّذين يَظُنُّونَ أَنَّهم مُلاَقُوا رَبِّهِم، وأَنَّهُمْ إِليهِ رَاجِعُونَ**﴾ [البقرة: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿**الَّذين يظُنُّونَ أنهم مُلاقوا الله**﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وهذا الظن علم جازم. كما قال تعالى: ﴿**واعلمُوا أنكُم مُلاَقُوهُ**﴾ [البقرة: ٢٢٣]. لكن بين الخبر والعيان فرق.

وفي المسند مرفوعاً: «**ليس الخبر كالعيان**» ولهذا لما أخبر الله موسى: أنه قد فتن قومه، وأن السامري أضلهم؛ لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح، ما حصل له عند مشاهدة ذلك...

...(٢) **فإن قلت**: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟...

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق. واجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء. وهذا التخلف له عدة أسباب: أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه: أن يريه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة الرب على ذلك: ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيباً شهادة.

وقد روى أحمد في مسنده، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس الخبر كالمعاينة**».

---

(١) ٣٠٨٨ مدارج جـ٣. (٢) ٤٥ الجواب.

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم: عدم استحضاره، أو غيبته عن القلب كثيراً من أوقاته أو أكثرها؛ لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك: تقاضي الطبع، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورخص التأويل، وإلف العوائد؛ فهناك لايمسك الإيمان في القلب؛ إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا.

وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب.

وجماع هذه الأسباب؛ يرجع إلى ضعف: البصيرة، والصبر؛ ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة في الدين فقال تعالى: ﴿**وجَعْلنَاهُم أئمةً يهدونَ بِأمْرِنا لَمَّا صَبَروا وكانُوا بآيَاتِنا يُوقِنُوْنَ**﴾ [السجدة: ٢٤].

...(١) **قوله** تعالى: ﴿**مَثَلُ الذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ في سبيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ في كُلِّ سُنْبلةٍ مائةُ حَبَّة، والله يُضاعِفُ لِمَن يَشاء، وَاللهُ وَاسِعُ عَليمٌ**﴾ [البقرة: ٢٦١]. شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله؛ سواء كان المراد به: الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر، بمن بَذَرَ بَذْراً فأنبتت كلُّ حبةٍ منه سبعَ سنابل، اشتملَتْ كلُّ سنبلة على مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك؛ بحسب حال المنفق، وإيمانه، وإخلاصه، وإحسانه، ونَفْعِ نفقته، وقَدْرها، ووُقوعها موقعها؛ فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من: الإيمان، والإخلاص، والتثبيت عند النفقة، وهو إخراج المالِ بقلبٍ ثابت قد انشرحَ صدره بإخراجه، وسَمَحَتْ به نفسُه، وخَرَجَ من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه، غيرُ جَزِع ولا هَلِع ولا مُتْبعه نفسَه ترجُفُ يدُه وفؤاده؛ ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومَصارفه بمواقعه، وبحسب طيب المنفق وزكاته.

وتحت هذا المثل من الفقه؛ أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبَذر، فالمنفق مالَه الطيب لله لا لغيره باذرٌ ماله في أرضٍ زكية، فمغله بحسب: بَذْره، وطيب أرضه، وتعاهُدِ البذر بالسقي، ونَفْيِ الدَّغَلِ والنبات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمورُ ولم

(١) ١٨٣ أعلام جـ١.

تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة؛ جاء أمثالَ الجبالِ، وكان مثله كمثل جنة بِرَبْوَةٍ، وهي المكان المرتفع، الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والرياح، فتربى الأشجار هناك أتم تربية، فنزَلَ عليها من السماء مَطَرٌ عظيم القَطْر مُتَتَابع؛ فروَاها ونمَّاها؛ فآتت أُكلها ضعفي ما يؤتيه غيرُها؛ بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل فَطَلٌّ: مطر صغير القَطْر، يكفيها لكرم منبتها، يزكو على الطل وينمى عليه.

مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل؛ إشارة إلى نوعي الإنفاق: الكثير، والقليل.

فمن الناس مَنْ يكون إنفاقه وابلاً، ومنهم من يكون إنفاقه طَلًّا، والله لا يضيع مثقالَ ذرة.

فإن عَرَضَ لهذا العامل ما يغرق أعمالَه ويُبْطِل حسناته؛ كان بمنزلة رجل له جَنَّة من نخيل وأعناب، تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات، وأصَابه الكِبَرُ وله ذرية ضُعَفاء، فأصابها إعصار فيه نار؛ فاحترقت.

فإذا كان يومُ استيفاء الأعمال وإحراز الأُجور؛ وَجَدَ هذا العاملُ عملَه قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة، فحسْرَتُهُ حينئذ أشَدُّ من حَسْرة هذا على جنته.

فهذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسَلْب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظم قدرها ومنفعتها، والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبرُ والضعفُ؛ فهو أحْوَجُ ما كان إلى نعمته، ومع هذا فله ذرية ضعفاء لايقدرون على نفعه والقيام بمصالحه، بل هم في عِيَاله فحاجَتُه إلى نعمته حينئذٍ أشَدُّ ما كانت لضعفه وضعف ذريته، فكيف يكون حالُ هذا إذا كان له بستان عظيم فيه من جميع الفواكه والثمر، وسلطان ثمره أجلّ الفواكه وأنفعها، وهو ثمرالنخيل والأعناب، فمغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته، فأصبح يوماً وقد وَجَده محترقاً كله كالصَرِيم؟ فأيُّ حسرةٍ أعظمُ من حسرته؟

قال ابن عباس: هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره.

وقال مجاهد: هذا مثلُ المفرِّطِ في طاعة الله؛ حتى يموت.

وقال السدي: هذا مثل المُرَائي في نفقته الذي يُنْفِقُ لغير الله، ينقطع عنه نفعُهَا؛ أحوج ما يكون إليه.

وسأل عمر بن الخطاب الصحابة يوماً عن هذه الآية، فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء ياأمير المؤمنين، قال: قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك، قال: ضرب مثلاً لعمل، قال: لأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل بالحسنات، ثم بعث الله له الشيطانَ؛ فعملَ بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله كلها.

قال الحسن: هذا مثلُ قَلَّ والله مَنْ يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه؛ أفقر ما كان إلى جنته. وإن أحَدَكم ـ والله ـ أفقَرُ ما يكون إلى عمله؛ إذا انقطعت عنه الدنيا.

فصـــــل

فإنْ عَرَضَ لهذه الأعمال من الصدقات ما يُبْطلها من المَنِّ والأذَى والرياء؛ فالرياء يمنع انعقادها سببًا للثواب، والمنُّ والأذىء يبطل الثواب الذي كان سبباً له، فمثلُ صاحبها وبطلان عمله كمثل صَفْوَن ـ وهو الحجر الأمْلَسُ ـ عليه تراب فأصابه وابلٌ ـ وهو المطر الشديد ـ فتركه صَلْداً لا شيء عليه.

وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ، وانطباقها على أجزاء الممثل به؛ تعرف عظمة القرآن وجلالته، فإن الحجر في مقابلة قَلْب هذا المرائي والمانِّ والمؤذي؛ فقلبه في قَسْوَته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر، والعملُ الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر؛ فقسوة ما تحته وصلابته تمنعه من النَّبَات والثبات عند نزول الوابل؛ فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء وينبت الكلأ، وكذلك قلب المرائي ليس له ثباتٌ عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقدر، فإذا نزل عليه وابلُ الوَحْي ؛ انكشف عنه ذلك الترابُ اليسير الذي كان عليه؛ فبرز ما تحته حجراً صَلْداً لا نبات فيه. وهذا مثلٌ ضربه الله سبحانه لعمل المُرائي ونفقته، لا يقدر يوم القيامة على ثوابِ شيء منه؛ أحْوجَ ماكان إليه، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ممثلاً لقبح الرياء المبطل للعمل، والمنِّ والأذى المبطل...(١)

---

(١) ٢٤٠ مدارج جـ١.

للصدقات: ﴿صفوان﴾ وهو الحجَر الأملس ﴿عليه تراب﴾ غبار قد لصق به «فأصابه مطر» شديد فأزال ما عليه من التراب ﴿فتركه صلداً﴾ أملس لا شيء عليه. وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه. فـ «الصفوان» وهو الحجَر؛ كقلب المرائي والمانِّ والمؤذي، و«التراب» الذي لصق به؛ ما تعلَّق به من أثر عمله وصدقته، و«الوابل» المطر الذي به حياة الأرض، فإذا صادفها ليِّنة قابلة؛ نَبَتَ فيها الكلأ، وإذا صادف الصخور والحجارة الصُّم: لم ينبت فيها شيئاً. فجاء هذا الوابل إلى التراب الذي على الحجر، فصادفه رقيقاً، فأزاله؛ فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات.

وهذا يدل على أن قبح «المنّ، والأذى، والرياء» مستقر في العقول؛ فلذلك نبهها على شَبهه ومثاله.

وعكس ذلك قوله تعالى: ﴿ومَثَلُ الذين ينفقون أموالَهم ابْتغاءِ مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسِهم، كمثلِ جَنَّةٍ بِرَبْوةٍ أصابَها وابلٌ. فآتت أُكُلَها ضِعْفَين. فإن لَم يُصِبْها وَابِلٌ فطلٌ، والله بِمَا تَعْمَلُونَ بصير﴾ [البقرة: ٢٦٥]. فإن كانت هذه الجنة، التي بموضع عال؛ حيث لا تُحجَب عنها الشمس والرياح، وقد أصابها مطر شديد؛ فأخرجت ثمرتها ضِعفَي ما يخرج غيرها؛ إن كانت مستحسنة في العقل والحس. فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، ولا لشكور، بل بثباتٍ من نفسه، وقوة على الإنفاق، لا يخرج النفقة وقلبُه يَرْجُف على خروجها، ويداه ترتعشان، ويضعف قلبه، ويخور عند الإنفاق؛ بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة.

ولما كان الناس في الإنفاق على هذين القسمين؛ كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت: كمثل الوابل. ومثل نفقة الآخر كمثل الطل، وهو المطر الضعيف. فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلته، وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه، أفلا تراه سبحانه نبَّه العقول على ما فيها من استحسان هذا، واستقباح فعل الأول؟

وكذلك قوله: ﴿أَيُوَدُّ أحدُكم أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّة من نخيلٍ وأَعناب تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ، له فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمراتِ، وأصابَه الكِبَرُ وله ذُرِّيَّةٌ ضُعفَاءُ فَأَصَابَها

إعصَارٌ فِيه نَارٌ، فَاحْتَرَقَتْ؟ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فنبه سبحانه العقول على ما فيها من قبح الأعمال السيئة، التي تحبط ثواب الحسنات، وشبهها بحال شيخ كبير، له ذرية ضعفاء؛ بحيث يخشى عليهم الضيعة وعلى نفسه، وله بستان هو مادة عيشه وعيش ذريته، فيه النخيل والأعناب ومن كل الثمرات فأرجَى وأفقر ماهو له وأسَرُّ ما كان به؛ إذ أصابه نار شديدة فأحرقته.

فنبه العقول على أن قبح المعاصي التي تغرق الطاعات كقبح هذه الحال، وبهذا فسرها عمر وابن عباس رضي الله عنهم «لرجل غني عمل بطاعة الله زمانًا؛ فبعث الله له الشيطان؛ فعمل بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله» ذكره البخاري في صحيحه.

أفلا تراه نبه العقول على قبح المعصية بعد الطاعة وضرب لقبحها هذا المثل.

(1)**المقصود** في الزكاة أمور عديدة:

منها: سَدُّ خَلَّة الفقير.

ومنها: إقامة عبودية الله بفعل نفس ما أمر به.

ومنها: شكر نعمته عليه من المال.

ومنها: إحراز المال وحفظه بإخراج هذا المقدار منه.

ومنها: المواساة بهذا المقدار؛ لما علم الله فيه من مصلحة رب المال ومصلحة الآخذ.

ومنها: التعبد: بالوقوف عند حدود الله، وأن لا ينقص منها ولا يغير.

وهذه المقاصد إن لم تكن أعظم من مقصود إراقة الدم في الأضحية؛ فليست بدونه، فكيف يجوز إلغاؤها واعتبار مجرد إراقة الدم؟.

ثم إن هذا الفرق ينعكس عليكم من وجه آخر، وهو أن مقصود الشارع من إراقة دم الهَدْي والأضحية؛ التقربُ إلى الله سبحانه بأجَلِّ ما يقدر عليه من ذلك

---

(١) ٣٠٠ أعلام جـ١.

النوع، وأعلاه وأغلاه ثمناً، وأنفسه عند أهله، فإنه لن يناله سبحانه لحومُها ولا دماؤها، وإنما يناله تقوى العبد منه، ومحبته له، وإيثاره بالتقرب إليه: بأحب شيء إلى العبد، وآثره عنده، وأنفسه لديه، كما يتقرب المحبُّ إلى محبوبه: بأنفس ما يقدر عليه، وأفضله عنده.

ولهذا فَطَر الله العبادَ على أن من تقرَّب إلى محبوبه بأفضل هدية يقدر عليها وأجَلِّها وأعلاها؛ كان أحظىٰ لديه، وأحبَّ إليه ممن تقرب إليه بألف واحدٍ رديء من ذلك النوع.

وقد نبَّه سبحانه على هذا بقوله: **﴿يَاأَيُّها الَّذينَ آمنُوا أنفِقُوا مِن طيباتِ ما كَسَبتُم، ومِما أَخْرَجْنَا لَكُم منَ الأرضِ، ولا تيمَّمُوا الخبيثَ منه تنفقُونَ، ولستُم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه، واعلمُوا أنَّ الله غنيٌّ حميدٌ﴾** البقرة: ٢٦٧].

وقال تعالى: **﴿ولكنَّ البِرَّ من آمن باللهِ اليَومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنَّبِيِّينَ وآتى المالَ عَلىٰ حُبِّه﴾** [البقرة:١٧٧]. وقال: **﴿ويُطْعِمُون الطعامَ على حبه﴾** [الإنسان:٨]. وسئل النبي ﷺ عن أفضل الرقاب فقال: «**أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها**».

ونذر عمر أن ينحر نجيبة فأعطى بها نجيبتين، فسأل النبي ﷺ أن يأخذهما بها وينحرهما، فقال: «**لا، بل انحرها إياها**» فاعتبر في الأضحية عَيْنَ المنذور دون ما يقوم مقامه، وإلا كان أكثر منه، فلأن يعتبر في الزكاة نفس الواجب، دون ما يقوم مقامه، ولو كان أكثر منه؛ أولى وأحرى...

(١)**وقال** عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: **﴿ولا تَيَمَّمُوا الخَبيثَ منه تُنفقونَ ولستم بآخِذِيهِ إلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فيه وَاعْلَمُوا أَنَّ الله غَنيٌّ حَمِيدٌ﴾** [البقرة: ٢٦٧]. يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجب له حمداً؛ بل هو الغني بنفسه، الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته، وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائدته عليكم.

---

(١) ١٣٥ طريق الهجرتين.

ومن المتعين على من لم يباشر قلبه؛ حلاوة هذا الخطاب، وجلالته، ولطف موقعه، وجذبه للقلوب والأرواح، ومخالطته لها؛ أن يعالج قلبه بالتقوى، وأن يستفرغ منه المواد الفاسدة التي حالت بينه وبين حظه من ذلك، ويتعرض إلى الأسباب التي يناله بها، من صدق الرغبة واللجأ إلى الله أن: يحيي قلبه، ويزكيه، ويجعل فيه الإيمان والحكمة.

فالقلب الميت لا يذوق طعم الإيمان ولا يجد حلاوته، ولا يتمتع بالحياة الطيبة، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ومن أراد مطالعة أصول النعم؛ فليسم سرح الذكر في رياض القرآن.

وليتأمل: ما: عدد الله فيه من نعمه، وتعرف بها إلى عباده من أول القرآن إلى آخره؛ حين خلق أهل النار وابتلاهم: بإبليس وحزبه، وتسليط أعدائهم عليهم، وامتحانهم بالشهوات والإرادات والهوى؛ لتعظم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربته.

فلله على أوليائه وعباده؛ أتم نعمة وأكملها في كل ما خلقه من: محبوب ومكروه، ونعمة ومحنة، وفي كل ما أحدثه في الأرض من وقائعه بأعدائه، وإكرامه لأوليائه، وفي كل ما قضاه وقدره.

وتفصيل ذلك لا تفي به أقلام الدنيا وأوراقها ولا قوى العباد، وإنما هو التنبيه والإشارة. ومن استقرى الأسماء الحسنى؛ وجدها مدائح وثناء؛ تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها، ومع ذلك فلله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء: لم تتحرك بها الخواطر، ولا هجست في الضمائر، ولا لا حت لمتوسم، ولا سنحت في فكر.

ففي دعاء أعرف الخلق بربه وأعلمهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن: ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي**».

وفي الصحيح عنه ﷺ في حديث الشفاعة لما يسجد بين يدي ربه قال: «فيفتح

عليَّ من محامده بشيء لا أحسنه الآن».

وكان يقول في سجوده: **«أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»** فلا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه ألبتة، وله أسماء وأوصاف وحمد وثناء لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ونسبة ما يعلم العباد من ذلك إلى ما لايعلمونه كنقرة عصفور في بحر.

...[1]**والفرق** بين الخيل والإبل؛ أن الخيل تراد لغير ما تراد له الإبل. . .

وللشارع قصد أكيد في: اقتنائها، وحفظها، والقيام عليها، وترغيب النفوس في ذلك بكل طريق ولذلك عفا عن أخذ الصدقة منها؛ ليكون ذلك أرغَبَ للنفوس فيما يحبه الله ورسوله من: اقتنائها، ورباطها، وقد قال الله تعالى: **﴿وأعِدُّوا لَهُم مَّا آستطَعتُم مِّن قُوَّةٍ ومِن رِّبَاطِ الخَيْلِ﴾** [الأنفال: ٦٠]. فرباط الخيل من جنس آلات السلاح والحرب، فلو كان عند الرجل منها ما عساه أن يكون ولم يكن للتجارة؛ لم يكن عليه فيه زكاة، بخلاف ما أُعِدَّ للنفقة؛ فإنَّ الرجل إذا ملك منه نصاباً ففيه الزكاة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بعينه في قوله: **«قد عفوْتُ لكم عن صَدَقَة الخيل والرقيق، فهاتوا صدقة الرِّقَةِ»**. أفلا تراه كيف فرق بين: ما أعد للإنفاق، وبين ما أعد: لإعلاء كلمة الله، ونصر دينه، وجهاد أعدائه؟ فهو من جنس السيوف والرماح والسهام، وإسقاطُ الزكاةِ في هذا الجنس من محاسن الشريعة وكمالها.

فصل

وأما قوله: **«أوجب في الذهب والفضة والتجارة ربع العشر، وفي الزروع والثمار نصف العشر أو العشر، وفي المعدن الخُمُسَ»** فهذا أيضاً من كمال الشريعة ومراعاتها للمصالح؛ فإن الشارع أوجب الزكاة: مواساة للفقراء، وطُهْرَةً للمال، وعبودية للرب، وتقرباً إليه: بإخراج محبوب العبد له، وإيثار مرضاته.

ثم فَرَضها على أكمل الوجوه، وأنفعها للمساكِين، وأرفقها بأرباب الأموال؛ ولم يفرضها في كل مال، بل فرضها في الأموال التي تحتمل المُواساة، ويكثر فيها الربح

---

(١) ٨٩ أعلام جـ٢.

والدر والنسل، ولم يفرضها فيما يحتاج العبد إليه من ماله، ولا غِنَى له عنه: كعبيده، وإمائه، ومركوبه، وداره، وثيابه، وسلاحه؛ بل فرضها في أربعة أجناس من المال: المواشي، والزروع والثمار، والذهب والفضة، وعروض التجارة؛ فإن هذه أكثر أموال الناس الدائرة بينهم، وعامة تصرفهم فيها، وهي التي تحتمل المواساة، دون ما أسقط الزكاة فيه، ثم قَسَّمَ كل جنس من هذه الأجناس؛ بحسب حاله وإعداده للنماء: إلى ما فيه الزكاة، وإلى ما لا زكاة فيه.

فقسم المواشي إلى قسمين:

سائمة ترعى بغير كلفة ولا مشقة ولا خسارة؛ فالنعمة فيها كاملة والمنة بها وافرة، والكلفة فيها يسيرة، والنماء فيها كثير؛ فخصَّ هذا النوعَ بالزكاة.

وإلى مَعْلوفة بالثمن أو عاملة في مصالح أربابها في دَوَاليبهم وحُرُوثهم وحَمْل أمتعتهم؛ فلم يجعل في ذلك زكاة؛ لكلفة المعلوفة وحاجة المالكين إلى العوامل؛ فهي: كثيابهم، وعبيدهم، وإمائهم، وأمتعتهم.

ثم قسم الزروع والثمار إلى قسمين:

قسم يجري مَجْرَى السائمة من بهيمة الأنعام، في سَقْيه من ماء السماء، بغير كلفة، ولا مشقة؛ فأوجب فيه العشر.

وقسم يُسْقى بكلفة ومشقة؛ ولكن كلفته دون كلفة المعلوفة بكثير؛ إذ تلك تحتاج إلى العَلْف كل يوم؛ فكان مَرْتَبة بين السائمة والمعلوفة، فلم يوجب فيه زكاة ما شرب بنفسه، ولم يسقط زكاته جملة واحدة، فأوجب فيه نصف العشر.

ثم قسم الذهب والفضة إلى قسمين:

أحدهما: ما هو مُعَد: للثَّمنية والتجارة به، والتكسب؛ ففيه الزكاة كالنقدين والسبائك ونحوها.

وإلى ما هو مُعَد للانتفاع دون الربح والتجارة: كحِلْية المرأة، وآلات السلاح التي يجوز استعمالُ مثلها فلا زكاة فيه.

ثم قسَّم العُرُوضَ إلى قسمين: قسم أعد للتجارة؛ ففيه الزكاة.

وقسم أعد للقِنْية والاستعمال، فهو مصروف عن جهة النماء؛ فلا زكاة فيه.

ثم لما كان حصـولُ النـماء والربح بالتجارة؛ من أشق الأشياء وأكثرها مُعَاناة وعملاً؛ خَفّفها بأن جعل فيها ربع العشر، ولما كان الربح والنماء بالزروع والثمار التي تُسْقَى بالكلفـة؛ أقـلَّ كلفـة والعملُ أيسرَ ولا يكون في كل السنة؛ جعله ضعفه، وهو نصف العشر، ولما كان التعب والعمل فيما يشرب بنفسه؛ أقلَّ والمؤنة أيسر؛ جعلَهُ ضعف ذلك وهو العشر، واكتفى فيه بزكاة عامة خاصة؛ فلو أقام عنده بعد ذلك عدة أحوال لغير التجارة؛ لم يكن فيه زكاة؛ لأنه قد انقطع نماؤه وزيادته، بخلاف الماشية، وبخلاف ما لو أعِدَّ للتجارة؛ فإنه عُرْضَة للنماء.

ثم لما كان الرِّكازُ: مالاً مجموعاً محصلاً، وكلفة تحصيله أقل من غيره، ولم يحتج إلى أكثر من استخراجه؛ كان الواجب فيه ضعف ذلك وهو الخمس.

فانظر إلى تناسب هذه الشريعة الكاملة، التي بَهَرَ العقولَ حسنُها وكمالها، وشهدَتِ الفِطَرُ بحكمتها، وأنه لم يطرق العالم شريعة أفضل منها، ولو اجتمعت عقول العقلاء وفِطَر الألِبّاء واقترحت شيئاً يكون أحسن مقترح؛ لم يصل اقتراحها إلى ما جاءت به.

ولما لم يكن كل مالٍ يحتمل المواساة قَدَّر الشارع لما يحتمل المواساة نُصُباً مقدرة، لا تجب الزكاة في أقل منها.

ثم لما كانت تلك النُّصُبُ تنقسم: إلى ما لا يُجْحِف المواساة ببعضه؛ أوجب الزكاة منها، وإلى ما يجحف المواساة ببعضه؛ فجعل الواجب من غيرِهِ، كما دون الخمس والعشرين من الإبل.

ثم لما كانت المواساة لا تحتمل كل يوم ولا كل شهر؛ إذ فيه إجحاف بأرباب الأموال؛ جعلها كل عام مرة، كما جعل الصيام كذلك.

ولما كانت الصلاة لا يشق فعلها كل يوم؛ وَظفّها كل يوم وليلة.

ولما كان الحجُّ يشقُّ تكرر وجوبه كل عام؛ جعله وظيفة العمر.

وإذا تأمّل العاقلُ مقدار ما أوجبه الشارع في الزكاة؛ وجَدَه: مما لا يضر المخرج فقده، وينفـع الفقير أخذه، ورآه قد راعىٰ فيه حالَ صاحبِ المال وجانِبَهُ حقَّ الرعاية، ونفع الآخذ به، وقصد إلى كل جنس من أجناس الأموال؛ فأوجب الزكاة في أعلاه وأشرفه.

فأوجب زكاة العين في الذهب والورِقِ؛ دون الحديد والرصاص والنحاس ونحوها.

وأوجب زكاة السائمة في الإبل والبقر والغنم؛ دون الخيل والبغال والحمير، ودون ما يقل اقتناؤه، كالصيود على اختلاف أنواعها، ودون الطير كله.

وأوجب زكاة الخارج من الأرض في أشرفه، وهو الحبوب والثمار؛ دون البقول والفواكه والمَقَاثِي والمَبَاطخ والأنوار.

وغيرُ خافٍ تميُّزُ ما أوجب فيه الزكاة؛ عما لم يوجبها في: جنسه، ووصفه، ونفعه، وشدة الحاجة إليه، وكثرة وجوده، وأنه جارٍ مجرى الأموال لما عداه من أجناس الأموال؛ بحيث لوفقد لأضرَّ فقْدُه بالناس، وتعطل عليهم كثير من مصالحهم، بخلاف ما لم يوجب فيه الزكاة؛ فإنه جارٍ مَجْرَى الفضلات والتتمات التي لو فقدت لم يعظم الضرر بفقدها.

وكذلك راعىٰ في المستحقين لها أمرين مهمين: أحدهما: حاجة الآخذ.

والثاني نفعه؛ فجعل المستحقين لها نوعين: نوعاً يأخذ لحاجته، ونوعاً يأخذ لنفعه، وحَرَّمها على مَنْ عداهما.

(1)**قوله تعالى: ﴿الشيطانُ يعدُكُم الفَقرَ ويَأْمُرُكُم بالفحْشآءِ واللهُ يعِدُكم مَغْفِرةً مِّنْهُ وفضلاً﴾** [البقرة: ٢٦٨]. قيل: ﴿**يعدكم الفقر**﴾ يخوِّفكم به، يقول: إن أنفقتم أموالكم افتقرتم ﴿**ويأمركم بالفحشاء**﴾، قالوا: هي البخل في هذا الموضع خاصة، ويُذكَر عن مقاتل والكلبي: «كل فحشاء في القرآن فهي الزنىٰ إلا في هذا الموضع فإنها البخل».

والصواب: أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوف، فحذف موصوفها إرادة للعموم: أي بالفعْلَة الفحشاء والخلَّة الفحشاء، ومن جملتها البخل، فذكر سبحانه وَعْد الشيطان وأمْرَه: يأمرهم بالشر، ويخوفهم من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان؛ فإنه إذا

---

(١) ١٠٧ إغاثة جـ٢.

خوَّفه من فعل الخير؛ تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزيَّنها له؛ ارتكبها.

وسمى سبحانه تَخْويفه وَعْدَ الانتظار الذي خوفه إياه، كما ينتظر الموعود ما وعد به.

ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهي المغفرة والفضل، فالمغفرة؛ وقاية الشر، والفضل؛ إعطاء الخير.

وفي الحديث المشهور: «إن للملك بقلب ابن آدم لَمَّة، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيبٌ بالوعد»، ثم قرأ: ﴿الشيطانُ يعدكم الفقرَ ويأمركُم بالفحشاءِ...﴾ الآية [البقرة: ٢٦٨].

فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله، وآخر بضده، نستعيذ بالله تعالى من شر الشيطان.

..(١) **قال** الله تعالى: ﴿يُؤتي الحِكْمَةَ مَن يَشَاء. وَمَن يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتيَ خيراً كثيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وقال تعالى: ﴿وأنزلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ. وعَلَّمَكَ ما لم تكن تعلمُ وكان فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً﴾ [النساء: ١١٣]. وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿ويُعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾. [آل عمران: ٤٨].

الحكمة في كتاب الله نوعان: مفردة، ومقترنة بالكتاب.

فالمفردة فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله».

وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه.

وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه. وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والفعل. وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها.

---

(١) ٤٧٨ مدارج جـ٢.

وقال الحسن: الورع في دين الله. كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب: فهي السنة. كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة.

وقيل: هي القضاء بالوحي. وتفسيرها بالسنة؛ أعم وأشهر.

وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد، ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا: بفهم القرآن، والفقه: في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان.

والحكمة حكمتان: علمية، وعملية.

فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها: خَلْقاً، وأمراً، قدراً، وشرعاً.

والعملية: كما قال صاحب المنازل: «وهي وضع الشيء في موضعه». . .

..(1) **والله** تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه. فالرجل الكامل؛ من له إرث كامل من أبيه. ونصف الرجل ـ كالمرأة ـ له نصف ميراث، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى. وأكمل الخلق في هذا؛ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأكملهم؛ أولو العزم. وأكملهم؛ محمد ﷺ؛ ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه، وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ وعَلَّمَك ما لم تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿كما أَرْسلنَا فِيكُم رَسُولاً مِنكم يتلواْ عليكم آياتِنَا، ويزكيكم، ويعلمُكم الكتابَ والحِكْمةَ، ويعلمُكُم ما لم تَكُونُوا تعلمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

فكل نظام الوجود؛ مرتبط بهذه الصفة. وكل خلل في الوجود، وفي العبد؛

---

(1) ٤٧٩ مدارج جـ٢.

فسببه؛ الإخلال بها. فأكمل الناس؛ أوفرهم منها نصيباً، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال؛ أقلهم منها ميراثًا.

ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة.

وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة.

فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول، والله أعلم.

...(١) **الوجه** السادس والعشرون: أنه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بأنه آتاه خيراً كثيراً فقال تعالى: **﴿يؤتي الحكمةَ من يشاءُ ومن يؤتَ الحكمةَ فَقَدْ أوتيَ خيراً كثيراً﴾** [البقرة: ٢٦٩].

قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمة: إصابة الحق والعمل به، وهي: العلم النافع، والعمل الصالح.

الوجه السابع والعشرون: أنه سبحانه عدد نعمه وفضله على رسوله، وجعل من أجلِّها: أن آتاه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم. فقال تعالى: **﴿وأنزل اللهُ عليك الكتابَ والحكمةَ وعلمك ما لم تَكن تعلم وكان فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً﴾** [النساء: ١١٣].

الوجه الثامن والعشرون: أنه سبحانه ذكَّر عباده المؤمنين بهذه النعمة، وأمرهم: بشكرها، وأن يذكروه على إسدائها إليهم، فقال تعالى: **﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكُم آياتِنا ويُزكيكم ويُعلمكم الكتابَ والحكمةَ ويُعلمكم ما لم تكونُوا تعلمونَ فاذكروني أذكركُمْ واشكُرُوا لي ولا تكفرونِ﴾** [البقرة: ١٥١ - ١٥٢].

...(٢) **قوله** تعالى: **﴿للفقراء الذين أُحْصِرُوا في سبيل اللهِ لايستطيعون ضَرْباً في الأرضِ، يَحْسبُهُمُ الجاهِلُ أغنياءَ مِنَ التعففِ...﴾** الآية [البقرة: ٢٧٣]. أي: الصدقات لهؤلاء. كان فقراء المهاجرين نحو أربعمائة، لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، فكانوا وقفاً على كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ، وهم أهل الصفة. هذا أحد الأقوال في

---

(١) ٥١ مفتاح جـ١.		(٢) ٤٣٨ مدارج جـ٢.

إحصارهم في سبيل الله.

وقيل: هو حبسهم أنفسَهم في طاعة الله.

وقيل: حَبَسهم الفقرُ والعُدْمُ عن الجهاد في سبيل الله.

وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى؛ أحصروا عن الضرب في الأرض؛ لطلب المعاش، فلا يستطيعون ضرباً في الأرض.

والصحيح: أنهم ـ لفقرهم وعجزهم وضعفهم ـ لا يستطيعون ضرباً في الأرض، ولكمال عفتهم وصيانتهم؛ يحسبهم من لم يعرف حالهم؛ أغنياء.

والموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿إنَّما الصَّدقَاتُ للفقراء...﴾ الآية [التوبة: ٦٠]

والموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿يأيها الناسُ أنتم الفقراءُ إلى الله﴾[1][فاطر: ١٥].

فالصنف الأول: خواص الفقراء. والثاني: فقراء المسلمين: خاصهم، وعامهم.

والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم: غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وكافرهم.

فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى؛ يقابلهم: أصحاب الجِدَة، ومن ليس محصراً في سبيل الله، ومن لا يكتم فقره تعففاً. فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني.

والصنف الثاني؛ يقابلهم: الأغنياء أهل الجدة، ويدخل فيهم المتعفف وغيره، والمحصر في سبيل الله وغيره.

والصنف الثالث؛ لا مقابل لهم، بل الله وحده الغني، وكل ما سواه فقير إليه.

[2]**قال:** الشرط الثالث: الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح، وذلك لأن المسألة فيها ضرب من: الخصومة، والمنازعة والمحاربة، والرجوع عن مالك الضر والنفع؛ إلى من

---

(١) ذكر الفقر في غير هذه المواضع ﴿الشيطانُ يعدُكم الفقرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. ﴿إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي. وإن تخفوها وتؤتوها الفقراءَ فهو خيرٌ لكم﴾ [البقرة: ٢٧١] ﴿لقدْ سمع اللّهُ قولَ الذين قالوا: إنَّ اللّهَ فقيرٌ ونحن أغنياءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]. ﴿ومن كان فقيراً فليأكلْ بالمعروفِ﴾ [النساء: ٦]. ﴿إن يكنْ غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ [النساء: ١٣٥]. ﴿وأطعموا البائسَ الفقيرَ﴾ [الحج: ٢٨]. ﴿إن يكونوا فقراءَ يُغْنِهمُ اللّهُ مِن فضلِهِ﴾ [النور: ٣٢] ﴿واللّهُ الغنيُّ وأنتم الفقراءُ﴾ [محمد: ٣٨]. ﴿للفقراءِ المهاجرين الذين أخرجوا من ديارِهم وأموالِهم﴾ [الحشر: ٨].

(٢) ٢٣١ مدارج جـ٢.

لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا إلا بربه، وفيها الغيبة عن المعطي المانع.

والإلحاح ينافي حال الرضى ووصفه. وقد أثنى الله سبحانه على الذين لا يسألون الناس إلحافاً. فقال تعالى: ﴿**يَحْسَبُهُم الجاهلُ أغنياءَ من التعففِ تَعْرِفُهُم بسيماهم، لايسألون الناسَ إلحافاً**﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فقالت طائفة: يسألون الناس ما تدعو حاجتهم إلى سؤاله. ولكن لا يلحفون، فنفى الله عنهم سؤال الإلحاف، لا مطلق السؤال.

قال ابن عباس: إذا كان عنده غداء؛ لم يسأل عشاء، وإذا كان عنده عشاء؛ لم يسأل غداء.

وقالت طائفة - منهم: الزجاج، والفراء وغيرهما -: بل الآية اقتضت ترك السؤال مطلقاً؛ لأنهم وُصفوا بالتعفف، والمعرفة بسيماهم، دون الإفصاح بالمسألة؛ لأنهم لو أفصحوا بالسؤال؛ لم يحسبهم الجاهل أغنياء.

ثم اختلفوا في وجه قوله تعالى: ﴿**لا يسألون الناسَ إلحافاً**﴾.

فقال الزجاج: المعنى لا يكون منهم سؤال؛ فيقع إلحاف. كما قال تعالى: ﴿**فما تنفعُهم شفاعة الشافعين**﴾ [المدثر: ٤٨] أي: لا تكون شفاعة فتنفع، وكما في قوله تعالى: ﴿**ولا يقبل منها عدل**﴾ [البقرة: ١٢٣] أي: لا يكون عدل فيقبل، ونظائره.

قال امرؤ القيس:

* على لاحبٍ لا يُهْتَدى لمناره[1] *

أي: ليس له منار يهتدى به.

قال ابن الأنباري: وتأويل الآية: لا يسألون ألبتة فيخرجهم السؤال في بعض الأوقات إلى الإلحاف؛ فيجري هنا مجرى قولك: فلان لا يرجَى خيره، أي: ليس له خير فيرجى.

وقال أبو علي: لم يثبت في هذه الآية مسألة منهم. لأن المعنى: ليس منهم مسألة؛ فيكون منهم إلحاف. قال: ومثل ذلك قول الشاعر:

لا يُفْزِع الأرنبَ أهوالُها ... ولا ترى الضَّبَّ بها ينجحر

---

(١) اللاحب: الطريق الواسع الواضح.

أي: ليس بها أرنب؛ فيفرغ لهولها ولا ضب. فينجحر.

وقال الفراء: نفي الإلحاف عنهم، وهو يريد نفي جميع السؤال.

...[1] **فإن** قيل: فما قولكم في نحو قوله تعالى: ﴿**يغفرْ لكم من ذنوبِكُم**﴾ [نوح: ٤] ﴿**نَغْفِرْ لَكُم خَطَايَاكم**﴾ [البقرة: ٥٨]؟

قلنا: هي متعلقة بمعنى الإنقاذ والإخراج من الذنوب فدخلت من لتؤذن بهذا المعنىٰ، ولكن لايكون ذلك في القرآن؛ إلا حيث يذكر الفاعل والمفعول، الذي هو الذنب نحو قوله: ﴿**لكم**﴾ لأنه المنقذ المخرج من الذنوب بالإيمان، ولو قلت: يغفر من ذنوبكم، دون أن يذكر الاسم المجرور؛ لم يحسن إلا على معنى التبعيض؛ لأن الفعل الذي كان في ضمن الكلام وهو الإنقاذ؛ قد ذهب بذهاب الاسم الذي هو واقع عليه.

فإن قلت: فقد قال تعالى: ﴿**وما كَان قولَهُم إلا أن قالوُا رَبَّنَا اغْفِر لَنا ذُنوبَنَا**﴾ [آل عمران: ١٤٧].

وفي سورة الصف: ﴿**يغفرْ لكم ذُنُوبَكُم**﴾ [الصف: ١٢]. فما الحكمة في سقوطها هنا؟ ومالفرق؟

قلت: هذا إخبار عن المؤمنين، الذين قد سبق لهم الإنقاذ من ذنوب الكفر؛ بإيمانهم، ثم وعدوا على الجهاد بغفران مااكتسبوا في الإسلام من الذنوب، وهي غير محبطة كإحباط الكفر المهلك للكافر؛ فلم يتضمن الغفران معنى الاستنقاذ؛ إذ ليس ثم إحاطة من الذنب بالمذنب؛ وإنما يتضمن معنى: الإذهاب، والإبطال، للذنوب؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات بخلاف الآيتين المتقدمتين؛ فإنهما: خطاب للمشركين، وأمر لهم بما ينقذهم ويخلصهم، مما أحاط بهم من الذنوب، وهو الكفر. ففي ضمن ذلك الإعلام والإشارة: بأنهم واقعون في مهلكة قد أحاطت بهم، وأن لا ينقذهم منها إلا المغفرة المتضمنة للإنقاذ، الذي هو أخص من الإبطال والإذهاب. وأما المؤمنون؛ فقد أنقذوا.

وأما قوله تعالى: ﴿**ويكفرُ عنكم من سيِّئاتِكُم**﴾ [البقرة: ٢٧١]. فهي في موضع

---

(١) ٥٨ بدائع جـ٢.

من التي للتبعيض؛ لأن الآية في سياق ثواب الصدقة فإنه قال: ﴿**إن تبدوا الصدقاتِ فنِعِمَّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراءَ فهو خيرٌ لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم**﴾ والصدقة لا تذهب جميع الذنوب.

ومن هذا النحو قوله ﷺ: «**فليكفرْ عن يمينه وليأتِ الذي هو خير**» فأدخل عن في الكلام، إيذاناً بمعنى الخروج عن اليمين.

لما ذكر الفاعل، وهو الخارج؛ فكأنه قال: فليخرج بالكفارة عن يمينه.

ولما لم يذكر الفاعل المكفر في قوله: ﴿**ذٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُم**﴾ [المائدة: ٨٩]. لم يذكر من، وأضاف الكفارة إلى الأيمان.

وذلك من إضافة المصدر إلى المفعول؛ وإن كانت الأيمان لا تكفر؛ وإنما يكفر الحنث والإثم، ولكن الكفارة حل لعقد اليمين، فمن هنالك؛ أضيفت إلى اليمين، كما يضاف الحل إلى العقد؛ إذ اليمين عقد، والكفارة حل له. والله أعلم.

...[1] **إن الله** سبحانه قسم خلقه إلى غني وفقير، ولا تتم مصالحهم إلا بسَدِّ خَلَّة الفقير، فأوجب سبحانه في فُضول أموال الأغنياء ما يسدُّ [به] خَلَّة الفقراء، وحَرَّم الربا الذي يضر بالمحتاج، فكان أمره بالصدقة ونهيه عن الربا أخوين شقيقين؛ ولهذا جمع الله بينهما في قوله: ﴿**يَمحقُ اللهُ الربا ويُرْبي الصدقاتِ**﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقوله: ﴿**وما آتيتم من ربا ليربواْ في أموالِ الناسِ فلا يربُوا عندَ اللهِ، وما آتَيْتم مِنْ زكاةٍ تُريدون وَجْهَ اللهِ فأولئك هُمُ المضعفون**﴾ [الروم: ٣٩].

وذكر الله سبحانه أحكام الناس في الأموال في آخر سورة البقرة، وهي ثلاثة: عدل، وظلم، وفضل؛ فالعدل البيع، والظلم الربا، والفضل الصدقة؛ فمدح المتصدقين وذكر ثوابهم، وذم المرابين وذكر عقابهم، وأباح البيع والتداين إلى أجل مسمى.

[2] **وأما الفَرْق الإسلامي**: فهو الفرق بين: ما شرعه الله وأمر به وأحبه ورضيه،

---

(١) ١٨ أعلام جـ٢.

(٢) ٥٠٧ مدارج جـ٣.

وبين ما نهى عنه وكرهه ومقت فاعله. وهذا الفرق من لم يكن من أهله؛ لم يشم رائحة الإسلام ألبتة.

وقد حكى الله سبحانه عن أهل الفرق الطبيعي: أنهم أنكروا هذا الفرق. فشهدوا الجمع بين المأمور والمحظور؛ إذ قالوا: ﴿إنَّما البَيْعُ مثلُ الربا﴾[البقرة: ٢٧٥]. لا فرق بينهما. وقالوا: الميتة مثل المذكاة. لا فرق بينهما، وقالوا: الحلال والحرام شيء واحد. فهذا جمعهم وذاك فرقهم. فهذا فرق يتعلق بالأعمال.

(١) **قال** تعالى: ﴿يَاأَيُّها الذينَ آمَنُوا اتَّقوا اللهَ وذَرُوا ما بَقِيَ من الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٨]، فأمر بترك ما بقي؛ دون رد ما قُبض ولم يكن صحيحاً؛ بل كان عفواً كما قال سبحانه: ﴿فَمنْ جاءه موعظةٌ من ربِّه فانتهى فله ما سلف﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فجعل له ما سلف من الربا وإن لم يكن مباحاً له؛ وكذلك سائر العقود له ما سلف منها، ويجب عليه ترك ما يحرمه الإسلام، وهذه الآية هي الأصل في هذا الباب جميعه، فإنه تعالى؛ لم يبطل ما وقع في الجاهلية على خلاف شرعه، وأمر بالتزام شرعه من حين قام الشرع، ومن تأمَّل حكم رسول الله ﷺ في باب أنكحة الكفَّار إذا أسلموا عليها؛ وجده مشتقًّا من القرآن مطابقاً له.

(٢) **الثامن** عشر: أن العقل تحت حجر الشرع: فيما يطلبه ويأمر به، وفيما يحكم به ويخبر عنه. فهو محجور عليه في الطلب والخبر. وكما أن من عارض أمر الرسل بعقله: لم يؤمن بهم، وبما جاءوا به؛ فكذلك من عارض خبرهم بعقله. ولا فرق بين الأمرين أصلاً.

يوضحه: أن الله سبحانه حكىٰ عن الكفَّار معارضة أمره بعقولهم، كما حكى عنهم معارضة خبره بعقولهم.

أما الأول: ففي قوله: ﴿الذينَ يأكلون الربا لا يقومونَ إلا كما يقومُ الذي يَتخبطُهُ الشيطانُ مِنَ المسِّ ذلك بأنهم قالوا إنما البيعُ مِثلُ الربا وأحلَّ اللهُ البيعَ وحرَّم الرِّبا﴾ [البقرة: ٢٧٥]. فعارضوا تحريمه للربا بعقولهم التي سوت بين الربا

---

(١) ٣٥٤ أحكام جـ١. (٢) ١٥١ مختصر الصواعق جـ١.

والبيع. فهذا معارضة النص بالرأي.

ونظير ذلك: ما عارضوا به تحريم الميتة من قياسها على المذكاة، وقالوا: تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله. وفي ذلك أنزل الله: **﴿وإنَّ الشَّياطين ليوحونَ إلى أوليائِهم لِيُجَادِلُوكُمْ وإنْ أطعْتُمُوهُمْ إنَّكمْ لَمُشْرِكُونَ﴾** [الأنعام: ١٢١].

وعارضوا أمره بتحويل القبلة، وقالوا: إن كانت القبلة الأولى حقًّا؛ فقد تركت الحق. وإن كانت باطلاً؛ فقد كنت على باطل.

وإمام هؤلاء شيخ الطريقة إبليس عدو الله، فإنه أول من عارض أمر الله بعقله، وزعم أن العقل يقتضي خلافه.

وأما الثاني: وهو معارضة خبره بالعقل، فكما حكى الله سبحانه عن منكري المعاد: **﴿وضَرَبَ لنا مثلاً ونَسِيَ خلقَه قال من يحيي العظامَ وهي رميمٌ﴾** [يس: ٧٨]. وأخبر سبحانه أنهم عارضوا ما أخبر به من التوحيد بعقولهم.

وعارضوا إخباره عن النبوات بعقولهم، وعارضوا بعض الأمثال التي ضربها بعقولهم؛ وعارضوا أدلة نبوة رسوله ﷺ بعقولهم؛ فقالوا: **﴿لولا نُزِّلَ هذا القُرآنُ على رَجُلٍ مِنَ القريتَينِ عَظِيمٍ﴾** [الزخرف: ٣١]. وأنت إذا صغت هذه المعارضة صوغاً مزخرفاً؛ وجدتها من جنس معارضة المعقول للمنقول.

وكذلك قولهم: **﴿مَا لِهَذا الرَّسُولِ يأكُلُ الطَّعامَ ويَمْشي في الأسواقِ لولا أُنزلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً. أو يُلْقَى إليه كنزٌ أو تكون لهُ جَنَّةٌ يأْكُلُ منها﴾** [الفرقان: ٧ ـ ٨]. أي: لو كان رسولاً لخالق السموات والأرض: لما أحوجه أن يمشي بيننا في الأسواق في المعيشة، ولأغناه من أكل الطعام، ولأرسل معه ملكاً من الملائكة، أو ألقى إليه كنزاً يغنيه عن طلب الكسب.

وعارضوا شرعه ودينه الذي شرعه لهم على لسان رسوله، وتوحيده؛ بمعارضة عقلية، واستندوا فيها إلى القدر. فقال تعالى: **﴿سَيقولُ الَّذين أشركُوا لو شَاء اللهُ ما أَشْرَكْنَا ولا آباؤنَا ولا حرَّمنا من شيءٍ كذلك كذَّبَ الذين من قَبْلِهم حتى ذَاقُوا بأسنا. قُلْ هل عندكُمْ من عِلْمٍ فتخرجوه لنا؟ إن تتبعون إلا الظنَّ وإنْ أنتُم إلا تَخْرُصُونَ. قُلْ فللهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ فلو شاء لهداكُم أجمعين﴾** [الأنعام: ١٤٨ ـ ١٤٩].

وحكى مثل هذه المعارضة في سورة النحل، وفي سورة الزخرف. وإذا تأملتها

حق التأمل؛ رأيتها أقوى بكثير من معارضة آيات الصفات بعقولهم، فإن إخوانهم عارضوا بمشيئة الله للكائنات، والمشيئة ثابتة في نفس الأمر، والنفاة عارضوا بأصول فاسدة: هم وضعوها من تلقاء أنفسهم، أو تلقوها عن أعداء الرسل من الصابئة والمجوس والفلاسفة، وهي خيالات فاسدة.

وبالجملة فمعارضة أمر الرسل أو خبرهم بالمعقولات؛ إنما هي طريقة الكفار. فهم سلف الخلف بعدهم، فبئس السلف والخلف.

ومن تأمَّل معارضة المشركين للرسل بالعقول؛ وجدها أقوى من معارضة الجهمية والنفاة، لخبرهم عن: الله وصفاته، وعلوه على خلقه، وتكليمه لملائكته ورسله؛ بعقولهم. فإن كانت تلك المعارضة باطلة؛ فهذه أبطل وأبطل. وإن صحت هذه المعارضة؛ فتلك أولى بالصحة منها. وهذا لا محيد لهم عنه...

...[1] **الطبقة** السابعة: أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس بأموالهم، على اختلاف حاجاتهم ومصالحهم من: تفريج كرباتهم، ودفع ضروراتهم، وكفايتهم في مهماتهم، وهم أحد الصنفين اللذين قال النبي ﷺ فيهم: «**لا حسد إلا في اثنتين**[2]: **رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق**»، يعني أنه لاينبغي لأحد أن يغبط أحداً على نعمة ويتمنى مثلها، إلا أحد هذين؛ وذلك لما فيهما: من منافع النفع العام، والإحسان المتعدي إلى الخلق، فهذا ينفعهم بعلمه، وهذا ينفعهم بماله.

والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه؛ أنفعهم لعياله.

ولا ريب أن هذين الصنفين، من أنفع الناس لعيال الله، ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين ولا يعمر العالم إلا بهما.

قال تعالى: **﴿الَّذينَ يُنْفِقون أَمْوالَهُمْ في سبيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أنفقُوا مَنًّا ولا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عند ربِّهِمْ ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾** [البقرة: ٢٦٢].

وقال تعالى: **﴿الذين يُنفِقون أموالَهم بالليلِ والنهارِ سِرًّا وعلانيةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ**

---

(١) ٣٦٢ طريق الهجرتين.

(٢) في النسخة (اثنين) والصواب: (اثنتين) كما أثبتناه، وكما في البخاري ومسند أحمد. المراجع.

عِنْدَ رَبِّهِم ولا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنون﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ المصدِّقين والمُصدقاتِ وأَقْرِضُوا الله قرضاً حسناً يُضاعَفُ لَهُمْ ولهم أجرٌ كريمٌ﴾ [الحديد: ١٨].

وقال تعالى: ﴿من ذا الذي يُقرِضُ الله قَرْضاً حسناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أضعافاً كثيرةً واللهُ يقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإليْهِ تُرْجَعُون﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حسناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]. فصدَّر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر.

والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازي عليه أضعافاً مضاعفة؟

وسمي ذلك الإنفاق قرضاً حسناً؛ حثًّا للنفوس وبعثًا لها على البذل، لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولابد؛ طوَّعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه فإن علم أن المستقرض: مليٌّ، وفيٌّ، محسن؛ كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه.

فإن علم أن المستقرض: يتجر له بما اقترضه، وينميه له، ويثمره؛ حتى يصير أضعاف ما بذله؛ كان بالقرض أسمح وأسمح.

فإن علم: أنه مع ذلك كله؛ يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم؛ فإنه لايتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من: البخل والشح، أو عدم الثقة بالضمان؛ وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصدقة؛ برهاناً لصاحبها.

وهذه الأمور كلها؛ تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سماه قرضاً، وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة؛ ولكن قرض إحسان إلى المقرض واستدعاء لمعاملته، وليعرف مقدار الربح، فهو الذي أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به.

ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة، وهو الأجر الكريم. وحيث جاء هذا القرض في القرآن؛ قيده بكونه حسنًا، وذلك يجمع أموراً ثلاثة:

أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه.

الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله؛ ابتغاء مرضاة الله.

الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي.

فالأول: يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الأخذ وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الذين يُنفِقُون أمْوالهُم في سبيل الله كمثل حبَّةٍ أنبتَتْ سَبْعَ سنابِلَ في كُلِّ سُنْبلةٍ مائةُ حَبَّةٍ والله يُضاعِفُ لمن يشاءُ والله واسعٌ عليمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض، ومثل سبحانه بهذا المثل؛ إحضاراً لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غيبت في الأرض؛ فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائةحبة، حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته، كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة؛ الواحدة؛ فينضاف الشاهد العيانى إلى الشاهد الإيماني القرآني؛ فيقوى إيمان المنفق، وتسخو نفسه بالإنفاق.

وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل، وهي من جموع الكثرة؛ إذ المقام مقام تكثير وتضعيف، وجمعها على سنبلات في قوله تعالى: ﴿وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٦]. فجاء بها على جمع القلة؛ لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير، وقوله تعالى: ﴿والله يُضاعِفُ لمن يشاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قيل: المعنى: والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، بل يختص برحمته من يشاء؛ وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه، ولصفات المنفق وأحواله في: شدة الحاجة، وعظيم النفع، وحسن الموقع.

وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك، فلا يقتصر به على السبعمائة؛ بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة.

واختلف في تفسير الآية فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة.

وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة، ليطابق الممثل

للممثل به. فهنا أربعة أمور: منفق، ونفقة، وباذر، وبذر.

فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه، فذكر من شق الممثل المنفق؛ إذ المقصود ذكر حاله وشأنه، وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها. وذكر من شق الممثل به البذر؛ إذ هو المحل الذي حصلت فيه المضاعفة، وترك ذكر الباذر؛ لأن القرض لايتعلق بذكره.

فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمن لغاية البيان. وهذا كثير في أمثال القرآن؛ بل عامتها ترد على هذا النمط.

ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها، وهما: الواسع، العليم.

فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه، فإن المضاعف واسع العطاء، واسع الغنى، واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق؛ فإنه عليم: بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها؛ ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها؛ فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته؛ بل يضع فضله مواضعه: لسعته، ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله: بحكمته، وعلمه.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذين يُنفِقُونَ أَمْوالَهُم في سبيلِ اللهِ ثُمَّ لايُتْبِعُونَ ما أَنفَقُوا مَنًّا ولا أَذىً لَهُم أَجْرُهُمْ عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون﴾ [البقرة: ٢٦٢].

هذا بيان للقرض الحسن ماهو؟ وهو أن يكون في سبيله، أي: في مرضاته، والطريق الموصلة إليه، ومن أنفعها؛ سبيل الجهاد.

وسبيل الله خاص وعام، والخاص جزء من السبيل العام، وأن لا يتبع صدقته بمن ولا أذى. فالمن نوعان:

أحدهما: منّ بقلبه من غير أن يصرِّح به بلسانه، وهذا إن لم يبطل الصدقة؛ فهو من نقصان شهود منة الله عليه في إعطائه المال وحرمان غيره، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه، فلله المنّة عليه من كل وجه، فكيف يشهد قلبه منة لغيره؟.

والنوع الثاني: أن يمن عليه بلسانه؛ فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه،

ويريه أنه اصطنعه، وأنه أوجب عليه حقًّا وطوقه منة في عنقه فيقول: أما أعطيتك كذاوكذا؟ ويعدد أياديه عنده. قال سفيان: يقول: أعطيتك فما شكرت.

وقال عبدالرحمن بن زياد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً، ورأيت أن سلامك يثقل عليه، فكف سلامك عنه. وكانوا يقولون: إذا اصطنعتم صنيعة فانسوها، وإذا أسديت إليكم صنيعة فلا تنسوها. وفي ذلك قيل:

وإن امرءاً أهدى إلي صنيعة   وذكرنيها مرة لبخيل

وقيل: صنوان: من منح سائله ومنّ، ومن منع نائله وضن.

وحظر الله على عباده المن بالصنيعة واختص به صفة لنفسه؛ لأن منَّ العباد: تكدير، وتعيير، ومنَّ الله سبحانه وتعالى: إفضال، وتذكير.

وأيضاً: فإنه هو المنعم في نفس الأمر والعباد وسائط، فهو المنعم على عبده في الحقيقة. وأيضاً: فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يمن عليه. ولا تصلح العبودية والذل إلا لله.

وأيضاً: فالمنة أن يشهد المعطي: أنه هو رب الفضل والإنعام، وأنه ولي النعمة ومسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا الله.

وأيضاً: فالمانُّ بعطائه يشهد نفسه: مترفعاً على الآخذ، مستعلياً عليه، غنيًّا عنه، عزيزاً ويشهد ذل الآخذ، وحاجته إليه، وفاقته، ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضاً: فإن المعطي قد تولى الله ثوابه، ورد عليه أضعاف ما أعطى؛ فبقي عوض ماأُعطي عند الله. فأي حق بقي له قبل الآخذ؟ فإذا امتن عليه؛ فقد ظلمه ظلماً بينًا، وادَّعىٰ أن حقه في قلبه. ومن هنا ـ والله أعلم ـ بطلت صدقته بالمن؛ فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعوض تلك الصدقة عنده، فلم يرض به، ولا حظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمنَّ عليه بما أعطاه؛ أبطل معاوضته مع الله ومعاملته له.

فتأمل هذه النصائح من الله لعباده، ودلالته على ربوبيته وإلـٰهيته وحده، وأنه يبطل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته وإلـٰهيته، لا إلـٰه غيره ولا رب سواه.

ونبه بقوله: ﴿**ثم لا يُتْبِعُون ما أنفقوا منًّا ولا أذىً**﴾ [البقرة: ٢٦٢]. على أن المنّ والأذى ـ ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ـ ضر بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق. ولو أتى بالواو وقال: ولا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذىً؛ لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المن والأذى المتراخي: مبطلاً لأثر الإنفاق، مانعاً من الثواب؛ فالمقارن أولى وأحرى.

وتأمل كيف جرد الخبر هنا عن الفاء فقال: ﴿**لهم أجرهُم عند ربِّهم**﴾ وقرنه بالفاء في قوله تعالى: ﴿**الَّذين يُنفقون أَمْوالَهُم بالليل والنهارِ سرًّا وعلانيةً فلهم أجرُهُم عند ربِّهم**﴾ [البقرة: ٢٧٤]. فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف؛ تفهم: معنى الشرط والجزاء، وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة. فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره؛ جرد الخبر عن الفاء، فإن المعنى: إن الذي ينفق ماله لله، ولا يمن ولا يؤذي هو الذي يستحق الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله، ويمن ويؤذي بنفقته، فليس المقام مقام شرط وجزاء؛ بل مقام بيان للمستحق دون غيره.

وفي الآية الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانية، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال، فأتى بالفاء في الخبر؛ ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار، وعلى أي حالة وجد من سرٍّ وعلانية؛ فإنه سبب للجزاء على كل حال، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر، ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت؛ سبب لأجره وثوابه.

فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك لا تظفر بها تمر(١) بك في التفاسير، والمنة والفضل لله وحده لا شريك له.

ثم قال تعالى: ﴿**قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ومَغْفِرة خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىً واللهُ غنيٌّ حليمٌ**﴾ [البقرة: ٢٦٣].

---

(١) هكذا بالنسخة، ولعل الصواب: (فقد لا تمر) ليستقيم المعنى. المراجع.

فأخبر أن القول المعروف ـ وهو الذي تعرفه القلوب ولا تنكره ـ، والمغفرة ـ وهي العفو عمن أساء إليك ـ خيرٌ من الصدقة بالأذى.

فالقول المعروف: إحسان، وصدقة بالقول.

والمغفرة: إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان، والصدقة المقرونة بالأذى؛ حسنة مقرونة بما يبطلها. ولا ريب أن حسنتين؛ خير من حسنة باطلة.

ويدخل في المغفرة؛ مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة والأذى له بسبب رده، فيكون عفوه عنه؛ خيراً من أن يتصدق عليه ويؤذيه. هذا على المشهور من القولين في الآية.

والقول الثاني: أن المغفرة من الله، أي: مغفرة لكم من الله؛ بسبب القول المعروف، والرد الجميل؛ خير من صدقة يتبعها أذى.

وفيها قول ثالث: أي: مغفرة وعفو من السائل إذا رد وتعذر المسئول؛ خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى.

وأوضح الأقوال هو الأول، ويليه الثاني، والثالث ضعيف جدًّا؛ لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسئول لا للسائل الآخذ.

والمعنى: أن قول المعروف له والتجاوز والعفو؛ خير لك من أن تتصدق عليه وتؤذيه، ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال: **﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حليمٌ﴾** وفيه معنيان:

أحدهما: أن الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة؛ فنفعها عائد عليكم لا إليه سبحانه وتعالى، فكيف يمنُّ بنفقته ويؤذي؛ مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه، ومع هذا فهو حليمٌ؛ إذ لم يعاجل المانّ بالعقوبة. وفي ضمن هذا: الوعيد، والتحذير.

والمعنى الثاني: أنه سبحانه وتعالى مع غناه التام من كل وجه؛ فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح، مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة، فكيف يؤذي أحدكم بمنه وأذاه، مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره؟!

ثم قال تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأذى كالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ

تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

تضمنت هذه الآية الإخبار: بأن المن والأذى يحبط الصدقة، وهذا دليل على أن الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وقد تقدم الكلام على هذه المسألة في أول هذه الرسالة فلا حاجة إلى إعادته.

وقد يقال: إن المن والأذى المقارن للصدقة؛ هو الذي يبطلها دون ما يلحقها بعدها، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا التقييد، والسياق يدل على إبطالها به مطلقًا.

وقد يقال: تمثيله بالمرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر؛ يدل على أن المن والأذى المبطل؛ هو المقارن كالرياء وعدم الإيمان، فإن الرياء لو تأخر عن العمل؛ لم يبطله. ويجاب عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن التشبيه وقع في الحال التي يحبط بها العمل، وهي حال المرائي والمانّ المؤذي، في أن كل واحد منهما يحبط العمل.

الثاني: أن الرياء لا يكون إلا مقارنًا للعمل، لأنه «فِعال» من الرؤية التي صاحبها يعمل ليرى الناس عمله فلا يكون متراخيًا، وهذا بخلاف المن والأذى فإنه يكون مقارنًا ومتراخيًا، وتراخيه أكثر من مقارنته.

وقوله: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ﴾ إما أن يكون المعنى: كإبطال الذي ينفق؛ فيكون قد شبه الإبطال بالإبطال، أو المعنى: لا تكونوا كالذي ينفق ماله رئاء الناس؛ فيكون تشبيهًا للمنفق بالمنفق.

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي: مثل هذا المنفق الذي قد بطل ثواب نفقته ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس، وفيه قولان: أحدهما: أنه واحد.

والثاني: جمع صفوة ﴿عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ وهو الأملس الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره، وهذا من أبلغ الأمثال

وأحسنها، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي ـ الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر ـ بالحجر: لشدته، وصلابته، وعدم الانتفاع به.

وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار، الذي علق بذلك الحجر، والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر، فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته، وأزالها كما يذهب الوابل التراب الذي على الحجر فيتركه صلدًا، فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه: لبطلانه وزواله.

وفيه معنى آخر وهو: أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملاً يرتب عليه الأجر، ويزكو له كما تزكو الحبة، التي إذا بذرت في التراب الطيب؛ أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، ولكن وراء هذا الإنفاق مانع يمنع من نموه وزكائه، كما أن تحت التراب حجرًا يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه؛ فلا ينبت ولا يخرج شيئًا، ثم قال: **﴿ومَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ وتَثْبِيتًا مِنْ أنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإن لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ، واللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** [البقرة: ٢٦٥].

هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق، فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص، والتثبيت من النفس هو الصدق في البذل. فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان، إن نجا منهما؛ كان مثله ما ذكره في هذه الآية: ـ

إحداهما: طلبه بنفقته: محمدة، أو ثناء، أو غرضًا من أغراضه الدنيوية. وهذا حال أكثر المنفقين.

والآفة الثانية: ضعف نفسه وتقاعسها وترددها: هل يفعل، أم لا؟

فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله، والآفة الثانية تزول بالتثبيت. فإن تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل، وهذا هو صدقها. وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها.

فإذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك؛ كان مثله كجنة ـ وهي البستان الكثير الأشجار ـ فهو مجتنّ بها، أي: مستتر ليس قاعاً فارغاً. والجنة بربوة ـ وهو المكان المرتفع ـ فإنها أكمل من الجنة التي بالوهاد والحضيض؛ لأنها إذا ارتفعت كانت: بمدرجة الأهوية والرياح، وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها؛ فكانت أنضج ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره. فإن الثمار تزداد طيبًا وزكاء

بالرياح والشمس، بخلاف الثمار التي تنشأ في الظلال.

وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع؛ لم يخش عليها إلا من قلة الماء والشراب.

فقال تعالى: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. وهو المطر الشديد العظيم القدر؛ فأدت ثمرتها وأعطت بركتها؛ فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يثمر غيرها، أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل، فهذا حال السابقين المقربين. ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فهو دون الوابل، فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب مغرسها؛ فتكتفي في إخراج بركتها بالطل، وهذا حال الأبرار المقتصدين في النفقة، وهم درجات عند الله، فأصحاب الوابل أعلاهم درجة، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. وأصحاب الطل مقتصدوهم.

فمثّل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين؛ يوجب زكاء ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف؛ فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة، بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم، فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة.

واختلف في الضعفين، فقيل: ضعفا الشيء مثلاه زائدًا عليه، وضعفه مثله.

وقيل: ضعفه مثلاه، وضعفاه ثلاثة أمثاله، وثلاثة أضعافه أربعة أمثاله، كلما زاد ضعفًا؛ زاد مثلاً.

والذي حمل هذا القائل على ذلك؛ فراره من استواء دلالة المفرد والتثنية، فإنه رأى ضعف الشيء هو مثله الزائد عليه، فإذا زاد إلى المثل؛ صار مثلين، وهما الضعف. فلو قيل: لها ضعفان؛ لم يكن فرق بين المفرد والمثنى، فالضعفان عنده مثلان مضافان إلى الأصل، ويلزم من هذا أن يكون ثلاثة أضعافه؛ ثلاثة أمثال مضافة إلى الأصل، وهكذا أبدًا.

والصواب: أن الضعفين هما المثلان فقط: الأصل ومثله. وعليه يدل قوله تعالى: ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: مثلين، وقوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. أي: مثلين.

ولهذا قال في الحسنات: ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١].

وأما ما توهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية؛ فوهم منشؤه؛ ظن أن الضعف

هو المثل مع الأصل، وليس كذلك، بل المثل له اعتباران: إن اعتبر وحده فهو ضعف، وان اعتبر مع نظيره فهما ضعفان. والله أعلم.

واختلف في رافع قوله: ﴿**فطل**﴾ فقيل: هو مبتدأ خبره محذوف، أي: وطله يكفيها، وقيل: خبر مبتدأه محذوف: فالذي يُرويها ويصيبها طل.

والضمير في ﴿**أصابها**﴾ إما: أن يرجع إلى الجنة، أو إلى الربوة وهما متلازمان.

ثم قال تعالى: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهـا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصَارٌ فِيـهِ نارٌ فَاحْـتَرَقَتْ كَذلـكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال الحسن: هذا مثلٌ قلَّ ـ والله ـ من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه؛ أفقر ما كان إلى جنته. وإن أحدكم ـ والله ـ أفقر ما يكون إلى عمله؛ إذا انقطعت عنه الدنيا.

وفي صحيح البخـاري: «عن عبيد بن عمير قال: سأل عمر يومًا أصحاب النبي ﷺ: فيم هم يرون هذه الآية نزلت: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَخِيلٍ**﴾ الآية؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: قل يا ابن أخي ولا تحقر بنفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل عمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله»(١).

فقوله تعالى: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ**﴾ أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري، وهو أبلغ من النفي والنهي، وألطف موقعًا، كما ترى غيرك يفعل فعلاً قبيحًا فتقول: لا يفعل هذا عاقل، لا يفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة.

وقال تعالى: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ**﴾ بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام، كما تقول: أيفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقول: أيودون.

---

(١) لقد سبق هذا الحديث بوجه آخر، وهذا اللفظ المذكور بنحو ما عند البخاري. انظر الفتح: (٨/٤٩) رقم: (٤٥٣٨) وقد ذكر ابن حجر في نفس الموضع عدة أوجه لروايته. اهـ المراجع.

وقوله: ﴿أيود﴾ أبلغ في الإنكار من لو قيل: أيريد؛ لأن محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها؛ أقبح وأنكر من مجرد إرادتها.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خص هذين النوعين من الثمار بالذكر؛ لأنهما أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعًا، فإن منهما: القوت والغذاء، والدواء والشراب، والفاكهة، والحلو والحامض، ويؤكلان رطبًا ويابسًا، ومنافعهما كثيرة جدًا.

وقد اختلف في الأنفع والأفضل منهما؛ فرجحت طائفة النخيل، ورجحت طائفة العنب، وذكرت كل طائفة حججًا لقولها فذكرناها في غير هذا الموضع(١).

وفصل الخطاب: أن هذا يختلف باختلاف البلاد، فإن الله سبحانه وتعالى أجرى العادة؛ بأن سلطان أحدهما لا يحل حيث يحل سلطان الآخر، فالأرض التي يكون فيها سلطان النخيل؛ لا يكون العنب بها طائلاً ولا كثيرًا، لأنه إنما يخرج في الأرض الرخوة اللينة المعتدلة غير السبخة؛ فينمو فيها فيكثر، وأما النخيل فنموه وكثرته في الأرض الحارة السبخة، وهي لا تناسب العنب، فالنخل في أرضه وموضعه أنفع وأفضل من العنب فيها، والعنب في أرضه ومعدنه أفضل من النخل فيها. والله أعلم.

والمقصود أن هذين النوعين؛ هما أفضل أنواع الثمار وأكرمها، فالجنة المشتملة عليهما من أفضل الجنان، ومع هذا فالأنهار تجري تحت هذه الجنة، وذلك أكمل لها وأعظم في قدرها، ومع ذلك فلم تعدم شيئًا من أنواع الثمار المشتهاة؛ بل فيها من كل الثمرات، ولكن معظمها ومقصودها النخيل والأعناب، فلا تنافي بين كونها من نخيل وأعناب و﴿فيها من كُلِّ الثَّمرَاتِ﴾.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنا لأَحَدِهما جَنَّتَيْنِ مِن أَعْنابٍ وَحفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زرعًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وكانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: ٣٢-٣٤].

وقد قيل: إن الثمار هنا وفي آية البقرة (٢٦٦) المراد بها المنافع والأموال، والسياق يدل على أنها الثمار المعروفة لا غيرها، لقوله هنا: ﴿لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمرَاتِ﴾.

---

(١) في كتاب: (مفتاح دار السعادة). ذكر مفاضلة بين النخيل والأعناب وانتهت بأن النخيل أفضل.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَصَابَهَا﴾ أي: الجنة ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ وفي الكهف ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾. [الكهف: ٤٢]. وما ذلك إلا ثمار الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ هذا إشارة إلى شدة حاجته إلى جنته، وتعلق قلبه بها من وجوه.

أحدها: أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها.

الثاني: أن ابن آدم عند كبر سنه يشتد حرصه.

الثالث: أن له ذرية؛ فهو حريص على بقاء جنته؛ لحاجته وحاجة ذريته.

الرابع: أنهم ضعفاء؛ فهم كَلٌّ عليه لا ينفعونه بقوتهم وتصرفهم.

الخامس: أن نفقتهم عليه؛ لضعفهم وعجزهم، وهذا نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة: لخطرها في نفسها، وشدة حاجته وذريته إليها.

فإذا تصورت هذه الحال وهذه الحاجة؛ فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنته إعصار ـ وهي الريح التي تستدير في الأرض، ثم ترتفع في طبقات الجو كالعمود ـ وفيه نار مرت بتلك الجنة؛ فأحرقتها وصيرتها رمادًا؟،

فصدق ـ والله ـ قول(1) الحسن: هذا مثلٌ قلَّ من يعقله من الناس.

ولهذا نبه سبحانه وتعالى على عظم هذا المثل، وحَدَا القلوب إلى التفكر فيه؛ لشدة حاجتها إليه، فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فلو فكر العاقل في هذا المثل وجعله قبلة قلبه؛ لكفاه وشفاه، فهكذا العبد إذا عمل بطاعة الله، ثم أتبعها بما يبطلها ويفرقها من معاصي الله؛ كانت كالإعصار ذي النار المحرق للجنة، التي غرسها بطاعته وعمله الصالح، ولولا أن هذه المواضع أهم مما كلامنا بصدده ـ من ذكر مجرد الطبقات ـ لم نذكرها، ولكنها من أهم المهم، والله المستعان الموفق لمرضاته.

فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره، وتأمله كما ينبغي؛

---

(١) كلمة (قول) ليست بالنسخة، وزيدت لإيضاح المعنى. وقد مر قول الحسن ـ رحمه الله ـ في ص(٤٧٤) وفي غيرها. المراجع.

لما سولت له نفسه ـ والله ـ إحراق أعماله الصالحة وإضاعتها، ولكن لابد أن يغيب عنه علمه عند المعصية؛ ولهذا استحق اسم الجهل. فكل من عصى الله فهو؛ جاهل.

فإن قيل: الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ واو الحال، أم واو العطف؟

وإذا كانت للعطف، فعلام عطفت ما بعدها؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أنها[1] واو الحال، اختاره الزمخشري، والمعنى: أيود أحدكم أن تكون له جنة شأنها كذا وكذا، في حال كبره وضعف ذريته.

والثاني: أن تكون للعطف على المعنى، فإن فعل التمني، وهو قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُم﴾ لطلب الماضي كثيرًا، فكان المعنى: أيود لو كانت له جنة من نخيل وأعناب، وأصابه الكبر؛ فجرى عليها ما ذكر.

وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي ـ الذي لم يصدر إنفاقه عن الإيمان ـ بالصفوان الذي عليه التراب، فإنه لم ينبت شيئًا أصلاً؛ بل ذهب بذره ضائعًا، لعدم إيمانه وإخلاصه، ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصًا بنيته لله، ثم عرض له ما أبطل ثوابه بالجنة، التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها، ثم سلط عليها الإعصار الناري فأحرقها، فإن هذا نبت له شيء وأثمر له عمله ثم احترق، والأول لم يحصل له شيء يدركه الحريق. فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء للصدور وهدى ورحمة.

ثم قال: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. أضاف سبحانه الكسب إليهم وإن كان هو الخالق لأفعالهم، لأنه فعلهم القائم بهم، وأسند الإخراج إليه؛ لأنه ليس فعلاً لهم، ولا هو مقدور لهم، فأضاف مقدورهم إليهم، وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه إليه، ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنها بالكلية.

وخص سبحانه هذين النوعين ـ وهما: الخارج من الأرض، والحاصل بكسب التجارة ـ دون غيرهما من المواشي.

---

(١) بالنسخة: (أنه) والصواب ما أثبتناه. المراجع.

إما بحسب الواقع؛ فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك: فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب. والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع، فخص هذين النوعين بالذكر؛ لحاجتهم إلى: بيان حكمهما، وعموم وجودهما.

وإما لأنهما أصول الأموال، وما عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأ. فإن الكسب تدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من: الملابس، والمطاعم، والرقيق، والحيوانات، والآلات، والأمتعة، وسائر ما تتعلق به التجارة. والخارج من الأرض يتناول: حبها، وثمارها، وركازها، ومعدنها، وهذان هما أصول الأموال وأغلبها على أهل الأرض، فكان ذكرهما أهم.

ثم قال: ﴿**وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ**﴾ فنهى سبحانه عن قصد إخراج الرديء كما هو عادة أكثر النفوس: تمسك الجيد لها، وتخرج الرديء للفقير.

ونهيه سبحانه عن قصد ذلك وتيممه؛ فيه ما يشبه العذر لمن فعل ذلك، لا عن قصد وتيمم، بل عن اتفاق، إذا كان هو الحاضر إذ ذاك، أو كان ماله من جنسه، فإن هذا لم يتيمم الخبيث؛ بل تيمم إخراج بعض ما منّ الله عليه، وموقع قوله: ﴿**مِنْهُ تُنْفِقُونَ**﴾ موقع الحال، أي: لا تقصدوه منفقين منه.

ثم قال: ﴿**وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ**﴾ أي: لو كنتم أنتم المستحقين له، وبذل لكم؛ لم تأخذوه في حقوقكم إلا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه، من قولهم: أغمض فلان عن بعض حقه، ويقال للبائع: أغمض ـ أي: لا تستقص ـ كأنك لا تبصر. وحقيقته من إغماض الجفن، فكأن الرائي لكراهته له لا يملأ عينه منه؛ بل يغمض من بصره ويغمض عنه بعض نظره بغضًا.

ومنه قول الشاعر:

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيـ ـم رجال يرضون بالإغماض

وفيه معنيان:

أحدهما: كيف تبذلون لله وتهدون له ما لا ترضون ببذله لكم ولا يرضى أحدكم من صاحبه أن يهديه له، والله أحق من يخير له خيار الأشياء وأنفسها؟

والثاني: كيف تجعلون له ما تكرهون لأنفسكم وهو سبحانه طيب لا يقبل إلا طيبًا؟ ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما فقال: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾

فغناه وحمده يأبى قبول الرديء، فإن قابل الرديء الخبيث: إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأما الغنى عنه، الشريف القدر، الكامل الأوصاف؛ فإنه لا يقبله.

ثم قال تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٦٨].

هذه الآية تتضمن: الحض على الإنفاق، والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني، فإنها اشتملت: على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعوه إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين، فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح؛ هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي: بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإنه يهم بالصدقة والبذل؛ فيجد في قلبه داعيًا يقول له: متى أخرجت هذا؛ دعتك الحاجة إليه، وافتقرت إليه بعد إخراجه، وإمساكه خير لك؛ حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه. فإذا صور له هذه الصورة؛ أمره بالفحشاء وهي البخل، الذي هو من أقبح الفواحش. وهذا إجماع من المفسرين أن الفحشاء هنا البخل(١). فهذا وعده وهذا أمره، وهو الكذب في وعده، الغارّ الفاجر في أمره. فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون، فإنه يدلي من يدعوه بغروره، ثم يورده شر الموارد. كما قال:

دلاهم بغُرور ثم أوردهم   إن الخبيث لمن والاه غرّار

هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه ولا نصيحة له كما ينصح الرجل أخاه، ولا محبة في بقائه غنيًّا؛ بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته، وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل؛ ليسيء ظنه بربه، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه؛ فيستوجب منه الحرمان.

وأما الله سبحانه؛ فإنه يعد عبده: مغفرة منه لذنوبه، وفضلاً؛ بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه: إما في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة. فهذا وعد الله، وذاك

---

(١) تقدم ص(٤٥٤)نقلاً عن الإغاثة ص (١٠٧) جـ٢ ما يحسن الرجوع إليه من ذكره أن الصواب: أن الفحشاء على بابها في العموم.. إلخ ما ذكره. ج.

وعد الشيطان، فلينظر البخيل والمنفق، أي الوعدين هو أوثق؟ وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه؟ والله يوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، وهو الواسع العليم.

وتأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين، فإنه واسع العطاء، عليم: بمن يستحق فضله، ومن يستحق عدله؛ فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله، وهو بكل شيء عليم.

فتأمل هذه الآيات، ولا تستطل بسط الكلام فيها؛ فإن لها شأنًا لا يعقله إلا من: عقل عن الله خطابه وفهم مراده **﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾** [العنكبوت: ٤٣].

وتأمل ختم هذه السورة؟ التي هي سنام القرآن: بأحكام الأموال، وأقسام الأغنياء وأحوالهم، وكيف قسمهم إلى ثلاثة أقسام؟

القسم الأول: محسن وهم: المتصدقون. فذكر جزاءهم ومضاعفته، وما لهم في قرض أموالهم للملىء الوفي، ثم حذرهم مما يبطل ثواب صدقاتهم ويحرقها بعد استوائها وكمالها من: المن، والأذى، وحذرهم مما يمنع ترتب أثرها عليها؛ ابتداء من الرياء، ثم أمرهم أن يتقربوا إليه بأطيبها، ولا يتيمموا أردأها وخبيثها.

ثم حذرهم من الاستجابة لداعي البخل والفحش وأخبر أن: استجابتهم لدعوته، وثقتهم بوعده؛ أولى بهم، وأخبر أن هذا من حكمته، التي يؤتيها من يشاء من عباده، وأن من أوتيها؛ فقد أوتي خيرًا كثيرًا: أوتي ما هو خير وأفضل من الدنيا كلها؛ لأنه سبحانه وصف الدنيا بالقلة فقال تعالى: **﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾** [النساء: ٧٧]. وقال تعالى: **﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾** [البقرة: ٢٦٩]. فدل على أن ما يؤتيه عبده من حكمته؛ خير من الدنيا وما عليها، ولا يعقل هذا كل أحد؛ بل لا يعقله إلا من له: لب، وعقل ذكي، فقال تعالى: **﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾**. [البقرة: ٢٦٩].

ثم أخبر أن كل ما أنفقوه من نفقة أو تقربوا به إليه من نذر؛ فإنه يعلمه، فلا يضيع لديه؛ بل يعلم ما كان لوجهه، ويكل جزاء من عمل لغيره إلى من عمل له، فإنه ظالم لنفسه وماله من نصير.

ثم أخبر سبحانه عن أحوال المتصدقين لوجهه في صدقاتهم، وأنه يثيبهم عليها: إن أبدوها، أو كتموها؛ بعد أن تكون خالصة لوجهه، فقال: **﴿إِنْ تُبْدُوا**

الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١]. أي: فنعم شيء هي، وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية، فلا يتوهم مبديها بطلان أثره وثوابه؛ فيمنعه ذلك من إخراجها وينتظر بها الإخفاء؛ فتفوت، أو تعترضه الموانع، ويحال: بينه وبين قلبه، أو بينه وبين إخراجها؛ فلا يؤخر صدقة العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر، وهذه كانت حال الصحابة.

ثم قال: **﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾** [البقرة: ٢٧١]. فأخبر أن إعطاءها للفقير في خفية؛ خير للمنفق من إظهارها وإعلانها.

وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة، ولم يقل: وإن تخفوها؛ فهو خير لكم، فإن من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه: كتجهيز جيش، وبناء قنطرة، وإجراء نهر، أو غير ذلك.

وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد: الستر عليه، وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرى الناس أن يده هي اليد السفلى، وأنه لا شيء له؛ فيزهدون في معاملته ومعاوضته، وهذا قدر زائد من الإحسان إليه بمجرد الصدقة؛ مع تضمنه: الإخلاص، وعدم المراءاة وطلبهم المحمدة من الناس، وكان إخفاؤها للفقير؛ خيراً من إظهارها بين الناس.

ومن هذا مدح النبي ﷺ صدقة السر، وأثنى على فاعلها، وأخبر أنه: أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة؛ ولهذا جعله سبحانه خيراً للمنفق، وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته، ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم، فإنه بما تعملون خبير.

ثم أخبر: أن هذا الإنفاق إنما نفعه لأنفسهم يعود عليهم؛ أحوج ماكانوا إليه، فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختص بها عائد إليها؟!.

وأن نفقة المؤمنين إنما تكون ابتغاء وجهه خالصًا؛ لأنها صادرة عن إيمانهم.

وأن نفقتهم ترجع إليهم وافية كاملة، ولا يظلم منها مثقال ذرة. وصدر هذا الكلام بأن الله هو الهادي الموفق لمعاملته وإيثار مرضاته، وأنه ليس على رسوله هداهم؛ بل عليه إبلاغهم، وهو سبحانه الذي يوفق من يشاء لمرضاته.

ثم ذكر المصرف الذي توضع فيه الصدقة، فقال تعالى: **﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ**

التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]. فوصفهم بست صفات: إحداها: الفقر.

الثانية: حبسهم أنفسهم في سبيله تعالى وجهاد أعدائه ونصر دينه، وأصل الحصر: المنع، فمنعوا أنفسهم من تصرفها في أشغال الدنيا، وقصروها على بذلها لله، وفي سبيله.

الثالثة: عجزهم عن الأسفار للتكسب. والضرب في الأرض هو: السفر، قال تعالى: **﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾** [المزمل: ٢٠]. وقال تعالى: **﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾** [النساء: ١٠١].

الرابعة: شدة تعففهم، وهو حسن صبرهم، وإظهارهم الغنى، يحسبهم الجاهل أغنياء من: تعففهم، وعدم تعرضهم، وكتمانهم حاجتهم.

الخامسة: أنهم يعرفون بسيماهم، وهي العلامة الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها، وهذا لا ينافي حسبان الجاهل؛ أنهم أغنياء؛ لأن الجاهل له ظاهر الأمر، والعارف هو: المتوسم المتفرس، الذي يعرف الناس بسيماهم، فالمتوسمون خواص المؤمنين، كما قال تعالى: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾** [الحجر: ٧٥].

السادسة: تركهم مسألة الناس فلا يسألونهم. والإلحاف هو: الإلحاح، والنفي متسلط عليهما معًا، أي: لا يسألون ولا يلحفون، فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه إلحاف. وهذا كقوله:

على لا حب لا يُهْتَدَىٰ لمناره

أي: ليس فيه منار فيهتدي به.

وفيه كالتنبيه على أن المذموم من السؤال؛ هو سؤال الإلحاف، فأما السؤال بقدر الضرورة من غير إلحاف؛ فالأفضل تركه، ولا يحرم.

فهذه ست صفات للمستحقين للصدقة، فألغاها أكثر الناس ولحظوا منها ظاهر الفقر وزيه من غير حقيقته، وأما سائر الصفات المذكورة فعزيز أهلها، ومن يعرفهم أعز، والله يختص بتوفيقه من يشاء، فهؤلاء هم المحسنون في أموالهم.

القسم الثاني: (الظالمون) وهم ضد هؤلاء، وهم الذين يذبحون المحتاج

المضطر. فإذا دعته الحاجة إليهم؛ لم ينفسوا كربته إلا بزيادة على ما يبذلونه له وهم أهل الربا، فذكرهم تعالى بعد هذا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

فصدّر الآية بالأمر بتقواه المضادة للربا، وأمر بترك ما بقي من الربا بعد نزول الآية.
وعفا لهم عما قبضوه به قبل التحريم، ولولا ذلك، لردوا ما قبضوه به قبل التحريم.
وعلق هذا الامتثال على وجود الإيمان منهم، والمعلق على شرط منتف عند انتفائه.

ثم أكد عليهم التحريم بأغلظ شيء وأشده؛ وهي محاربة المرابي لله ورسوله، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

ففي ضمن هذا الوعيد: أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجىء هذا الوعيد في كبيرة سوى: الربا، وقطع الطريق والسعي في الأرض بالفساد؛ لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض، قاطع الطريق على الناس: هذا بقهره لهم وتسلطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها. فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله، وآذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا: بحربه، وحرب رسوله.

ثم قال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. يعني: إن تركتم الربا وتبتم إلى الله منه وقد عاقدتم عليه؛ فإنما لكم رءوس أموالكم: لا تزدادون عليها؛ فتظلمون الآخذ، ولا تنقصون منها؛ فيظلمكم من أخذها. فإن كان هذا القابض معسرًا فالواجب؛ إنظاره إلى ميسرة، وإن تصدقتم عليه وأبرأتموه؛ فهو أفضل لكم وخير لكم. فإن أبت نفوسكم، وشحت: بالعدل الواجب؛ أو الفضل المندوب؛ فذكروها يومًا ترجعون فيه إلى الله، وتلقون ربكم؛ فيوفيكم جزاء أعمالكم؛ أحوج ما أنتم إليه، فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق ثم عقبه بالظالم وهو المرابي. . .[1]

[2]**والله** سبحانه قد قال في آية المُدَاينة [البقرة: ٢٨٢]. التي أرشد بها عباده إلى حفظ حقوق بعضهم على بعض خشية ضياعها بالجحود، أو النسيان، فأرشدهم

---

(١) القسم الثالث يأتي آخر السورة. ج.　　(٢) ٤٨ إغاثة جـ٢.

إلى حفظها بالكتاب، وأكد ذلك بأن أمَرَهم بكتابةِ الدين، وأمر الكاتِب أنْ يكتُبَ.

ثم أكد ذلك بأن نهاه أنْ يأبَى أن يكتبَ. ثم أعاد الأمر بأن يكتب مرة أخرى، وأمر مَنْ عليه الحقُّ أن يُمْلِلَ، ويَتْقِي ربه. فلا يَبْخَسْ من الحقِّ شيئًا. فإن تَعَذَّر إملاؤه: لسفهه، أو صغره، أو جنونه، أو عدم استطاعته؛ فوَلِيُّه مأمور بالإملاء عنه.

وأرشدهم إلى حفظها باستشهاد: شهيدين من الرجال، أو رجل وامرأتين. فأمرهم بالحفظ بالنصاب التام، الذي لا يحتاج صاحبُ الحق معه إلى يمينٍ، ونهى الشهودَ أن يأبَوْا إذا دُعوا إلى إقامة الشهادة.

ثم أكَّد ذلك عليهم بنهيهم أن يمتنعوا من كتابة الحقير والجليل من الحقوق، سآمة ومللاً.

وأخبر أن ذلك: أعدل عنده، وأقْوَم للشهادة. فيتذكرها الشاهد إذا عاين خَطَّه؛ فيقيمها. وفي ذلك تنبيهٌ على أن له أن يقيمها إذا رأى خطه وتَيَقَّنه. وإلا لم يكن بالتعليل بقوله: ﴿**وأقومُ للشهادةِ**﴾ فائدة.

وأخبر أن ذلك: أقرب إلى اليقين، وعدم الريب. ثم رفع عنهم الجناح بترك الكتابة؛ إذا كان بيعاً حاضراً فيه التقابُضُ من الجانبين، يأمَنُ به كلُّ واحد من المتبايعين من: جُحود الآخر، ونِسْيانه.

ثم أمرهم مع ذلك بالإشهاد إذا تبايعوا: خَشْيَةَ الجحود، وغَدْر كل واحدٍ منهما بصاحبه. فإذا أشهدَا على التبايع أمِنا ذلك.

ثم نهي الكاتبَ والشهيدَ عن أن يُضَارًا: إما بأنْ يمتنعا من الكتابة والشهادة تَحَمُّلاً وأداءً، أو أن يَطْلُبا على ذلك جُعْلاً يَضُرُّ بصاحب الحق، أو بأن يكتُم الشاهدُ بعضَ الشهادة، أو يؤخِّر الكتابة والشهادة تأخيراً يَضرُّ بصاحب الحق، أو يَمْطُلاه، ونحو ذلك، أو هو نَهْيٌ لصاحب الحق أن يُضارَّ الكاتبَ والشهيدَ، بأن: يَشْغَلهما عن ضرورتهما وحوائجهما، أو يُكلِّفهما من ذلك ما يَشُقُّ عليهما.

ثم أخبر أن ذلك فسوق بفاعله. فهذا كله عند القدرة على الكتاب والشهود.

ثم ذكر ما تُحفظ به الحقوق؛ عند عدم القدرة على الكتاب والشهود، وهو السَّفَر في الغالب، فقال: ﴿**وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ**﴾ [البقرة: ٢٨٣].

فدلّ ذلـك دلالة بَيِّنة أن الرِّهان قائمةٌ مقام الكتاب والشهود، شاهدة مخبرة بالحق، كما يُخبر به الكتاب والشهودُ.

وهـذا ـ والله أعلم ـ سِرُّ تقييد الرهن بالسَّفَر؛ لأنه حالٌ يتعذر فيها الكتاب الـذي يَنْـطِقُ بالحق غالبـاً، فقام الرهنُ مقامه، ونابَ منابَهُ. وأكد ذلك بكونه مقبوضاً للمرتهن، حتى لا يتمكن الراهنُ من جَحْده.

فلا أحسنَ من هذه النصيحة، وهذا الإرشاد والتعليم، الذي لو أخذَ به الناسُ لم يضع في الأكثر حقُّ أحد، ولم يتمكَّنْ المبطِلُ من الجحود والنِّسيانِ.

فهذا حكمه سبحانه المتضمنُ لمصالح العبادِ في معاشهم ومعادهم . . .

...[1]**فبينة** الحال ودَلالته هنا تفيد من ظهور صدق المدعي ؛ أضعافَ ما يفيد مجرد اليد عند كل أحد؛ فالشارع لا يهمل مثل هذه البينة والدلالة، ويضيع حقًّا يعلم كلُّ أحدٍ ظهوره وحجته، بل لما ظنَّ هذا من ظنه؛ ضيعوا طريق الحكم، فضـاع كثـير من الحقوق؛ لتوقف ثبوتها عندهم على طريق معين، وصار الظالم الفـاجـر ممكَّناً من ظلمه وفجوره، فيفعل ما يريد، ويقول: لا يقوم على بذلك شاهدان اثنان، فضاعت حقوق كثيرة لله ولعباده.

وحينئذ أخرج الله أمر الحكم العلمي عن أيديهم، وأدخل فيه من أمر الأمارة والسياسـة؛ ما: يحفظ به الحق تارة ويضيع به أخرى، ويحصل به العدوان تارة والعدل أخرى. ولو عرف ما جاء به الرسول على وجهه؛ لكان فيه تمام المصلحة المُغنية عن التفريط والعدوان.

وقد ذكر الله سبحانه نصاب الشهادة في القرآن في خمسة مواضع:

فذكر نصاب شهادة الزنى أربعة في سورة النساء، وسورة النور.

وأما في غير الزنىٰ فذكر: شهادة الرجلين، والرجل والمرأتين؛ في الأموال؛ فقال في آية الدين: ﴿**وَاستشهدوا شهيدينِ من رجالِكم، فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامـرَأتانِ**﴾ [البقرة: ٢٨٢] فهذا في التحمل والوثيقة، التي يحفظ بها صاحبُ المال حقه، لا في طريق الحكم، وما يحكم به الحاكم، فإن هذا شيء وهذا شيء.

وأمر في الرجعة بشاهدين عدلين.

---

(١) ٩٠ أعلام جـ١.

وأمر في الشهادة على الوصية في السفر باستشهاد: عدلين من المسلمين، أو آخـرين من غيرهم. وغـيرُ المؤمنـين هم الكفـار، والآية صريحة في قبول شهادة الكـافرين على الوصية في السفر؛ عند عدم الشاهدين المسلمين، وقد حكم به النبي، ﷺ، والصحـابة بعده ولم يجيء بعدها ما ينسَخُها؛ فإن المائدة من آخر القرآن نزولاً، وليس فيها منسوخ، وليس لهذه الآية معارض ألبتة.

ولا يصح أن يكون المراد بقوله: ﴿من غيركم﴾: من غير قبيلتكم، فإن الله سبحانه خاطب بها المؤمنين كافة بقوله: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا شَهَادة بينكم إذا حضرَ أحدَكُمُ المَوتُ حين الوصِيَّةِ اثنان ذَوَا عدلٍ منكم أو آخرانِ من غيرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] ولم يُخاطب بذلك قبيلةً معينة حتى يكون قوله: ﴿من غيرِكُمْ﴾ أيتها القبيلة، والنبي، ﷺ، لم يفهم هذا من الآية؛ بل إنما فهم ما هي صَريحة فيه، وكذلك أصحابه من بعده، وهو سبحانه ذكر ما يحفظ به الحقوق من الشهود، ولم يذكر أن الحكام لا يحكمون إلا بذلك(١).

(٢)**وقد** ذهب مالك إلى التوصل إلى الإقرار بما يراه الحاكم، وذلك يستند إلى قوله: ﴿إن كان قميصُه قُدَّ من قُبُل﴾ [يوسف: ٢٦] ومتى حكمنا بعقد الأزج وكثرة الخشب ومعاقدالقمط في الجص(٣)وما يصلح للمرأة والرجل، يعني في الدعاوي، والدباغ والعطارإذا تخاصما(٤)في جلدوالقيافة، والنظر في الخنثى والنظر في إمارات القبلة، وهل اللوث في القسامة إلا نحو هذا. انتهى.

قلت: الحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الإمارات ودلائل الحال، كفقهه في كليات الأحكام؛ ضيع الحقوق.

فههنا فقهان لابد للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في الـوقائع وأحوال الناس، يميز به بين: الصادق والكاذب، والمحق والمبطل. ثم يطبق بين هذا وهذا، بين الواقع والواجب؛ فيعطي الواقع حكمه من الواجب.

---

(١) بحث المؤلف في البينات قرابة كراسة، قرر فيها ثبوت الحق بأي بينة. ج.

(٢) ١١٧ بدائع جـ٣.

(٣) في المطبوعة: الحصن وأثبتنا الصواب من المخطوطة.

(٤) في المطبوعة: تحاكما وأثبتنا الصواب من المخطوطة.

ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالها وعدلها وسعتها ومصلحتها، وأن الخلق لاصلاح لهم بدونها ألبتة؛ علم أن السياسة العادلة: جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علماً بمقاصدها ووضعها مواضعها؛ لم يحتج معها إلى سياسة غيرها ألبتة فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها.

وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، وهي من الشريعة، علمها من علمها، وخفيت علي من خفيت عنه.

ولا تنس في هذا الموضع قول سليمان نبي الله للمرأتين، اللتين ادعتا الولد فحكم به داود للكبرى، فقال سليمان: «**إتوني بالسكين أشقه بينهما**» فقالت الصغرى: لا تفعل هو ابنها؛ فقضى به للصغرى؛ لما دل عليه امتناعها، من رحمة الأم، ودل رضى الكبرى بذلك على الاسترواح إلى التأسي بمساواتها في فقد الولد.

وكذلك قول الشاهد من أهل امرأة العزيز: ﴿**إن كان قميصُه قُدَّ من قُبُلٍ**﴾ ﴿**وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبُرٍ**﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧] فذكر الله تعالى ذلك مقرراً له، غير منكر على قائله؛ بل رتب عليه العلم: ببراءة يوسف، وكذب المرأة عليه.

وقد أمر النبي، ﷺ، الزبير أن يقرر ابني أبي الحقيق بالتعذيب على إخراج الكنز؛ فعذبهما حتى أقرا به.

ومن ذلك قول علي للظعينة التي حملت كتاب حاطب وأنكرته فقال لها: «لتخرجن الكتاب أو لنجردنك».

وهل تقتضي محاسن الشريعة الكاملة إلا هذا؟!

وهل يشك أحد في أن كثيراً من القرائن؛ تفيد علماً أقوى من الظن المستفاد من الشاهدين؛ بمراتب عديدة؟!

فالعلم المستفاد من مشاهدة الرجل مكشوف الرأس، وآخر هارب قدامه، وبيده عمامة، وعلى رأسه عمامة، فالعلم بأن هذه عمامة المكشوف رأسه؛ كالضروري. فكيف تقدم عليه اليد التي إنما تفيد ظنًّا ما عند عدم المعارضة، وأما مع هذه المعارضة فلا تفيد شيئاً؛ سوى العلم بأنها يد عادية فلا يجوز الحكم بها ألبتة؟ ولم تأت الشريعة بالحكم لهذه اليد وأمثالها ألبتة.

وقد أمر النبي، ﷺ، الملتقط أن يدفع اللقطة إلى واصفها، وقد نص أحمد على اعتبار الوصف عند تنازع المالك والمستأجر في الدفين في الدار.

وهذه من محاسن مذهبه، ونص على البلد يفتح؛ فيوجد فيه أبواب مكتوب عليها بالكتابة القديمة: أنها وقف؛ أنه يحكم بذلك لقوة هذه القرينة، وهل الحكم بالقافة إلا حكم بقرينة الشبه؟ وكذلك اللوث في القسامة؛ حتى إن مالكاً وأحمد في إحدى الروايتين؛ يقيدان بها؛ وهو الصواب الذي لاريب فيه، وكذلك الحكم بالنكول إنما هو مستند إلى قوة القرينة الدالة على أن الناكل غير محق.

وبالجملة فالبينة: اسم لكل ما يبين الحق. ومن خصها بالشاهدين؛ فلم يوف مسماها حقه.

ولم تأت البينة في القرآن قط مراداً بها الشاهدان؛ وإنما أتت مراداً بها: الحجة، والدليل، والبرهان: مفردة، ومجموعة.

وكذلك قول النبي، ﷺ: «**البينة على المدعي**» المراد به بيان ما يصحح دعواه.

والشاهدان من البينة، ولا ريب أن غيرهما من أنواع البينة؛ قد تكون أقوى منها كدلالة الحال على صدق المدعي؛ فإنها أقوى من دلالة إخبار الشاهد.

والبينة والحجة والدلالة، والبرهان والآية، والتبصرة؛ كالمترادفة؛ لتقارب معانيها.

والمقصود أن الشرع لم يلغ القرائن ولا دلالات الحال؛ بل من استقرأ مصادر الشرع وموارده؛ وجده: شاهدا لها بالاعتبار، مرتباً عليها الأحكام.

وقول ابن عقيل: ليس هذا فراسة.

يقال: ولا ضير في تسميته فراسة؛ فإنها فراسة صادقة.

وقد مدح الله سبحانه وتعالى الفراسة وأهلها، في مواضع من كتابه قال تعالى: ﴿**إن في ذلـك لآياتٍ للمتوسمين**﴾ [الحجر:٧٥]. وهم المتفرسون الذين يأخذون بالسيما، وهي العلامة، ويقال: توسمت فيك كذا، أي: تفرسته، كأنك أخذت من السيما، وهي فعلاً من السمة، وهي العلامة.

وقال تعالى: ﴿**وَلَو نَشاءُ لأَرَيْناكهم فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسيماهُمْ**﴾[محمد: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿**يَحسَبُهمُ الجاهِلُ أَغنياءَ مَن التعففِ تعرفهم بِسيماهم**﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفي الترمذي مرفوعاً: «**اتقوا فِراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله**» ثم قرأ: ﴿**إنَّ في ذلك لآياتٍ للمتوسمين**﴾ [الحجر: ٧٥] والله أعلم.

...(١)**وقال** شيخ الإسلام ابن تيمية: القرآن لم يذكر الشاهدين، والرجل والمرأتين في طرق الحكم التي يحكم بها الحاكم، وإنما ذكر هذين النوعين من البينات في الطرق التي يحفظ بها الإنسان حقه.

فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّها الذين آمنوا إذا تَدَايَنتُم بدَيْنٍ إلى أجَلٍ مُسمًّى فَاكتبوهُ. وليكتُب بينكم كاتبٌ بالعدلِ. ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتبَ كما علَّمَه الله. فليكتبْ. وَلْيُمْلِلِ الذي عليه الحقُّ. وَلْيتَّقِ الله ربَّه. ولاَ يبخسْ منه شيئاً. فإن كان الذي عليه الحَقُّ سفيهاً أو ضعيفاً أَو لاَ يَستطيعُ أن يُملَّ هو فليمللْ وليُّه بالعدلِ. واستشهدوا شهيدينِ من رجالِكم. فإن لم يكونا رجلينِ فرجلٌ وامرأتانِ ممن تَرْضَوْنَ من الشهداءِ﴾** [البقرة: ٢٨٢]

فأمرهم سبحانه بحفظ حقوقهم بالكتاب، وأمر من عليه الحق أن يملي الكاتب، فإن لم يكن ممن يصح إملاؤه؛ أملى عنه وليه.

ثم أمر من له الحق أن يستشهد على حقه برجلين، فإن لم يجد؛ فرجل وامرأتان.
ثم نهى الشهداء المتحملين للشهادة عن التخلف عن إقامتها؛ إذا طُلبوا بذلك.
ثم رخص لهم في التجارة الحاضرة: أن لا يكتبوها.
ثم أمرهم بالإشهاد عند التبايع.
ثم أمرهم إذا كانوا على سفر ـ ولم يجدوا كاتباً ـ أن يستوثقوا بالرُّهُن المقبوضة.

كل هذا نصيحة لهم، وتعليم وإرشاد لما يحفظون به حقوقهم. وما تحفظ به الحقوق شيء، وما يحكم به الحاكم شيء. فإن طرق الحكم أوسع من الشاهدين والمرأتين. فإن الحاكم يحكم بالنكول واليمين المردودة، ولا ذكر لهما في القرآن؛ فإن كان الحكم بالشاهد الواحد واليمين مخالفاً لكتاب الله؛ فالحكم بالنكول والرد أشد مخالفة...

(٢)**الطريق** الثامن من طرق الحكم: الحكم بالرجل الواحد والمرأتين.

قال الله تعالى: **﴿واستشهدوا شهيدين من رجالِكم. فإن لم يكونا رجلينِ فَرَجُلٌ وامرأتانِ ممن ترضَوْنَ مِن الشهداءِ، أن تضلَّ إحداهما فتذكِّرَ إحداهما**

---

(١) ٧١ الطرق الحكمية.
(٢) ١٤٩ الطرق الحكمية.

الأخرى﴾[البقرة: ٢٨٢]. فإن قيل: فظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين؛ بدل عن الشاهدين، وأنه لا يقضى بهما إلا عند عدم الشاهدين.

قيل: القرآن لا يدل على ذلك. فإن هذا أمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم. فهو سبحانه أرشدهم إلى أقوى الطرق، فإن لم يقدروا على أقواها؛ انتقلوا إلى مادونها. فإن شهادة الرجل الواحد أقوى من شهادة المرأتين؛ لأن النساء؛ يتعذر غالباً حضورهن مجالس الحكام، وحفظهن وضبطهن؛ دون حفظ الرجال وضبطهم. ولم يقل سبحانه: احكموا بشهادة رجلين، فإن لم يكونا رجلين؛ فرجل وامرأتان.

وقد جعل سبحانه المرأة على النصف من الرجل في عدة أحكام:

أحدها: هذا. والثاني: في الميراث، والثالث: في الدية، والرابع: في العقيقة، والخامس: في العتق.

كما في الصحيح عنه، ﷺ، أنه قال: «**من أعتق امرأ مسلماً أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار. ومن أعتق امرأتين مسلمتين أعتق الله بكل عضو منهما عضواً من النار**».

وقوله تعالى: **﴿أن تَضِلَّ إحداهما فَتَذَكِّرَ إحداهُما الأخرى﴾** فيه دليل على أن الشاهد إذا نسي شهادته فذكره بها غيره؛ لم يرجع إلى قوله حتى يذكرها؛ وليس له أن يقلده. فإنه سبحانه قال: **﴿فَتَذَكِّرَ إحداهُما الأخرى﴾** ولم يقل: فتخبرها. وفيها قراءتان: التثقيل والتخفيف. والصحيح: أنهما بمعنى واحد من «الذِّكر».

وأبعد من قال: فيجعلها ذَكراً؛ لفظاً ومعنى. فإنه سبحانه جعل ذلك علة للضلال الذي هو ضد الذكر. فإذا ضلت أو نسيت؛ ذكرتها الأخرى فذكرت.

وقوله: **﴿أن تضل﴾** تقديره عند الكوفيين: لئلا تضلَّ إحداهما. ويطردون ذلك في كل ماجاء من هذا. كقوله: **﴿يبينُ الله لكم أن تضلُّوا﴾**[النساء: ١٧٦] ونحوه.

ويرد عليهم نصب قوله: **﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾** إذ يكون تقديره: لئلا تضل، ولئلا تذكر.

وقدّره البصريون بمصدر محذوف، وهو: الإرادة والكراهة والحذر، ونحوها.

فقالوا: يبين الله لكم أن تضلوا، أي: حذر أن تضلوا، وكراهة أن تضلوا ونحوه.

ويشكل عليهم هذا التقدير في قوله: ﴿**أن تضل إحداهما**﴾ فإنهم إن قدروه: كراهة أن تضل إحداهما؛ كان حكم المعطوف عليه ـ وهو: فتذكر ـ حكمه. فيكون مكروهاً، وإن قدروها: إرادة أن تضل إحداهما؛ كان الضلال مراداً.

والجواب عن هذا: أنه كلام محمول على معناه. والتقدير: أن تذكر إحداهما الأخرى؛ إن ضلت، وهذا مراد قطعاً. والله أعلم.

وقال شيخنا ابن تيمية رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿**فَإن لم يكونا رجلين فَرَجلٌ وامرأتانِ ممَّن ترضَوْنَ من الشُّهداء أن تضلَّ إحداهما فتذكِّرَ إحداهما الأخرى**﴾ [البقرة: ٢٨٢] فيه دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل؛ إنما هو لإذكار إحداهما الأخرى؛ إذا ضلت. وهذا إنما يكون فيما يكون فيه الضلال في العادة، وهو النسيان وعدم الضبط. وإلى هذا المعنى أشار النبي، ﷺ، حيث قال: «**أما نقصان عقلهن: فشهادة امرأتين بشهادة رجل**» فبين أن شطر شهادتهن؛ إنما هو لضعف العقل، لا لضعف الدين. فعلم بذلك؛ أن عدل النساء بمنزلة عدل الرجال. وإنما عقلها ينقص عنه. فما كان من الشهادات لا يخاف فيه الضلال في العادة؛ لم تكن فيه على نصف رجل، وما يقبل فيه شهادتهن منفردات؛ إنما هو أشياء تراها بعينها، أو تلمسها بيدها، أو تسمعها بأذنها من غير توقف على عقل: كالولادة والاستهلال، والارتضاع، والحيض، والعيوب تحت الثياب. فإن مثل هذا لا ينسى في العادة، ولا تحتاج معرفته إلى كمال عقل، كمعاني الأقوال التي تسمعها من الإقرار بالدين وغيره، فإن هذه معان معقولة، ويطول العهد بها في الجملة.

...[1]**والمنافع** التي يجب بذلها نوعان:

منها: ما هو حق المال، كما ذكرنا في الخيل، والإبل، والحلي.

ومنها: ما يجب لحاجة الناس.

وأيضاً: فإن بذل منافع البدن تجب عند الحاجة: كتعليم العلم، وإفتاء الناس، وأداء الشهادة، والحكم بينهم، وأداء الشهادة[2]، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي

---

(١) ٢٦١ الطرق الحكمية.

(٢) هكذا بالنسخة، ولعله تكرار. المراجع.

عن المنكر، وغير ذلك من منافع الأبدان.

وكذلك من أمكنه إنجاء إنسان من مهلكة؛ وجب عليه أن يخلصه، فإن ترك ذلك ـ مع قدرته عليه ـ؛ أثم، وضمنه.

فلا يمتنع وجوب بذل منافع الأموال للمحتاج، وقد قال تعالى: **﴿ولا يأبَ الشهداءُ إذا ما دُعُوا﴾** وقال: **﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أن يكتبَ كَمَا عَلَّمه الله﴾**

وللفقهاء في أخذ الجعل على الشهادة أربعة أقوال، وهي أربعة أوجه في مذهب أحمد: أحدها: أنه لا يجوز مطلقاً، والثاني: أنه يجوز عند الحاجة، والثالث: أنه لا يجوز إلا أن يتعين عليه، والرابع: أنه يجوز، فإن أخذه عند التحمل؛ لم يأخذه عند الأداء.

...(1)**الشهادة** المتعينة حق على الشاهد، يجب عليه القيام به، ويأثم بتركه. قال الله تعالى: **﴿وَلَا تَكتُموا الشهادةَ ومن يَكتُمْها فإنه آثمٌ قلبُه﴾** [البقرة: ٢٨٣] وقال تعالى: **﴿وَلَا يَأْبَ الشهداءُ إذا مَادُعوا﴾** [البقرة: ٢٨٢] وهل المراد به: إذا ما دعوا للتحمل، أو للأداء؟ على قولين للسلف، وهما روايتان عن أحمد، والصحيح: أن الآية تعمهما، فهي حق عليه(2)، يأثم بتركه ويتعرض للفسق والوعيد. ولكن ليست حقًا تصح الدعوي به، والتحليف عليه؛ لأن ذلك يعود على مقصودها بالإبطال؛ فإنه مستلزم: لاتهامه، والقدح فيه بالكتمان.

(3)**وعبارات** السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار قال مجاهد: حَكَمَ، وقضى. وقال الزجاج: بَيَّنَ.

وقالت طائفة: أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها؛ فإن «الشهادة» تتضمن: كلام الشاهد، وخبره، وقوله. وتتضمن: إعلامه، وإخباره، وبيانه. فلها أربع مراتب:

فأول مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يُعلم به غيره؛ بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها.

---

(1) ١٤٨ الطرق الحكمية.

(2) بالنسخة (حق له) والصواب ما أثبتناه. المراجع.

(3) ٤٥٠ مدارج جـ٣.

وثالثها: أن يُعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط؛ تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به.

قال الله تعالى: ﴿إلَّا مَن شَهِدَ بالحقِّ وَهم يَعلمون﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقال النبي، ﷺ: «**على مثلها فاشهد**» وأشار إلى الشمس.

وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به؛ فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة.

قال تعالى: ﴿قل: هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذينَ يَشهدونَ أَنَّ الله حَرَّم هذا. فإن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُم﴾ [الأنعام: ١٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَجَعلوا الملائِكَةَ الَّذينَ هُم عِبادُ الرَّحمن إناثاً. أَشهِدُوا خلقَهم؟ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهم وَيُسْئلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم.

قال النبي، ﷺ: «**عَدَلَتْ شهادةُ الزور الإشراك بالله**» وشهادة الزور هي قول الزور.

كما قال تعالى: ﴿وَاجتنبوا قولَ الزُّورِ. حُنفَاءَ لله غيرَ مُشركين به﴾ [الحج: ٣٠،٣١]

وعند نزول هذه الآية؛ قال رسول الله، ﷺ: «**عدلت شهادة الزور الإشراك بالله**» فسمى قول الزور شهادة، وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الذين آمنوا، كُونُوا قَوَّامينَ بالقسطِ شُهداءَ لله، وَلَو على أنفسكم﴾ [النساء: ١٣٥].

فشهادة المرء على نفسه: هي إقراره على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز الأسلمي: «فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله، ﷺ»، وقال تعالى: ﴿قَالُوا: شَهِدنا عَلى أنفسِنا. وَغَرَّتهمُ الحياةُ الدُّنيا. وَشَهِدُوا عَلى أنفسِهم أنَّهم كَانوا كافرين﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا ـ وأضعافه ـ يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره؛ لا يشترط في قبول شهادته؛ أن يتلفظ بلفظ الشهادة، كما هو مذهب مالك، وأهل المدينة، وظاهر كلام أحمد، ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك.

وقد قال ابن عباس: «شهد عندي رجال مرضيون ـ وأرضاهم عندي عمر ـ أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح؛ حتى تطلع الشمس، وبعد العصر؛ حتى تغرب الشمس».

ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة. والعشرة الذين شهد لهم رسول الله، ﷺ، بالجنة، لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة؛ بل قال: «**أبوبكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة**» الحديث.

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فقد دخل في الإسلام، وشهد شهادة الحق، ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة، وأنه قد دخل في قوله: «**حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله**»، وفي لفظ آخر: «**حتى يقولوا: لا إله إلا الله**» فدل على أن مجرد قولهم: «لا إله إلا الله» شهادة منهم.

وهذا أكثر من أن تذكر شواهده من الكتاب والسنة، فليس مع من اشترط لفظ الشهادة؛ دليل يعتمد عليه. والله أعلم.

...[1]**وقبول** شهادة العبد: هو موجب الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة، وصريح القياس، وأصول الشرع، وليس مع من ردها: كتاب ولا سنة، ولا إجماع، ولا قياس.

قال تعالى: ﴿**وَكَذلك جَعَلنَاكم أمةً وَسطاً لتكونوا شُهداءَ على النَّاسِ، وَيَكونَ الرَّسولُ عليكم شَهيداً**﴾ [البقرة: ١٤٣]. والوسط: العدل الخيار. ولا ريب في دخول العبد في هذا الخطاب. فهو عدل بنص القرآن. فدخل تحت قوله: ﴿**وأشهدُوا ذوى عدلٍ منكُم**﴾ [الطلاق: ٢].

وقال تعالى: ﴿**يأيُّها الذين آمنوا كُونوا قوَّامِينَ بالقسطِ شُهداءَ لله**﴾ [النساء: ١٣٥، المائدة: ٨][2] وهو من الذين آمنوا قطعاً؛ فيكون من الشهداء لذلك.

وقال تعالى: ﴿**وَاستشهدوا شَهيدينِ مِن رجالِكم**﴾ [البقرة: ٢٨٢] ولا ريب أن العبد من رجالنا.

---

(١) ١٦٦ الطرق الحكمية　　(٢) آية المائدة: ﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾.

وقال تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا وَعَمِلوُا الصَالِحَاتِ أولئك هُم خيرُ البريَّةِ﴾ [البينة: ٧] والعبد المؤمن الصالح من خير البرية؛ فكيف ترد شهادته؟ وقد عدّله الله ورسوله، كما في الحديث المعروف المرفوع: «**يحمل هذا العلم من كل خَلَف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**» والعبد يكون من حملة العلم، فهو عدل بنص الكتاب والسنة. وأجمع الناس على أنه مقبول الشهادة على رسول الله، ﷺ، إذا روى عنه الحديث، فكيف تقبل شهادته على رسول الله، ﷺ، ولا تقبل شهادته على واحد من الناس؟

...(١)**ثم** ذكر العادل(٢) في آية التداين فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تَدَايَنْتُمْ بدَيْنٍ﴾ [البقرة: ٢٨٢] الآية، ولولا أن هذه الآية تستدعي سفراً وحدها؛ لذكرت بعض تفسيرها، والغرض إنما هو التنبيه والإشارة.

وقد ذكر أيضاً العادل، وهو آخذ رأس ماله من غريمه لا بزيادة ولا نقصان.

ثم ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة، التي هي من كنز تحت عرشه، والشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام وأصول الإيمان ومقامات الإحسان؛ ما يستدعي بيانه؛ كتاباً مفرداً.

والمقصود ذكر طبقات الخلائق في الدار الآخرة. ولنعد إلى المقصود: فإن هذا من سعي القلم، ولعله أهم مما نحن بصدده: فهذه الطبقات الأربع من طبقات الأمة هم؛ أهل الإحسان والنفع المتعدى وهم: العلماء، وأئمة العدل، وأهل الجهاد، وأهل الصدقة وبذل الأموال في مرضاة الله. فهؤلاء ملوك الآخرة، وصحائف حسناتهم متزايدة، تملى فيها الحسنات وهم في بطون الأرض، مادامت آثارهم في الدنيا. فيالها من نعمة ما أجلها! وكرامة ما أعظمها! يختص الله بها من يشاء من عباده.

(٣)**ولما** نزل قوله تعالى: ﴿لله ما في السموات وَمَا في الأرضِ وَإنْ تُبْدُوا ما في

---

(١) ٣٧٨ طريق الهجرتين.

(٢) وهو القسم الثالث من أصحاب الأموال الثلاثة الذين ذكر أولهم، وهم (المحسنون المتصدقون) ص ٣٧٥ من طريق الهجرتين.

قلت: وقد سبق ذكرهم ص (٤٦٩ – ٤٧١) من هذا البحث. المراجع.

(٣) ٢٢١ مختصر الصواعق جـ١.

أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ [البقرة: ٢٨٤] أشكل ذلك على بعض الصحابة وظنوا أن ذلك من تكليفهم بما لا يطيقونه، فأمرهم، ﷺ، ان يقابلوا النص بالقبول. فبين الله سبحانه بعد ذلك: أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأنه لا يؤاخذهم بما نسوه أو اخطؤوا فيه، وأنه لا يحمل عليهم إصراً كما حمله على الذين من قبلهم، وأنه لا يحملهم مالا طاقة لهم به، وأنهم إن قصروا في بعض ما أمروا به أو نهوا عنه ثم استغفروا: عفا الله عنهم، وغفر لهم، ورحمهم. فانظر ماذا أعطاهم الله تعالى لما قابلوا خبره: بالرضى والتسليم، والقبول والانقياد، دون المعارضة والرد. . .

(١)**قال** سبحانه: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وعَلَيهَا مَا اكتَسَبَتْ**﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني: من السيئات؛ لأن الذنوب يوصل إليها بواسطة: الشهوة، والشيطان، والهوى، والحسنة تنال؛ بهبة الله من غير واسطة شهوة، ولا إغراء عدو. فهذا الفرق بينهما على ما قاله السهيلي.

وفيه فرق أحسن من هذا وهو: أن الاكتساب يستدعي التعمل والمحاولة والمعاناة؛ فلم يجعل على العبد؛ إلا ما كان من هذا القبيل الحاصل بسعيه ومعاناته وتعمله. وأما الكسب؛ فيحصل بأدنى ملابسة؛ حتى بالْهَمِّ بالحسنة، ونحو ذلك.

فخص الشر بالاكتساب والخير بأعم منه؛ ففي هذا مطابقة للحديث الصحيح: «**إذا هم عبدي بحسنةٍ فاكتبوها وإنْ هَمَّ بسيِّئة فلا تكتبوها**».

وأما حديث الواسطة وعدمها؛ فضعيف؛ لأن الخير أيضاً بواسطة: الرسول، والمَلَك، والإلهام، والتوفيق. فهذا في مقابلة وسائط الشر. فالفرق ما ذكرناه. والله أعلم.

(٢)**وفي** الصحيحين: عن أبي مسعود الأنصاري، عن النبي، ﷺ، قال: «**من قرأ بهاتين الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**».

الصحيح: أن معناها: كفتاه من شر ما يؤذيه، وقيل: كفتاه قيام الليل: وليس بشيء.

وقال علي بن أبي طالب: ما كنت أرى أحدًا يعقل، ينام قبل أن يقرأ الآيات الثلاث الأواخر من سورة البقرة.

---

(١) ٧٤ بدائع جـ٢. (٢) ٢٠٧ الوابل الصيب.

فهرس الضوء المنير على التفسير
المجـلـــد الأول

رقـم
الصحيفة الموضـــــــوع

٥ مقدمة المؤلــف
٦ ملاحظات حول إحالات ابن القيّم
٨ اعتذار عنه حول الإحالات
٩ طريقة المؤلف في الإحالة على الكتب
١٢ مقدمة في آداب قراءة القرآن
١٥ فائدة التأمل في القرآن
١٦ هدي الرسول ﷺ في سجود القرآن
٢٠ بحث في سجود الشكر
٢٢ تفسير الفاتحـة
٢٣ فصل في التوبة وفيه بحوث
٢٨ فصل في جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الألوهية
٣٠ فصل كل عمل أصله المحبة والإرادة الفرق بين الحمد والمدح
٣٣ الفرق بين الثناء والمجد وتقسيم هذه المعاني الأربعة
٣٤ قاعـــدة عظيمـــة القـــدر
٣٨ الفاتحة اشتملت على أمهات المطالب وفيه بحوث قيّمة
٤٤ ذكر الصراط معرفًا بتعريفين
٤٨ الصراط المستقيم هو صراط الله
٥٠ صراط الله قليل سالكوه
٥١ أجل المطالب سؤال الهداية من الله
٥٣ الفاتحة مشتملة على أنواع التوحيد
٥٦ دلالة الأسماء مبنية على أصلين
٥٧ نفي معاني أسماء الله إلحاد، والإلحاد أنواع
٥٩ اسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى
٦١ ارتباط الخلق والأمر بالأسماء الثلاثة : الله ، والرب ، والرحمن

٦٢ فصل في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد
٦٣ فصل في مراتب الهداية الخاصة والعامة ، وهي عشر مراتب
٧٤ فصل في اشتمال الفاتحة على الشفاءين : شفاء القلوب وشفاء الأبدان
٧٧ شهادة قواعد الطب
٨٠ في الفاتحة الرد على جميع المبطلين
٨١ الرد على الرافضة
٨٢ سر الخلق انتهى إلى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾
٨٨ قسم من له عبادة بلا استعانة
٩٠ انقسام الناس إلى أربعة أقسام
٩٦ منفعة العبادة ومقصودها
١٠١ العارفون بالله هم الطائفة الإبراهيمية
١٠٢ سر العبودية بمعرفة صفات الرب
١٠٤ قواعد ﴿إياك نعبد﴾ أربع
١٠٥ جميع الرسل دعوا إلى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾
١٠٥ العبودية وصف أكمل خلق الله
١٠٨ لزوم العبادة إلى الموت
١٠٨ العبودية خاصة وعامة
١١١ مراتب ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ علماً وعملاً
١١١ العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة
١١٢ ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فيها عشرون فائدة : اشتملت على علم عظيم

تفسير سورة البقـــرة

١٤٣ أعمال القلب والجوارح سبب الهداية والإضلال
١٤٥ ذكر الله ـ سبحانه ـ أن الكافرين مصرون على الكفر فعاقبهم . . إلخ
١٥٠ ذكر المنافقين وصفاتهم
١٥١ ذكر أمراض القلوب
١٥٣ الأمراض متولدة من الجهل ، ودواؤها
١٥٤ عود على صفات المنافقين
١٦٦ الهدى أربعة أقسام اشتملت عليها أول سورة البقرة
١٧٠ القسم الرابع : قوم يكتمون إيمانهم . . إلخ

١٧١ اشتمل المثالان على حكم عظيمة
١٧٢ ذهاب نور المنافقين يوم القيامة
١٧٤ فهم المعاد ومايجري فيه
١٧٦ سمى الله كتابه: روحًا، في عدة مواضع
١٧٧ وسماه نورًا .. إلخ
١٧٧ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ياأيها الناس اعبدوا ربكم﴾ الآيات، فيها إثبات الصانع وصفات كماله، وإثبات النبوة وغيرها
١٨٤ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ الآية: اشتملت على ما رزق أهل الجنة من النعيم
١٨٧ أهل هذه البشري: المؤمنون المتقون المخلصون
١٨٨ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إن الله لا يستحْيي﴾ الآية، فيها رد اعتراض الكفار والحكمة في ضرب الأمثال
١٩٠ قوله ـ تعالى ـ: ﴿كيف تكفرون بالله﴾ الآية فيها تقرير الإيمان بالله فيما خلقه وقدره
١٩١ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ إلى قوله: ﴿وماكنتم تكتمون﴾ فيها الجواب عن سؤالهم والحكمة في خلق آدم وذريته وفضله، وفضل العلم من وجوه
١٩٥ الحكمة في إبقاء إبليس إلى آخر الدهر
١٩٦ الحكمة في إخراج آدم من الجنة
٢٠٠ ذكر مناظرة عدو الله في شأن آدم
٢٠٣ كل من عارض النصوص فهو من حلفائه
٢٠٤ من اتبع هدى الله لا خوف عليه
٢٠٥ تلاوة القرآن تلاوة لفظه ومعناه
٢٠٦ هل يدخل مسلمو الجن الجنة
٢٠٩ أمر الله بالاستعانة بالصبر والصلاة وفوائد الصلاة في حفظ القلب والبدن
٢١٠ تلاعب الشيطان ببني إسرائيل
٢١٣ اختلاف الناس في الصابئة
٢١٤ تقسيم الأمم قبل مبعث النبي ﷺ
٢١٦ الأديان ستة واحد للرحمن وخمسة للشيطان
٢١٦ لما بعث ﷺ استجاب أكثر أهل الأديان
٢١٧ أمر الله بأخذ أوامره بالعزم والجد

٢١٨ قصة أصحاب السبت
٢٢٠ قصة القتيل الذي تدافعوا فيه
٢٢٣ تقسيم قول الله : ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ الآيات
٢٢٣ تفسير قول الله : ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة﴾
٢٢٤ تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم﴾ الآية
٢٢٤ تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم﴾ الآية
٢٢٥ تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ الآية
٢٢٦ تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾ الآية
٢٢٨ تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله﴾ الآية
٢٣٠ تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ الآية
٢٣١ تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ الآية
٢٣١ تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة خالصة﴾ الآية مناظرة ومعجزة
٢٣٤ تلاعب الشيطان ببني إسرائيل في حجرهم على الله في نسخ الشرائع
٢٣٦ التوطيئات لنسخ القبلة وسياق الآية الدالة على غش اليهود وخيانتهم وكذلك النصارى وبيان أن من تولى الكفار فهو منهم
٢٤٠ قول الله ـ تعالى ـ : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى﴾ الآية .
٢٤٢ بحث يعود على قول الله تعالى : ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾
٢٤٥ تفسير قول الله تعالى : ﴿وقالوا اتخذ الله ولدًا﴾ إلى قوله ﴿كن فيكون﴾
٢٤٩ البحث في الذرية وذكر الخلاف فيها
٢٥٢ ذكر خصائص إبراهيم خليل الله الكريم وذريته
٢٥٦ تفسير قول الله ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾ الآية ومابعدها
٢٥٨ حكمة الختان وفوائده
٢٦٠ خصال الفطرة
٢٦١ ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ الآيات . ذكر في طيها استطرادًا مفيدًا
٢٦٩ ذكر محاجة أهل الباطل للمسلمين ونصر الله لهم في أمر القبلة
٢٦٩ ذكر نظائر في عدة مسائل قيّمة جدًا
٢٧٢ ذكر أصناف المنكرين للقبلة
٢٧٣ ذكر أن قبلة اليهود وأتباعهم لا أصل لها في الشرع
٢٧٥ الحجة في كتاب الله نوعان . ثم عود على تفسير آيات ذكر القبلة

٢٧٧ تأريخ تحويل القبلة وذكر إمامة إبراهيم وفي ضمنه أن البيت إمام
٢٨٠ مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر ﴿**فاذكروني أذكركم**﴾ الآية
٢٨١ ذكر واجب الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٢٨١ الذكر عبودية القلب واللسان غير مؤقت وهو في القرآنعلى عشرة أوجه مفصلة
٢٨٣ بحث في قول الله تعالى: ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾
٢٨٥ الصبر في القرآن نحو سبعين موضعًا وهو واجب بالإجماع
٢٨٨ حد الصبر لغة وأنواعه الثلاثة
٢٨٩ علاج المصيبة بالصبر وفوائد في الدين والدنيا
٢٩٢ بحث في قول من قال: الصلاة من الله بمعنى الرحمة
٢٩٤ بحث في قول الله تعالى: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزل الله**﴾ الآيات
٢٩٤ بحث في قول الله تعالى: ﴿**ومن الناس من يتخد من دون الله أندادًا**﴾ الآيات
٢٩٩ أنواع المحبة وخاتمة البحث فيها
٣٠٤ قوله تعالى ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله**﴾ الآية. مناظرة بين الكفار والمسلمين
٣٠٥ قوله تعالى ﴿**ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق**﴾ الآية
٣٠٦ قوله تعالى: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**﴾ الآية
٣٠٦ الرد على المعترض على شرعية القصاص، بحث موسع
٣١٦ الرد على المعترض على شرعية حد السارق والزاني وتنصيف الحد على الرقيق
٣١٩ البحث في الجنايات الثلاث على الأنفس والأموال والأعراض
٣٢٣ قاعدة الشريعة لا يجوز هدمها ودلائل هذه القاعدة
٣٢٥ شروط الواقفين أربعة أقسام، الضرار نوعان
٣٢٧ الإنكار على من أفتى بغير الشرع أو وصّى خلاف الشرع
٣٣٠ بحث الصيام وتفسير الآيات الواردة فيه، والحكمة منه
٣٣١ هديه ﷺ الإكثار من العبادات في الصيام
٣٣٤ بحث في قوله تعالى ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾
٣٣٤ بحث عن مرض الأبدان والأشياء التي يؤذى انحباسها والحمية، وأصول الطب
٣٣٦ الأشياء المفطرة وغير المفطرة
٣٣٨ وقت الإفطار والدعاء عنده
٣٣٩ حكم الصيام في السفر وأسباب الفطر
٣٤١ تنازع الناس في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في الصفات

٣٤٢ بحث في قوله ﴿الآن باشروهن﴾
٣٤٣ هديه ﷺ في الاعتكاف وأحكامه
٣٤٦ بحث في قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾
٣٤٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾
٣٤٨ بحث في قوله تعالى: ﴿واتموا الحج والعمرة لله﴾
٣٤٩ هديه ﷺ في حجه وعمره والاختلاف في عدد عمره ووقتها
٣٥٥ حكم حلق الرأس وأنواعه وماابتدع فيه
٣٥٨ بحث في قوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾
٣٥٩ حكم الحج والعمرة للنساء وحكم فسخ نية الحج إلى العمرة
٣٦٣ بحث حول العمرة المكية وحكم رمي الجمرة الأولى ووقتها
٣٦٦ هديه ﷺ في الوقوف عند المشعر الحرام والندب إلى كثرة ذكر الله
٣٦٧ مواطن النحر وحكم البناء بمنى
٣٦٨ بحث في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ الآية
٣٦٨ بحث في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾
الآية وفيها حكم وأسرار
٣٧٢ المحبوب قسمان: محبوب لنفسه ومحبوب لغيره
٣٧٣ يجوز للمفتي أن يعدل عن الجواب إلى ماهو أنفع للمستفتي
٣٧٤ ذكر قصة سرية عبدالله بن جحش ومانزل فيها من قرآنوإيضاح موارد الفتنة
٣٧٩ بحث في قوله الله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا﴾ الآية وحكم الجهاد والهجرة
٣٨٠ الفرق بين الرجاء والتمني
٣٨١ بحث في قول الله تعالى: ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ وبحث خلطة اليتامى
٣٨٢ بحث في أحكام الحيض في القرآن وأحكام الوطء
٣٨٥ بحث في أحكام الأيمان وحكم طلاق المكره والسكران
٣٨٩ بحث في أحكام الإيلاء ومدة التربص وحكم مجامعة الرجل لزوجته
٣٩٣ بحث أحكام الخطبة قبل انتهاء العدة وذكر ختم الآياتبأسماء الله وفائدتها
٣٩٥ تقسيم الألفاظ إلى صريح وكناية واختلافه باختلاف الأشخاص.. إلخ
٣٩٦ حكم الطلاق ووقته وحكم الطلاق الثلاث مجموعة وذكر الخلاف فيها
٤٠٢ ذكر حكم الفدية في الخلع برضاهما والخلاف إذا تم الخلع هل له رجعة برضاهما
٤٠٦ حكم التحليل المحرم والجائز وحكم العضل من الزوج

٤٠٩ حكم تفريق الشرع بين عدة الموت والطلاق وغيرهما، والجواب عنه بوضوح
٤١٦ الحكمة في منع نكاح المطلقة ثلاثا حتى تنكح زوجا غيرهوذكر الفرق بين شريعة الإسلام والتوراة والإنجيل
٤١٨ ذكر حكم الله في العدد بتفصيل
٤٢٤ البحث في الأقراء هل هي الحيض أو الأطهار
٤٢٧ حكم النفقات على الزوجات والأقارب
٤٣٢ بحث أي القيام والسجود أفضل. بحث القنوت
٤٣٤ معاني العزة واستلزامها الوحدانية
٤٣٤ بحث السكينة وأصلها وماهي ؟
٤٣٧ بحث في الصبر والثناء على أهله
٤٣٨ ماورد في آية الكرسي وبحث في قول الله تعالى ﴿لا إكراه في الدين﴾ وتقدم البحث في ص٢١٦
٤٤٠ بحث في قول الله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾
٤٤٣ بحث في قول الله تعالى ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ الآية
٤٤٤ بحث في قول الله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ الآية ومابعدها
٤٤٦ بحث مايعرض للأعمال الصالحة فيبطلها . . إلخ
٤٤٧ بحث من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله ومضاعفته
٤٤٨ المقصود في الزكاة أمور عديدة
٤٤٩ الحث على إخراج الطيب من الكسب ومما أخرج الله من الأرض
٤٥٠ بحث في مطالعة أصول النعم وما لله على أوليائه منها
بحث مقادير الزكاة على أكمل الوجوه وأنفعها وتناسبها
٤٥٤ بحث حول ما يأمر الله به من إخراج الزكاة وما وعد به من الأجر والفضل
٤٥٥ بحث يدور على فضل الحكمة وخيريتها والامتنان بهاوأنواعها والخلاف فيها
٤٥٧ بحث حول مستحقي الزكاة والوعد لمخرج الزكاة بالمغفرة وتكفير السيئات
٤٦١ ذكر الله أحكام الناس في الأموال ثلاثة: عدل وظلم وفضل
٤٦٢ العقل تحت حجر الشرع فيما يأمر به وفيما يحكم به
٤٦٣ بحث معارضي الشرع تبعًا لقائدهم إبليس لعنه الله
٤٦٤ السابعة أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس
٤٦٥ بحث حول طلب الله القرض من عباده لمصلحتهم في الربح عليه
٤٦٧ المن نوعان: من بالقلب ومن باللسان والله حرم المن واختص به نفسه . . إلخ

٤٦٨ المن معارضة من المانّ لمعطي الفضل في الحقيقة ومحبط للعمل
٤٧٠ بحث في قول الله ﴿قول معروف ومغفرة﴾ والخلاف في ذلك
٤٧٢ تمثيل المنفق في مرضاة الله بالجنة كثيرة الأشجار والثمار
٤٧٣ الخلاف في الضعفين
٤٧٤ بحث في قول الله ﴿أيود أحدكم﴾ الآية. والخلاف في هل النخل أفضل أم العنب أفضل؟
٤٧٧ بحث في قول الله ﴿أنفقوا من طيبات ماكسبتم﴾ الآية . والتحذير من طاعة الشيطان
٤٨٠ ذكر أقسام الأغنياء ومجمل البحوث في آيات الإنفاق استعراض مفيد
٤٨٣ استعراض آيات النهي عن الربا والتحذير منه
٤٨٤ بحث آية المداينة في إرشاد الله لعباده بطرق حفظ حقوقهم
٤٨٥ ذكر البينة ونصاب الشهادات
٤٨٧ السياسة نوعان : عادلة وظالمة
٤٨٨ البينة اسم لكل مايبين الحق شهود وقرائن ومدح الفراسة
٤٨٩ طرق الحكم والبحث حول قول الله ـ تعالى ـ: ﴿أن تضل إحداهما﴾ الآية
٤٩١ المنافع التي يجب بذلها نوعان :
٤٩٢ الخلاف في أخذ الجعل على الشهادة
٤٩٢ مدار لفظ شهد على الحكم والقضاء والإعلام والبيان. . إلخ
٤٩٤ قبول شهادة العبد وأدلة ذلك
٤٩٥ ذكر فضل خاتمة سورة البقرة

انتهى فهرس المجلد الأول